في معية الرسول ﷺ

في القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م



١٧أ شارع فريد سميكة - مصر الجديدة - أمام نادى الشمس
تليفون وفاكس: ٢٢٤١٥٨١٦-٢٢٤٠٤٨٦٨
٢٦٤٣٢٤٨٨ - ٠١٠١٦٣٣٧١٨
E_mail:shoroukintl@hotmail.com>
shoroukintl@yahoo.com>

في معية الرسول ﷺ في القرآن الكريم

السفير
محمد أمين جبر

مكتبة الشروق الدولية

رقم الإيداع ٢١٤٣٣ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى 978-977-701-033-7

الفهرس



الإهداء

إليك يا سيدى يا رسول الله



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس هذا كتابًا فى السيرة النبوية، ولاهو متخصص فى تفسير القرآن الكريم، ولم يكن هدفى حين شرعت فى كتابته أن يكون كذلك. وإنما هو كتاب فيه كلمات تطوى الزمان طيًّا، ليحيا من يقرؤها بحاضره وقد طوى الزمان فى الماضى، ليصبح حاضرًا حيًّا يؤثر فى نمط الحياة الذى يحياه بتأثير إيجابى، ويظل بهذا الربط بين الماضى والحاضر، أساسًا للثبات على الحق فى الحاضر، واستمرارًا لهذا الثبات فى كل لحظة من لحظات الزمان المستقبلى. ذلك أن الحياة فى معية الرسول ﷺ لا تعرف فوارق البعد الزمانى؛ إذ إن الحياة فى هذه المعية الشريفة هى نمط سلوك، وأسلوب فكر لكل فرد فى كل عصر لديه تطلع إلى قدوة مات هيكلها حين أدركه الموت كسائر الأحياء الذين يدركهم الموت، ولكنها بقيت حية بحياة الكتاب الذى حوى أكثر- إن لم يكن كل- الجوانب المتصلة بهذه القدوة، متمثلة فى محمد رسول الله وخاتم النبيين.

فالرسول ﷺ ليس شخصية عادية تنتهى أضواؤها بانتهاء حياتها، وإنما هو شخصية تستمد حقيقة الدوام والاستمرارية من حيث اختلاطها بالقرآن الذى نزل على القلب منها ليقوم بتبلغيه للعالمين.

وقد ترك الرسول ﷺ فينا- نحن المسلمين- القرآن حيًّا ينبض بكل أسباب الحياة الحقيقية من حيث هو روح يمد الأرواح، ونور يهدى القلوب، وآيات يستنير بها الفكر والعقل. لقد أفاض القرآن على هذه الشخصية أسمى معانى الحياة الحقيقية المستمرة حين جعل من هذا الرسول أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وهما حقيقتان خالدتان؛ لأن الله تبارك وتعالى حى باق. واليوم الآخر باقٍ فى الزمان بقاء الدوام والخلود. وكل إنسان عاقل يتطلع إلى الله على الدوام والاستمرار، ويخشى ذلك اليوم الذى تشيب من أهواله الولدان، لا بد أن يتطلع إلى الرسول ﷺ ليتخذه أسوة حسنة فى كل شئون حياته، وإلى القرآن ليتدبر آياته آية آية، ليرى أى الآيات تتحدث عن هذا الرسول، وعن علاقة أحداث الدعوة بشخصه، وبأحداث الأرض فى تلك الحقبة من

الزمان التى عاشها الرسول ﷺ بشخصه البشرى. من هنا فإن الحياة فى معية الرسول هى فى الحقيقة حياة فى معية القرآن الكريم بالفهم والتدبر، والشعور والإحساس، والمحبة والاتباع، والتقدير لله ولشخص رسوله الذى اختاره خاتمًا للرسل، وأهَّله بخصائص تمكِّنه من أداء الرسالة وتبليغها وتمثيلها فى أخلاقياته وسلوكه الشخصى فى الحياة الدنيا.

ولقد كان من الطبيعى أن تختلط شخصية الرسول بمضمون الرسالة، وأن يكون الكلام الربانى مقترنًا بهذه الشخصية أشد الاقتران، حتى لنكاد نلمس ذلك فى أكثر القضايا أهمية، وهى قضية الإيمان بصدق وكمال الكتاب القرآنى ومصدره الربانى، إلى جانب سائر كلمات الإله التى أبلغها للأنبياء السابقين بالمعنى، وهو ما يظهر فى سورة البقرة ظهورًا جليًّا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...﴿٤﴾ ﴾، وأيضًا: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾، وكان هذا الخطاب موجهًا إلى الكفار.

وقد جاء فى نفس السورة خطاب إلى أصحاب التوراة والإنجيل يصف النفسية التى يتعامل بها هؤلاء مع قرآن الله ومع رسول الله ﷺ: أما تعاملهم مع قرآن الله فيظهر فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾. وأما مع رسول الله ﷺ فيظهر فى قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾. ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وقد ظهر الترابط بين الرسول ﷺ و الرسالة أيضًا فى حقيقة «الذكر»، فالقرآن ذكر وتذكير ومُذكِّر.. والرسول أرسل بالذكر تذكيرًا ومذكِّرًا: ﴿ ...فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴿١١﴾ ﴾ [الطلاق: ١٠،١١] فبذكر القرآن يتم ذكر الله وتذكر رسول الله، ومن رأى أو اقتدى برسول الله تذكر الله و الذكر القرآنى.

ومن أبرز الخصائص القرآنية للرسول ﷺ خاصية إقرانه بالله- تبارك وتعالى- في كثير من الأمور، وخاصة فيما يتعلق بالإيمان بالله وطاعة الله. فلا يعتبر مسلمًا عند الله إلا من يشهد بوحدة الألوهية و اصطفاء محمد خاتمًا للرسل. فالشهادة في الإسلام أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ولم تتقرر هذه الحقيقة للناس فجأة، بل كانت واضحة بصفة خاصة في وحي الرسالتين اللتين سبقتا الرسالة القرآنية؛ التوراة والإنجيل. بشَّر موسى عليه السلام بمحمد، وبشَّر عيسى عليه السلام بمحمد، ونزل ذلك في وضوح في كتاب موسى «التوراة» وكتاب عيسى «الإنجيل» وذكر لنا القرآن ذلك صراحة في عدة تقريرات نذكر منها:

١- ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢- ﴿ ... وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

٣- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ... ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٤- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الصف: ٦].

كما كان ذكره ﷺ واردًا لجميع النبيين من قبل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولذلك كان الإيمان بالله وما نزل من القرآن على الرسول ﷺ مقترناً بالضرورة بالإيمان بالأنبياء والرسل الذين سبقوا الرسول الخاتم عبر تاريخ الإنسان في الأرض، وهي الحقيقة التي يبينها القرآن في التقرير التالي: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وكل هؤلاء نادوا بالإسلام لله الواحد الأحد، والقرآن هو المظهر الخاتم الكامل لحقيقة الإسلام الأبدية التي هي جوهر كل الدين ولبه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ...﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣]. وفي أمر الطاعة اقترن الرسول بالمرسل، وفي المحبة وفي الاتباع أو الاستجابة لحكمه وقضائه القرآني، وفي غير ذلك من الأمور، كما يتضح من هذه المختارات من القرآن التي توضح ما نقوله:

١- ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ ...﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

٢- ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣- ﴿ ...أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩].

٤- ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ...﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١].

٥- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

٦- ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ...﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كذلك النعيم والعذاب متصلان بهذا الرسول والإيمان به وبرسالته وطاعته واتباعه، وهذان تقريران من القرآن يوضحان ما نقول:

١- ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح: ١٧].

٢-﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح: ١٣].

إن الحديث عن الظاهرة المحمدية يقترن بالضرورة بالحديث عن الظاهرة القرآنية كما رأينا. والذين عاشوا حياتهم غافلين عن الظاهرة القرآنية لا يدركون أن حياتهم قد فرغت في مضمونها من أي قيمة حقيقية؛ لأن القيمة الحقيقية لحياة أي فرد من الإنسانية هي في مدى اتصاله عن قرب بهذه الظاهرة القرآنية، ذلك أن حياة الفرد لا تتكرر في الزمان، فالموت ما زال -ولن يزال- حقيقة حتمية لم ولن يتغلب عليها الإنسان رغم كل المحاولات المبذولة لإطالة أعمار الناس.

والظاهرة القرآنية ظاهرة لا تتكرر لا في الشكل ولا في المضمون وإن كانت مستمرة في الزمان لا يدركها الموت الذي يدرك الإنسان. ومن هنا فإن بقاء الظاهرة القرآنية أمر يدركه الإنسان في نوعه الممتد في الوجود، وهي ظاهرة لا يحتكرها جيل بعينه من الأجيال البشرية المتعاقبة. فالأجيال الإنسانية تتعاقب في تطور مترقي للمعرفة بينما تظل الظاهرة القرآنية في الأفق الأعلى للمعرفة، تتجدد تفسيراتها بتجدد الخلق الجديد، والفيض المديد على الإنسان في نشاطه الفكري النظري والتجريبي. ويمكنه أن يدرك عبر أجياله قيمة هذه الظاهرة من حيث احتواؤها على الحق المطلق كما هو مسجل في الكون، وكل من فيه وما فيه تحت قيومية الإله تنزه وتعالى.

وقد اقتضى كمال هذه الظاهرة وضرورة تبليغها للإنسان على نفس وجهها من الكمال والاكتمال، اقتضى ذلك أن يكون محمد أميًّا لا يقرأ ولا يكتب. فبذلك فقط يكون فكره ويكون قلبه ويكون عقله وتكون روحه صحيفة بيضاء تمامًا ليخط الله فيها ما يشاء من آيات القرآن العظيم بلا أي تداخل من أي مصدر أو مضمون مغاير لهذه الآيات. فالإنزال بالوحي والتلقي للوحي يقتضي وجود وسيط لا يشغله أي كلام يشوش على وعاء التلقي، وهو ما يبينه القرآن ذاته في تقريره التالي: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فأميّة الرسول ﷺ كانت ضرورة لازمة للتخلى القلبى -أى :الفكرى الكامل- للمتلقى لكلام الله، كما أنها ضرورة لازمة للتحلى القلبى والفكرى الكامل بما يتلقى من كلام الله، ليكون المختار من الإنسانية لإبلاغ كلام الله القرآنى بالبيان العربى، صاحب وعاء فى الظاهر والباطن موصول مباشرة بالله تبارك وتعالى، يحمل من المؤهلات والخصائص الروحية ما يجعله أهلًا لهذا الاصطفاء لتحمل مضمون الرسالة والتخلق بها ثم إبلاغها للناس كافة.

بعبارة مبسّطة نقول: إن جهاز الاستقبال عند الرسول وهو القلب أو الفؤاد كان ينبغى أن يكون خالصا تمامًا من كل تداخل يشوش عليه الإرسال الموحى به إليه من الله تبارك وتعالى على موجة الذبذبة الروحية الجبريلية. كان لا بد من فصل جهاز التلقى عن أى عارض يتداخل مع الرسالة من الخارج أو من داخل الرسول ذاته.

ومن هنا كان سر المعجزة وسر التحدى بالمعجزة لأى إنسان أو أى كائن حى من غير النوع الإنسانى أن يأتى بمثل كلام الله. لقد جاء النبى الأمى محمد ﷺ بهذا القدر الهائل من المعارف فى مستواها الكامل المتكامل باعتبار محتواها الكتابى هو آخر كلمة من الإله للإنسان بل لكل العالمين، ملقيًا عبء النشاط الفكرى العقلى والروحى على الإنسان ذاته ليجتهد بالترقى فى المعارف إلى الدرجة التى يمكن معها للراسخين فى المعرفة والعلم أن يتبينوا الحق فى القرآن من خلال ترقى المعارف المتصلة بالخلق الكونى والنفسى.

لقد كان محمد ﷺ عظيمًا بقدر عظمة القرآن ذاته، ولم يكن محمد مجرد وسيط مبلغ لحقائق القرآن، وإنما كان على نفس مستوى هذا القرآن فى حفظ آياته واستيعاب معانيه وتمثل مبادئه وأهدافه، وتطبيق منهاجه وشريعته، والتحلى بقيمه وأخلاقه حتى وصفه الإله العظيم بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] ويفسرها البعض على معنى إضافة «خلق» إلى «عظيم» ليصبح محمد ﷺ على أخلاق الله أو أخلاق القرآن ذاته، وكلاهما عظيم. وليس غريبًا والنبى على هذا المستوى من الامتزاج بالوحى القرآنى أن تصفه أقرب الناس إليه لسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق -رضى الله عنهما- فتقول عنه ﷺ إنه «كان خلقه القرآن».

لقد جاء القرآن بحقائق الوجود الكلية -مفصَّلة أحيانًا- ليفتح المجال أمام الفكر

والبحث بالتجريد والنظر والتجريب والاستنتاج والاستنباط والتفسير والتأويل... إلخ. وجاء متناسقًا مع أحداث هذا الوجود؛ سواء الطبيعية فى الكون، أو الاجتماعية فى حياة البشر. ونحن بشر، وصلتنا بالقرآن تنبع من هذه الحقيقة التى من أجلها كان محمد بشرًا رسولًا. كما أن القرآن يخاطب أساسًا المجتمعات البشرية من أجل تقدمها وتحقيق نموها وازدهارها الحضارى المنعكس على حياتها المعيشية ومن خلال ربط هذه المجتمعات فى رباط من التعاون من أجل رفاهية شعوبها: ﴿...وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ...﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] على أساس من الأخلاق الفاضلة القائمة على الإيمان بالله، ترتبط بهما معانى الأخوة والمحبة والسلام والحرية والمساواة، ليكون تميز البشر على هذه الأسس: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]. ومن هنا يجىء دور الرسول العالمى وهو يحمل أمانة تبليغ هذه المبادئ والمعانى إلى البشرية كلها، بالتذكير النظرى وبضرب الأسوة فى السلوك الفردى والاجتماعى طوال فترة حياته الممتدة على الأرض.

إن هذه المعانى القرآنية التى تلقى أضواء على شخصية الرسول -على قدر فهمنا لهذه المعانى المبينة لهذه الشخصية الفريدة- ليس مقصودًا منها مجرد القصص النظرى أو التفخيم غير ذى الأثر؛ إذ كما تختلط شخصية الرسول بالقرآن فإن هذه الشخصية تختلط بالفرد وبالمجتمع الذى يتفاعل مع هذه الشخصية فى اقتداء وتأسٍّ. يوضح حقيقته القرآن حين يقرر بالنسبة للسلوك والتربية والتعليم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]

فالبيان القرآنى بالنسبة لبيان شخصية الرسول هدفه بيان السمو فى هذه الشخصية لينعكس ذلك فى حياة الإنسان فردًا كان أو فى أسرة أو فى مجتمع، وليقتبس من جوانب هذه الشخصية ما يستطيع أن يقتدى به فى العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات.

وإذا كان الرسول ﷺ قد جاء رحمة للعالمين كما يقرر القرآن، فإن معانى هذه الرحمة لها تركيز خاص لدى أولئك الذين آمنوا به وبرسالته، واختلطت أنوار معانيه

بوجودهم ذاته فى الفكر والشعور والسلوك، وفى مقدمتهم ذلك الجيل الأول من الصحابة الذين عاشوا معه وعاش معهم، أثر فيهم فتأثروا به، هاجروا إلى الله وإليه، أحبهم وأحبوه، التفوا حوله بما فى شخصه من الرحمة واللين والسماحة والطيبة.

لقد تميّز الرسول بخصائص فريدة وطاقات غير عادية من القوة الروحية والأخلاقية جعلته أهلًا لأن يتلقى كلام الله: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النجم: ٥-٩] أى أدنى شهودًا فى مقام غشيته أنوار غير أنوار الكون النجمية الأصل أو الكهربية التى تعجز أمام قوتها قدرات البشر العاديين، أنوار ربانية استطاع الروح المحمدى النورانى أن يتحملها دون أن يزيغ البصر أو أن يطغى.

لقد غفل عن هذا النور الروحى المحمدى كثير من الناس، وفطن إليه بعضٌ من الناس، رأوا أنوار الرسول ﷺ وقد امتزجت بأنوار القرآن، وتخطوا حواجز المكان فى أرض شبه الجزيرة العربية كما تخطوا حواجز الزمان لثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا كانت هى فقط حياة الرسول فى الدعوة التى قضاها أساسًا بين مكة والمدينة فى تلك الحقبة من التاريخ الإنسانى فى الأرض، وقد أصبح القرآن فى صدورهم آيات بينات، ويعلم الراسخون فى العلم منهم تأويله، ويدركون فى كل عصر من عصور البشرية فى الأرض عبر تطورها الفكرى ونمو معارفها وعلومها وتطبيقاتها، وعبر حضارات الإنسان فى الأرض، يدركون عناصر الإعجاز والعظمة فى هذ القرآن، وعناصر الهداية والحق فى هذا القرآن، وعناصر التقدم والخير فى هذا القرآن، وعناصر الطاقة والبناء فى هذا القرآن، وعناصر الحرية والكرامة والإخاء والسلام فى هذا القرآن.

إن الذين ينظرون إلى رسول الله ﷺ فلا يرون إلا ذلك الهيكل البشرى الذى كان يعيش فى الصحراء ويركب الإبل ويسكن الخيام وينزل المنازل البُدَائية ويأكل الطعام العادى ويمشى فى الأسواق للتجارة متدثّرًا بدثار الأمية، هم محجوبون عن رؤية النور المحمدى الحقيقى، نور الرسول فى حقيقته الروحية، ونوره فى أخلاقه، ونوره فى رجاحة عقله وفكره، ونوره من حيث حمله لكلام الله، ونوره من حيث تخلقه بأخلاق كلام الله وتدبّره لمعانى كلام الله مشهودة لديه وحدة الحق فى الكون

وفـــى النفس فى ظل تطابقها مع آيات كلام اللــه ممتزجًا بذلك النور القرآنى مع النور المحمدى، والروح القرآنى مع الروح المحمدى، ليسطع فى هذه الليلة العالية القدر فى الزمان، ويسطع فى هذا البيت المعمور من قلب الرسول فى المكان، نور الحق القرآنى موصولًا بنور الاسم الجامع، الله نور السماوات والأرض؛ أى الكون كله.ويراه الرسول ﷺ فى الخلوة المعراجية الكبرى عند ســدرة المنتهى والتى اتسعت فيها ذات الرسول الروحية النورانية اتســاعًا تجاوز فيه أنوار السدرة والأبعاد المعروفة فى الكون التى يتعامل معها الإنسان العادى، ورأى الآية الكبرى من آيات الله سبحانه وتعالى.

لقد تناول شخصية الرسول ﷺ بالكتابة أناس كثيرون: كتب بعضهم فى السيرة، وكتــب بعضهم فى طفولته وصباه، وكتب بعضهــم فى خصائصه، وكتب بعضهم فى عبقريتــه، وكتب بعضهم فــى حياته، وكتــب بعضهم فى صفاته، وكتــب بعضهم فى أخلاقــه، وكتب بعضهم فى حياتــه الروحية وخصائصها، وكتــب بعضهم فى صفاته القيادية، وكتب بعضهم فى مديحه نظمًا ونثرًا... وذلك كله وأكثر منه يجمعه الرسول ﷺ فى شخصيته العظيمة.

ولقــد رأيت أن أتناول الرســول ﷺ فى حديث يجد أصوله فى كتــاب الله تعالى، ودفعنى إلى ذلك حبى الشــديد لله ولرســوله ولكتاب الله ســبحانه وتعالى، فســميته: «فى معية الرســول فى القرآن» أســأل الله ســبحانه وتعالى أن يكــون فيه إضافة من خــلال فهمى المتواضــع لآيات الكتاب التى تناولت الرســول ﷺ، حتــى يعم النفع به كل المســلمين وغير المســلمين أيضًا. ويكفى الرســول تكريمًا من جانــب الإله تبارك وتعالى أنه اختير بالاصطفاء ليحمل الرسالة الخاتمة التى أوحى الإله بها إلى هذا الفرد المختــار قرآنًــا عربيًّا غير ذى عــوج، يجمع الحق فى طياته، ويضع الموازين القســط للناس، ليهتدوا بنوره فى كل ظلمة من ظلمات الموضوعات والمسائل التى ألقى عليها هذا الكتاب ضوءًا من نوره، وطاقة من روحه، ونموذجًا من هديه، وكلّف الرسول بأن يستمســك بهذا الذى أوحى إليه على أســاس أنه الحق المبين وأنه يدعو إلى صراط الله العزيز الحميد.

هذا الإنسان الذى قدّر له أن يعيش فى إطار هذا الكوكب قبل أن تلحق بالحضارات المعاصرة ســاعة انهيارها ولحظة دمارها. وبقدر عظمة هذا القرآن كانت عظمة الفرد

المختار من النوع البشرى لإبلاغ هذا القرآن وقراءته على الناس على مكث؛ ذلك أننا إذا أخذنا فى الاعتبار المصدر الربانى لهذا القرآن اسـتطعنا أن ندرك سـر العظمة الكامن فى شـخص هذا الرسول الذى كرّمه القرآن فى كثير من تقريراته، وبيّن قدره العظيم، وأدب مخاطبتـه والتعامل معه، وليس أصدق من القـرآن قيلًا فى الإحاطة بعظمة هذا الرسول، وحقيقة دوره الذى كلّف بأدائه إزاء النوع البشرى، وغير هذا النوع من أنواع المخلوقـات العاقلة الواعية الأخرى التى لا تعيش فى نفس ذبذبتنا الضوئية التى نرى من خلالها الحقائق المحيطة بنا فى الكون كله.

وقـد اقتصـرت فى هذا الحديث عن الرسـول ﷺ فى القرآن علـى الآيات القرآنية المتصلة اتصالًا مباشـرًا وعميقًا بشـخصية الرسـول بالقدر الذى أظنـه يضيف فهمًا جديدًا، ومن خلال مقدرتى وطاقتى ذاتها، وهما لا شـك محدودتان. بهذا أسـتطيع أن أقول: إننى أكتب بفهم لما قال الله عن الرسـول فى كتابه، وأصفه بفهم لما وصفه الله بـه فى كتابه، وأمتدحه بما مدحه الله به، وأُثنِـى عليه بما أَثنى الله عليه به، ورحم الله أستاذنا الإمام محمد ماضى أبو العزائم حين قال:

على قدرى أصوغ لك المديحا ومدحك صاغه ربى صريحا
ومن أنا يا إمام الرسل حتى أوفّيَ قدرك السامى شروحا
ولكنى أحبـك ملء قلبـى فأَسْعِدْ بالوصال فتى جريحا
وداوى بالوصال فتى معنّى يروم القرب منك ليسـتريحا

وأى تعظيم لهذا الرسول أكبر من تعظيم الله له؟.. وأى أوصاف للرسول تعلو ما وصفه الله به؟.. وأى مديح للرسـول يعلو ما امتدحه الله به؟.. وأى ثناء على الرسـول أبلغ من الثناء الذى أثنى الله عليه به؟..

لقد رأيت رسول الله ﷺ فى الرؤيا المنامية ثلاث مرات. **المرة الأولى** كان هوﷺ الإمـام فى صلاة جماعية لمجموعتين من المصلين أبلّغ أنا من ورائه لهما، ولما انتهت الصلاة تقدّمت خطوات إليه فاستدار وضمنى لصدره الحبيب برحمته الأبوية النبوية. وفـى **المـرة الثانية** دار حديث بيننا فى شـكل سـؤال منى وجواب مـن حضرته عن غربة الإسـلام، وكان ﷺ فى ثياب ناصعة البياض، ثم وجه إلىّ حديثه باسمى «أمين» وأهدانى نعليه هدية منه إلى. وفى **المرة الثالثة** رأيته فى سـراجيته النورية الشـاملة كالشمس تعمّ بالضياء الذى تحمله بصرى.

وما كان لمثلى أن يحاول الكتابة عن شـخص الرسـول ﷺ لولا حبى الشديد جدا لحضرتـه وتثبيتـى وثباتى بما وفيما رأيـت فى الرؤيا له ومنـه ﷺ. ولقد كتبت هذه الكلمـات عنه ﷺ مما اخترته من نصوص القرآن التى تناولت شـخصه، وذلك بالطبع علـى قـدر فهمى لمعانى هذه الآيات التـى ربما وجد فيها غيرى أكثـر مما هدتنى إليه بصيرتـى وهدانى إليـه فهمى. وكل ما أرجـوه لهذه المحاولة أن أكـون قد وفّقت فى إبراز بعض الجوانب المتصلة بشـخصية الرسـول من خلال النص القرآنى المنزّل من عنـد الله تبارك وتعالى حتى أتبصّر ويتبصّر معى القارئ فى البيان الإلهى عن مختار الله من الإنسانية كلّها خاتمًا للرسل، كما أرجو أن أكون بهذا الحديث قد أضفت الجديد من المعانى إلى الإنسان الذى يتطلع إليه المسلمون فى هذا القرن من الزمان-وفى كل الزمان والمكان- بالإجلال والإكبار، لنقتبس من خصائصه وأخلاقه ومن سـيرته ومن دعوته ومن سـراجيته قبسًـا يضيء لنا معالم الطريق فى حياتنا التى نفتقد فيها هذه القـدوة، والتـى يمكننا مع ذلك أن نحيا فى معيتها عن طريـق توافُر أوصاف أصحاب المعية، مسـتظلين بظلها فى إطار اعتقادنا القوى الراسخ بالإيمان بفائدة هذا الاقتداء الذى لم يملأ فراغ وجوده أى فرد من الإنسانية من بعده.

إلى حضرته نتطلع، وإلى نوره ننظر، لنقتبس من سنته ومن سيرته تمسكًا بالذكر الحكيـم الـذى نزل به الروح الأميـن على قلبه ﷺ، ليكون من المنذرين بلسـان عربى مبين.. الذكر المحفوظ بالمشيئة الإلهية والعناية الإلهية إلى يومنا هذا وإلى ما بعد هذا اليوم وحتى تقوم ساعة حساب الناس أجمعين.

اللهم صل على حضرة النبى وآله الطاهرين المطهّرين وسلم تسليمًا. واجعل عملى هذا خالصًا لوجهك الكريم مقبولاً من سـيد المرسـلين ونورًا لى يوم الدين. وحسـبى الله، وما توفيقى إلا بالله.

محمد أمين جبر



١

فى معية الرسول ﷺ

فى

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ٩٧]

القرآن نزل به الروح الأمين على قلب الرسول ليكون من المنذرين، بلسان عربى مبين. هذا هو الأصل الذى يقرره القرآن، وفيه نجد العديد من الآيات التى تدخل من ناحية أو أخرى فى إطار هذا الأصل الذى تقرره هذه الآية.

والحقيقة التى ينبغى الالتفات إليها تدور حول محور أساسى هو الرسول وليس جبريل، رغم أن النص فى الآية ٩٧ من سورة البقرة يركز على العداوة لجبريل. فمثل هذه الآيات، وانطلاقا من الأصل الثابت الذى نقلناه هنا، والذى يقرر نزول القرآن على قلب الرسول بواسطة الروح الأمين؛ أى جبريل- إنما تشير إلى العداوة الموجهة أصلا وأساسا إلى الرسول وإلى الرسالة التى جاء يدعو الناس إليها، وقد أخذت شكل القرآن العربى البيان. والقرآن فى هذه الآية ٩٧ من سورة البقرة يتحدث عن اليهود الذين ناصبوا الرسول ﷺ والجماعة المؤمنة الأولى العداء؛ سواء بالجدال والجدل، أو بالدسيسة والوقيعة، أو بالفتنة والعداء الصريح الذى تطور ضمن أطواره فى المدينة إلى الحرب بين المسلمين واليهود. فاليهود كانوا يناصبون الرسول ودعوته العداء لأسباب كثيرة، وهم قوم لا تعوزهم العناصر الجدلية، ولهم فنون متعددة فى هذا المضمار، ومن ضمنها هذا الأسلوب المعوج فى نسبة العداوة إلى جبريل، وهى موجهة أساسا إلى محمد.

وقد روى الترمذى -وأورده القرطبى أيضا- أن اليهود قالوا للنبى ﷺ: «إنه ليس نبىٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحى. فمن صاحبك حتى نتبعك؟ قال: جبريل. قالوا: ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال؟ ذاك عدونا!

لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك» والأسلوب الملتوى واضح أشد الوضوح، واليهود كانوا سيناصبون محمدًا العداء لو أنه ترك جبريل وذكر ميكائيل.. فما كان ذلك ليغير من الأمر شيئا.. إلى جانب أنهم يعلمون مسبقا أن جبريل هو الذى ينزل بالوحى على الرسول: لأنه الواسطة الدائمة بين الإله تبارك وتعالى وبين رسله، فقد كان الواسطة بالنسبة لموسى وبالنسبة لعيسى. إذن فقد سألوا الرسول وهم يعلمون الإجابة سلفا.. ولذلك يقرر القرآن - من منطلق العلم بمكر اليهود وخداعهم وحيلهم وأساليبهم فى الجدل والمجادلة والتخاطب- أمرا جامعا يضع الأمور فى نصابها، ويقطع الطريق على المناورة الكلامية من جانب اليهود، بما يظهر منه ما خفى من كيدهم للرسول وللقرآن، ولم يظهر فى هذه المحادثات الكلامية بينهم وبين الرسول ﷺ:

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٨]. هذا أصل الموضوع، وهذه حقيقته.. العداوة للملك والصداقة لآخر ليست إلا ادعاء كاذبا فيه الحيلة والمكر، ولا يخفيان إلا سوء السريرة، وما يضمره الباطن من عداء هو فى الحقيقة عداء لله ولرسله وللملائكة جميعا.. وهو الكفر بعينه. ويتجه السياق القرآنى ليقرر صدق الرسول فيما بلغ به من قرآن، متضمنا ذلك أن جبريل إنما يتلقى الأمر من الله تبارك وتعالى، ويتنزل بمقتضى هذا الأمر إلى الفرد المختار من الإنسانية لحمل هذا الكلام القرآنى العربى البيان :(قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) وهو بيان فيه تتمة لما سبقه من الرسالات، وفيه تصحيح لما اعوج من مفاهيم فى هذه الرسالات، انحرف بها المغرضون من المسئولين عن أمرها، وعن الحق الذى نزلت فى صورته فى الزمان والمكان اللذين كان يحيا فيهما كل من عيسى وموسى عليهما السلام، ومن سبقهما من الأنبياء والرسل، (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) وهو الحق والهدى والنور والنجاة للذين يؤمنون به ويحافظون عليه ويدافعون عنه ويدعون إليه. أما غير المؤمنين به وغير المؤمنين بالرسول الذى جاء يبلغه.. فهؤلاء حقيقة أمرهم تكشفها آيات القرآن مرة واحدة -كما قلنا- حين تقرر أن عداواتهم المعلنة فى الحديث إنما تخفى عداوة أصيلة دفينة، يحوطها الخبث والدهاء والمكر

والكيد، وهى مبنية أساسًا على العداء لله ولرسوله وللقرآن.

وبلكن القرآن هو الرسالة الخاتمة التى نزلت من عند الله إلى البشر كلهم؛ لذلك:

١- كان مضمونها مصدقا لما بين يديها من الرسالات، ولما سبقها منذ بعيد الزمن من رسالات سماوية.

٢- وذلك المضمون نزل به جبريل الروح الأمين بالوساطة بين الإله و الفرد المختار رسولا للناس كافة.

٣ - وهذا المضمون الذى نزل به جبريل كان من عند الله، وبإذن الله، وبعلم الله، وفى رعاية الله منذ بداية التنزيل وحتى آخر آياته.

٤ - وإن هذا المضمون نزل على «القلب» من الرسول، وهو مستوى من الوعى والإدراك يبلغ القمة فى المستوى الإدراكى الإنسانى عامة فى المعقول والمفهوم والمدرك، وهى الوسائل التى ينتج عنها العلم والمعرفة والحفظ والتذكر.

ولهذه الأسباب الأربعة فإن الذى نزل هو آيات بينات، وهو هدى للمتقين وللمؤمنين، وهو الأمر الذى يتقرر فى الآية التى تلى الآية موضوع هذا الحديث: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[البقرة: ٩٩] وهذا فى النهاية هو جوهر الموضوع كله بالنسبة لهؤلاء اليهود الذين يكفرون بآيات القرآن، ويناصبون الرسول ﷺ والمؤمنين العداء، وهم يجادلون بالحجة فى الحديث ليًّا فى المنطق، وإمعانا فى كتمان حقيقة العداء والنيات المحيطة به، فيما يضمرون للرسول وللدعوة التى جاء يبلغها قرآنية المضمون عربية البيان. إن هذا الدين الخاتم هدى وبُشْـرَى للمؤمنين، وهو قوة تقهر الكافرين، وتهدد كيانهم فى الدنيا، وتنذرهم بأسا شديدًا فى الآخرة.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

[البقرة: ١١٩]

أول مــا يوحيه هذا التقرير الذى ورد فى ســورة البقرة هو الصلة الوثيقة القائمة بين الإله المعبود و عبده ورســوله النبى الخاتم ﷺ. وهى ليســت صلة من العواطف التى يحسها البشر، وليست صلة تقوم على أساس المصلحة أو المنفعة لأحد أطرافها؛ فهى على الإطلاق ليســت صلة كالصلات التى يدركها البشــر فى علاقاتهم، وإنما هى صلة من نوع خاص، وذات طبيعة وأبعاد خاصة تليق بمقام الألوهية المنزه ابتداء عن الكفء والنظير والأحداث وصفات الخلق المحدودة بصفة عامة، فهى صلة بينه تعالى، وبين إنسان بشر اختاره الإله تبارك وتعالى ليكون رسولا منه إلى الناس كافة، خاتما لأسرة المرسلين، من ابتداء الزمان المعروف فى تاريخ البشر على الأرض وحتى زمان بعثه هذا الرسول الخاتم.

(إِنَّآ) فيها تعظيم لجناب الله ســبحانه وتعالى، وفيهــا التأكيد على جانب واحد مــن جوانب هــذه الصلة التى قلنا إن التقرير يبرزهــا، وهو الجانب الإلهى. (أَرۡسَلۡنَٰكَ) فيهــا التعظيــم للجانب الثانــى من جوانب هــذه الصلة، الجانب العبدى الذى يكتســب مــن المصدر الموجب لهذه الصلة صفة خاصة، هى صفة الرســولية، يؤكدها التقرير. ويبرزها صريحة واضحة لا لبس فيها. بأن هذا المختار الذى ظهر فى هذا الزمان يدعو الناس كافة بالقرآن هو رسول من عند الله، لا يتبع هوى ولا يتبع مصلحة، ولا يريد مالا. ولا أجرا من أحد من الناس، ولا يريد منصبا رئاسيا يعطيه السلطة والسيطرة والنفوذ. لا يريد علوًّا فى الأرض ولا فسادا، ولا يريد التفرقة بين الناس أبدا.. وإنما هدفه الوحيد هو إبلاغ القرآن الذى نزله الله بواســطة الروح الأمين جبريل على قلبه الواعى العاقل، ليهدى الناس إلى الإله الحق، ليعبدوه ويســلموا له الوجه والوجهة التسليم أو الإسلام

الحقيقى، لتكون دينونة الناس للدين الحق الذى يقيم الصلة الصحيحة المثلى بين الإله المعبود والبشر العابدين، وكلهم عبيد، يقيم الصلة فى إطار من التوحيد الذى هو جوهر وأساس هذا الدين.

(إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ) ويأتى هذا التقرير فى موضع من تسلسل آيات سورة البقرة تسبقه وتأتى بعده لتلقى مزيدا من الضوء على هذا الدين الحق الذى جاء به هذا الرسول من مصدره الإلهى. ففى الآيات ١١٦- ١١٨ من سورة البقرة بيان لما نسب للإله تبارك وتعالى من أمور مليئة بالباطل والخطأ، ولم يعالج جوانب هذا الباطل والخطأ فيها إلا هذا القرآن الذى جاء به الرسول من عند الله، مقررا للحق فى الصورة الختامية التى لا صورة بعدها، وفى إطار شامل لا إفراط فيه ولا تفريط، وفى صورة كاملة لا نقص فيها ولا عيب، وفى صورة مستقيمة لا اعوجاج فيها: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢]. جاء فى تلك الآيات ما يلى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[البقرة: ١١٦- ١١٨]. هذه الآيات الثلاث توضح الانحراف نحو الباطل بالنسبة للعقيدة فى ذات الله سبحانه وتعالى، حيث فيها انحراف بالقصور المعرفى نحو الباطل بالنسبة لحقيقة الله الواحد الأحد، وهى الحقيقة المرتبطة بالتوحيد الحق الذى جاء ليضع مفاهيمه الصحيحة الكتاب الخاتم؛ القرآن كلمة الله الأخيرة التى جاءت بالحق، وليس بعده كلمة أخرى تزيد من بيان الحق؛ لأنه الكتاب الجامع الشامل الكامل الذى يحتوى الحق والحقيقة فى لفظه ومعناه، ومصدره هو الله سبحانه وتعالى، وهو الذى بلغه للرسول ﷺ. ومحتواه الحق الكامل الذى ظهر فى موضع من الزمان ليس بعده حق آخر إلى أن تقوم ساعة حساب الناس يوم القيامة، وبما يعقب الحساب من ثواب ونعيم فى الجنة، أو عقاب وعذاب فى النار. والآيات الثلاث السالفة تشمل طوائف من اليهود أتباع موسى، وطوائف من أتباع عيسى، كما تشمل المشركين والكفار والمنافقين.

ثـم يأتى السـياق موضع حديثنا بعـد هذه الآيات التى سـقناها، فيقـرر العقيدة الصحيحة بالنسـبة لمفهوم الألوهية القائمة على التوحيد: (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ) وفيها الرسـول ﷺ موصوف من الله بصفتين: (بَشِيرًا وَنَذِيرًا)، وهما صفتان تقربان حقيقة ما يؤول إليه الوجود الإنسانى، عندما ينتهى ذلك الوجود فى المستقر الأرضى المؤقت، بقيام الساعة ووقوف الناس أجمعين فى مشهد يوم القيامة يُحاسَبون على أعمالهم فى الدنيا بميزان بالغ الدقة فى الخير والشـر على السـواء. وهما صفتان متصلتان اتصالا وثيقـا بما يقـرره القرآن فى موضـع آخـر: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧] فالرحمـة تعنى علم الرسـول اليقين بما ينتهى إليه أمر البشـر بقيام السـاعة، إمـا بنعيم الجنة وإمـا بعذاب النار؛ ولذلك كان الرسـول ﷺ بشـيرا بالنعيم للإنسـان فى حياته الآخرة، ونذيـرا له بالعذاب فى نفس هـذه الحياة الآخرة. ومفرق الأمريـن فـى الحياة الأخرى التى يعيش الإنسـان فيها خالدا هو مدى الاسـتقامة على هدى هذا الحق القرآنى، الذى جاء به الرسـول من عند الله، وبلغه كاملا مكتملا للناس كافـة، حتـى لا يكون لهم بعد هذا البلاغ حجة على الله بالنسـبة للمصير الحتمى الذى يلاقيـه كل فـرد من الناس يوم القيامة، ومن هنا كان المقطع الأخير من الآية ١١٩ من سورة البقرة موضع حديثنا: (وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ) فالرسول قد بلَّغ رسالة ربه وأوضـح بها الحق كاملًا، مصححًا ما كان معوجا وباطلًا لدى أهل الديانات السـابقة، أيا كانت أسباب هذا الاعوجاج والتحريف والباطل فيها، وبذلك يكون هذا الرسول غير مسئول –وقد بلغ الرسالة– عن أى انحراف للبشر يؤدى بهم فى النهاية إلى عذاب النار: (وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ)، ويتمشـى هذا المفهوم مع مـا يقرره القرآن فى مواضع أخـرى مثل: ﴿ ...فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الرعد: ٤٠] ومثل: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ...﴿٢٧٢﴾ ﴾[البقرة: ٢٧٢].

الحق: أى القرآن بشيرًا: أى مبشرًا، ونذيرًا: أى محذرًا ولا تُسأل يا رسول الله عن أصحاب الجحيم الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالله ولا بك على اختلاف عقائدهم ومللهم: فأنت مبلغ رسالة ربك وليس عليك هداهم، كما أنك لا تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وهـذه من أخص خصائص الرسـول الداعى. فأسـس الدعوة بيَّنها القـرآن على النحو

التالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل) والرسـول ﷺ مذكِّر، وليس مسيطرًا على عقول وتفكير الناس فى اختيار العقيـدة التى يشـاءون، وحتى الإيمان والكفر تركهما الله سـبحانه وتعالى لمشـيئة الإنسان الحرة: ﴿ ... فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩].



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾ [البقرة:١٠٤-١٠٥]

هنا تكريم للنبى ﷺ وارتفاع بمقامه من أن يدنسه قول للمشركين أو فعل، على غرار ما كان يفعل المشركون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى مع أنبيائهم. لقد نهى الله المؤمنين أن يوجهوا الحديث إلى الرسول بقولهم (رَٰعِنَا) لأنها كلمة كره الله تعالى أن يقولها المؤمنون لرسول الله ﷺ بعد أن حرفها اليهود عن معناها الأصيل وهو المراعاة والإنظار والإمهال، إلى معنى آخر يحمل فكرة السب على أساس اشتقاقها من الرعونة وهى الحمق. وقد قرر القرآن فى معنى تحريف الكلام ومعانيه التقرير التالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ...٤٦ ﴾[النساء: ٤٦]

وروت لنا السنة أن المشركين من اليهود كانوا –على سبيل المثال- إذا سلموا على المؤمنين يقولون «السَّامُ عليكم» والسَّامُ هو الموت. وذلك الأمر من تحريف الكلم عن مواضعه كان ينم عن نفسية تضمر الشر والكيد والحسد للمؤمنين، وخاصة من جانب الذين كفروا من اليهود الذين كانوا ينالون من الرسول ويسبونه، وذلك حسدا من عند أنفسهم أن يزول عنهم سلطان الدنيا وسلطان الدين: (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ) ولكن أمور الاصطفاء والاختيار لها معايير ربانية سماوية، تختلف عن معايير ومقاييس البشر الأرضية

التـى غالبا ما تتحكم فيها الأهـواء والنزوات والاعتبارات المصلحيـة، دونما نظر إلى الحق واعتباراته. وعند الله، أى بمعيار السماء، الحق أحق أن يتبع.

ولذلك يقرر القـرآن (وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ) إلى الله يرجع الأمر كله، ويرجع الاختيار كله، وترجع أسس التفضيل القائمة على القيم الروحانية والأخلاق الســامية الموصولة بهدى الله المتمثل فى تعاليم سلســلة الأديان التى نزلت إلى البشــر، يحملها مصطَفَوْنَ من هؤلاء البشــر كافــة، بحقيقة واحدة هى الإســلام لله تعالى الذى كان القرآن آخر صورة له فــى الإطار الكامل المكتمل، والذى يجمع أساسيات الديانات السابقة فيما صح منها بأنه موصول بالله رب العالمين، وترك الأباطيل التى دخلت على مفاهيم هذه الديانات كعامل طارئ، ناتج من نوازع الســلطة التى كان يبينها رجال الدين فى هذه الأديان، فيتميزون بها على سائر الناس، ويضفون بها طابعا من الكهنوت المســيطر دينيا ودنيويا على العاديين من الناس. جاء الرسول الخاتم مصححا لهذه المفاهيم الباطلة الطارئة على أصول الديانات الســماوية، ولذلك كان ﷺ موضعا لعداوة المشــركين من أهل هذه الديانات، والمشــركين الذين اختاروا دين الكفر، الكل -لأســباب خاصة به متصلة كلها بالمصالح الدنيوية- يضمرون الشر والسوء لهذا الرسول، ولهذه الرسالة.

ولكن الله تبارك وتعالى وهو (ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ) يعلم أين يضع رسالته، وعلى أى أساس من القيم والاعتبارات الروحانية يختار خاتم الرسل، ويختصه وحده بالرحمة اصطفــاء لأداء هذا الدور، وهو دور الحق الموصول بالله خالق هذا الكون بكل مراتب الكائنــات المختلفة، وهو الحق الذى يحمل فى طياته الحقيقة كاملة، ترتبط فيها الدنيا بالآخرة، والعمل بالثواب والعقاب، أى البُشْــرى والإنذار، وإنما الغائية والهدفية عامل أصيل منذ خَلْقه الأول؛ ولذلك يقرر القرآن فى شأن هذا الرسول: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقــرة: ١١٩]. ولكــن غرائــز النفس البشرية التى تحتوى نية السوء، أو سوء النية، ودوافعها التى يحويها عنصر الشر فى الأرض، فضلا عن الجهل أحيانا، كلها مجبولة على اختيار المصلحة الشخصية الذاتية، تلك التى يســتقر معها -كما قلنا- سلطان الدنيا وسلطان الدين، ولو على حساب الحق الجلى الواضح: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ ...﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

ولكنه الجهل أحيانا... وســوء النية أحيانا أخرى... ومصالح الدنيا المعقدة... تلك التى تفرض على النفس البشرية سلطانا لا سبيل إلى مقاومته، وقيدا لا سبيل إلى الفكاك منه، حتى مع رؤية الحق ورؤية الباطل وما بينهما من فرق واضح، ولكن مقاييس السماء لا تدخل فيها -كما قلنا- هذه العوامل النفسية البشرية، إنها منزهة تماما ومجردة تماما، فهى الحق والحق وحده، والاستمساك بالحق ضرورة للاستمداد من الحق: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ...فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

عهد من الله سبحانه وتعالى إلى الرسول المختار، فيه راحة له وإراحة، واطمئنان وطمأنة، ولا تخف يا أيها الرسول، فإن الله جلت قدرته سيكفيكهم، وهو سميع لما يقولون، عليم بما يدبرون، أو يكيدون، أو يمكرون، أو يبيتون فى أنفسهم تجاهك وتجاه دعوتك التى اختارك الله رسولا لها وبها، رسولا من عند الله تبارك وتعالى لكل البشر، ولكل الخلائق أينما كانوا وكيفما كانوا. وقد جاء السياق بمقوماته بهذه الطمأنة للرسول على النحو التالى:

١- ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

٢- ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[البقرة: ١٣٦].

٣- ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ... ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

٤- ﴿ ...فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

يوضح السياق القرآنى الأجواء التى كانت تسود بين اليهود والنصارى فى موقفهم من الرسول ﷺ ومن القرآن، ومن الذين آمنوا بالله والرسول والقرآن، ففى ظل هذه الأجواء جاء العهد المؤكد للعلاقة بين الله ورسوله، أن الله ربه الذى اختاره

رسـولا له خاتما للرسـل لن يتركه ليتلاعب به الذين لا يؤمنون بالحق المنزل من عند الله، ولو أن الله لم يَكْفِ رسوله هذا التلاعب والكيد والمكر لتغير وجه التاريخ فى تلك المرحلة من الدعوة القرآنية التى كان أمر الدنيا والآخرة قد استقر على حتمية اكتمالها وإكمالها. من هنا جاء العهد، عهد الله لرسـوله، بأن الله سـيكفى رسوله أولئك وهؤلاء : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ). إنه عهد وحصن حصين. العهد كان للرسول ﷺ بأن يكون الله تبارك وتعالى حصنًا له حصينًا، وهى آية يمكن أن يذكرها كل مؤمن للتحصن بحصن الله، والارتكان إلى جنابه، والاستناد إلى حمايته من كل كيد ومكر وأذى وكل شـر قد يأتى الإنسـان بصفة عامة. ولذلك جاءت هذه الآية فى أغلب أدعيـة الأئمة الصالحين. وهذا الحصن الحصين للرسـول جاء فى نص قرآنى آخر فى سـورة المائدة: ﴿ ... وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿٦٧﴾ ﴾[المائدة: ٦٧] بأسـلوب فيـه الحماية، ليس فقط من أهل الكتاب، وإنما من الناس أجمعين، وهو الأمن الربانى، والحماية الربانية، والأمان الإلهى لهذا الرسول الذى كان يحرسه صحابته حتى نزل هذا النص، فأصبحت الحراسة عندئذ من الله، والأمن والأمان من عنده سبحانه وتعالى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

[البقرة: ١٤٤].

إنه لرسـول عظيم الشـأن، ذلك المختار من الله للإنسـانية، ذلك الـذى يوجه الله إليـه الكلام معبرا عما يعلمه الله ويراه من شـعور هذا الرسـول، ونداء نفسـه الخفى الذى أدى به إلى أن يتطلع إلى السـماء؛ إلى ربه سـبحانه وتعالى يريد أمرا فى نفسه، ويطلب شـيئا فى فكره وشـعوره، وهو التطلع إلى أصل شـجرة النبـوة، إبراهيم أبى الأنبياء، والبيت الذى رفع قواعده هو وابنه إسـماعيل. إن الرسـول ليتطلع إلى السماء العالية، إلى الله العلى -فى نفسـه- فيسـتجيب الله لهذا التطلع النفسى فى آيات قرآنية توضح قوة الصلة بين الله ورسوله، صلة ينزل فيها قرآن من رب العالمين موجها إلى الرسـول ﷺ يوضح له فيه أن الله يرى تقلب وجهه فى السـماء، ويعلم مكنون نفسه، وحقيقة مطلبه النابع من صفة ختام المرسلين، وهى صفة تجعل ارتباط الخاتم بالبدء أمرا يستشـعره ذلك الرسـول ضروريا لإكمال رسـالة التوحيد الخالص التى بعث من أجل بيانها، وتذكير الناس بها: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهو بيت مبارك، وهو أيضا رمز بداية شـجرة النبوة الوثيقة الصلة برب العالمين.

تُرى... ماذا كان أيضا فى نفس الرسول، وهو يتطلع إلى ربه أو إلى السماء؟ ماذا تتحقق فى نفسه هذه المعانى التى ذكرنا، وغيرها مما لا نعلمه؟ ونزل كلام الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ونعلم مكنون نفسـك فى اتجاهها،

ونعلم سمو رسالتك الخاتمة التى جاءت لترد الأمر إلى نصابه، وتتجه بالبشرية إلى قبلة واحدة، فيها توحيد الكلمة نابع من أسرار كلمة التوحيد. ليس ذلك فقط. ولكن الله يستجيب لمشاعر واتجاهات الرسول الفكرية، وينزل عليه قرآنا يطمئن به قلبه، وتهدأ به نفسه وتستقر به تطلعات روحه السامية: (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) تعود بالأمر إلى الدين الواحد المستمر منذ البدء وإلى الختام وهو دين الإسلام. ملة إبراهيم الذى كان حنيفا مسلما، وما كان يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا. لقد كان فى تغيير القبلة إرضاء لمحمد ﷺ الرسول الخاتم ورضا منه، لأنه استقامة للأمور بعد اعوجاجها. وعودة بجوهر الدين إلى حقيقته الأصلية من الإسلام لرب العالمين.

تغيير القبلة ليس المقصود منه فقط تغيير القبلة المادية بيت المقدس ثم البيت الحرام؛ لأن القبلة فى حقيقة الأمر تتعدى الوجهة المكانية إلى ما يكمن وراءها من معان. ومعانى القبلة هى فى الاتجاه النفسى والشعورى والفكرى والجسدى إلى الواحد الأحد، إلى الله رب العالمين الذى هو فى الحقيقة قبلة المؤمنين: ﴿ ...فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ...(١١٥) ﴾ [البقرة: ١١٥] ولكن الأمر أن البيت الحرام هو رمز التوحيد، وبيت الخليل الذى رفع مع ابنه إسماعيل قواعده، وهو بيت العبادة الأول، والله هو الأول وهو الآخر؛ ولذلك جاء الرسول الآخِر بتوجيه البشرية إلى الأول الذى هو مصدر الخليقة كلها، وبيته رمز للاتجاه إليه سبحانه وتعالى فيما نفهم من مقتضيات طبيعة خلق الإنسان، وحياته الفردية والاجتماعية، وعلائق الشعوب والقبائل بعضها ببعض.

لقد أعاد الرسول الأمر آخرا إلى أصله الأول. فجمع بين مبنى القبلة ومعناها الذى تمثله من التوجه أو الاتجاه إلى الله الأول والآخر فى ظل رابطة من توحيد كلمة الأنبياء والمرسلين كلهم وأتباعهم، فى تلاحم يدعمه الإيمان والتوحيد الذى دعا إليه كل الأنبياء والمرسلين وهم حلقات فى سلسلة واحدة من المصطفين الأخيار الذين جاء محمد ﷺ خاتما لهم.

وأخيرا نزل التوضيح القرآنى إلى أن هذه الاستقامة على القبلة المكية هى الطريق الصحيح الذى كان ينبغى أن يتجه إليه ركب المؤمنين الذى بدأ خطواته بأولى الكلمات الموحى بها من الله إلى المصطفين من الجنس البشرى. إن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام هو هداية من الله للمؤمنين الذين أرادت

المشـيئة الإلهيـة أن يكونوا من السـالكين على معـارج الصراط المسـتقيم. وحقيقة الأمـر -كمـا ذكرنا مـن قبل- أن الله له المشـرق والمغـرب؛ أى له جميـع الاتجاهات التى يمكن للإنسـان أن يتوجه إليها، والله سـبحانه وتعالى لا يحده اتجاه بعينه، لأنه سـبحانه وتعالى واسع سعة إحاطة: ﴿ ...قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢] والسفهاء من الناس هم وحدهم الذين ليس فى مقدورهم إدراك هذه الوسعة الإلهية الحقيقية التى يبينها القرآن فى صراحة لا لبس فيها حين يقرر ﴿ ...فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ...﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١١٥].



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾

[البقرة: ١٥١].

إن تاريــخ الأحداث فى الأرض جزء من تاريخ الأحــداث فى الكون. والأحداث فى الأرض وفى الكون تسير وَفْقَ قانون من وضع الخالق هو الذى يسميه القرآن –السُنَّة- كما فى تقريره: ﴿ ...فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣ ﴾ [فاطر: ٤٣].

هكذا الأمور كلها فى هذا الوجود تحكمه علاقة معينة، هى علاقة الخالق بالمخلوق. وتاريخ الأحداث فى الأرض جزء من التاريخ الطويل من الأحداث الكونية كما قلنا. ومنذ آدم الأول والأحداث دائما تسير فى اتجاه معين محدد، هو بيان هذه العلاقة التى أشرنا إليهــا من قبل، علاقة الخالق بالمخلوق، أو علاقة الإله المعبود بالخَلْقِ العابدين، علاقة تحكمها توجيهات وأوامر من الله إلى البشــر، ليتحقق فى الأرض توحيد الإنسان للإله الواحد الأحد، توحيد يبدأ فى الضمير وفى الفكر ليشكل البنيان العقائدى للإنسان، ثم يتجاوز منطقة الفكر والعقيدة ليجد أثره فى الســلوك ودوافعه فى إطار المجتمع، ثم يتجاوز هذا الإطار إلى إطار العلاقات بين المجتمعات والشعوب.

مــن هنا كانت فكرة الرســل والأنبياء، ومن هنا كان أســاس الاصطفاء والاختيار من جانب الإله لأفراد من البشــرية يكونون وســطاء –لما أهلهــم الله به من خصائص وصفات ومميزات- بين الإله تبارك وتعالى وبين البشر أجمعين. ومن هنا كان الترابط فى حلقات سلسلة الأسرة النبوية ،والترابط فى جوهر الرسالات التى جاء هؤلاء الأنبياء والرســل يبلغونها إلى الناس على مر الزمان فى تاريخ حياة الإنسان فى الأرض. ومن

هنا كانت وحدة الدين فى مضمونه هى الإسلام.

والقرآن يجعل من إبراهيم عليه السلام نقطة ارتكاز واضحة بالنسبة لحلقات سلسلة أسرة الأنبياء والمرسلين، وربما كان ذلك -مع أسباب أخرى- هو الأصل الذى تفرعت منه الرسالات الثلاث الأخيرة التى أدت، وما زالت تؤدى، دورا رئيسيا فى مسار أحداث الإنسان فى الأرض عبر التاريخ القديم والحديث. وربما كان من هذه الأسباب أيضا وضوح حقيقة الإسلام فى دعوة إبراهيم عليه السلام، تلك الحقيقة التى ارتبطت بها الرسالات والدعوات من بعد إبراهيم فى اليهودية التى جاء بها موسى، وفى المسيحية التى جاء بها عيسى. أما الأساس الإسلامى فى دعوة إبراهيم فيوضحه القرآن فى الآية التالية من سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[البقرة: ١٢٨]، وفى الآيات التالية من سورة البقرة أيضا: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

والقرآن بعد ذلك كله صريح فى أن اللبنة الأخيرة فى البنيان الإسلامى كله هى اللبنة القرآنية، وأن خاتم حلقات سلسلة أسرة الأنبياء والمرسلين هو محمد رسول الله ﷺ وذلك ما يقرره القرآن، وذلك ما كان يقرره الأنبياء والمرسلون السابقون، وخاصة موسى وعيسى عليهما السلام. فموسى والتوراة كانا يبشران بمحمد الرسول الخاتم. وعيسى والإنجيل كانا يبشران بمحمد الرسول الخاتم. تلك البُشْريات كان يتضمنها الوحى الإلهى لكل من عيسى وموسى قبل أن تمتد إليه أيدى التحريف والتبديل؛ ولذلك يرجع بنا القرآن فى تقريراته إلى الأصل الأول الذى تفرع منه الوحى الموسوى والوحى العيسوى؛ أى التوراة والإنجيل، ويرجع بنا إلى إبراهيم عليه السلام. ومع ذلك يوضح لنا القرآن حقيقة التحريف والتبديل اللذين دخلا على التوراة والإنجيل نتيجة الأهواء والمصالح الدنيوية التى يعرفها كل دارس لتاريخ الديانتين ومؤسساتهم الكهنوتية

والكنائسية -التى كانت دائما برجالهما ودعاتهما والقائمين عليهما- وراء هذا التحريف والتبديل والتغيير فى إطار نظام للسلطتين الكهنوتية والكنائسية بالغ الدقة والتعقيد، وكبير التأثير، وعميق التغلغل فى مصائر الأتباع للديانتين.

إن الآية التى تشير إلى الرسول ﷺ فى هذا الموضع من حديثنا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذا الأصل من الدين يرجع إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. والآية موضع حديثنا هنا هى الآية: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١] هنا يرتفع القرآن بالناس إلى مستوى الحق الذى يعلو فوق مستويات الباطل الهابطة دائما، الحق الذى يوضح ذلك الباطل الذى أصاب جوهر الهدى الإلهى المنزل إلى الإنسان بواسطة المصطفين من الرسل، وبخاصة الهدى المنزل على موسى، والهدى المنزل على عيسى؛ أى التوراة والإنجيل. ويرتفع بنا القرآن من خلال شخصية الرسول إلى ذلك المستوى العالى من الحق الذى كان يدعو إليه إبراهيم عليه السلام، وكان يدعو إليه موسى وعيسى فى أصل الرسالات التى جاءا يبشران بها ويدعوان إليها.

وقد كان هذا الأصل وقت الدعوة إسلامى الجوهر توحيدى الحقيقة. فالرسول إذن هو الغاية والهدف من أحداث الأرض فى تاريخها الطويل منذ آدم الأول إلى بعثته ﷺ. وهو الهدف الواضح الظاهر منذ إبراهيم عليه السلام وحتى ظهوره ﷺ؛ لأن ظهوره فيه نوع من التحقيق بدعوة إبراهيم السابقة، الواردة فى الآية ١٢٩ من سورة البقرة. وهكذا تتقرر إرادة الله فى الأرض، ويكتمل الدين فى جوهره الواحد، وهو الإسلام فى الديانات كلها، ويظهر الرسول الخاتم الذى دعا بظهوره إبراهيم، وبَشَّر به كل من موسى وعيسى فى التوراة والإنجيل.

جاء هذا الرسول الخاتم:

١- يتلو على الناس آيات الله تبارك وتعالى فى الكون وفى النفس؛ ليرتبط الوجود فى فكر الناس بالخالق سبحانه وتعالى.

٢- يزكى الناس ويرتفع بمستواهم الفكرى والسلوكى إلى العظيم من الأخلاق.

والخير من القيم والمثل والمبادئ؛ لتتحقق الأخوة والمحبة والمساواة بين الناس؛ ولتتحقق لهم كرامتهم وحريتهم.

٣- يعلمهم القرآن الذى جمع الحق كله، واحتوى الدين كله، وظهرت به صورة الإسلام الصحيحة التى لا تشوبها شائبة، بل تقيم دعائم التوحيد فى الأرض، وتؤسس دعائم المجتمع الأفضل الذى يوجه أهل الأرض نحو الخير، ونحو سعادة الإنسان، بتنمية قيم الدين وأخلاقه ومبادئه.

٤- يعلمهم الحكمة فى العقيدة وفى العبادة وفى السلوك، وفى التصرفات وفى المعاملات، وفى العلاقات الشخصية والعلاقات الاجتماعية، وعلاقات الشعوب، كما يعلمهم منطق الحديث والجدل والدعوة إلى سبيل الله.

٥- يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ ليخرجوا من إطار بيئتهم الضيقة إلى إطار الأرض الواسعة كلها التى تشملها الرسالة، وإلى إطار الكون كله الذى يتطلع إليه فكر المؤمن، ويرتبط بهذا الكون والكائنات فيه نشاط الإنسان الفكرى وتَرَقِّيه المعرفى المستمر، ليبنى مزيدا من القوة تحمى الحق والحرية وتدعم الإيمان والأخوة والمحبة.

وكلها مداخل من باب شخصية النبى ﷺ تؤدى إلى ذكر العباد لله تبارك وتعالى، وذكر الله تبارك وتعالى للعباد، ذكر ينبع من الإيمان والتوحيد، ويؤتى ثماره فى النفس وفى السلوك، فى الشكر لله والإيمان به وبنعمه، فلا يكفر به الإنسان ولا يجحده، والزاد لذلك كله هو الصبر والصلاة: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[البقرة: ١٥٢-١٥٣].

ولما كان الخير يصيب المؤمنين فى الحياة الدنيا من هذا المدخل الذى هو رسول الله ﷺ، وفى الحياة الآخرة أيضا حيث النعيم فى خلود، فإن القرآن يقرر فى موضع آخر يتناول نفس الموضوع أن الله قد منَّ على المؤمنين بإرسال هذا الرسول باعتباره واسطة الحياة لهم فى سعادة ونعيم، سواء فى الدنيا مؤقتا، أو فى الآخرة على سبيل الدوام والخلود. وقد كانوا من قبله لا يعلمون طريق الحق إلى الله تبارك وتعالى، ولا يهتدون إلى الإسلام، ولا يدينون دين الحق المؤسس على التوحيد، فهداهم الله من خلال هذا الرسول إلى الدين الحق إسلاما وإيمانا وإحسانا ويقينا، فى ظل عقيدة

التوحيد التى قوامها لا إله إلا الله، محمد رسـول الله ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ثلاث صفات حددتها ضِمْنًا الآية ١٥١ من سـورة البقرة موضع هذا الحديث، هى الرسول الإنسان، والمعلم، والمربى:

الرسـول الإنسـان: (رَسُولًا مِّنكُمْ) بما تحمله كلمة الرسـول مـن معانى النبوة والرسولية المتمثلة فى الوحى والبلاغ. وبما تحمله كلمة (مِّنكُمْ) من معانى البشرية اللائقـة بـه ﷺ من القرب منهم والحرص عليهم، ورحمته بهـم من جانب، ومن العلم بأحـوال الإنسـان مـن جانب آخر (فهو رسـول من نفـس الجنس البشـرى) أو النوع الإنسـانى، يعلم خصائص الإنسان بتركيبه النفسى والعقلى والروحى والجسدى، هو رسـول ليـس غريبا على الإنسـانية لا يعلم خصائصها الأصلية ودقائـق مكوناتها، بل هو رسـول منهم، وهو لذلك خبير بالإنسان وبنوازع نفسه وخباياه، خبير باحتياجات الإنسـان الضرورية فى معيشـته، خبير بدقائق النفس الإنسـانية، ومـا تحدِّث به من نوازع السلوك فى الخير والشر على السواء، خبير بإمكانات البشر الروحية التى يمكن توجيههـا لطريق الهداية المسـتقيم، فتصنـع عندئذ المعجزات؛ تبنـى وتعمر، وتقود ركاب الخيـر والإيمان والحرية والإخاء والمحبة، تبنى على أسـس هذه القيم القرآنية كلهـا دعائم المدنية والحضارة التى تقوم على التوحيـد والتوجه بالكلية إلى الحقيقة الخالـدة فى هذا الوجود، حقيقة الألوهية التـى لها وحدها تكون العبادة، ومنها يكون الاستمداد، وبها يكون الإمداد.

المعلـم: "يتلو عليكم آياتنا ويعلمكم الكتاب والحكمة" يتلو على الناس كافةً علما جديدًا عليهم فى شـموله وإحاطته بالحق فى الكـون، وفى النفس. هو علم آتٍ كله من الوحـى الإلهـى قرآنا عربيا؛ لتكون العربية وسـيلة إبلاغ الناس أجمعين فى مشـارق الأرض ومغاربها.

معلـم لمادة جديدة كمل بها الحق واكتمـل بها الدين، وجاءت كلمة أخيرة محيطة شـاملة، تنطق بالحق فـى الكلمة المكتوبة؛ وهـى القرآن، على غرار مـا تنطق بالحق الكلمة المخلوقة؛ وهى الكون.

لقد كان من خصائص هذا الرسول أنه المعلم الكامل والأكمل، لأنه جاء يعلم العلم الكامل والأكمل؛ العلم القرآني (يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا) وما فيه من أسرار كونية ونفسية بما تشمله هاتان الحقيقتان من علوم تتفرع عنهما وتتعدد. لقد جاء إلى الإنسانية بعلوم متعددة غير معدودة تقررت أصولها في آيات الكتاب الذي نزل عليه من ربه. وقد أشار هذا الكتاب ذاته بالميزة العلمية التي يمكن أن يتحلى بها الإنسان فيرتقي عندئذ قربا من الله وتقديرا له حق قدره.

إن هذا الكتاب الذي جاء الرسول يعلمه للإنسانية ليفضل العلماء على غير العلماء، ويحث الإنسان على طلب العلم ما بقيت له قدرة على تحصيله حسب قدراته، فقرر على سبيل المثال: ﴿ ...يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ...﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١] و ﴿ ...هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] ﴿ ...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨] ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وإننا نكاد نلحظ هذه المعاني التي تعطي هذه الأهمية الكبرى للعلم والعلماء، نكاد نلحظ هذه المعاني، وأبعاد مدلولاتها، في عالمنا المعاصر بحضارتيه الغربية والشرقية، حيث أصبح للعلم سلطان بلغت معه شعوبها درجة عالية من القوة الهائلة التي تعمل في مجال خير الإنسان، وتحسين مستوى معيشته في مستقره المؤقت في الأرض.

المربي: (وَيُزَكِّيكُمْ)

يطهر قلوبكم... يطهر نفوسكم... يطهر عقولكم... يطهر سرائركم... يطهر مشاعركم... يطهر سلوككم... يطهر أخلاقكم... يطهر عاداتكم... يطهر اتجاهاتكم الفكرية وعقائدكم... يطهر حياتكم كلها.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ... (٢٥٣) ﴾ [البقرة:٢٥٢-٢٥٣].

محمد ﷺ خاتم المرسلين. هذه هى الحقيقة التى تجليها هاتان الآيتان، وغيرهما من الآيات القرآنية المتلوة على الرسول ﷺ من الحق تبارك وتعالى، مبينة الحق فى تاريخ هذه الأرض، وصلة الإنسان فيها برسالات السماء ورسل السماء على مر تاريخ هذا الإنسان فى الأرض؛ منذ آدم الأول أبى البشرية. فالرسل يكوِّنون سلسلة متصلة الحلقات من الأفراد المختارين من الله لهداية الناس فى الأرض.

وقد تفاوت الرسل فى الزمان التاريخى وتعلقه بالأحداث المتصلة بالإنسان المرسل إليه والمجتمع المعين فى البقعة المعينة من الأرض، حيث يخاطب الناس برسالات الله سبحانه وتعالى على لسان أنبيائه ورسله فى إطار هذه الاعتبارات السالف بيانها، وهى الزمان التاريخى، والتكوين الفكرى، والنظام الاجتماعى، والمكان الجغرافى، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى يتفاوت فيها الناس إذا أخذت جميعا فى الاعتبار، ويتفاوت بسببها جميعا الرسل فى الدرجات من حيث استعداداتهم، وتفاوت قدراتهم الروحية. وتاريخ الرسالات السماوية وتاريخ الرسل حاملى هذه الرسالات ومبلغيها للناس يقصه القرآن على النبى ﷺ مقررا الحق الذى لا لَبْسَ فيه وهو أن محمدا من المرسلين، من الحلقات المتصلة من سلسلة الرسل: (وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ) بل إن الحقيقة التى تبرزها هذه الأحداث التى كانت واقعا فى يوم من الأيام فى حياة الإنسان فى الأرض وأصبحت فى وقت محمد ﷺ سردًا واستيعابا لحقائق التاريخ

ودروســه المســتفادة، وهى كون هذا الرسول هو خاتم المرســلين. وخاتم المرسلين هــو أكملهم بالضرورة، لأنه يحمل تبعات إبلاغ الرســالة الخاتمة ذات الصفة الخالدة؛ بمعنى صلاحيتها لحياة البشرية كلها فى كل مكان، وكل عصر، وعلى مر الزمان، ومع اســتمرار حركة الحياة ونموها وترقيها وتطورها وتشعبها واكتشاف الفكر الانسانى للجديــد من خواص هــذا الكون الذى يعيش فى أحد أجزائه، ســواء فى مجال الطبيعة (الفيزيقى) أو المجال الروحى (الميتافيزيقى).

ولهذه الأفضلية للنبى الخاتم أمَّ ﷺ جميع الأنبياء والمرسلين فى الصلاة فى بيت المقدس ليلة الإسراء. ولما كانت فكرة خاتم الرسل هى الحقيقة التى تقررها هذه الآيات؛ إذ تقرر حقيقة كون محمد رســولا من عند الله، الأمر الذى تقرره نفس هذه الآيات من سورة البقرة بصراحة تامة، فإن قصَّ أنباء هؤلاء الرسل يكون لازما وضروريا ضمن آيات الرسالة القرآنية الخالدة، وهو ما جاء فى العديد من آيات القرآن.

الحقيقة إذن أن محمدا رســول الله، وأنه خاتم المرســلين، وأن الله يعلمه القرآن، وأن جبريــل يقرأ هذه الآيات علــى محمد، وأن محمدًا يفضُل المرســلين جميعا، حيث تحقق علمــا وشــــهودا وحالا بمقامات الرسل الســـالفين، وتجــاوز هــذه المقــامات وهــو فــى مقامــه ﷺ فى الإســراء والمعــراج: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمــران:٤٤] و ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ..﴿١٦٤﴾ ﴾[النســاء:١٦٤] و ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هــود: ١٢٠] ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ... ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٨] وسلسلة الرسالات متصلة الحلقات كما ذكرنا، وحقيقتها الإسلام لله، وجوهرها توحيد الله، وأساسها الإيمان بالله، ومفهومها العلم بالله.

والتقريــر القرآنى هنــا يبين حقيقة أخرى هامة؛ وهى تعليم الله لرســوله الخاتم العلــم الحــق الكامن فــى آيات اللــه القرآنية التى هــى كلام الله الجامــع للحق الكامل المكتمل، باعتبار أن هذا القرآن من الحق نزل، وبالحق نزل. ويخبر الله رسوله بتفاوت مقامات ودرجات الرســل فى الاســتعداد التكوينى والعقلى والروحى. والمعنى الذى يوحيه هذا الإخبار أن الرســول الخاتم قد أحيط علما بمقامات الرســل الســابقين، بل كانت هذه المقامات جزءا من مقامه هو، وخاصة مقام موسى الذى كلمه الله، وعيسى الــذى أيده الله بــروح القدس، حيث رأى محمد ﷺ روح القــدس جبريل على صورته

الحقيقية النورية، وكان منه قاب قوسين أو أدنى -على أحد تفسيرين للدنو والتدلى- فى المعراج، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم: ٧-١٠] ولقد تجاوز مقام الرسول ﷺ مقام الروح الأمين جبريل إلى مقام أعلى فى القرب من رب العزة. حيث رأى نور الله بلا كيف ولا تشبيه ولا تحييز ولا تجسيم ولا اتحاد ولا حلول، وإنما بكيفية لا يعلمها إلا صاحب التجربة وحده محمد رسول الله الذى كان وقتها مدثرا بثوبه النورى المطهر. بينما قال جبريل عليه السلام: لو دنوت أنملة لاحترقت. وهو المقام الذى يقرره القرآن فى قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١٢-١٨]. فى حضرة السلام التى كان فيها الحديث بين الله وعبده وهو ما نردده فى التشهد فى الصلاة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الوسـط فـى اللغة هو: العدل أو الخيـار. كما أنه يُحمَل على المـكان المعتدل بين التطرف نحو جهة أو عكسها. والوسط بالمعنى الأخير ينصرف إلى الطبيعى من الأمور، حتى فى الشـخصية الفردية وسـلوكها، أو فى تكوين المجتمع وسـلوكياته. ومن هذا المسـلك الطبيعى المعتدل يمكن الحكم على المسالك غير المعتدلة أو المتطرفة -وهى غير مطلوبة- سواء بالنسبة للأفراد فى تكوينهم الشخصى، أو بالنسبة للمجتمعات فى تكوينها على أساس الدولة.

وهكذا ينصرف وصف الوسـط فـى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) إلى العديد من المناحى التى يشـملها هذا التعبير بالنسـبة للأمة المؤمنة بالرسـول الخاتم، وبالقرآن الذى نزل عليه. وتبين لنا الآية الغاية المباشرة من هذا الوصف وهى: (لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهذا التعبير يعطى لهذه الأمة المؤمنة بمحمد وبالقرآن نوعًا من الارتفاع، ونوعًـا مـن القيادة، ونوعًا مـن التوجيه، ونوعًا مـن الثقة بالنفس نابعة من شـخص الرسـول ﷺ ونابعة من حقيقة القرآن الذى يعتبر الوحى الختامى من الله إلى البشر. وإذا كانـت هذه الأمة الوسـط ترتفع هكذا فوق سـائر الأمم بمـا أوتيت من خصائص منهجها الربانى المتمثل فى القرآن أساسا، ارتفاعا ليس يعنى التعالى وإنما هو ارتفاع تتبعه مسئوليات بالتوجيه نحو الأحسن والأفضل والأكثر عدلا، والأكثر خيارا فى كافة

الأمور التى يمكن أن تتصل بمكونات مجتمع من المجتمعات، أو شعب من الشعوب، إذا كانت هذه الأمة هكذا ترتفع فوق سائر الأمم بما أوتيت من خصائص منهجها الربانى المتمثل فى القرآن أساسا، فإن لهذه الأمة قائدًا وموجهًا ومربيًا، تقتدى به، وتتجه وجهته، وتحتذى سلوكياته المرتبطة بقيم ومُثُل وتصورات معينة، كلها فى روحها وجوهرها نابعة من ذلك المنهج الربانى المتمثل فى القرآن، والمتمثل فى الرسول الذى كان يمثل النموذج الواقعى الحى لهذا القرآن فى قيمه ومثله وتصوراته وأخلاقياته وتشريعاته.

ومن هنا يبرز المركز الذى ترتكز عليه هذه الأمة، وهى بمنهجها القرآنى تعلو وترتفع فوق سائر المناهج البشرية، توجه وتقود وتعدل وتتخير وتميز بين الاستواء والانحراف، بين الاستقامة على الوسط والتطرف نحو اتجاه من الاتجاهات. ذلك المركز الذى يضع الضوابط لهذه الأمة ويقيم لها الميزان بالقسط، ذلك المركز الذى يمثل الضوء المستمر لينير لهذه الأمة طريقها عبر العصور بما يحتويه من الصفات التى تعكس ذلك الهدى الربانى الختامي، وهو من خلال نوره بمكوناته الشخصية يسرج هذه الأمة المؤمنة برسالاته بالمقومات التى تبنى الشخصية الفردية وتبنى الإنسان المؤمن ليكون موصولا برسول الله، وُصْلة يقوم على أساسها المجتمع كله الذى يرى من خلال القرآن العظيم والرسول العظيم طريقه فى الأرض، يبنى الدولة على أساسه ، ويمدين الدولة على أساسه، وتتحضر وتتعلم وتتثقف. وتقيم بنيانها الاجتماعى على مؤسسات متشابكة متعاونة تستظل جميعها بظله الذى يعكس الظل القرآنى العظيم.

فهذا دور لهذه الأمة يسمو بها فى كل العصور إلى مركز التوجيه الأكثر عدلا وحسنا وخيرا وتوسطا... وهذا دور لهذا الرسول، يسمو به فى كل العصور إلى مركز الإمداد والإشعاع بالطاقة الدافعة والمستمرة نحو الأكثر عدلا وحسنا وخيرا وتوسطا... لتحاول هذه الأمة بقدر استطاعتها أن تحقق العدل والمساواة والحرية والكرامة والإخاء، وغيرها من قيم الحق والخير الموصولة بروح الدين لسائر الأمم فى الأرض، وهى متمسكة بالمنهج الذى جاء به هذا الرسول، مقتدية بكل مكونات شخصيته فى شتى جوانبها... تستمد حقها وواجبها فى التوجيه من خلال ارتباطها

بالمنهج، واقتدائها بالرسول الذى جاء بهذا المنهج.

ولمـا كان لهـذا الحـق والواجب فـى التوجيه تبعـات ومسـئوليات وجهد وعمل وتضحية، فإن الرسـول- وهـو قمة المثل الأعلـى لهذه الأمة ذات المسـئولية المدنية والحضارية والتوجيهية- سـيكون وسـيظل شـهيدا عليها، سـواء فى الدنيا بما أقامه بشـخصيته وسـلوكياته وتوجيهاته وبيانـات منهجه القرآنى، أو فى الآخرة يحاسـب هذه الأمة على هذه المسـئولية وهذا الـدور القيادى التوجيهى، هل أدته هذه الأمة كما يجب، بعد أن أبلغه هو بالرسالة التى هى العنصر الأساسى الذى يرتكز عليه هذا الدور الشـهودى أو القيادى أو التوجيهى له ولها على السـواء، وهـو دور لهذه الأمة عظيم، ودور لهذا الرسول أعظم.

والتقريـر القرآنـى موضع هذا الحديث يذكر هذه الأمة المؤمنة بالرسـول الخاتم وبالقـرآن العظيم بدورهـا فى الأرض، لا تغفل عنه أبدا، وحتـى لا تضيع بهذه الغفلة عناصر ومكونات هذا المسـتوى المتقدم الذى يؤهلها -بالقياس إلى سـائر الأمم- لأن تحتفظ بحقها وتقوم بواجبها هذا، فى التوجيه نحو خير الإنسـان فى الأرض. وتقوم هـذه العناصـر والمقومات أساسـا على التجمع والاتحـاد فى الاقتداء بهذا الرسـول، واتباعـه، واتبـاع المنهج الذى جاء يبلغـه، بحيث تتجمع وتجتمـع إمكانات هذه الأمة المتاحة فى كل النواحى، لتتعاون وتتآزر ويشد بعضها بعضا فى إقامة البنيان المدنى والحضارى لهذه الأمة، يكمل بعضها بعضا، ويعوض النقص هنا كمال هناك، والعجز هنا قدرة هناك.

ومن هنا فإن وحدة هذه الأمة فى هذا الاتجاه، ووحدتها فى السير فى هذا الطريق، بهذا الأسـلوب التكاملى، هى من مؤهلات وضروريات هذا الدور القيادى الذى يستمد من إجماع هذه الأمة على اتباع هذا الرسـول فى وجهته. ولعل هذا الأمر توضحه بقية هذه الآية ١٤٣ من سـورة البقرة، والخاصة باتباع الرسـول فى القبلة التى تتجه إليها هـذه الأمة بكل مشـاعرها، لترتبط فى فكرهـا العقائدى وفى سـلوكياتها بالله تبارك وتعالـى فى رمز واقعى مجسـد هو الكعبة الشـريفة يصور ويعكـس الإيمان العميق بصدق كلام الله الذى جاء به الرسول من عند الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ

ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن هنا نعلم حجم المسئولية التى كانت ملقاة على عاتق شخصية الرسول ﷺ، إنها مسئولية تتصل بما يئول إليه مصير كل فرد من أفراد هذه الإنسانية منذ بعثة هذا الرسول وإلى أن تقوم ساعة حساب الناس. وقد تحمل هذا الرسول عبء هذه المسئولية، وأدى متطلباتها على أتم وجه بإتمام إبلاغ الدين الخاتم كما نزل فى القرآن، ﴿ ...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣] وأخلى الرسول مسئوليته بإتمام الإبلاغ فى حجة الوداع: «اللهم هل بلغت.. اللهم فاشهد» ومن ثم ندرك أبعاد ختام الآية التالية فى هذا الحديث الذى نعيش فيه فى معية الرسول: ﴿ ...وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١١٩] ندرك الأهمية القصوى لهذه الشخصية الفريدة التى يتوقف على الإيمان بها وبالقرآن الذى جاءت به، مصير كل فرد من النوع الإنسانى على الإطلاق فى حياة وجودية تتسم بالخلود لا بالتأقيت كالحياة الدنيا. هذه الأهمية هى جانب من جوانب العظمة فى شخصية الرسول ﷺ توضحها الآية: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾(البقرة).

قد يظن البعض أن تعبير «أمة وسطا» مقصود به المستوى الاقتصادى للأمة الإسلامية، بحيث تكون وسطا بين الفقر والغنى. ولكنى أعتقد -والله أعلم- أن المقصود بهذا التعبير القرآنى أساسا هو الوسطية بين الروحية الصرفة والمادية الصرفة، بحيث تجتمع فى الأمة التى تؤمن بالعقيدة الإسلامية الواحدة وبالمنهج القرآنى الواحد عناصر المادية والروحية معا، فالأمة المؤمنة بنفس العقيدة الواحدة ومنهاجها القرآنى الواحد لا تترك الدنيا وتنصرف إلى الدين وحده، كما لا تترك الدين وتنصرف إلى الدنيا وحدها، بل تجمع هذه الأمة المستضيئة بمنهجها القرآنى بين الدين والدنيا معا، فتكون لها مقومات الخلافة للإنسان فى الأرض، وهو ذلك الكائن الذى تسلسل فى الوجود من آدم الأول وجمع -فى أحسن تقويم خلقه الله فيه- بين المادة والروح، وبذلك تستقيم هذه الأمة المؤمنة بنفس العقيدة الواحدة وبالمنهج القرآنى الواحد، تستقيم مع الفطرة الإنسانية وطبيعة مقومات الإنسان بخصائصه الفسيولوجية والروحية التى جمع فيها بين عناصر الطين والنفخة الروحية الربانية، وصار بالخاصتين معا خليفة الله فى الأرض.

والأمة المؤمنة بنفس العقيدة الإسلامية الواحدة ومنهاجها القرآنى الواحد هى الأمة التى يستوعب أفرادها خصائص البشرية التى تسلسلت من آدم الأول، ولكنها -وقد عاصرت نزول القرآن- قد اكتملت فيها عناصر النضوج الفكرى التى اكتمل معها الدين الهادى للبشرية جمعاء فى صورة قرآن نزل على قلب مختار من هذه البشرية خاتمًا للمرسلين، بكلام الله الجامع للحق الكامل المكتمل قرآنا وفرقانا وذكرا وهدى ونورا، يوجه فى الإنسان الخصائص المادية والروحية ويسوقهما إلى إتيان وظائفهما الخلاقة، واستغلال طاقاتهما البناءة لخير البشرية، فى حياتها الدنيوية وحياتها الأخروية. إن الأمة المؤمنة بنفس العقيدة الواحدة وهى تتجاوب فى فطرتها مع فطرة البشرية تربط الدنيا بالآخرة من خلال المنهج القرآنى، وتبنى فى الدنيا لإقامة أسمى نموذج للحضارة البشرية مستغلة طاقات أفرادها المادية والعقلية، وتعمل فى الوقت نفسه -وفى إطار من الفطرة الإنسانية أيضا- على توجيه هذا السلوك المادى والعقلى للإنسان نحو القيم الأخلاقية للدين، والمتصلة بالنفخة الروحية الربانية، اتصال استمداد من منهج الله القرآنى لنفسها، وإمداد من هذا المنهج القرآنى لغيرها.

هذه الأمة الوسط يكون العمل فيها للدنيا عبادة، والعمل فيها للآخرة عبادة. فالعمل عندها مقدس فى الحالتين، بل هو ضرورى فى الحالتين، وواجب على أفرادها فى الحالتين، حتى تسبق غيرها فى النمو الحضارى، والبناء المدنى، توجه هذين البنيانين نحو مبادئ عقيدتها التى تؤمن بها بمنهجها القرآنى الذى أقام صرح الأخوة والمحبة والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وبعبارة أخرى إلى إرساء قواعد المثل الأخلاقية العليا بالنسبة لغايات الأعمال ووسائلها فى علاقات هذه الأمة الوسط بغيرها من الأمم التى انحرفت عن الطريق الوسط بالتطرف، إما إلى المادية الصرفة التى تحط من قدر الإنسان، ولا تعترف بقيم أخلاقية، أو قدرات روحية ربانية، وإنما تستمد من مبادئها المادية قيم الحيوانية والغرائز بدلا من قيم الإنسانية، تقوم على البغضاء بدل المحبة، وعلى التصارع بدل الإخاء، وتبعد بذلك عن مفهوم الأمة الوسط المرتبط بالفطرة الإنسانية الوسط، وإما إلى الروحية الصرفة التى تترك العمل للدنيا لما ينفع الناس فى بنائهم المدنى والحضارى إلى التقشف والزهد فى الدنيا، وترك العمل فيها بمفهوم خاطئ للتوكل على الله،

تاركة بذلك للذين أنكروا هذا الجانب الروحى فرصة التقدم المدنى والحضارى البعيد عن قيم الإيمان بالله وتوحيده، وهذا شـر للإنسـانية لا يقف فى سـبيله إلا منهج هذه الأمة الوسـط التى تكون بصفتها هذه شـاهدة على الناس أجمعين، فتكون بارتباطها بقيم السماء أفضل الأمم الإنسانية، لما تتمتع به من تقوى وإيمان، ويكون المختار من هذه الأمة رسـولاً من عند الله إلى البشـرية جمعاء هو أفضل أفراد هذه الأمة، وبالتالى أفضل أفراد البشرية (وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ).

ولكن هذه الشهادة على الناس: (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهو ما نسميه بتعبير معاصـر: قيادة الناس، ليسـت مجرد أمر واقع ليس له أسـبابه ومبرراته وأسسـه. إن لهذه الشهادة على الناس –أو بالتعبير المعاصر قيادة الناس- قوانينها العاملة الفعالة، بحيث تتحقق عند تحقق أسـبابها، فتكـون النتيجة هى هذه الشـهادة أو هذه القيادة. إن هـذه الشـهادة لها ركائزها من الإيمـان بالعقيدة، والاستمسـاك بالعبادة، والتحلى بالأخلاق الفاضلة، والابتكار الفكرى المسـتمر فى المعاملات، على أسس منهج القرآن وشـخصية الرسـول. وأحسـب أن المجتمعات المسـلمة اليوم قد فقدت مقومات هذه الشـهادة، أو القيادة، وسـبقتها إلى التمسـك وإلـى تطبيق هذه المقومـات مجتمعات فى الغرب والشـرق على السـواء. أحسب أن الإسـلام ومقوماته للشهادة أو القيادة قد طبقتها شعوب فى الغرب وأخرى فى الشرق، بينما فقدنا نحن الذين نملك القرآن هذه المقومات، فقدنا هذه الشهادة وهذه القيادة.

القـرآن طاقة وروح ونـور، يمد المؤمنين به والمتمسـكين بهديـه بطاقة خلاقة وروح بناءة ونور يهدى للترقى المستمر. والقرآن ليس مجرد شعارات؛ فإن الشعارات لا تبنى إنسـانًا خُلُقه القرآن، ولا مجتمعًا منهاجه القرآن، ولكن العمل والكفاح والعلم والأخلاق هى التى تبنى إنسـانًا خُلُقه القرآن. فإذا توفرت هذه الصفات فى إنسان فقد أخذ من القرآن هدْيَه وروحه وطاقته ونوره.

وحقيقة الأمة أشـار إليها القرآن فى مواضع أخـرى، وخاصة فى التقرير التالى:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ

تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٤]. فالحديث هنا موجه إلى الذين آمنوا بالرسالة الخاتمة أن يتقوا الله من أعماق الضمير والنفس التى تؤمن بما تتقيه وتقدره حق قدره، وأن يستمر هؤلاء المؤمنون المتقون على إسلامهم الوجه والوجهة لله سبحانه وتعالى، فتكون له وحده الدينونة، ويكون الدين كله له وحده.

ثم يوضح القرآن أهمية الوحدة أو الاتحاد فى حياة هؤلاء المؤمنين المسلمين، وهى تنبع من الالتفاف الفكرى والعقائدى والشعورى والسلوكى حول المنهج القرآنى بإيمان بمحتوى هذا المنهج وبتطبيق لأحكامه. هذا المنهج هو الأساس والقاعدة لهذا التجمع الإيمانى الإسلامى، وهذا التجمع الإيمانى الإسلامى هو الذى يصفه أو يسميه أو يدعو إليه القرآن فيما يقرره من حقيقة الأمة؛ الأمة المؤمنة المسلمة التى تضم المسلمين المؤمنين بالقرآن وبالرسول الخاتم.

هكذا يجب أن يعيش المسلمون فى كل عصْر أمة واحدة، تلتف حول منهج الله، وتقيم منهج الله، وتدعو إلى منهج الله، ﴿ ... يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤].

ويجب أن تدرك وتعى هذه الأمة إمكاناتها المتعددة النابعة من مقوماتها كأمة يعيش أفرادها فى واقع يريد من كل فرد منها عطاء بقدر الطاقة فى سبيل خير المجموع، حيث تبنى حياة هذه الأمة وصلات شعوبها على الفكرة الواحدة التى يؤمن بها الجميع، ويبذلون فى سبيلها النفس والنفيس. ومن ثم تتجمع إمكانات هذه الأمة البشرية والعلمية والثقافية والاقتصادية والعسكرية ...إلخ؛ لتحيا بهذا المنهج فى كل عصر، خاصة فى هذا العصر الذى نعيشه، والذى يعتبر عصر التجمعات والتكتلات فى صورها المختلفة. فالأمة هى الباب الذى ينبغى على الشعوب والدول الإسلامية أن تدخل منه على الله تبارك وتعالى بإخلاص له وتقوى لتقيم وتطور أبنيتها المستقلة فى إطار من توجيهات منهج الله. وبهذا وحده يمكن أن يكون لها كيان مؤثر فى هذا العصر، وفى كل عصر، وإلا فإن آحاد هذه الأمة المتفككة غير المتحدة أو المترابطة لن يكون لها كيان مؤكد، فضلا عن أن مشاكلها كآحاد سوف تستغرق طاقاتها، وربما يصعب حل هذه المشاكل حلولا فردية من جانب واحد، بينما الحل يكمن فى تبادل الإمكانات المختلفة بين هؤلاء الآحاد ليعوض النقص هنا الزيادة هناك؛ وليتضافر

الجميع فى إطار وجهة واحدة نحو النهضة الشاملة وما تتطلبه من استغلال الإمكانات المتاحة لدى الجميع فى صالح الجميع.

إن هذه الأمة هى أمة وسط، بمعنى أنها تجمعها الوسطية فى كل مقوماتها كأمة. هى أمة وسط من منطلق طبيعة الإنسان ذاته المكون من جسد وروح لكل واحد منهما احتياجه ومقومات حياته.... فى العقيدة وفى العبادة وفى الأخلاق وفى المعاملات والنظم الاجتماعية بكل محتوياتها السياسية والاقتصادية والقضائية والتشريعية... وهى وسط من منطلق العمل للدنيا والآخرة معا، فلا تمحو جانبا منها فى سبيل الآخر، فيكون التطرف الذى يخرج عن الوسطية المطلوبة....

ونحن نعلم من علم النفس البشرى أن الوسط هو أكثر درجات الصحة والاعتدال. وكما تنطبق هذه الوسطية على الفرد الصحيح المعتدل فإن مضمونها ينطبق على الدولة وعلى الأمة، ومن ثم فإن مفهوم الوسطية للأمة يكتسب فعاليته من كونه أكثر الأوضاع صحة واعتدالا، وبخاصة فى الواقع التطبيقى. ومن هنا فإن التطرف يمينا أو يسارا مخالف الوسطية التى هى قوام بنيان الأمة فى كل مقوماتها.

وليس مطلوبا فى الإسلام أن تلغى النظم الفردية البحتة مصالح الجماعة من أجل بلوغ غاياتها الأنانية، كما أنه ليس مطلوبا من النظم الجماعية أن تضحى بالحرية الفردية ومصالح الأفراد المشروعة، وإنما المطلوب هو النهج الوسط الذى يحفظ على كل من الفرد والجماعة حقهما فى الحياة الحرة الكريمة الموصولة بمنهج الله القرآنى الخالد.



٢

في معية الرسول ﷺ

فى

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾

[آل عمران: ٣١-٣٢].

الحديث القرآنى هنا يستوقف القارئ ليتدبر عدة تقريرات قرآنية أخرى تتصل بموضوع حب الله، ليتجه إليها الفكر بمجرد قراءة هاتين الآيتين.

التقرير الأول ورد فى سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]. والتقرير الثانى ورد فى سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]. والتقرير الثالث المتصل بهذا الموضوع من حب الله ورد فى الآية ٢٤ من سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٤].

الحقيقة أن حب الله ليس ادعاءً فارغا من محتوى العمل المثبت له والدال على صدق فحواه؛ ولذلك يقرر القرآن أن حب الله فى الحقيقة لابد فيه من الاتجاه الفكرى والنفسى والقلبى والروحى إلى شخص مجرد بذاته ومحدد بدعوته التى يبلغها وعقيدته التى يدعو إليها، ومبادئه التى ينادى بها. ذلك الشخص المحدد هو رسول من عند الله، بل هو خاتم الرسل قاطبة، حامل رسالة الإسلام الأخيرة، ومبلغ كلام الله الذى نزله الله على قلبه بواسطة الروح الأمين، فى صورة بيانية عربية هى القرآن.

تعلمنا آيات سورة آل عمران أن هناك بابا يجب الدخول منه على الله تبارك وتعالى... هذا الباب هو ذلك الرسول الخاتم.. ومن خلاله شخصيًا بما يمثله من مقام عند الله -تعالى- عليٌ، وبما يمثله من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات اجتماعية انتظمها جميعا القرآن الذى استوعبه وبلغه هذا الرسول، من خلاله يكون الاقتراب من الله.. ثم باتباع هذا الرسول الخاتم تكون صدق الدعوى بحب الله. لا حب لله بغير اتباع لهذا الرسول.. ذلك هو الحب الصادق، الحب الحقيقى، الحب عن علم وعن إيمان، وعن شهود لحقِّ قدْرِ مقام الألوهية الذى كان الرسول أكثر الناس علما به.. فهو أعلم الناس برب الناس، وأكثر الناس خشية لرب الناس، وأكثر الناس حبا لرب الناس.. كل ذلك فى إطار التوحيد الحق الخالص الذى لا تشوبه أىُّ شائبة من شرك خفى أو أخفى.

والحقيقة أن الناس يختلفون فى مذاهبهم وعقائدهم.. فمنهم الكافر بالله، ومنهم المشرك بالله، ومنهم المؤمن بالله. وإن الكافرين والمشركين لا يحتاجون إلى بيان، فهؤلاء ليس فى قلوبهم حب لله، بل لا يقرون بأن هناك إلها، أو أن هذا الإله يمكن أن يتجه إليه الناس بالمحبة. أما المؤمنون فهم يتفاوتون فى الدرجة فيما يتعلق بفحوى إيمانهم، أو بعبارة أخرى بمفهومهم عن الإله الذى يؤمنون به.

وفى هذا الإطار ضل كثير من الناس، وانتشرت العقائد غير الصحيحة عن فكرة الإله وحق قدر الإله المعبود تبارك وتعالى. ومثال ذلك اليهود والنصارى والبوذيون والزرادشتيون وغيرهم ممن يؤمنون بإله، ولكن عن غير تقدير هذا الإله حق قدره، وهم وأمثالهم الذين يقرر القرآن بشأنهم: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٦٧] ويمكن أن نقول باطمئنان تام: إن المفهوم السليم عن الإله المعبود هو المفهوم الذى جاء به القرآن، وهو كلام الإله الذى أنزله بالوحى عن طريق وساطة الروح الأمين، على قلب

خاتم المرسـلين فى فترة من فترات التاريخ الإنسانى فى الأرض كانت هى زمان بعثة هذا الرسـول، وزمان تبليغ هذا الرسـول للقرآن، حتى اكتمل الدين الذى كان الرسول الخاتم مسئولا مسئولية كاملة بإذن الله فى تبليغه: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ...﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

إن منطـق الأمور بالنسـبة للعقيدة فى الإله قـد جعل هذا القرآن هـو النور الذى يهدى الإنسـان للعقيدة الحقة الصادقة العلمية المحتوى فى شـأن الإله الذى يؤمن به النـاس ويعبدونـه. ومن هنا كانت كل دعوى بحب الله لا تتقيد أو تسـتنير بهذا الهدى القرآنى هى دعوى غير علمية المحتوى. لقد جاءت هذه الدعوة القرآنية تحثُّ الإنسانية ابتداء على العلم الذى ينفع الناس ويوضح حق قدر الإله، وحق قدر الإنسـان ذاته على استيعاب العلوم عن طريق الأدوات الأساسية المعروفة من اللغات المقروءة والمكتوبة من وسـائل تحصيـل العلوم، وهى جميعا الوسـائل التـى عبر عنها القـرآن فى أولى آيـات التنزيل بتعبير (القلـم). فالقلم ينتج عنه مكتوب وهـذا المكتوب يكون مقروءا، والمكتـوب لم يحدده القـرآن بتحديد معين، بل تركه مفتوحا ليتخذ مع تطور المعرفة والعلوم بنتاج الفكر الإنسانى، ما يتخذه من صور وأشكال مرئية ومسموعة أو مقروءة، ومنظورة أو محسوبة أو مستنتجة، أو مستنبطة، أو محفوظة.... إلخ بالموضوع اللغوى أو الرمـز البياني سـواء كانت ظاهرة مشـهودة أو مختزنة محفوظة. وقـد ربطت أول آيات التنزيـل القرآنى بين الحث على العمل الفكرى لتحصيل المعارف والعلوم، وبين الإطـار العريض الكبير الذى هو مجال هذا العمل الفكرى لتحصيل المعارف والعلوم. ذلك المجال هو الخلق كله؛ أى الكون كله بمخلوقاته كلها. والمعرفة هى دور الإنسـان الأصيل فى الأرض، وواجبه اللازم من لدن آدم عليه السـلام وإلى أن تنزل هذا القرآن بالوحى على خاتم المرسـلين ﷺ وهو دور لا نهاية له؛ لأن نشاط الإنسان الفكرى فى مجـال تحصيل المعارف والعلوم يتعلق بالمخلوقات؛ أى بالكون كله ومخلوقاته كلها، وهو مجال فسيح ينتج عنه أمران:

الأول : ازدياد القدر من المعرفة بهذا الكون باستمرار النشاط العقلى للإنسان.

الثانـى: عدم إمكان وصول الإنسـان إلى معـارف نهائية قاطعة عـن كل الكون وكل المخلوقات فيه. وهو الأمر الذى يعنى -ضرورة- استمرار قيام الإنسان بهذا الدور الخاص بزيادة القدر المتاح له من المعارف إلى أن تقوم ساعة حساب الناس ويرث الله الأرض ومن عليها.

كل هـذه الأمـور يوضحها التقرير القرآنـى التالى الذى كان بدايـة آيات التنزيل، وقاعدة الانطلاق الفكرى للإنسـان فى إطار الإيمـان بالله وعبادته، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلـق: ١-٥]. من هنا كانت معرفة الإله المعرفة الصحيحة السليمة مقرونة باتباع هذا الرسول الذى يحمل هذا الهدى القرآنى للإنسان وللجانّ على السـواء. ولكن مع ذلك كله فالإنسـان يكابر بطبعـه، ويتطاول على الحق بطبعه، وهو فى هذا يتصف بما بينه القرآن من صفات لصيقة به كإنسان، وهى الظلم والجهـل، وهمـا ناتجان عن حمل الإنسـان للأمانة، وهى العقل الحـر الذى تتولد عنه الإرادة الحرة، وبالتالى المسـئولية.. هـذا العقل هو مناط الزلل والانحراف والبعد عن فهـم حق قـدر الإله مادام ابتعد عن توجيهات العلم القرآنى، ولم يتدبر آيات القرآن، أو مادام جهل هذا العلم القرآنى ولم يدركه، أو مادام عادى هذا العلم القرآنى ولم يقرأه.

ففـى إطار هذا العلم القرآنـى والإيمان به تكون إنارة السـبيل أمام العقل ليعمل فى ضوء الإيمان بالله، ذلك الإيمان الذى ينتج بدوره العلم الإنسـانى النافع للإنسانية، والـذى يحتوى على الحـق الذى يحتويه الكـون كله بمخلوقاته كلهـا، والذى قال فيه القرآن كلمته الخالدة منسـوبة إلى الله تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن فهم هذا القرآن فهما عصريا –أى بمفاهيم تتناسب مع عصرنا وما بعد عصرنا لمن يأتون بعدنا– هو صمام الأمان لهذه الإنسانية الشاردة عن خالق الناس، والمستغنية كما يبدو عن رب الناس استغناء يظن معه أهل الأرض أنهم قادرون عليها... الأمر الذى يعتبر نذيرًا بنفاذ سـر القدرة الإلهية والإرادة الإلهية بالنسـبة لمصير الإنسان نفسه.. فمتى يكون هذا؟

الله وحده أعلم.. هل اقترب الإنسـان المعاصر من هذه المرحلة؟ الله وحده أعلم.. القرآن يقرر: ﴿ ...حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ ...۝٢٤ ﴾ [يونس: ٢٤] هل هذا الأمر يأتى من الله بفعل متصل بالكوارث الطبيعية الكونية؟ أو يأتى بفعل الإنسان نفسـه بتدمير وإنهاء وجوده الحضارى على هذا الكوكب؟ الله وحده أعلم. فالإنسـان

يملـك من قوة التدمير مـا يمكنه من أن يقضى قضاء نهائيا على المدنيات والحضارات المعاصرة.. فهل هذه هى نهايته يأتيها بنفسـه وَفْقًا لقدر الله المقدور؟ أم أن وسـائل التدميـر التى يملكها الله تبارك وتعالى هى التى سـتدمر هـذه المدنيات والحضارات بفعل من أمر الله الذى هو واحدة كلمح بالبصر، ويكون هو زمان القيامة التى يعقبها البعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب؟ الله وحده أعلم..

لكل ذلـك يقرر القرآن الحقيقـة الصادقة التى تناولناها فى بدايـة هذه الكلمات، وهى حقيقة كون الرسـول ﷺ فى شخصه وفى عقيدته وعبادته وأخلاقه ومعاملاته الاجتماعية –كلها يجمعها القرآن- هى السبيل الأوحد لحب الله عن صدق وعن معرفة حقة، وعن إيمان بالله مع تقديره حق قدره من التنزيه وعلو الشأن، وبالتالى ضرورة اتبـاع هذا الرسـول الذى هو أمـل خلاص الإنسـانية، وليتحقق بهذا الاتبـاع حب الله الصـادق: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) ليـس ذلك فقط، بـل إن الاتباع لهذا الرسـول بصدق وإخلاص وإيمـان يحمل معه خيرا كثيرا من عند الله يأتى للإنسـان، فيعدل من حاضره ومسـتقبله ومصيره فـى الدنيا والآخرة: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) رحمة من عند الله الذى يتلمس لكل فرد من الإنسانية مثقال ذرة من عمل أو اعتقاد ينجيه مما ينتظره حقا من حسـاب يوم القيامة (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وبعـد هذه التنزلات الرحمانية من الله تبارك وتعالى يستمر الحديث بعد أن يبين الطريق ويضىء معالمه: لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد هذا الرسول، وبعد هذا القرآن: (قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ).

الحب شـىء عظيم، بل ربما كان أسـمى ما فى الوجود من عاطفة يمكن أن يتحلى بها إنسان. وحب الله أعظم شىء. بل ربما كان أسمى ما فى الوجود من دلالة على صدق دعوى الإيمان يمكن أن يتحلى بها إنسان. أن يكون الإنسان محبا لله فذلك شىء عظيم، وأعظم منه أن يكون محبوبا من الله، وقمة العظمة أن يكون الإنسان محبا لله ومحبوبا من اللـه، وهو ما يؤكده التقريـر القرآنـى﴿ ... فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ..﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤] وذلك بشـأن ارتداد بعض المسـلمين عن الإسـلام. والحقيقة أن محبة الإنسان لله كما قلنا هى منهاج عمل وسلوك قوامه اتباع الرسول والهدى القرآنى الذى جاء به هذا الرسـول ﷺ، وهداية الاتباع هى فضل من الله يؤتيه من يشـاء من الناس،

وهـى غير هداية الإبلاغ التى تعم جميع الناس. الأولى: هداية الاتباع، عبر عنها القرآن فى تقريره: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦] والثانية: هداية الإبلاغ، عبر عنها القرآن فى تقريره ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. أمـا أن هداية الاتباع هى فضل من الله يؤتيه من يشـاء فذلك لسعة رحمة الله لكل شىء، فى الأصل، واختصاص أفراد مختارين يضفيها الله عليهم ﴿ ... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (الأعراف).

وذلـك معنـى تعبيـر (وَاسِعٌ عَلِيمٌ) الـذى ورد فى آية سـورة المائـدة ٥٤، والتى تتناولها هنا لتعلقها بمعنى المحبة والاتباع. فالذين يبلغون مرتبة حب الله لهم وحبهم للـه هم أفراد بلغت قوة الإيمـان عندهم حد اليقين الحق الذى فيـه ارتباط القلب بالله وبرسـوله الخاتم إيمانا واتباعا وفداء، باعوا أنفسـهم وأموالهم لله فاشتراها الله بثمن هو الجنة. أولئك الذين بلغوا هذه المرتبة من حب الله لهم وحبهم لله يمتازون بصفات النفس الرحيمة بإخوان العقيدة الواحدة، والنفس المستعلية استعلاء الإيمان على غير المؤمنين.

وحب الله للإنسان فضل وعطاء منه له لا يؤتى إلا لمن ارتبط قلبه وفكره بالقرآن وبالرسـول الذى جاء مصدقا لما بين يديه من رسالات السماء جميعا، وخاصة التوراة والإنجيل، وجاء خاتما لحلقات سلسلة أنبياء الله ورسله للإنسان.. بما يكون الدين معه قد بلغ اكتماله تماما، هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بحبه، فهداهم برحمته لاتباع قرآنه ورسـوله الخاتم هـم: ﴿ ...أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائـدة: ٥٤] الذيـن اتخـذوا الله وليًا ورسـوله وليًـا وبعضهم أولياء بعض: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١] هؤلاء: ﴿ ... يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المائدة: ٥٥]. من يدخل فى زمرتهم فهو موصول بالله يجد آثار أعماله وسلوكه المؤمن المراقب لربه عن حب قوامه اتباع الله ورسـوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٦].

إن الحب لله يجب أن يكون خالصا لله وحده، ويجب أن يكون مصحوبا باتباع الهدى القرآنى الذى جاء به الرسول الخاتم. والقرآن يقرر أن هذا النوع من الحب الذى فيه إيمان بالله واتباع لأحكامه القرآنية لا ينبغى أن يزاحمه شريك لله فى الألوهية، فالله واحد أحد، والله وحده هو الذى تتجه إليه القلوب والعقول والأرواح بالعبادة والخضوع الذى يحمل معنى الخشية والعبادة لله الذى بيده وحده كافة أواصر القوة والتأثير والنفع والضر والثواب والعقاب، وهى عقيدة المؤمنين وصفة المحبين المحبوبين.

أما إشراك البشر فى هذه الخاصية التى ينفرد بها الإله فهى فى الحقيقة الجهل بحقيقة التوحيد، والجهل بحق قدر الإله تبارك وتعالى، وهو شرك يؤثر على صفاء النفس البشرية واتجاهها بالكلية لله الواحد بالعبادة والخضوع، وهو جهل وشرك قد يقع فيه الإنسان ويجد آثاره الضارة يوم الحساب؛ ولذلك يحذرنا القرآن منه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

وقد ورد فى الأثر أن الله إذا أحب عبدا اصطفاه فإن رضى عنه اجتباه. والاصطفاء الإلهى الناتج عن المحبة يأتى فى قمته أنبياء الله ورسله الذين اصطفاهم الله لإبلاغ رسالاته: ﴿ ... يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٥]. ثم يأتى بعدهم الصالحون من المؤمنين من عباد الله الذين اصطفاهم الله لاتباع هدى أنبيائه ورسله، وهؤلاء وأولئك جزاؤهم فى الدنيا اجتباء ورضاء ينتج عنه فى الآخرة نعيم مقيم ودائم إلى ما شاء الله لهم أن يمتد بهم الزمان، كما ينتج عنه فى الدنيا حب الملائكة وحب الناس.

وحب المؤمنين لله هو أعلى أنواع الحب؛ لأن فيه وصل الدين بالدنيا، ووصل الدنيا بالآخرة بالله رب العالمين.

الحب هو شغل قلب بمولاه فى كل نفَس من أنفاس الحياة. الحب استغراق الإحساس بظهور الله والشوق لرؤية نوره فى قداسته وعلاه. ولما كانت رؤية ذات المحبوب مستحيلة على العبد المحب فإن هذه الاستحالة هى وقود احتراق القلب الدائم حضورا مع الله واستحضار لأسمائه ورؤية الحكمة فى آلائه والتفكير فى نعمائه، حضورا واستحضارًا يدوم بهما الترقى بالقرب من المحبوب. الصمت فيه مناجاة للمطلوب، وانجذاب للمحبوب تتولد به السكينة فى النفس والاطمئنان فى القلب والانشغال فى الفكر والهيمان فى الروح، وكلها تعبيرات حال عبد ملك حبُّ الله عليه شغاف قلبه، ولا يزال يعرج فى القرب من ربه فى سماء روحه بروحه، يركب طبقا عن طبق فى علو، ويتجاوز سماء تلو سماء فى دنوٍّ.

وكلما ازداد قربه ودنوه تجاوز غيابه إلى حضوره وصفت زجاجته وصفا مصباحه، حتى يحيط به الفتاح، ويشرق نور المصباح من زيت موصول بنور لم تمسسه نار، فيتصل بنور من روح منفوخ فيه ويصبح العبد فانيا عن الدنيا والآخرة، فى حب الله يتجاوز الدنيا والآخرة بما فيهما من جنات آجلة وعاجلة، إلى جنة القرب من الله، والوجد المشع من الإيمان بوجوده، متجاوزا شهود وجوده إلى وجود مشهوده، ثم ماحيا لوجود شهوده إلى السجود لمعبوده، وهو عندئذ أقرب ما يكون إلى محبوبه ومحبوبه أقرب ما يكون إليه منه، وهو عندئذ مُطَهَّرٌ محبوب. تظهر فى ذاته تجليات أسماء الله وصفاته، يبصر بنور من عطاء محبوبه، ويسمع بنور من عطاء محبوبه، وتغشى صورة هيكله أنوار بمقدار حبه، وإخلاصه فى حبه، وصدقه، فى حبه، وإمداد محبوبه له بحبه، وعندها يكون بنور روحه موصول بسراج الله المنير وخاتم الأنبياء يستمد من هذا السراج وصلة النور من نور ذات السراج، أو سراج ذات النور، نور العبد الكامل الذى لا يصل واصل إلا إلى حضرته المانعة ولا يهتدى حائر إلا بأنواره اللامعة. فالمقام الأعلى لحب العبد لله موصول بالضرورة بسراج الله المنير، وبقدر استعداد المحب يكون عطاء المحبوب بواسطة المصطفى المحبوب الذى بالاهتداء بنوره تتلاشى الحيرة مع الله، وتستقر المسيرة إلى الله، وتكون معية المحب لله بعد المعية لرسول الله. وبهذه المعية يكون التعبير عن صدق حب الله لأن فيها مداد الطاقة المستمد لنار الحب المشتعلة فى قلب المحب.

المحبة استغراق فيه جذبة للفكر وحياة للقلب بين رغبة ورهبة، فيها الأسماء

الحسنى تحجب الآثار وفيها الأنوار تغطى ظل الأغيار. الجمع فيها باب لمحو الأنا فى الفناء. والغرق فيها حفظ للمقام والبقاء، حب الجمال فيها هو رغبة للجميل، وخوف الجلال فيها هو رهبة للجليل. وأقصى ما يراه المحب فى فنائه سلبية وجوده فى إيجاب فاعلية وجود الله. ثم الارتقاء من الفناء إلى البقاء بإيجاب فاعلية ذات تستمد من نور كلام الله ونور اسم الله ونور رسول الله. ولا رؤية لله لا فى الفناء ولا فى البقاء، وإنما هو اقتراب من أنوار ذات رسول الله ترقيا من شهود هيكله الشريف إلى شهود نور سراجيته المنيرة؛ منها يكون الضياء لمعالم الطريق فى استمرار عبادة الله التى هى صدق دليل العبد على دعوى حب الله. فكيف يكون حب عبد لمولاه ثم لا يطيعه فيما يحبه ويرضاه، ولا يتعلق قلبه بحب من اختاره واصطفاه؟! ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ومحبوب الله لا يضره ذنب، فهو فى هفواته يشهد عبوديته لمولاه، وفى توبته يشهد بالتنزيه لأسماء الله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ مفوضا الأمر كله لله منزها إياه فى علاه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمحبة لا تكون إلا بعد علم بالمحبوب وإحصاء لأسمائه. وفيها تجاوز لمظاهر جماله وجلاله، وجناته ونيرانه إلى الحظوة عنده بالحب والرضا، القرب فيها هو عين النعيم، والبعد عنها هو عين الجحيم..



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ما خفى على الإنسان يكون غيبا. سواء أكان ذلك الذى خفى أمرا قد حدث فى الماضى أم سيحدث فى المستقبل، وهذا كله داخل فى إطار ما نسميه «غيب الأحداث» الذى تناوله القرآن بالنسبة للمستقبل فى بداية سورة الروم، كما تناوله فى سورة الكهف فى أحداث موسى عليه السلام والعبد الصالح الخضر. وهنا يتناول القرآن «غيب الأحداث» بالنسبة للماضى، فيقرأ أحداثا بالنسبة لآل عمران فى الآيات من ٣٥ حتى ٤٣ من سورة آل عمران فيما يختص بميلاد مريم وكفالة زكريا لها ودعاء زكريا بأن يهبه الله ذرية طيبة وكيف نادته الملائكة وهو قائم يصلى بأنه سيرزق بيحيى، النبى الصالح، ثم أخيرا كيف اصطفى الله مريم وطهرها واصطفاها على نساء العالمين فى زمانها.... إلخ ما ورد فى الآيات السابق الإشارة إليها متعلقا بهذه الوقائع التى حدثت فى الماضى بالنسبة للرسول ﷺ فيما يتصل بآل عمران. ولا يريد القرآن هنا أن يؤكد عدم معرفة الرسول بهذه الأنباء، وإنما نفهم أن القرآن يريد أن يقرر حقيقة «الصدق» فيما يرويه الرسول، باعتبار أن هذه الرواية وحى موحى به من عند الله تبارك وتعالى لأحداث وقعت فى الماضى، ولا تشوبها أية شائبة من شك حول صدقها وصدق فحواها، كما يريد القرآن أن يقرر الاستقلالية للرسول فى المعلومات التى يحصل عليها باعتبار أن هذه المعلومات ربانية المصدر موحى بها من الله بواسطة الروح الأمين، وليس للرسول ﷺ فيها أى خبرة سابقة بما جاء عن نفس هذه الأحداث فى الكتب السماوية السابقة؛ وخاصة التوراة والإنجيل. فالرسول لا يستمد معلوماته من التوراة أو الإنجيل، إنما يستمدها مباشرة من الله تبارك وتعالى الذى هو الحق ويملك الحق ويعلم الحق وينزل الحق بالقرآن، وحى يوحى به إلى الرسول ﷺ بواسطة الروح الأمين الذى يأتى بالخبر الصادق اليقين الذى يكون حجة

على غيره من المعلومات التى قد تتناول نفس الموضوع، سـواء فى السابق أو اللاحق على نزول الوحى القرآنى.

فالتاريخ روى بالحق والصدق بالنسبة للأحداث السابقة فى هذا القرآن الذى يعتبر أوثـق مصدر دال على هذه الأحداث، إليه ترد الأقـوال والروايات الأخرى والمعلومات الأخـرى لتقـاس وتراجع عليه، بحيث يمكننا أن نقول بيقين إن هذا القرآن هو المرجع الوحيد الصواب، ذو الحجة المطلقة للأحداث التاريخية جميعا، وإليه يرد الأمر للتحقق مـن كل أمـر، فهـو: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلـت: ٤٢] وبهذا يرتقى الرسـول ﷺ نفســه ليكون العنصر الأسـاس المبلغ لهذا القـرآن بمـا يرويه من حق... وليس من الضرورى عندئذ أن يكون الرسـول قد شـهد بنفسـه أو عاصر هذه الأحداث الماضية، وإنما يكفى أنه يروى هذه الأحداث وأخبارها لتكون صادقة وكاملة الحجة والحجية والصحة؛ لأن الذى يرويه الرسـول لا ينطق به هو عن الهوى، وإنما هو وحى يوحى؛ ولذلك يقرر القرآن مؤكدًا بالنسبة لعدم ضرورة المعاصرة بالنسـبة لرواية الأحداث التى يحدث عنها الرسول: ﴿ ... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[آل عمران:٤٤].

كما يقرر القرآن بالنسبة لحجية هذه الروايات فى مضمونها القرآنى أنها منسوبة إلى الله تبارك وتعالى الذى لا تخفى عليه خافية من السـر والعلن من الأمور والأشياء فيمـا نعتبره نحـن ماضيًا وحاضـرًا ومسـتقبلاً: (ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ....) وربما يريد القرآن أيضا أن يسجل هذه الحجة على ما روى من أخبار وأحداث تناولتها الكتب السـماوية السـابقة، وبخاصة التـوراة والإنجيل بصورة لا تطابـق ما جاء فى القـرآن، وذلك نتيجة التحريف والتبديـل الذى اقترن بهذين الكتابين، ومن ثم لا يجوز أن يقتـرن بها نفس مسـتوى الحجية القرآنية، خاصة أن السـياق، موضع حديثنا، هو أحداث خاصة بآل عمران الذين ولد منهم عيسى ابن مريم عليه السلام.

إنه بغير هذه الحجية المطلقة للقرآن فإن الحق يكون موضع شـك، أو يكون غير دقيـق أو غير كامـل أو غير صحيح من أصله، أو تختلف بإزائه الآراء والتفسـيرات.... أمـا وحجية القرآن مطلقة فإن الحـق يظل به وفيه محفوظا، لا تختلف بإزاء مضمونه

الآراء والمعتقدات. ويأتى هنا مقام الرسول ﷺ ودوره باعتباره المختار من الإنسانية الذى أوحى الله إليه هذا القرآن فى حجيته المطلقة، وبلغه الرسول كما نزل عليه باللفظ والمعنى، ذكرا محفوظا من الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

ويقرر القرآن فى سورة الحاقة أمرا بالغ العمق فى شأن حجية هذا القرآن حين يقرر: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] فلو أن الرسول اختلق على الله قولا غير قوله ونسب إلى الله ما لم يقله، لكان الله بقدرته وقوته قادرا على إيقاف تنزيل القرآن على الرسول بسلبه خاصية الإدراك الروحية الواعية التى كانت محلا لتلقى القرآن وعقله حين تلقيه (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾) والوتين هو عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه. وليس هناك قوة مخلوقة يمكنها أن تتدخل لتؤثر على هذه القدرة والقوة لله تبارك وتعالى، وفى ضمانها إيصال الحق إلى وعى الرسول القلبى؛ أى العقلى الواعى، أو الروحى الواعى. وليس فى هذا أى إنقاص من قدر الرسول كما قد يبدو من خلال النظرة السطحية لمضمون الآيات، بل هو إعلاء لشأن الرسول ﷺ أى إعلاء، فهو قد أبلغ القرآن باللفظ الذى أوحاه الله إليه، ومن ثم لم تنقطع الصلة بين الله ورسوله فيما تجلت به من إيحاء القرآن بواسطة الروح الأمين جبريل.

إن ذلك الذى تقرره النصوص لم يحدث، لأن الرسول أمين على إبلاغ الحق الذى تلقاه بالحق والصدق والكمال والتمام؛ ولذلك يقرر القرآن فى نفس سياقه لهذه الآيات -ومنذ البداية لهذه السياقات- أمرًا بالغ الأهمية، فيه توضيح للمقام العالى للرسول الذى أضفاه الله عليه، وجعله دائما متصفا به، متحليا به، ولم يسلبه منه أبدا، يقرر القرآن: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٠] ثم يقرر لنفى الشبهة عن الرسول ذاته، وبالتالى عن مضمون الكلام القرآنى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١] وأيضا: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٢] ثم الحقيقة الخالدة الأبدية التى لا لبس فيها ولا شك: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٣] ولذلك فإن القرآن هو حق اليقين: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحاقة: ٥١].

فــى موضــع آخــر يقــرر القــرآن: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقــان: ٣٣]. لهــذه الآية معنى عميق يتصل بهذا المفهوم من الحجية التى للقرآن، فالجدال من صفة المنكرين للرســالة القرآنية، وهو وســيلة المنكرين فى ذلك العصر الأول، كما أنه يستمر مع مرور العصور، ويظل إحدى وسائل مقاومة هذه الرســالة فى كل عصــر. ومن ثم فإن الحجج تتوالى على مر العصور وتختلف حســب اختلاف المستوى الفكرى والعلمى والثقافى للمفكرين فى العصر المعين.

القرآن يبين لنا أن تلك الحجج الجدلية تجد دائما الرد المفحم عليها فى الحق الذى جاء به القرآن، فهو الرد بالحق الذى لا ريب فيه، وهو الرد بالحجة المقنعة والمتمشية تماما مع الحقيقة فى الكون والأرض والإنســان فيها، ســواء تعلقت بتاريخ أو بحاضر أو مستقبل. ذلك الرد بالحق هو أحسن تفسير عقلى لتلك الحقائق، ومن ثم فإن النشاط العقلى غير المتجنى أو المنحاز أو المنكر أو المغرض سيجد فيها دائما ما يريح الفكر ويقنع العقل ويشفى الصدر ويريح البال، ومن ثم نقول بأن الحقيقة القرآنية يجب أن تتخذ كأســاس للحكم على نتاج الفكر الإنســانى فى المجال العلمى وفى كل المجالات، فالقــرآن هو الحكم الأعلــى، لأن الله هو الحكم الأعلى. والقرآن هــو الحق، لأن الله هو الحق. والحق فى القرآن عدل دائما؛ لأن الله هو العدل.

فى موضــع آخر يقــرر القــرآن: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النســاء: ١٦٦]. اللــه هــو المصــدر الذى أوحى هذا القرآن إلى عبده ورســوله. وقد نزل إلى الرســول باللغــة العربية بعلم الله وليس بدون علمه، والله واحد أحد لا شــريك له، والرســول لا يســتطيع أن يفترى على الله آيات كاذبة لسبب بسيط وهو أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

والمصــادر الروحيــة العليا التــى أحاطت بنزول القرآن بواســطة الــروح الأمين جبريل، تشــهد من مقامها الإدراكى أن القرآن أنزله الله بعلمه بواســطة الروح الأمين على الرسول. ولكن الناس فى الأرض ربما لا يفهمون الكيفية التى يشهد بها الملائكة هذه الحقيقة؛ لأن الناس بطبيعتهم يعيشــون فى نمط طبيعى مغاير للنمط الروحانى الذى يعيشه الملائكة. هذه واحدة، والثانية: أن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين، أى غنى حتى عن الملائكة، ومن ثم لا يزيد الأمر حقا أن يشهد الملائكة أو لا يشهدون؛

فإنه هو الحق، وهو أعلى وخير الشاهدين، وكفى به شهيدا (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا) فليس يعوز القرآن دليل آخر غير شهادة الله تبارك وتعالى. فالله وحده هو الذى يملك الحق المطلق، فهو الحق: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ... ﴿٦٢﴾ ﴾[الحج: ٦٢] ومن هنا فإن القرآن هو الحق لأنه كلام الحق، وبذلك يكون الحق كله بصورة مطلقة هو محتوى القرآن كله، وهذه حقيقة ينبغى على المؤمنين استيعابها وفهمها والتمسك بها بكل قوة، وهى الحقيقة التى يقررها القرآن نفسه. فالعديد من آياته كما فى سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٦] وفى سورة آل عمران: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٠] وفى سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ... ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء: ١٧٠] وفى سورة الإسراء: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وغير ذلك من الآيات التى تقرر هذه القاعدة الأساسية والركن الأساسى للمؤمنين، منظور إليها من زوايا كثيرة حسب الهدف من التقرير فى موضع النص القرآنى ذاته، وفى صلة النص بالنواحى التى يتناولها محتواه، أو بصلته بما سبقه أو ما تلاه من نصوص.

والخلاصة أن هناك عناصر أساسية هى قوام هذه الحجية فى القرآن وهى:

١- أنه الحق نزل من الحق بكلام الحق.

٢- أنه لا يأتيه الباطل من أى ناحية من النواحى التى يتناولها بالذكر الميسر.

٣- أنه لا شك فيه أبدا فيما حدَّث به أو جاء فيه متصلا بكافة الحقائق التشريعية أو العقائدية أو العلمية أو التاريخية أو الإخبارية بالمستقبل أو الكونية أو الغيبية.. إلخ.

٤- أنه نزل بعلم الله وبشهادة الله، ولم يكن هناك أى نوع من أنواع التدخل أو التداخل الخارجى، أى تداخل من غير الله، فى هذا الإنزال.

٥- أن الرسول نطق به كما أوحاه إليه الله عن طريق الوساطة الجبريلية، ولم يغير أو يبدل أو يزد أو ينقص منه شيئا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ليس فى هذا التقرير أى إقلال من شأن الرسول ﷺ، وإنما المقصود منه أمران:

الأول: بيان الطبيعة البشرية للرسول.

الثانى: بيان حقيقة الرسالة التى كان يبلغها الرسول.

والأمران متصلان فى دلالة النص، فمحمد بشر كسائر البشر، لم يكن يدعو الناس ليتخذوه إلها من دون الله يتوجه إليه الناس بالعبادة والتقديس... كلا.... إنه كان يدعو الناس إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى توحيد الله سبحانه وتعالى توحيدًا يخضع به الناس خضوعا كاملا لله فقط دون شريك، ويتوجهون به بالعبادة لله فقط دون شريك، ويسلم به الناس اتجاهاتهم وقلوبهم لله فقط دون شريك.

هذه كانت أساسيات دعوة محمد التى وضع إطارها هو نفسه فيما ذكره القرآن بشأنه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] وعقب وفاة الرسول ﷺ أصابت الدهشة والحيرة وعدم التصديق بالأمر كثيرًا من الناس، بل من جلة الصحابة مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حتى قال أبو بكر الصديق قولته الشهيرة التى ردت الأمر إلى نصابه قبل أن يفتن المسلمون: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» وتلا الصديق رضى الله عنه على المسلمين آنذاك الآيات التى هى محل هذا الحديث (الآية ١٤٤ من سورة آل عمران).

هذه الصفة البشرية لمحمد ﷺ التى يؤكدها القرآن كانت مثارا للتعجب من غير المؤمنين الذين كانوا ينتظرون أن يكون الرسول الذى يبعثه الله إلى الناس ذا صفات أو قدرات خارقة، أو أن يكون من الملائكة، وكانت تصرفات محمد ﷺ العادية كبشر تثير تساؤلاتهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٧-٨].

لقد كان من الضرورى أن يكون محمد بشرا يأكل كما يأكل الناس، ويمشى فى الأسواق يمارس نشاطه اليومى فى المجتمع. كما يمارسه سائر الناس... أليس هو رسولاً إلى البشر؟ يخاطب عقولهم وقلوبهم؟! وقد أكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى فى تقريره: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٠] لأن البقاء الأزلى الأبدى هو لله وحده. ولهذا السبب كان محمد ينفى عن نفسه -فيما يحدثنا به القرآن- أىَّ صفات خارقة للطبيعة البشرية يمكن أن ينظر إليه الناس من خلالها نظرة فيها شرك بالله تبارك وتعالى، ومثال ذلك علم الساعة ومتى تقوم، كان محمد يقرر بشأن ذلك ويؤكد أن علمها عند الله وحده: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وأيضا: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. لم يكن محمد يهدف إلى صرف الناس عن الله ليتجهوا نحو شخصه هو، بل لم تكن هذه دعوته ولا رسالته، إنه كان يؤكد صفة عبوديته، ويؤكد عبوديته لله وحده فكان يقول: «لا تعظمونى كما عظمت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».

كان الكفار يتعجبون أن بشرا كسائر البشر يمشى فى الأسواق وهو رسول من عند الله، كيف يكون هذا؟! ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٧-٨] ويقول

القـرآن أيضـا: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

والقرآن يحتوى على العديد من الآيات فى نفس هذا المعنى الذى نتحدث عنه كما فى سورة الكهف وسورة الإسراء وسورة فصلت، وغيرها من السور. لقد كانت دعوته ورسالته هى هداية الناس إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له. وكان يذكِّر الناس عـن طريق القرآن بهذه الحقيقة التى امتلأت بها آيـات هذا الكتاب الموحى به من عند اللـه، والذى كان مصدقا لما بين يديه من دعوات الكتب السـماوية السـابقة، وإن كان هو -أى القرآن- مهيمنا عليها جميعا؛ لأنه كلام الله الخاتم الموحى به بالنص اللفظى والمعنـى، المتحدى به، بواسـطة الـروح الأمين على قلب محمد ليكـون من المنذرين بلسان عربى مبين.

مـن هذا المنطلق يقـرر النص موضع هذا الحديث أمر انقلاب الناس على أعقابهم إذا حدث لمحمد شـىء مـن الحوادث التى تحصل للبشـر؛ ويتعرضون لها فى حياتهم كالقتـل أو الموت: (أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ) أى: عدتم كما كنتم من قبل أن يأتى محمد داعيا إلى الله وحده، وإلى الإيمان به، وإلى عبادته وطاعة أمره والقضاء بمنهاجـه... كمـا كنتم فى جاهليتكم التـى كانت ضالة عن الإله الحـق لا تؤمن به، ولا تتوجه إليه وحده بالعبادة، وإلى أمره بالطاعة، وإلى مناهجه السابقة بالالتزام.

إن محمدا فى شأن هذا الأمر رسول كغيره من الرسل الذين اصطفاهم الله ليبلغوا رسـالاته.... وهـو خاتم هؤلاء الرسـل، اصطفاه اللـه واختاره ليبلغ القـرآن العظيم. والقرآن يدعو إلى الله عن معرفة وعلم يدعوان إلى الإيمان والتقوى والخشية والطاعة والالتزام بالشـرعة والمنهـاج. إلى هذا كان يدعو محمد ﷺ، فمـن أدرك حقيقة دعوة محمـد ﷺ فإنه مسـتمر على الصلـة بالله الواحد الذى لا شـريك له حتـى بعد ذهاب شـخص محمد ذاته. ويسـتمر تحقق ذلك الأمر؛ وهو أن النور الذى نزل على محمد ﷺ محفـوظ بعناية اللـه وإرادته إلى أن تقوم السـاعة.. هذا النور هو أيضـا الفرقان بين الإيمـان والكفر، وبيـن الجاهلية والإسـلام. أما من لم يدرك حقيقـة دعوة محمد ﷺ فأولئك الذين يمكن أن تتغير أفكارهم وتتبدل نفوسـهم وعقائدهم، ويتخلخل إيمانهم

ويتزعزع إســلامهم. ومع ذلك فهؤلاء لن يضروا الله شيئا؛ لأن الله غنى عن الناس، بل غنى عن العالمين، يحفظ قرآنه فى قلوب غير هذه القلوب الضعيفة، ويعظمه فى عقول غير هذه العقول البســيطة. فســنة الله أن يكون هناك دائما فى كل زمان قلوب وعقول مرتبطــة بكتاب الله، وبحب اللــه، وبالرضا عن الله. وإرادة اللــه يمكنها أن تبدل قوما مكان قوم، وناسًــا مكان ناس، وتأتى بقوم يحبهــم الله ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى ســبيل اللــه، ولا يخافون لومة لائم، والله غالب على أمــره؛ ولذلك يقرر القرآن فى ختام الآيات موضع هذا الحديث: (وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا) والله تبارك وتعالى ســيجزى الشــاكرين لــه أن هداهم للإيمان به، وتوحيده التوحيد الكامل بواسطة محمد رسول الله ﷺ.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذه الكلمات القرآنية يقرر فيها الإله تبارك وتعالى جوانب من أخلاقيات رسوله ﷺ ومعدن نفسه الصافى أشد الصفاء. وهى قمة فى بيان أمور أربعة:

١- الأخلاق العالية للرسول ﷺ.

٢- كونه ﷺ رحمة للمؤمنين وسببا لنجاتهم يوم القيامة.

٣- تطبيق الرسول لمبدأ الشورى فيما تقرره من استشارة المقربين إليه.

٤- اتخاذ القرار بعد الاستشارة أو المشاورة بقلب مرتبط بالله لا يعرف التردد، يأخذ بالأسباب ويترك النتائج لتتحقق بأمر الله تبارك وتعالى.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ) «ما» زائدة للتأكيد، ويكون المقصود هو تأكيد الرحمة التى أوتيها الرسول ﷺ فى قلبه نحو المؤمنين بدعوته من قبل الله تبارك وتعالى الذى هو الموجد للإنسان بهذه الصفة. فبرحمة من الله يتحلى بها هذا الرسول كان هينا لينا مع أصحابه.. ليس فى قلبه أو نفسه أى فظاظة أو غلظة.. وإنما كان فى المعاملة والتخاطب يعكس سموا فى الخلق نابعا من لين وطيبة فى القلب، واتساع، وحس مرهف ورحمة وشفقة.. وهى أخلاق جعلت أصحاب هذا الرسول يلتفون حوله ويفدونه بأنفسهم وأموالهم وأهليهم، يحبونه أكثر من حب النفس والولد والمال. وكان هذا الالتفاف المؤيد بالحب الذى فرضته شخصية الرسول بقيمها الأخلاقية العالية، وسلوكها المدفوع بهذه القيم الأخلاقية العليا هو السبب فى تفانى صحابة الرسول وأنصاره فى عصر الدعوة التى أرسل لإبلاغها والدفاع عنها، متمثلة فى تعاليم القرآن وآدابه،

وشـخص الرسـول وأخلاقه. وكان من نتاج هذا الالتفاف القوى حول الرسول أن أمر الله رسـوله بـأن يعفو عن هؤلاء الرجال الملتفين حوله -بسـبب مـا حصل منهم فى غزوة أحد- إذا هفا أحد منهم هفوة.. وأن يستغفر لهم الله من أخطائهم إن هم اقترفوا خطأ أو أتـوا ذنبا.. وذلك فى توجيههم نحو أخلاقيات الديـن الجديد، والقيم الروحية لهـذا الدين، متمثلة فى قيادته التى كان يمثلها آنذاك الرسـول بشـخصه، بحيث يجعل منهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

وقد بلغ الرجال الملتفون حول الرسول هذا المقدار من سمو الخلق وقوة العقيدة وعمق التدبر لقرآن الله، نتيجة إلتفافهم حول الرسول وتلقيهم منه.

والآيـات موضع حديثنـا تؤكد توجيه الله لرسـوله، رغم كونه رسـولا معصوما عن الخطأ ومتمتعا بهذا القدر السـامى من الأخلاق العظيمة، نحو مبدأ الاستشـارة أو الشورى فى الأمور التى لا يكون فيها الأمر وحيا من عند الله. وأحد الأمثلة البارزة فى هذا الشـأن تسوقها لنا كتب السـيرة فيما حصل يوم معركة بدر، حين نزل المسلمون المقاتلـون موضعا سـأل فيه الأتباع رسـولهم أهـو موضع أمره الله بـه أن ينزله فلا ينازعونـه الأمر عندئـذ، أم هو الرأى والحـرب والمكيدة؟ وكانت إجابة الرسـول ﷺ بـأن الأمر أمر الرأى والحرب والمكيدة، فأشـار عندئذ عليه أصحابه أن تعسـكر قوات المسلمين فى مكان أكثر إسـتراتيجية من المكان الذى اختاره الرسول. وغيَّر الرسول فعـلا الموقع إلى آخر نتيجة ما أشـار به عليـه أصحابه. وبهذه المشـاركة من الأتباع فى صنع القرار الذى يتخذه القائد، الرسـول آنـذاك، يتحمل الجميع -التابع والمتبوع باعتبارهم وحدة واحدة- مسئولية النتائج والآثار المترتبة على القرار.

والتقريرات السـابقة تبين العلاقة بين الرسـول ﷺ وبين أتباعه، فهى علاقة ذات طابع خاص فى شـئون الدين والدنيا معا، علاقة فيها رحمة ولين وشـفقة وإحسـان وسـمو أخـلاق لهذا الرسـول الذى يقـود أتباعه، وفيهـا التفاف لهـؤلاء الأتباع حول رسولهم القائد لهم، التفافا عن إيمان برسالته وقيادته بما يحقق التماسك بين الرسول وأتباعه، تماسـكا ينتمى فيه الجميع للعقيدة الواحـدة والوطن الواحد الذى تظله هذه العقيدة. ذلك كله فى ارتباط شـئون الدنيا بشـئون الدين. كذلك سـلوكيات الأتباع فى رعاية الأخلاق تطبيقا لها فى أنفسهم، وانعكاسها فى سلوكهم، فى ظل تحلى الرسول القائد هو أولا فى نفسـه وفى سـلوكياته بهذه الأخلاقيات، بل بالأخلاقيات التى كانت

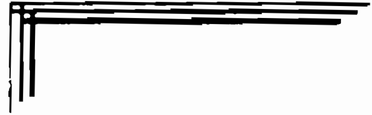
تســمو فى عظمتها عن أخلاق ســائر أتباعه، فصار بها مستحقا أن يكون قدوة لأتباعه يقتدون بهديه وعلمه وسلوكه الأخلاقى. وقد قرر القرآن هذه الميزة للرسول ﷺ حين قرر: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] وحينما وضح الرسول نفسه لأتباعه أن الأخلاق الفاضلة هى أساس الدين الذى هو قوام الدنيا، وذلك فيما قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

هــذه بعض المعانى التى يوضحهــا تقرير القــرآن: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمــران: ١٥٩] والــذى نزل بســبب مخالفة بعض أتباع الرســول أمره يوم أحد. وكان من المفاهيم الأساسية لهذا التقرير القرآنى الذى يليه فى السياق، تقرير يؤكد فكرة التوكل على الله وحده فى شئون الدين والدنيا التى يتصرف فيها الرسول القائد وَفْقَ قاعدة الشورى مع أتباعه الملتفين حوله بالإيمــان والحب والإخاء... والنتائج المترتبة على اتخاذ القرار موكولة إلى الله تبارك وتعالى، مادام القرار نفسه قد تم اتخاذه فى ظل القاعدة القرآنية للشورى، وفى إطار الإيمان بأن قوة الله فوق قوة البشــر، واســتمداد المؤمنين من مدد القوة الإلهية الناتج من الإيمان يؤكد الثقة فى النفس، والثقة فى ســلامة القرار، والثقة فى النتيجة، وأولا وأخيرا الثقة فى الله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].



٣

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة النســـاء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

قيل إن لفظ (كيف) الذى جاء فى هذا النص هو للتوبيخ والتقريع للكافرين. وهو جائز. ولكننا لا نميل إلى هذا المعنى، وإنما نرجح معنى آخر هو الاستفهام عن الأحوال -وهو المعنى اللغوى للفظ- ويكون المشهد كله المتصل بهذا التقرير هو مشهد الموقف الذى يقفه الناس جميعا فى ساحة الحساب يوم القيامة. وهو مشهد تختلف فيه أحوال الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا، وبحسب معتقداتهم بالنسبة للرسالات السماوية، وبصفة خاصة الرسالة القرآنية الخاتمة. ويؤيد ذلك المعنى الذى نقول به الآية التالية -٤٢- للآية موضع حديثنا هذا: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢]. والمشهد الذى تصوره هذه الآية يدور حول محورين:

الأول: مشهد الحساب يوم القيامة وما فيه من أهوال.

الثانى: شخص الرسول الذى يقف موقف الشهادة على غير المؤمنين به، أو على الشهداء من الأنبياء والمرسلين أنفسهم.

والآيات التى سبقت الآية ٤١ من سورة النساء تتناول الذين يبخلون... والذين يأمرون الناس بالبخل... والذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله... والكافرين... والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس... والذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... هؤلاء جميعا اقترنت فى نفوسهم عقيدة الكفر بالله، وما يترتب عليها من عدم الالتزام بأحكام الدين الخاتم الذى أوحى به الله إلى رسوله الخاتم ﷺ.

أحكام هذا الدين المتصلة بالعقيدة أساسا، عقيدة التوحيد بما يقترن بها من الإيمان باليوم الآخر... وأحكام هذا الدين المتصلة بالمال والمعاملات الاقتصادية وما تفرضه هذه الأحكام من الإنفاق الذى يلتزم به الفرد نجاه المجتمع ككل، المجتمع الذى يعتبر التكافل الاجتماعى فيه عنصرا أساسيا يضم تحت لوائه التكافل المالى الذى من تطبيقاته الإنفاق فى سبيل خير المجتمع ككل ليتداول المال بين الناس بدرجاتهم المادية المختلفة، أو مستوياتهم الاقتصادية المختلفة، باعتبار ذلك نوعا من الالتزام الفردى الواجب الأداء.

ومن هنا كان شمول النص القرآنى للناحيتين الفردية والجماعية: (ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ) [النساء: ٣٧] والذين: (وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ) [النساء: ٣٨] فهؤلاء وأولئك يشكلون عقبة اقتصادية بالغة الأثر فى الكيان الاقتصادى للمجتمع. النوع الأول يحجم عن الإنفاق ويشيع هذا التصرف الاقتصادى الخاطئ بين أفراد المجتمع بما يأمر به الناس بعدم الإنفاق أيضا. والنوع الثانى رأس المال عنده ذو هدف استغلالى لا يراعى مقومات العدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية بين أبناء المجتمع الذى يدين بالعقيدة الواحدة. فالإنفاق عندهم أو استغلال واستثمار المال لا يتفق والاتجاه العام للمجتمع الذى تحكمه عقيدة الإيمان بالله وباليوم الآخر، وهى العقيدة التى تجعل المال وسيلة يستغلها صاحبها أيضا للخير العام أو النفع العام، إلى جانب الخير الذاتى أو النفع الذاتى اللذين أحلهما الله ما داما متصلين بالشريعة وَفْق قواعد المنهج القرآنى، بينما فقدان الإيمان بالله واليوم الآخر يجعل صاحب رأس المال مترددًا أو منافقًا أو مرائيًا بما ينعدم معه عنصر الثبات والاستمرار فى استخدام المال، ويجعل استغلال المال واستثماره ذا أهداف نفعية لا يرتبط عائدها بالواجب الأدائى والالتزام الإنفاقى الذى يعم بالنفع والخير على اقتصاد المجتمع ككل، وعلى الأفراد الذين قد يعوزهم المال للإنفاق على ضروريات الحياة.

هؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله وكفروا بالمنهج القرآنى، ولم يلتزموا بأحكامه فى العقيدة وفى المعاملات المالية -كما أوضحنا- سيواجهون موقفا فى غاية الصعوبة يوم القيامة حين يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم الظاهرة ودوافعهم الباطنة. وصعوبة الموقف على نفوسهم وعلى عقولهم وعلى أجسامهم

في اليوم الآخر يصورها القرآن فيما يلى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢]، أى: لا يستطيعون أن يكتموا عن الله أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا سواء ظاهر الأحوال أو باطنها؛ لأن الله سبحانه وتعالى مطلع على السر والخفى والأخفى. وقد روى لنا الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ حينما سمع هذه الآية -٤١ من سورة النساء- وكان عبد الله بن مسعود يقرأ عليه آيات من سورة النساء، ذرفت عيناه؛ أى نزل منهما الدمع. وهذا يبين ويوضح لنا قدر هذا الرسول الذى كان يعلم يقينا أهوال يوم القيامة ومشاهدها والحساب فيها وأهوال العقاب الشديد وما يكون عليه أحوال هؤلاء الذين كفروا ولم يلتزموا بأوامر المنهج القرآنى الذى جاء به هذا الرسول.

الرسول يعلم يقينا الموقف العصيب الشديد الرهيب الذى سيواجهه هؤلاء، وهو الشهيد عليهم، بالضبط كما يشهد الأنبياء والرسل السابقون على أقوامهم. ومن موقف الرحمة والشفقة تذرف عينا الرسول حين يتصور المشهد الذى يواجهه هؤلاء وهو الشهيد عليهم يشاهدهم، ويشهد عليهم بأنهم عصوا الله ورسوله، ومن ثم يردون إلى أشد العذاب الذى لا يطيقون، وهو المرسل رحمة للعالمين، وهو الذى كان لهذا السبب يحرص على هداية الناس أجمعين إلى الحق الذى جاء به؛ ليرحم الناس من عذاب يوم أليم يعلم يقينا أنه يومٌ لا يرد فيه الزمان إلى الوراء، ولا تعود الفرصة لهؤلاء مرة أخرى ليؤمنوا بالله ورسالته الخاتمة، وإنما يحاسبون حسابا يمتد فيه الزمان أبدا فى خلود.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٤-٦٥].

هنــا بيان يوضح مقام الرسول عند ربه تبارك وتعالى. إن هذا الرســول مقبول الكلمة والدعاء عند ربه تبارك وتعالى، وإن اللجوء إلى هذا الرسول، وللهدى الذى جاء يبلغــه للناس كافة هو الفيصل بين الإيمان الحقيقى الكامل والخالص والصادق، وبين الإيمان الضعيف الذى لم يبلغ درجة الإخلاص والصدق.

ومن المعلوم أن الإيمان عند الناس يتفاوت فى الدرجة، ويزداد وينقص بحسب استقرار معانى آيات الله فى الكون وفى النفس فى ضمير الفرد: ﴿ ...وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ...﴿٢﴾ [الأنفال: ٢] وكلام الله آيات تعكس آيات الله فى الكون وفى النفس. والإيمان درجة تعلو الإسلام: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ...﴿١٤﴾ [الحجرات: ١٤] كما يعلو الإحسان على الإيمان، ويعلو اليقين على الإحسان، ومراتبه ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

المرتبة الأولى: يعلو فيها العلم على الظن؛ ليفيد اليقين فى العلوم، وهو علم نظرى.

والمرتبة الثانية: يعلو فيها الشهود على العلم؛ ليفيد اليقين فى **العلوم** عن طريق

الشهود، وهو علم نظرى يقترن بالشهود.

والمرتبة الثالثة: هى التحقق الفعلى بما كان معلومًا أو مشهودًا، تحققا يفيد اليقين الحق، وهو يعلو على العلم النظرى البحت والعلم النظرى المقترن بالشـــهود إلـــى درجة التحقـــق الفعلى عن تجربة بمـــا كان معلومًا نظريا أو معلومًا نظريا ومشهودا.

والإيمـــان كلمـــا ازداد فى قدره أنتـــج نتاجا أكبر من العمـــل الصالح، وهو لا يعنى العبادات وحدها، وإنما يتســـع ليشـــمل كل عمل ترتبط فيه النيـــة بالله، ويكون خالصا لوجه الله: نية الخير للنفس وللمجتمع وللإنسانية بصفة عامة، كما أن درجات الإيمان كثيرة يحدثنا الرســـول ﷺ عنها: أنها «بضع وســـبعون شـــعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريـــق». ولا يعلـــم إلا الله وحده مدى ما يســـتقر فى قلب الإنســـان من درجة الإيمان وقوتـــه. وقـــد علمنا الرســـول أيضا -حيـــن جاءه جبريل يســـأله عن الإســـلام والإيمان والإحســـان- أن الإيمان أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما علمنا الرسول أيضا أن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

الآيـــات فـــى هذا التقرير القرآنى متصلة بما يســـبقها من آيات فى ســـورة النســـاء خاصـــة بالمنافقيـــن. وبذلك يكون هذا النص مكملا لما ســـبقه مـــن النصوص الخاصة عـــن المنافقيـــن ومرتبطا بها. فهؤلاء المنافقـــون لما جبلوا عليه من تـــردد فى الإيمان بالرســـول والهدى الذى جاء به، ومن إظهارهم للناس غير ما يبطنون فى أنفســـهم من عدم الإيمان بالرســـول والهدى الذى جاء به، هؤلاء يقول فى شـــأنهم هذا التقرير الذى نتناولـــه: إنهم لا يبلغون درجة الإيمـــان الحقيقى، ولا يكونون فى مرتبة المؤمنين عند الله المطلع وحده على الأســـرار، إلا عندما يســـتوى عندهم السر والعلن، بحيث يرتبط الاثنان بأمر واحد هو تحكيم الرســـول -أو التحاكم إلى الرســـول- فيما يشـــجر بينهم مـــن اختلافـــات أو منازعات فى أمـــور دينهم ودنياهم، وبتعبير آخر فى أمر مشـــاكلهم الدينية والدنيوية، ثم ترتقى نفوســـهم إلى درجة قبول ما يقضى به الرســـول فى هذه الاختلافـــات أو المنازعات أو المشـــاكل، قبولا تكون به نفوســـهم راضيـــة تمام الرضا، وصافية تمام الصفاء بقضاء الرســـول ﷺ الذى لا يقضى فى الحقيقة عن هواه، وإنما يقضـــى وَفْق أحكام الهدى الذى أوحاه الله إليه فى القرآن. ويكون هذا القبول لتحكيم الرســـول اتجاها ظاهرا يعكـــس حقيقة اتجاه باطن لدى هؤلاء المنافقين من التســـليم

الكامل لقضاء الرسول فيما شجر بينهم (وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا) عندما يتحقق للمنافقين ما يُعرَف بمقام استواء السر والعلن الذى هو من أخص خصائص المؤمنين الكاملين فى إيمانهم، فإنهم يكونون عندئذ كسائر هؤلاء المؤمنين الذين انعقدت قلوبهم الموصولة بالله تبارك وتعالى على طاعة رسول الله طاعة يقول فيها القرآن: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ).

هذه قاعدة أساسية يلتزم بها المؤمنون بالله وبكتبه ورسله، والتى يقرر القرآن بعدها أعلى مستويات الإيمان بالنسبة لسائر المؤمنين الذين يشملهم هذا النص، كما يشمل المنافقين على النحو الذى بينا فيما سلف. فالمؤمنون الإيمان الحقيقى الخالص الصادق هم الذين يحكمون رسول الله وما أوحاه الله إليه من قرآن فى الأمور التى يختلفون فيها ويتنازعون فيها، وفى المشكلات التى يواجهونها. والمؤمنون الإيمان الحقيقى الخالص الصادق هم الذين لا يجدون فى أنفسهم حرجا مما يقضى به الرسول، ويسلمون بهذا القضاء تسليما مطلقا، لا تشوب نفوسهم بشأنه أى شائبة من تردد فى القبول والطاعة والاستجابة. وقد جاء الرسول ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ولذلك فإن تحكيمه هو خروج بالناس من أنواع الظلمات كافة إلى أنوار الحق والعدالة المستمدة من تشريعات وأحكام القرآن.

أما أن الرسول ذو مقام عال عند ربه، وأنه مقبول الكلمة والدعاء عند الله فيصوره التقرير الذى جاء فى هذا النص: (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا). إن معصية الله هى فى الحقيقة ظلم من الإنسان لنفسه؛ لأن المعصية والإثم لا ينعكسان على الله تبارك وتعالى الذى لا يضره ذنب، كما لا تنفعه طاعة، وإنما تنعكس على الإنسان الفرد مرتكب المعصية ومقترف الإثم.. الذى يسجل على نفسه فى مستويات الوعى المختلفة كل خلجات نفسه وإشراقات فكره وسلوكيات عمله، بحيث يجد أمامه يوم القيامة ذاكرة من فكره هى كتابه الذى تم التسجيل فيه لكل صغيرة وكبيرة من نشاطه الفكرى والسلوكى فى الحياة الدنيا، عن طريق ما يختزنه المخ والوعى بمستوياته المختلفة. وبذلك يكون كل إنسان بنفسه على نفسه شهيدا. ولا ظلم بذلك من الله لأحد من الناس. ولكن الإنسان هو الذى يظلم نفسه بنفسه حين يعرضها باختياره الحر وإرادته الحرة فى الحياة الدنيا -نتيجة المعصية والإثم- للعقاب الحتمى بالعذاب الذى ينزل على الجسد وعلى

النفس، عذاب النار التى تؤثر على الجسد وعذاب النار التى تؤثر على النفس، أو تطلع على الأفئدة.

هذا هو ظلم الإنسان لنفسه، من حيث يدرى أو من حيث لا يدرى. ويمكن للإنسان الذى يتعرض لهذا الظلم من نفسه لنفسه أن يجد المخرج والمنجى من المصير الذى ينتظره يوم الحساب، ذلك المخرج والمنجى هو هذا الرسول الذى هو مقبول الكلمة ومقبول الدعاء عند الله تعالى، وقد جمَّله الله بالرحمة بالمؤمنين وبالناس أجمعين بحيث يتوجه إلى الله داعيا أن يغفر لهؤلاء المؤمنين إذا هم أتوا بمعصية أو اقترفوا إثما أو ارتكبوا خطأ...... فإلى جانب استغفار العاصين يأتى استغفار الرسول لهؤلاء العاصين. وباجتماع قلوب المؤمنين على قلب رجل واحد هو رسول الله ﷺ... وباتجاه هذا القلب الواحد وهو جامع فى إطاره للمحبة والرحمة والشفقة وأصدق اتجاهات ومشاعر القلوب المؤمنة به وبرسالته الإلهية المصدر.. بذلك كله تتحقق مغفرة الله للذنوب والمعاصى والآثام؛ إذ عندئذ تظل رحمة الرسول بالمؤمنين تعلو فى مقدار قربها من صاحب الرحمة الأولى، الله الرحيم حتى تتنزل تلك الرحمة الإلهية على قلب الرءوف الرحيم الذى تتنزل رحمته بدورها على قلوب المؤمنين المتحققة بصدق التوبة المتصلة بالتوجه والاتجاه الكلى لله: (فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ) فيتنزل الثواب بتوبته على المؤمنين، فيغفر لهم ذنوبهم ويتوب عليهم من المعاصى والآثام، فتتحقق رحمة الله للإنسان، وتتحقق شفاعة الرسول للإنسان، وكل مظاهر الرحمة... رحمة الله برسوله حيث يقبله عنده شفيعا للمؤمنين... ورحمة الله بالمؤمنين حيث يقبل رسوله شفيعا لهم عنده.. ويقبل توبتهم بصدق اتجاههم لله ولرسوله اتجاها كليا يحتوى النفس والقلب والفكر بأدق وأصغر الخلجات والإحساسات والمدارك فى مراتب الوعى المختلفة.

إن اللجوء إلى هذا الرسول وإلى الهدى الذى جاء ليبلغه للناس كافة هو الفيصل بين الإيمان الحقيقى الكامل الخالص وما دونه من مراتب الإيمان، الأول من الإيمان الصادق ومن الرضا بتحكيم الرسول والهدى الذى يمثله فى واقع الحياة فيما يختلف فيه الناس ومن أمور دينهم ودنياهم. والنص يبرز أمورا ثلاثة:

١- إن مقتضى الإيمان الحقيقى الكامل الخالص الصادق هو الاتجاه إلى الرسول ليحكم بين الناس فيما يختلفون فيه من أمور دينهم ودنياهم.

٢- إن مقتضى الإيمان الحقيقى الكامل الخالص الصادق هو الرضا النفسى التام الكامل بما يقضى به الرسول ﷺ بين الناس فيما يختلفون فيه من أمور دينهم ودنياهم.

٣- تأكيد هذا الرضا بالخضوع لقضاء الرسول والانقياد له، وقبوله بلا أى فزع نفسى أو فكرى فيه نزعة مخالفة لهذا القضاء الذى قضى به الرسول ﷺ وفقا لشريعة الله القرآنية.

الأمر الأول يقرر فيه القرآن: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ).

والأمر الثانى يقرر فى شأنه القرآن: (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ).

والأمر الثالث يقرر فى شأنه القرآن: (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

وتأكيدا لهذه المرتبة من الإيمان القوى يقرر القرآن أيضا: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...(٣٦) ﴾ [الأحزاب: ٣٦] هنا يربط القرآن بين اختيارات البشر الناجمة عن إرادتهم الذاتية. إن إرادة الله توجه الإرادة البشرية الذاتية نحو النور؛ أى نحو الخير والتقدم فى الدنيا، والخير والسعادة فى الآخرة، ومن هنا كان اتباع الإرادة الفردية للإرادة الإلهية -كما جاءت فى كتاب الله وما حواه من أحكام وتشريعات وعقائد- وللتوجيهات الرسولية هو خير تعبير عن الصدق فى الإيمان والصدق فى العقيدة، والإخلاص فى الاتجاه الكلى إلى الله ورسوله بإسلام الوجه والوجهة إلى الله ورسوله؛ أى إلى كلام الله ومنهاجه القرآنى، خاصة قوانينه التى بها القضاء.

هذا الذى يقرره القرآن فى شأن مقام الرسول عند ربه، وضرورة انقياد المؤمنين لحكمه عن رضا وتسليم كامل هو القاعدة الأساسية التى سار عليها الرسل جميعا قبل هذا الرسول الخاتم. تلك القاعدة التى تمثل الحكمة من إرسال الله للرسل فيما يتعلق بعلاقة المؤمنين بهم، والأمر المتصل بهذه الحكمة، وهو أمر طاعة هؤلاء الرسل المأذونين بالدعوة إلى الله، فيما يأتون به من رسالات مصدرها هو الله تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ).

إن عظمة شأن الرسول تنبع مما تبينه هذه الآيات القرآنية من ارتباط حياة الناس

فى الدنيا ومصائرهم فى الآخرة بهذا الرســول الذى جاء خاتما لكافة المرســلين الذين ســبقوه فى التبليغ عن الله تبــارك وتعالى. فمغفرة الله ورحمتــه تعم المؤمنين حين يتجهون بقلوبهم إلى الله وإلى الرســول ﷺ معا باعتبار مقامه القريب من الله، حيث ينضم إخلاص الرســول فى الدعاء بالمغفرة للمؤمنين إلى إخلاص المؤمنين أنفســهم فى الدعاء إلى الله للمغفرة..

وحين ترتبط أشــخاصهم بشــخصه وقلوبهم بحبه وأخلاقهم بأخلاقه وأفكارهم بهديه وأمورهم بقضائه وهواهم برسالته.... عندها يكون الفرد فى قمة مراتب الإيمان الحقيقــى، ذلك الإيمان الذى يرتبط حتما بالله ورســوله. إيمانا ينتج عنه تحكيمه ﷺ وَفْقًا لشــريعة الله عند الاختلاف فى أمور الدنيا التــى مآلها إلى الزوال، والتى تعقبها تجربــة الحياة الآخرة حيث الحســاب والثواب والعقاب، وحيث أســاس الحســاب هو الطاعــة والاســتقامة، أو الانحراف والمعصية لكل فرد على ســبيل الاســتقلال بحيث لا تجــزى نفس عن نفس شــيئا. ومع ذلك فالأمــل معقود على هذا الرســول أيضا فى هذه الحياة الآخرة أن يشــفع عند الله للمؤمنين كما اســتغفر لهم فى الدنيا، فتاب الله عليهم وغفر لهم ذنوبهم، وهو التواب الرحيم فى الدنيا وفى الآخرة. والرسول ﷺ هو الرءوف الرحيم بالمؤمنين فى الدنيا والآخرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣].

هـذه الآيات سبقها النص التالي: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء: ١١٢] والمقصود: أن من يفعل ذنبا صغيرا أو إثما كبيرا ثم ينسب ذلك إلى برىء، وينسب إليه التهمة فإنه يحتمل جرما وذنبا واضحا جليا. وبعد ذلك يعيد النص الذى نتناوله ما يتمتع به الرسول من عناية إلهية وحفظ إلهى؛ نتيجة حب الله لهذا الرسول الذى يعصمه الله من الناس ومن كيدهم ومكرهم وإيذائهم، وما يريدون بهذا الرسول من شر وسوء. فالعناية الإلهية تشمل هذا الرسول وتحيط به بما يجعله عبدا اصطفاه الله لنفسه، وخلصه من شوائب الدنيا ومطامع الناس فيها... تلك المطامع التى تنعكس فى السلوك الضار والضمير السيئ المعوج، والنفس الأمارة بالسوء الداعية إلى الإيذاء بالباطل عن عدم رغبة فى الاعتراف بالحق والإيمان به والتمسك بأهدابه.

وقد نزلت هذه الآيات بمناسبة سؤال بعض الأنصار للرسول ﷺ أن يبرئ (طعمة) من التهمة الموجهة إليه فى سرقة درع رفاعة، ويلحقها باليهودى، فتفضل الله على رسوله وأطلعه على الحقيقة وهى غيب عن الرسول؛ أى أطلع الله رسوله على غيب الحقيقة أو حقيقة الغيب فى هذا الأمر، فتحققت الإرادة الإلهية المتصلة بمكانة الرسول ﷺ فى حفظ شخصه وحفظ مرتبته، وحفظ قضائه، وحفظه بالحق وحفظ الحق به.

ومـا كانت العنايـة الإلهية لتترك الرسـول الخاتم، وهو صاحب خاتم الرسـالات الموحـى بهـا قرآنا إليه، مـا كانت العناية الإلهية لتترك الرسـول لتمسـه أهواء الناس وإغراقهـم فى ميلها عن الحق وعن العدل بغـرض الإضرار وعدم تحقيق العدالة مهما كان الأمر، فالرسـول يمثل القدوة بالنسـبة للبشـر أجمعين وسـلوكه تتطلع إليه هذه البشـرية، وهو مسـئول عن رسالة هى قدوة الرسالات للبشـرية، وسلوكها تتطلع إليه هذه البشرية.

وقد كانت شـرائع التحكيم بالنسـبة للمجتمع المسـلم الناشئ فى المدينة فى أول مراحلها؛ يبنى لبناتها الرسـول ﷺ وسـط مكائد اليهود والمنافقين لشخصه وللهدى الذى جاء به ليبلغه إلى الناس كافة، والتى كان يتحمل أعباء إقامة دعائمها والعيش فى ظلها السـابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ ولذلك فإن العناية الإلهية المحيطة بهذا الرسـول تحفظه من كافة أنواع الضرر والمكائد وإيـذاء النفوس، والتى تريد أن تجانب الحق فى سلوكها وفيما تضمره من نيات لتندفع وراء مثل هذه الأنماط الملتوية من السـلوك الضار المجانب للحق المنافى للعدل الذى يقيمه هذا الرسـول فى الأرض من وحى قرآن الله وحكمته المتمثلة فى سنته ﷺ: (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ).

وهكـذا يقـرر هـذا النص أمان الله لرسـوله فى جـلاء لا يحتمل أى شـك. فكيف يضرونه وهو محفوظ من الحفيظ، ومسلَّم من السلام، ومراعى من الواقى، ومؤيد من الكافى، وهو الفرد الذى اختاره الله ليبلغ أكمل وأتم الرسـالات على الإطلاق. آتاه الله الكلمات القرآنية، والبيان والسلوك الحكيمين، والعلوم المشهودة اليقينية التى احتواها كلام الله القرآنى، وعاشـها الرسـول ﷺ فى تجاربه النبوية الشـخصية، وخاصة فى تجربة الإسراء والمعراج... كل ذلك نتيجة الفضل الإلهى الذى كان يلازمه فى حركاته وسـكناته. وحتى محاولات الغير فى أن يضلوا هذا الرسـول غير ممكنة مع عناية الله وفضله ورحمته.

والآيات موضع حديثنا تنفى إمكان إضلاله ﷺ وتوضح إعلام الله لرسوله بالحق دائمـا، حتى ولو كان مـن أمور الغيب غير المعروفة، فالنـص يقول صراحة: (لَهَمَّت

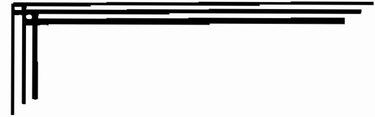
طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ) والهم هو المحاولة التنفيذية لما يستتر فى الفكر ويبطن فـى النفس. والمحاولة تختلف تماما عن البدء فى التنفيذ أو الحدوث الفعلى، المحاولة تمـت ولكن الحدوث لم يتحقق؛ لاسـتحالة تحققه مع هذا الرسـول المحفوظ بالعناية الإلهيـة والفضـل الإلهى والرحمة الإلهيـة. فقد أعلم الله رسـوله ﷺ بالحق ومحاولة الإضلال والتزييف للحقيقة ما زالت فى مرحلة (الهم) ولذلك لقيت عدم التحقق الفعلى لسبق علم الرسول بالحق من الحق تبارك وتعالى.

وحقيقـة الحـدوث هى انعـكاس الأثر المراد تحققـه أو تنفيذه علـى الذى يقوم بالمحاولة نفسه: (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ) أما الرسول نفسه ﷺ فالأمر بالنسبة إليه -كما قلنا- هو أنه لا يمكن أن يصيبه ضرر يمس الحق فى شـخصه أو فى فكره أو فى سـلوكه أو فى قضائه: (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ) فهذا الرسول لا يقف وحده فى الحياة وفى مسـئولية الإبلاغ للحق، ولا يقف على غير علـم بحقائق الأمور وبقوانين الله فى الكون وفى الأرض بالنسبة للبشر وغير البشر، بل على العكس، يقف عالما بهذه الأمور كلها من المصدر المنشـئ والموجد لها؛ لأنه يقرأ قرآن الله باسـم الله، ويتلفظ ويسلك بالحكمـة النبوية من هدى وحـى الله، ويقرأ آيات الله فى الكون وما فيه من مخلوقات باسم ربه الذى خلق الكون وما فيه من مخلوقات: (وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) إلى الدرجة التى يصعب على الإنسـان العادى تصورها فى حقيقة قدرها: (وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)..



٤

في معية الرسول ﷺ



في

ســــورة المــائـدة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[المائدة: ٦٧].

مهمة الرسول هى إبلاغ الرسالة، وبالإبلاغ تنتهى مهمته. ولكن مهمة الإبلاغ مهمة فى غاية الصعوبة، وفى غاية الأهمية فى الوقت نفسه، وهى مهمة تقتضى مستوى من السمو الروحى والصفاء النفسى، والاتصال الفكرى المركز بالوحى القرآنى، وعظمة فى الأخلاق، واستقامة فى السلوك الفردى والاجتماعى، مما يجعل مهمة الإبلاغ فى مجراها الطبيعى السليم. ومن هنا فإن القرآن يقرر أن هذا المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه المبلغ، وهو الرسول، يضمنه الله لرسوله حتى يسير فى مهمة الإبلاغ كما ينبغى لها منذ البداية وحتى النهاية.

فالله يعصم رسوله من أن يقع فى الخطأ أو الذنب بسبب الاختلاط بالناس، ومواكبة العلاقات الاجتماعية التى تفرضها وظيفة الإبلاغ ذاتها. هذا الخطأ أو الذنب قد لا يعنى التعدى على الغير بالضرورة، وليس هو المقصود فى هذا المجال، وإنما المعنى هنا -على الأرجح- تأثر المستوى الروحى للرسول وصفائه النفسى واتصاله الفكرى المركز بالوحى القرآنى، والعظمة فى الأخلاق، والاستقامة فى السلوك الفردى والاجتماعى، مما قد ينتج عن الاتصال بالناس. ذلك أن الاتصال بالناس قد يجلب -بل هو غالبا ما يجلب- تأثيرا ضارا على هذا المستوى الروحى الذى ذكرناه فيما سبق، بما يؤثر بالتالى على القدرة على الإبلاغ، ومهمة الإبلاغ ذاتها التى يريد الله لها أن تتم على أكمل وجه.

فالناس فى العقائد منهم الكافر، ومنهم المشرك، ومنهم المنافق.... والناس فى

طباعهم وصفاتهم منهم الحاقد ومنهم المتكبر، ومنهم المتجبر، ومنهم الخبيث، منهم البخيل والمتعالى، أو المرائى والحاسد والماكر المؤذى.... إلخ الصفات الرذيلة التى تجد طريقها فى التأثير على الرسول من خلال تعامله مع هؤلاء الأصناف من الناس، لكن الله يضمن للرسول العصمة من شر الناس وأخلاقهم غير الحميدة، حتى لا يغفل الرسول لحظة عن ذكر ربه، ذكرا يولده صفاء النفس والفكر بما يقتضيه واجب الإبلاغ الذى أمر به الرسول من الله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وبذلك يعصم الله رسوله من البُعْد بَعْدَ القرب، ومن الغفلة بعد الحضور، ومن النسيان بعد الذكر، ومن الانفعال بعد السكينة، ومن الضلال بعد الهداية، ومن الاضطراب بعد الطمأنينة، ومن الانشغال بغير الله بعد الأنس به.... وباختصار، من كل ما سوى الله، عن الله، عصمة فى الحركات والسكنات والأحوال والشئون والأنفاس.



٥

في معية الرسول ﷺ

في

ســـــورة الأنــعــام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٥].

الرسـول هو الأميـن. ذلك ما كان يعرفـه كفار الجيل الأول الذيـن عاصروه ﷺ. وروى أن أبـا جهـل كان يقول: «ما نكذبك يا محمد، وإنـك عندنا لمصدق، وإنما نكذب ما جئتنا به». والرسـول أيضا هو الرحيم بالبشـر أجمعين، وكان يريد من الناس كافة أن يؤمنـوا بما يدعوهم إليه؛ لأنه يعلم علـم اليقين أنه الحق، وأن ما جاء فيه هو الحق، خاصـة بما يتعلق بمصير النـاس فى الحياة الآخرة، وما يصيـب الكافرين والمكذبين من عذاب أليم يخلدون فيه. كان الرسـول يعلم ذلك كله ومن منطلق هذا العلم، وأيضا من منطلق الرحمة والرأفة والشفقة، كان يحزن على سلوك الكافرين والمكذبين حزنا ينبع من إدراكه لجسـامة وفداحة المصير الذى سـيئول إليه هؤلاء: (قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ ...)

والرسـول كان يعلم أن الكفار يعلمون أنه أمين وصادق فى أخلاقه وصفاته حتى قبـل البعثة.. ولكن الأمر بعـد البعثة يختلف.. إن الكفار يكذبـون القرآن الذى جاء به رسـول اللـه ﷺ رغم أنهم فـى الوقت نفسـه يعتبرونه الصادق الأميـن؛ ففصلوا بين الأمرين وقسموا صدقه وأمانته قسمين؛ قسم صادق وهو الخاص بشخص محمد الذى يعرفونه قبل الاسلام، وآخر كاذب وهو الخاص بمحمد الرسول وبما جاء به من الوحى

الكريم! وهى قسمة تدعو إلى الاستغراب والأسف!

وكان الرسـول ﷺ يرجو لو أن هؤلاء النـاس الكفار آمنوا بما جاء به حتى ينجوا جميعا من عذاب الله فى يوم لا طاقة فيه لبشر على تحمل مواقفه ومشاهده والحساب فيـه ثـم الجزاء الذى يئـول إليه هؤلاء فى المصيـر الحياتى الخالد الـذى لا موت فيه، ولا حيـاة أخرى بعده، بحيث تسـير الأحـداث وفق إرادة الله التى هـى أكبر من إرادة الإنسان.

ويقرر الله أمرا فى تاريخ الدعوات يسـوقه على سـبيل الإبلاغ للرسول ليأخذ من هـذا التاريخ العبرة فى أن ليس كل الناس يؤمنـون: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ...) ليس كل الناس ناجين من عذاب اللـه يوم القيامـة.. وهناك فريق فى الجنة وفريق فى النار.. هذه إرادة الله ومشـيئته: (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ) تسير وَفْقَها أحداث التاريخ التى يصنعها الإنسان ذاته بما يملك من حرية الاختيار، بما فيها حرية الاختيار بالنسـبة للرسل والأنبياء ودعواتهم: (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) والله يعلم رحمة الرسول بالبشرية، والله هو القائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يعلم الله كيف يحزن الرسول على كفر الكافرين وجحود الجاحدين، ويعلم أسفه عليهم، ويعلم شفقته بهم ورغبته بكافة السبل أن يجد لهم مخرجا أو أسلوبا يكون فى بيانه سـبيلا ليؤمن الناس أجمعون، وهو ما يصوره القرآن فى تقريره: (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ ....) ولكنـك أيهـا الرسـول الرحيم الشفوق لن تغير من أمر القدر شيئا ولا من أمر القضاء شيئا، ولن تستطيع أن تغير ما بأفكار الناس ونفوس وقلوب هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سـمعهم وجعل على أبصارهم غشـاوة، أولئك الذين أعد الله لهـم عذابا أليما، وقد كان يمكن لله تبارك وتعالى الذى يهدى من يشاء أن يجمع الناس كلهم على الهدى بإظهار الآيات الخارقة، ولكن إرادة الله شـاءت أن يترك الإنسـان لإرادته الحرة، واختيـاره الحر لتوجيه ذاته بذاته.

هكـذا خلق الإنسـان منذ البداية حين سـواه ونفـخ فيه من روحـه. فقد كان من

مقتضى التسوية والنفخة أن حمل الإنسان الأمانة، وهى العقل والقدرة على الاختيار الحر والعمل المستقل بالدافع المستقل، وجعل فيه غرائز شيطانية هى التى يعمل وينشط عن طريقها الشيطان؛ ولذلك أرسل الله الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، ثمَّ أرسل الله الرسول الخاتم لهؤلاء الرسل والأنبياء، وهى سنة أو قانون إلهى لكى لا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل.

ومن منطلق الحرية الإنسانية هذه فإن جانبا من البشر يتغلب عليهم جانب الشر الذى يمثله إبليس أو الشيطان، ومصيرهم هو العذاب المحرق، وجانب آخر يتغلب عليهم جانب الخير الذى يمثله الدين بمبادئه التى يدعو إليها الأنبياء والرسل، ومصيرهم هو النعيم واللذة: (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) أى: لا تكونن مثل الجاهلين الذين خفيت على علمهم هذه الحقيقة من الاختبار والابتلاء المتصل بالحرية والإرادة المستقلة للإنسان وما يتصل بذلك من غواية للنفس -الشيطان- أو عقال العقل -الدين ومبادئه- وما ينتج عن ذلك من حساب ضرورى يتبعه مصير نهائى هو العذاب أو النعيم. إنك أيها الرسول تعلم كل ذلك ولا تجهله، فلا تتصرف تصرفات الذين يجهلون هذه الحقائق؛ ولذلك أَعْرِضْ عن المشركين؛ لأنك لست عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل، فهم أحرار فيما يعتقدون، وأحرار فيما يعملون، وكذلك يجازيهم الله تبارك وتعالى الجزاء العادل الذى لا ظلم فيه، فالذى يشرك بالله إنما يخسر فى الحقيقة لما يلاقيه يوم القيامة من عذاب لا طاقة له به.

وأنت أيها الرسول عليك التمسك بالذى أوحاه إليك الله حتى ينتفع بهديه أولئك الذين تسوقهم إرادتهم الحرة وفكرهم المستقل إلى الإيمان به، أولئك الذين شرح الله صدورهم للإسلام: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾[الأنعام: ١٠٦-١٠٧].

إن الإنسان يظن كلما تقدمت به المعارف والعلوم وتطبيقاتهما أنه كائن مستقل عن الإله وعن إرادة الإله، وأنه استغنى عن الإله، وذلك هو ظلمه لنفسه وجهله بحقيقته وحقيقة وضعه، فالله موجود، ومشيئته تعلو وتسبق مشيئة الإنسان بحكم محدودية القدرات الإنسانية ذاتها وافتقارها كمخلوق، لتستطيع أن تعمل وتمارس نشاطها الذى

يـؤدى بها إلى ازدياد معارفها وعلومها وتطبيقات هذه العلوم، ومن ثم فلا اســتقلال عـن الإله أبدا فى الحقيقة الفعلية الكائنة التى تســير وفقهــا الأحداث المتصلة بالكون وبالإنســان فيــه، ولا غنى للإنســان عن الإله الذى يمســك هذا الكــون ويضبط قوانين حركته وســلوكه بما يتضمنه من بيئة صالحة لحياة الإنسان ذاته فى الكوكب الأرضى من المجموعة الشمســية، والتى لولا تهيئة الله لها لما وُجد هذا الكائن الإنســانى أصلاً لانعدام البيئة الصالحة للحياة ذاتها.



٦

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســــورة الأعــــراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢-٣].

نعيش مع هذه الكلمات فى جانب من الجوانب التى تمس رد الفعل النفسى لدى الرسول ﷺ تجاه هذا الكتاب فى صلة آياته بالبشر الذين نزل هذا الكتاب موجها إليهم، وكان على الرسول مسئولية إبلاغه بالضبط كما أوحاه الله إليه؛ دون أى زيادة أو نقصان. وتعبير «الحرج» الذى جاء فى هذه الآية منسوبا إلى الرسول ليس مقصودًا به أن الرسول كان يضيق صدره بما جاء فى هذا القرآن، كما أنه ليس المقصود منه أن الرسول كان يضيق صدره أيضا من تبليغ ما جاء فيه؛ لأنه يعلم أنه الحق، وأن ما جاء فيه من تبشير وإنذار، وما جاء فيه متصلا بالعقيدة وبالعبادة وبالأخلاق وبالتشريعات الاجتماعية هو الحق من عند الله تبارك وتعالى.

ونعتقد -والله أعلم- أن لفظ «الحرج» مقصود به ذلك التغيير الشامل الذى جاء هذا القرآن ليرسى قواعده فى أذهان الناس الذين طال عليهم الأمد، فاختلطت فى أذهانهم العقيدة الحقة بالإله تبارك وتعالى، بما انبنى على ذلك من عادات وتقاليد وقيم ونظم حادت جميعها بالناس عن الطريق الحق. والحرج يعبر عن شعور نفسى، وبما يقترن به من الضيق، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهو هنا -أى فيما يتصل بالرسول- يحتمل معنيين كلاهما

نابع من عظمة هذا القرآن الذى يحوى فى طياته كلاما ثقيلا فى ميزان الحق يستشعر ثقله المؤمنون به والرافضون إياه على السـواء كلٌ على شاكلته: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل: ٥] لأنه ينـذر الآخرين ويهددهم فى مصالحهـم المتنوعة -أى الرافضين- ويبشـر الأولين -أى المؤمنين- على تحمل أعباء وتكاليف ذلك الحق الذى جـاء فـى هذا الكتاب؛ ولذلـك يبدأ هذا النص بلفـظ «الكتاب» ذاته بمـا يوحيه هذا من معانٍ شاملة متصلة بكل ما جاء به هذا الكتاب مؤثرا على حياة البشر فى كل جوانبها، وخاصة العقدية منها والتشريعية، أما المعنيان فهما:

الأول: أن الرسـول كان يستشعر حرجا فى نفسـه نتيجة ما كان يتوقعه من معارضة شـديدة لهذا الكتاب الـذى أوحاه الله إليه من واقع التغيير الشـامل الذى كان هذا الكتاب آتيا به.

الثانى: أن الرسـول ﷺ كان لا يستشـعر أى حرج مطلقا، وأن النص يهدف إلى تدعيم وتقوية ومؤازرة ذلك الجانب النفسـى له، والذى كان يوقن به أن ما أنزل إليه هـو الحق من ربه، وأنه كان مجهزا فكريا ونفسـيا لتلقى هـذا الكتاب منجما فى تنزيله، ومدركا لعظم المسـئولية التى كان سـيلقيها هذا الكتاب عليه فى حياته، واستعداده مع ذلك كله استعدادا تكون نفسه فيه فى يقين وثبات وقوة وطمأنينة لإبلاغه مع ما يترتب على الإبلاغ من نتائج كان ﷺ مسـتعدا أيضا لمواجهتها. ولعل ما ذكره الرسـول نفسه لعمه أبى طالب يوضح ذلك المعنى من اليقين والثبات والاسـتعداد لديه: «**والله يا عم لو وضعوا الشـمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه**».

ونحـن نميـل إلى هذا المعنـى الثانى. فلقد كان الرسـول على درجـة من الإعداد والاسـتعداد الكاملين للتلقى والإبلاغ بالنسـبة لهذا الكتاب، ومن ثم يكون هذا التقرير القرآنـى من عـدم الحرج مقصودًا به حث الرسـول على المضى قدمـا فى الإبلاغ بما يترتب عليه من آثار على الذين كانوا سيعارضونه وعلى الذين كانوا سيؤمنون به.

وجانـب الإنـذار منصوص عليـه صراحة فـى هذا التقريـر موضـع حديثنا مما نستشـعر معه التركيز على المنكرين والمعارضين للرسالة، ومنهم كفار مكة، ومنهم

الذيـن كفروا مـن أهل الكتاب. ذلك أن أهل الكتاب من المؤمنين بالرسـول ورسـالته، وبصفـة خاصة اليهود الذين كانوا يعارضون هذه الرسـالة فى نفوسـهم قبل البعثة، وكانوا يعلمون بأنه سـيأتى هذا الرسول مما دلهم عليه الراسخون فى العلم بالعهدين القديـم والجديد أى التوراة والإنجيل، ثم عارضوا الدعوة المحمدية بكل الوسـائل فى المدينـة بعد الهجرة كما نعلم من تاريخ السـيرة النبوية. فلقد كان من أهل الكتاب من يعلم ويخفى الحق، وكان منهم من لا يعلم ويعارض الحق، وكان منهم من يعلم ويؤيد الحـق، وكان منهم من لا يعلم ولكـن يؤيد الحق: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ...﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥] ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢] .

فالقرآن هنا يعدد أنواع الناس، ويعدد مواقفهم تجاه الرسول والقرآن، ولذلك ففى الآية التالية يدعو القرآن الناس جميعا ليتجهوا بالعبادة بطريق مباشر إلى الله وحده، وأن يتركوا التوجه بالعبادة –أى الخضوع والانصياع- للكهان والقساوسـة والرهبان والأوثان والأصنام الذين فرضوا سـلطانهم الدينى على أفكار الناس يستعبدونهم فى عقائدهم، ويوجهونهم الوجهة التى يشاءون: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣] وقد حرفوا الحق فى التوراة والإنجيل حتـى ينصاع لهم الأتباع معتقدين أن ما ينصاعون إليه من تعاليم الوسـطاء هو الحق فى دينهم، بينما الأمر غير ذلـك: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقـرة). وتعبير (أولياء) الذى جاء فى الآية ليس مقصودًا منه أولياء الله من صالحى المسـلمين؛ لأن هـؤلاء آمنوا وكانوا يتقون الله ويدعـون الناس إلى الله وإلى كتـاب اللـه، ولكن المقصـود من هذا التعبير هـم كل من يتولى غير اللـه من دون الله ورسوله وكتابه، كل من يدعو لغير ما جاء فى كتاب الله مخالفا نصوصه.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

يتحدث هذا التقرير القرآنى عن اسم من أسماء الله الحسنى هو الرحيم الذى تنبع منه حقيقة الرحمة الإلهية، وفيها تعميم وتخصيص. أما التعميم فيشير إليه القرآن فى: (وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ) وهى الرحمة الإلهية العامة التى لكل كائن أو مخلوق منها نصيب يتصل بوجوده ذاته، وخواصه التى يأتى نشاطه فى إطارها، سواء كان طاقة أو مادة أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا أو جانا أو ملكا. وعلى سبيل المثال فإن التوازن الكهرومغناطيسى للكون سلبا وإيجابا هو من مظاهر الرحمة الإلهية بكل الكائنات.

أما تخصيص الرحمة بمعنى الهداية من الظلمات إلى النور فى الحياة الدنيا، والنجاة من أهوال يوم القيامة، أو الانتهاء إلى النعيم فى خلود إلى ما شاء الله إفلاتا من العذاب فى خلود إلى ما شاء الله، فإنه حالات يعيشها هؤلاء فى الدنيا والآخرة،

يتحققون فيها بالسعادة الناتجة عن الرحمة التى قضى الله سبحانه وتعالى أن يحيا فيها هؤلاء -سواء فى الدنيا أو فى الآخرة- وهو معنى: (فَسَأَكْتُبُهَا) هذه الرحمة لها أسباب تتعلق بالإنسان ذاته. هذه الأسباب تتمثل فى الأمور التالية بالنسبة لهؤلاء الذين كتب الله لهم الرحمة:

١- الذين يتقون الله.

٢- ويؤتون الزكاة.

٣- ويؤمنون بآيات الله.

٤- ويتبعون الرسول النبى الأمى.

٥- ويؤمنون بهذا الرسول.

٦- ويُعَزرون هذا الرسول.

٧- وينصرون هذا الرسول.

٨- ويتبعون النور الذى أنزل معه، أى القرآن.

هؤلاء الذين يتحققون بالرحمة الإلهية فى الدنيا والآخرة ينجيهم ما قضاه الله من رحمة؛ نظرا لتوافر العناصر التى ذكرناها، يتصفون بصفة الفلاح فى الدنيا والآخرة، ويقرر القرآن بشأنهم: (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) من أى دين كانوا، وأصحاب أى كتاب كانوا.

وكذلك كان هذا الرسول الخاتم رحمة للعالمين، وكان رسولا للناس أجمعين؛ السابقين والمعاصرين واللاحقين لزمان بعثته، بما فيهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل الذين عاصروه أو جاءوا بعده، وهو الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى هذين الكتابين -التوراة والإنجيل-: (يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ). فهو يهدى الناس جميعا إلى الإله الحق وإلى التوحيد الحق. يهدى بأنوار الحق أولئك الذين يستجيبون لدعوته ويتبعونه فيما أنزل الله عليه من آيات أو كلمات، وهو الأمر الذى

يؤكده القرآن فى تقريره فى سورة الأعراف : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولقد كان بعض من الذين لا يؤمنون بالله ورسوله يتصورون أن هذا الرسول به جِنَّة -أى جنون- سواء عن كيد لهذا الرسول، أو عن قصور فى التفكير. حيث لم تستطع عقولهم أن تستوعب آيات القرآن الشاملة التى جاءت بقواعد وأسس وتصورات جديدة فى العقيدة وفى العبادة وفى الأخلاق وفى المعاملات. وربما كان قولهم ذلك عن الرسول ﷺ لهذا السبب أو لذلك، وربما كان لغير ذلك من الأسباب التى تبطنها النفوس التى طبعت على إنكار الخير كله لأهله الذين يختارهم الله بالخير بالاصطفاء بإرادته وحدها، كما اختار رسوله الخاتم وأهَّله لأداء أعظم مهمة فى الأرض للناس جميعا، حيث هو شاهد ومبشر ونذير.

ولعلى لا أكون مخطئا إذا قلت إن المستوى الفكرى لهؤلاء الذين كانوا يصفون محمدا بأن به جنة، أو أولئك الذين أنكروا رسالته من الذين عاصروه أو جاءوا بعده، مستواهم العلمى لم يرتق الارتقاء الذى يستوعب المعانى العلمية فى آيات القرآن الكريم. وإن الذين سبقوا فى تحصيل العلوم وتميزوا فى تطبيقاتها العديدة مما نعرفه فى عالمنا المعاصر، لم يرتقوا إلى مستوى تدبر آيات القرآن الكريم العربى، وفهم معانيها واستنباط حكمة مشتملاتها، سواء عن جهل بلغة القرآن، أو قصور خاطئ فى معرفة مقام الرسول ﷺ ومقام القرآن الكريم الذى جاء بالبيان العربى، وهو بيان وإن كان أهله العارفون به كان لهم مكان السبق والابتكار فى ميدان العلوم والمعارف فى فترة ممتدة من تاريخ الإنسان فى الأرض، فإن أصحاب هذا البيان اليوم متخلفون عن أصحاب البيان غير العربى فى العلوم والمعارف وتطبيقاتها. وذلك أمر راجع لعوامل تاريخية عديدة تضافرت فى صنع هذا التخلف، إن الرسول منه برىء والقرآن منه برىء: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٤] ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ

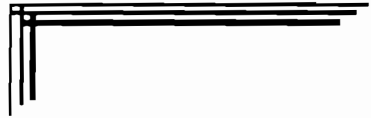
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: ١-٤].

وكان من أعظم خصائص عظمة الرسول الأخلاقية أنه كان يأخذ بزمام العقول والأرواح يوجهها جميعا إلى الله الواحد الأحد، داعيا بذلك إلى التوحيد الخالص لله والعبادة الخالصة لله فى الوقت نفسه الذى ينسب فيه الفضل لصاحب الفضل وهو الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف) ومن هذا المنطلق كانت قولة أبى بكر المشهورة: «**من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت**» وقد كان قلب أبى بكر يومئذ من أكثر القلوب قوة فى إيمانهم بالله وبالرسول ﷺ وبالقرآن..



٧

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الأنفـــال



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧].

النصوص القرآنية التى سبقت هذا التقرير مباشرة كلها متصلة بقتال الكفار، وهى على وجه التحديد متصلة بمعركة بدر. فى معركة بدر تضافر العالم الروحانى مع القلة المؤمنة الملتفة حول الرسول ﷺ ونزلت الملائكة تقاتل فى صفوف هذه القلة، والتى تروى لنا كتب السيرة فى شأنها ما قاله المقداد بن عمرو للرسول يومئذ: «يا رسول الله امض إلى حيث أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (أى أقصى المعمور من الأرض) لجالدنا معك دفعة حتى تبلغه».

وقبل أن نتناول الحقائق هنا نعرض النص القرآنى كاملا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧]. الحقيقة الواضحة أن الرسول ﷺ كان يقاتل عن إيمان بالله شديد، وفى صلة بالله عميقة، وكان الله سبحانه وتعالى قد تدخل بقدره المعلوم لذاته قبل علم الإنسان العادى، أن النصر فى هذه المعركة سيكون للرسول وللمؤمنين الذين التفوا حوله ممن أصبحت درجة إيمانهم تعكس روحانية وطاقة هائلتين، حتى إن هذه الروحانية والطاقة ارتفعت إلى الدرجة التى تنزلت فيها الملائكة إلى جانب الطاقة الروحانية للمؤمنين حتى تم النصر بإرادة الله وقدره المقدور. وكان الذى قَتَلَ فى هذه المعركة هو الله، والذى رمى هو الله، والذى أعطى العطاء الجزيل للمؤمنين هو الله الذى يسمع ما يدور من حديث الناس -كل الناس- ويعلم ما يسير

عليه أمر الدنيا فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها؛ أى فى تاريخها الممتد الطويل عبر آلاف وملايين السنين.

لقد قيل إن الرسول ﷺ أخذ حفنة من تراب يومئذ ورمى بها الكفار قائلا: «شاهت الوجوه» وكان ذلك مؤثرا على أبصار المقاتلين من الكفار. وأيا كان الأمر، فإن الذى يقرره هذا النص القرآنى خطير وعظيم فى الوقت نفسه. أما كونه خطيرا فلأن الذى باشر القتل الفعلى هم المؤمنون، والذى باشر الرمى الفعلى هو الرسول ﷺ. ولكن النص يفيد أن أثر الفعل أو نتيجته لم يتحقق من الفعل ذاته وإنما من الله.

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم:

لقد قاتل المؤمنون الكافرين بالحراب والسيوف والنبال، والقتال كان من جانب المؤمنين -ثم الملائكة الذين نزلوا يقاتلون فى صفوفهم- ولكن القتل كان من جانب الله سبحانه وتعالى، وهذا يعنى أن الفعل إرادى، ولكنه لا يؤتى النتيجة فى استقلال عن أمر الله سبحانه وتعالى، فالنتيجة مرتبطة بأمر الله الذى يقررها وينفذها بكيفية قد تبدو فيها العلاقة بين الفعل والنتيجة المباشرة أنهما متلازمان، ولكن الحقيقة أن النتيجة -على الأقل فى هذه الواقعة واقعة بدر- لم تكن أثرا للفعل الإنسانى، ولكن كانت أثرا من آثار أمر الله وتأثيره المباشر على سير الأحداث فى الأرض، وتدخُّلا إلهيا فى قوانين الأرض وسننها بطريقة مباشرة.

أما الرسول فالأمر بالنسبة له يختلف:

فالقتل والنتيجة هنا منسوبان إلى الله مباشرة بنفس المعنى السابق. فالذى رمى كان الرسول ﷺ ثم كانت الإصابة وتحقق أثر الرمى على الكافرين. ولكن النص يأتى هذه المرة فيقرر أن القتل نفسه -وهو الرمى- لم يكن ناتجا عن الرسول، وإنما كان ناتجا عن الله سبحانه وتعالى. وكأن يد الله هى التى رمت..... أفكانت قوة الرسول يومئذ من قوة الله؟ وقدرته من قدرة الله؟ وطاقته من روح الله؟ أم كان الرسول يومئذ -ودائما- المظهر الخفى فى الأرض خلافة خلقية عن الحق سبحانه وتعالى؟ إن الأمر أولا وآخرا فى هذا الوجود هو أمر «الألوهية».

الإيمان بالله وعبادته من خلال توحيده. وهذه كانت رسالة الأديان كلها، وكانت على الوجه الأخص والأكمل رسالة الرسول الخاتم القرآنية الصورة. لقد كانت مهمة هذا الرسول ﷺ أن تتجه الإنسانية جمعاء إلى الله الواحد بالعبادة والخضوع والطاعة، وأن تكون قاعدة الألوهية هى القاعدة الأصيلة العميقة الجذور، فى كل بنيان حضارى يقيمه الإنسان. ومع تقدير الإله حق قدره يكون التوحيد الذى هو لب الرسالة التى جاء بها الرسول الخاتم.

ولقد ارتقى هذا الرسول فى صلته بالله سبحانه وتعالى إلى الدرجة الشمولية الكلية التى يصفها القرآن فى كثير من نصوصه ومنها: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] ولا بد أن صلة هذا الرسول بالله سبحانه وتعالى جعلته عبدا ربانيا يستمد طاقاته من هذه الصلة بالله، فى فكره وفى نفسه وفى سلوكه وفى أخلاقه حتى صار فكره ذكرًا لله تعالى، ونفسه بيد الله تعالى، وسلوكه فى طاعة الله تعالى، وأخلاقه ربانية العظمة، وذاته سراجا منيرا لكل الظلمات. هذه الصلة التى يصعب علينا أن نوفيها حقها كما كانت عليه فعلا بين الرسول وربه هى التى جعلت الرمى فى بدر رمى الله تعالى؛ حيث كانت يد الرسول فى جوهر الأمر تمثل يد الله، أى قدرته وقوته: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... (١٠) ﴾ [الفتح: ١٠] وهو نفس المعنى الذى تفيده كلمة التوحيد وحقيقتها فى شقيها الإلهى (لا إله إلا الله) والعبدى (محمد رسول الله).

لقد كانت هذه القلة التى تقاتل فى سبيل الله هى الأمل فى تحقيق بقاء واستمرار الدعوة القرآنية... وانتصار الكفر فى معركة بدر كان معناه انهزام الإيمان إلى الدرجة التى كان من الممكن جدا أن لا تقوم له قائمة أبدا بعد ذلك، وخاصة نتيجة ما كان سيسببه ذلك من أثر نفسى على المؤمنين.

إن الأمر إذن أمر الله وأمر كلامه القديم الذى أراد أن يكون رسالة السماء الخاتمة إلى الإنسانية جمعاء، يحملها رسول خاتم، وينهض بها رجال حول الرسول. إنها معركة فاصلة فى الأرض وفى السماء. ولذلك تدخلت السماء فى هذه المعركة من معارك الصراع بين الإيمان والكفر فى الأرض، وتنزل العالم الروحانى يقاتل ليتحقق

أمر الله ويتحقق كلامه القديم بالإبلاغ بالحق قبل أن تقوم ساعة حساب الناس.

إن الأمر إذن أمر الله وتوحيده وعبادته، وأمر بلاغ رسـالته واكتمال دينه وكلامه الـذى تنـزل من العالـم الروحانى فى قـرآن وصل بيـن الروح الأميـن جبريل وروح النبـى الخاتم صلوات الله وسـلامه عليهما وظهر فى بيان عربـى معجز. لقد كان من الحتمى أن يحقق الله فى الأرض تقديره السابق وعلمه المحيط، وإرادته وأمره ليسير التاريخ وَفْقَ علم الله وإرادته وأمره بحيث يكون النصر للمؤمنين المخلصين موصولاً بأسباب السماء، ويكون العالمان الأرضى والعلوى مرتبطين دائما فى إطار رسالة هذا الرسول:

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، إشارة إلى القدرة الإلهية التي تعلو قانون الأسباب والمسببات، وتعلو قانون الفعل ونتيجته.

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، إشـارة إلى سـر الطاقة الإلهية التي تعلو طاقات الإنسان وتمده بطاقته.

وإذا كان الرسول ﷺ قد رمى فعلا، ونزل القرآن يقرر أن الذى رمى ليس الرسول وإنما الله فإن ذلك يوحى لنا بمعنى (الإنابة) إنابة الرسـول عن الله فى الأرض، ولعل ذلك هو المعنى الذى قصد إليه أستاذنا الإمام محمد ماضى أبو العزائم فى قوله:

جعلتك نائبا فى الملك عنى   وفى الملكوت يصحبك الرشاد

وهذا المعنى للإنابة مسـتمد أيضا من أول التنزيل القرآنى الذى يريد من الرسول أن يقرأ باسـم الله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١] فهذا النص صريح الدلالة فى هذا المعنى للإنابة، ومن أجل ذلك كان الرسـول يقرأ قبل كل قرآن: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. وهـى هنا إنابـة عن الحاضر وليس عـن الغائب، ولكنه الحاضـر المنزه عن الإدراك أو الرؤية من جانب البشـر فى الدنيا. واستشعار هذا الحضور الإلهى هو الذى أمد الرسول بالطاقة التى رمى بها، والقدرة التى رمى بها باعتباره مظهرا للتكامل بين الله سبحانه وتعالى وشخصه النورانى الحقيقى.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

عناية الله بهذا الرسول تمتد من الأزل إلى الأبد، وأحداث الأرض ذات صلة بتدبير السماء، أى تدبير الله سبحانه وتعالى. ومكر الذين كفروا الذى ورد فى هذه الآية هو مكر بالسوء فيه تآمر وتدبير بالشر والسوء والإضرار بالغير، الذى هو هنا رسول الله ﷺ. ومكر الله الوارد فى هذه الآية هو تدبير بالخير وبالنفع وبالحماية للغير الذى هو هنا رسول الله ﷺ.

ومكر المخلوق فى الإيذاء والضرر -وحتى بمعناه الواسع الذى يعنى التدبير- لا يمكن أن يتحقق على وجه الأرض إلا بإرادة الله تبارك وتعالى؛ لأن لله المكر جميعا؛ بمعنى أن تدبيره يتعلق بمجريات أحداث الكون كله، بما فيها أحداث الأرض التى أمرها فى التدبير كله إلى الله أولا وآخرا. ولكن الإنسان يستمد قدرته على التدبير من الله المدبر الذى وهب الإنسان تلك القدرة حين سواه ونفخ فيه من روحه، فصار يملك القدرة والإرادة والتدبير، إلى جانب صفات أخرى تتصل بخصائص النفخة الروحية وما تعطيه للإنسان من قدرات عقلية وروحية.

فإذا كان تدبير الإنسان فى السوء فهو المكر السيئ والتآمر، وهو الذى عبر عنه القرآن: ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ...﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣]. أما تدبير الله سبحانه وتعالى فهو تدبير فى الخير دائما، وهو عندئذ مكر فى الخير، ويتحقق تنفيذه فى مجريات الأحداث فى السماوات والأرض. والله المطلع على ظواهر وأسرار الناس يعلم ما يمكرون من حيث لا يشعرون، بينما الناس لا يحيطون بمكر الله

وتدبيره. وآثار تدبير الله بالنسبة للإنسان فى الأرض لا يمكن أن يأمن عواقبها الإنسان الذى هو فى التفكير لا يعلم ما يدبره رب العالمين، سواء كانت هذه الآثار فيها ضرر للإنسان فى الأرض أو فيها نجاة له: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل: ٤٥]. ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٥]. إن إرادة الإنسان لا يمكن أن تعارض إرادة الله، بينما إرادة الله يمكن أن تعارض إرادة الإنسان وتعلو عليها وتحقق ما تريده من مكر فى الخير وتدبير فى الخير: (وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ).

عناية الله بالرسول الخاتم -كما قلنا- عناية تمتد من الأزل إلى الأبد. واستمرار هذا الرسول فى أداء دور التبليغ للرسالة التى كلف بإبلاغها هو دور يستمد من إرادة الله، ولذلك فلابد أن يتحقق بالحدوث وبالأحداث فى واقع الأرض، حتى ولو كانت إرادة بعض الناس تعارض هذه الإرادة الإلهية وتريد أن تقف فى وجه هذه الإرادة الإلهية تحول بينها وبين تحقيق موجبها من أحداث فى واقع الأرض، وهذا ما لا يمكن أبدا أن يكون. وفعلا فإن هذا لم يكن ولن يكون أبدا...

وهكذا حين تآمر المشركون فى دار الندوة ليُثبتوا رسول الله ﷺ ويحبسوه ويقيموا حوله نوعا من العزلة التامة بينه وبين الناس، حتى لا يؤدى رسالته فى تبليغ الدين الخاتم وحتى يموت وهو على هذه الحال. وكذلك حين تآمروا فى دار الندوة أيضا ليقتلوا رسول الله ﷺ من خلال مؤامرة يصاب فيها الرسول من جمع ينتمى إلى كبرى قبائل مكة، بحيث يتفرق دمه بين القبائل فيعجز بنو هاشم أهله عن الأخذ بالثأر وقتال العرب جميعا، فيرضون بالدية ويكتفون بها وبذلك ينتهى أمر هذا الرسول وأمر هذا الدين. وكذلك حين تآمروا عليه ﷺ فى دار الندوة جميعا بقرار اتخذوه بإرادتهم الحرة هو قرار نفى الرسول من مكة إلى حيث لا يملك القدرة على إبلاغ الدعوة ولا يجد من العون لإتمام تبليغها، وهو المكر فى صورة التآمر والتفكير بالسوء. والتدبير بالسوء الذى يقول فيه القرآن فى سورة الأنفال: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) .

وقد استقر رأى المتآمرين فى دار الندوة، نتيجة مشورة من أبى جهل، على اختيار الوسيلة الثالثة من وسائل التآمر الثلاث التى نوقشت فى اجتماع الندوة فى مكة. وقد

تجمع بعد هذه المؤامرة أولئك الذين اختيروا لتنفيذها، تجمعوا حول بيت الرسول ﷺ ليقتلوه بالسيف بضربة رجل واحد. ولكن إرادة الله فوق إرادة البشر، وقدرة الله فوق قدرة البشر، وتدبير الله فوق تدبير البشر، ومكر الله أكبر من مكر البشر.

لقد أحاط الله رسوله علما بتفاصيل هذه المؤامرة، ولم يبت النبى فى بيته فى تلك الليلة، وإنما بات محله على بن أبى طالب فى فراشه متلحفا ببردة الرسول. وأذن عند ذلك للرسول بالهجرة، وتحققت إرادة الله بأن ينجو الرسول من هذه المؤامرة، فخرج مع أبى بكر الصديق مهاجرا من مكة إلى المدينة على تفصيل الأحداث التى نعلمها من سيرته ﷺ. وبعد قدوم الرسول إلى المدينة نزل هذا التقرير القرآنى الذى نتناوله فى هذا الحديث مذكرا الرسول بنعمة الله عليه، حيث وقاه الله سيئات ما مكر به المشركون: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

لقد أراد هؤلاء الكفار والمشركون من الناس أن يمكروا برسول الله ﷺ. ولكنهم حين يمكرون بالرسول فإن معنى ذلك أنهم يمكرون بالله تعالى، لأن صلة الله برسوله هى صلة العصمة الإلهية به من كل الناس وخاصة الكفار والمشركين. وإذا كان الله يدافع عن الذين آمنوا، كما يقرر القرآن، فهو يدافع من باب أولى عن رسوله. والرسول كان فى تلك الحقبة من تاريخ أحداث الأرض الإنسان المختار من جانب الله تعالى ليبلغ رسالة الله القرآنية وهى خاتم الرسالات؛ ولذلك فحينما مكر الذين كفروا بالرسول فإن رد مكرهم لم يكن من جانب الرسول، وإنما كان من جانب الله الذى يتولى رسوله، فهو سبحانه مولاه، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير.

ولذلك يقرر القرآن الفعل: (وَيَمْكُرُونَ) أى الكفار، ثم يقرر المواجهة: (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) ثم يقرر الحقيقة الخالدة من أن إرادة الله ومشيئته هى فوق كل إرادة ومشيئة: (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢-٣٣].

قد يظن أن المقصود من هذه الآية أن الوجود المكانى هو المقصود، بمعنى أن الله إذا أراد أن يعذب قوما أخرج رسوله أو نبيه مع من تبعه، ثم بعد ذلك يوقع عذابه بالقوم غير المؤمنين كما حصل مع الأنبياء الذين سبقوا هذا الرسول، والذين كانوا يدعون أحيانا على أقوامهم بأن ينزل بهم الله عذابه نتيجة عدم اتباعهم الرسل....

ولكن أعتقد -والله أعلم- أن المعنى المقصود غير هذا، فقد كان يمكن لله تبارك وتعالى أن يخرج الرسول والذين اتبعوه من المكان الذى يقيم به الكفار، ثم ينزل عذابه الذى يريده عليهم دون أن يمس الرسول وأتباعه أى ضرر.

ولكن هذا لم يحصل؛ لأنه ليس مراد النص القرآنى. وإنما مراد النص هو تكريم لهذا الرسول وتعظيم لشأنه، وبيان حقيقة صفاته التى تحنو على البشرية وتريد السعادة والخير والنجاة للإنسان أيا كان هذا الإنسان كافرا أو مؤمنا... فهو رسول الرحمة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهو عظيم الخُلُق: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] وهو بعث ليؤلف العقول والقلوب على الله سبحانه وتعالى ويبنى مجتمع الأخوة والمحبة والإيثار: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ...﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولذلك كان هذا الرسول يتجنب دائما أن يدعو على قومه مهما بلغ إيذاؤهم من الشدة والضراوة، وكان فى إمكانه أن يفعل ذلك كما فعل السابقون من الأنبياء والرسل، وكانت إجابة السماء عندئذ ستكون سريعة وفعالة، لكنه كان رسولا من نوع آخر غير السابقين من الرسل والأنبياء.

لقد جاء رسولا بالرحمة للإنسانية كافة.... برسالة جامعة كُلف ﷺ أن يبلغها للناس كافة.. وكان هدفه بناء عقيدة، واستقامة عبادة، وتقويم أخلاق، وتحسين معاملات، وبناء مجتمع على دعائم روحية من الإخاء والمحبة والإيثار، ودعائم حضارية من العلم والعمل والبناء والإنتاج والكفاح.... لذلك -كما قلنا- كان يتجنب دائما أن يدعو على قومه الذين آذوه بأن ينزل الله بهم أى عقاب أو عذاب، حتى وهو فى أكثر الأوقات ضيقا وشدة كان يستغفر لقومه ويطلب من الله لهم الهداية والغفران، وكان يقول -فيما أثر عنه ﷺ -: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وتروى لنا كتب السنة والسيرة دعاءه المأثور حين بلغ به الإيذاء أشده من أهل الطائف: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس .....».

فإذا كان هذا الرسول على غير المعتاد من خصائص وسلوك الرسل، ورسالته رسالة الختام والدوام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد وجب أن تكون سنة الله مع المجتمع المعاصر لهذا الرسول هى سنة بناء وإنماء وتسامح ورحمة بالدرجة التى تتمشى بها هذه السنن مع طبيعة الرسالة القرآنية الخاتمة التى جاء بها هذا الرسول الخاتم، وطبيعة وخصائص هذا الرسول ذاته الذى اختلطت شخصيته بجوهر رسالته، فعاشها فى واقع الحياة مثالا حيا لكل ما يدعو إليه فى الكتاب.

بسبب اتصاف هذا الرسول بهذه الخصائص وفى هذا المقام يؤدى هذا الدور الرحيم المنقذ للإنسان فى كل مكان وفى كل عصر، ما كان الله ليعذب غير المؤمنين به المخالفين لهديه وهو ﷺ فيهم يصحبهم وبين ظهرانيهم، وفى ذلك العهد من الله تكريم لهذا الرسول.. أى تكريم، وبيان لعظمة النبى الذى ألقى عليه القرآن وكلف أن يبلغه للناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، من كل أنواع الإشراك بالله إلى التوحيد الخالص والعبادة المتجهة إلى الله وحده، يقرأ القرآن عليهم بتلك المعانى كلها ليحيا من حىَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

وأعتقد أن المعنى المقصود هنا هو احتمال أن يكون هؤلاء الذين لم يؤمنوا ولم يتبعوا هم حماة الدين فى المستقبل من الذين كان القدر يخبئ لهم إيمانهم بالرسول ﷺ وإتباعهم له (وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) يعنى يستغفرون من كفرهم وموقفهم المعادى للرسول حين يهديهم الله فينقلبون مؤمنين بهذا الدين الجديد.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ
وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ
ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٦].

تختلف الرؤيا عن الحلم. الأخير يمكن أن يدخل فيما تتدارســه مدارس علم النفس المختلفة القديمة والحديثة، ويمكن أن يدخل فى إطار تفســيراتها على أن لا يعنى ذلك صدق هذه التفســيرات بالضرورة، أو صحتها بما لا يحتمل النقاش أو الرأى المخالف أو المختلف. ذلك هو المعنى الذى يمكن أن نفســر به ما روته لنا كتب السنة أن رسول الله ﷺ حدث به حين قال: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان».

الشــيطان له علاقة وثيقة بالنفس الإنســانية وبالوعى الإنسانى وما يسميه علماء النفس بالوعى الباطن (Subconcious) فكل ما يتصل بفكر الإنسان المقترن بتجاربه عبر أطوار حياته المختلفة، وينعكس فى الشــهود فى النوم. هو من قبيل الأحلام التى يمكن –كما قلنا– أن تفسرها الاتجاهات المختلفة لمدارس علم النفس، والتى –حتى فى هذا المجال– ما زالت مختلفة فيما بينها وليس لديها الكلمة الأخيرة؛ لأن دراساتها إنما تتصل بالأمراض النفســية المتصلة بالأجهزة المختلفة فى الجســم الإنسانى، وخاصة

الجهاز العصبى، أكثر مما تتصل بالجسد السليم والأجهزة السليمة فيه. ومن ثم فإن ما تصل إليه من معلومات يظل قابلا دائما للتغيير والإضافة الجديدة.

لكن القرآن يحدثنا هنا عن الرؤيا، وهى شىء مختلف تماما عن الحلم كما علمنا من حديث الرسـول ﷺ وكما نعلم من القرآن ذاته، وعلى هذا الأساس فحديثنا هنا منصب على الرؤيا كظاهرة متصلة بشـفافية الروح الإنسـانى، أو قوة طاقة الروح الإنسـانى التى تختلف من إنسان لإنسان. فكلما كان الإنسان يتمتع بشفافية روحية أعلى، أو كلما ازدادت القوة الروحية فى طاقتها لدى الإنسـان كان فى إمكان هذا الإنسان أن يقترب من العالم الروحى، أو عالم الأمر الربانى الذى لا يخضع لقياسـات التجربة الفيزيقية، ومن ثم يتلقى من هذا العالم الروحى كثيرا من الحقائق.

ولذلك فظاهرة الرؤيا الصادقة ظاهرة عامة يمكن أن يتحقق بها كل إنسان حسب مقدار شـفافيته الروحية، أو مسـتواه من القـوة الروحية أو حالتـه العقلية، ومن هنا فقـد تحقق بهـا فعلا كثير من الناس من مختلف العقائد الدينية، ويقول الرسـول ﷺ فى الرؤيا الصادقة إنها جزء من سـتة وأربعين جزءا من النبوة -كما ورد فى صحيح البخارى- وبالنسبة للناس بصفة عامة فإن أعظم أو أعلى ما يمكن أن يراه الفرد منهم هو الأشخاص الآخرون من ذوى الطاقة الروحية العالية، وخاصة إذا كان يربطهم بهم علاقة من الحب أو المعرفة أو الإتباع.

قد يرى إنسـان من هؤلاء أشـياء أو حوادث أو أماكن، ولكن الرؤيا تبلغ مقدارها العالى من الشفافية حين ترتبط بأشخاص؛ لأن الأشخاص هم المحور الذى تدور عليه الأشـياء والحوادث والأماكن، وبالذات أشخاص من ذوى الطاقة الروحية العالية الذين كانـوا على اتصال إيمانى بالله تبـارك وتعالى وأمثالهم الصالحـون الأولياء والأنبياء والرسـل وأولو العزم من الرسـل على التوالى فى التدرج نحـو الأعلى، فهؤلاء جميعا مشاهدتهم تذكر بالله.

ولما كان الرسـول محمد ﷺ وهو خاتم المصطفين والأنبياء المختارين من الله، ولما كان هذا الرسـول يحمل رسالة عامة للناس كافة ختمت بها الرسالات السابقة ولا تأتى بعدها رسـالة، فإن الأسـاس هو أن يكون هذا الرسـول موضـع اتباع من الناس

كافة، وأن يكون الناس كافة مقتدين بهديه، متطلعين لشخصه، فاهمين لمقامه مقدرين لحقيقة مستواه من القوة الروحية التى تعتبر أعلى قوة روحية مخلوقة؛ لأنها تجاوزت مقام روح الوسيط جبريل فى المعراج عندما وقف جبريل عند سدرة المنتهى وتجاوزها الرسـول الخاتم إلى قاب قوسـين أو أدنى. ومن ثم فإن المؤمنين بهذا الرسـول عندما يصلون إلى مسـتوى من الصفاء النفسـى والتحلى الأخلاقى والتجمل الصفاتى فإنهم يرون رسـول الله ﷺ فى الرؤيا، وهم عندئذ يشاهدونه حقا لأن الشيطان، أو العوامل النفسية المختلفة، لا يمكن أن تؤدى إلى شهود أو معرفة شخص هذا الرسول كما نعلم من الحديث «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى».

ولمـا كانت العوالم الروحية –أى الكائنات الروحية الصرفة فى مجالها الحياتى– يطلبون الإله بالضبط كما نطلبه نحن البشر ونحن نجمع بين التجسيد والروحية.. أى أن للكائنات فى هذه العوالم نشـاطها التعبدى، ولها قدرهـا فى المعرفة التى تتفاوت بحسـب قوة الطاقـة الروحية لديهـا ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٤] فإن مستوى الرؤيا أيضا يختلف لدى هذا العالم الروحى الصرف بالضبط كما يختلف ويتفاوت لدى الإنسـان الذى يحمل هو أيضا ذلك السـر من الطاقة الروحية المنفوخة فيه من روح الله.

بذلـك يكـون الإله هو مصـدر ذلك العطاء كلـه، وخاصة بالنسـبة للمختارين من الإنسانية من ذوى الطاقة الروحية العالية الذين اختارهم الله وأعدهم الإعداد الروحى والجسـدى الذى يمكنهم من التلقى عنه، إما بالوحى أو من وراء حجاب أو بالوسـاطة الروحية التى يمثلها الوسيط الروحى جبريل. ونحن نعلم أن المختار الخاتم من هؤلاء المختارين من الناس –أنبياءً ورسـلاً وأولى العزم من الرسـل– يأتى على رأس هؤلاء جميعا فيما يتعلق بمستواه من الطاقة الروحية.

هذا ما نستشـفه من كونه خاتم الرسل أنزل على قلبه القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه، وما نستشفه من واقعتى الإسراء والمعراج، حيث كانت إمامته للأنبيـاء والمرسـلين كافة، وكانت الرؤيـا فيها رؤيا فى الصحو هـى حق ليس فوقها مسـتوى يمكن أن يبلغه مخلوق آخر[1]. إن الرسول يتلقى الحق فى الرؤيا، فى الصحو

---

(1) راجع كتابنا «الإسـراء والمعراج والعلم الحديث» طبعة المجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية، أو طبعة دار الكتاب المصرى (اللبنانى).

وفي المنام، من المصدر الذى يلقى هذا الحق وهو الحق سبحانه وتعالى منزها عن الزمان والمكان، فإن ذلك يعنى أن التلقى فى هذه الحالات يكون خارج نطاق الأبعاد التى يعمل فى حدودها المخ الإنسانى. بمعنى أن الرؤيا هنا تكون فى خارج إطار أبعاد الزمان والمكان المعروفة لنا حيث لا زمان ولا مكان يعمل فى إطارهما ذلك القدر الهائل من الوعى الروحى.

ونحن نعلم أنه حتى قبل البعثة كان النبى يرى الرؤيا فى المنام فتتحقق فى واقع الأحداث الحياتية، ويخبر بالخبر فيكون كما أخبر، وهى ظاهرة الرؤيا الصادقة التى كان يتمتع بها، والتى تروى لنا كتب الأحاديث أن السيدة عائشة قالت فيها: «كان يرى الرؤيا فتجىء مثل فلق الصبح». والقرآن ذاته يحدثنا عن الرؤيا عندما يذكر يوسف النبى وما كان يراه فى المنام وتحقق فعلا فى واقع الحياة إلى جانب ما كان لديه من إمكانات لتأويل الرؤيا على النحو الذى صوره لنا القرآن فى صاحبى السجن معه، وفى السبع البقرات السمان والأخرى العجاف، والتأويل الذى ذكره يوسف النبى للاثنين.

ورؤيا إبراهيم التى يرى فيها أنه يذبح ابنه إسماعيل، وقد صدق إبراهيم الرؤيا، وهو ما يدلنا على أن رؤيا الأنبياء والمرسلين ذات صلة وثيقة بالله تبارك وتعالى، ولا دخل مطلقا لأى عامل نفسى أو غيره فيها، إنما هى إلقاء من مصدر مغاير هو الله سبحانه وتعالى: (إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ...) فهذه الرؤيا تحققت قبل معركة بدر الأولى، ورأى فيها النبى بإلقاء من الله تبارك وتعالى المشركين قليلا، بينما هم فى الحقيقة كثير، وذلك لسبب يوضحه الله تبارك وتعالى: (وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ).

وعندما تحققت المواجهة الفعلية فى إطار تحقق الأحداث الأرضية، والتقى المؤمنون والمشركون، الأولون فى العدوة الدنيا؛ أى القريبة من المدينة، والآخرون بالعدوة القصوى، أى الأكثر بعدا من المدينة، تحققت المواجهة بأسلوب يعبر عن الرؤيا التى رآها الرسول ﷺ فعلا من حيث العدد الذى يتقاتل من كل من المؤمنين والمشركين. فالمؤمنون رأوا المشركين قليلا فى العدد، فكان لذلك آثاره النفسية فى تدعيم الصف المؤمن، بحيث اشتدت العزيمة وقوى الاستعداد للتضحية، وزاد الإصرار على المواجهة مع اليقين بالنصر.

وعلى العكس كانت رؤية المشركين للصف المسلم قليلا -وهى نفس الرؤيا العددية ولكن من الجهة المقابلة- عاملا مثبطا للصف المشرك؛ لأن المشركين وهم يعلمون كثرة عددهم تهاونوا بالقلة المؤمنة، ونتج عن ذلك التهاون أثر نفسى هو التأكد من النتيجة بما أثر على القدرات القتالية للمشركين، فوهنت ولم تتحمس أو تقو وتتحد بالعزيمة والهمة، وكانت النتيجة النهائية فى ساحة القتال أن هزمت الفئة القليلة من المؤمنين الفئة الكثيرة من المشركين، وتحقق قضاء الله المعلوم لذاته سلفا: (لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا).

ويصف القرآن ذلك كله فى هذه الآيات التى توضح رؤيا الرسول ﷺ التى رآها وحدث بها أصحابه من المهاجرين والأنصار، والتى آتت أثرها النفسى الهائل الذى أدى إلى النصر فى ساحة القتال. وهذه الرؤيا الصادقة للرسول ليست الوحيدة، فقد رأى الرسول رؤيا أخرى -ضمن ما رأى- أنه يدخل مكة ويطوف حول الكعبة، وقد تحدثنا عنها فى موضعه من هذه المعية الرسولية فى القرآن:﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ...﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: ٢٧] وهذه الرؤيا قد تحققت بالفعل على النحو الذى رآه الرسول، والأولى تحققت بصورة فيها منظور عكسى، ويوضح الله سببها، وهو أن تؤتى آثارها النفسية وتؤتى نتائجها المرجوة من النصر فى القتال، وفى كلا الأمرين تتصل الرؤيا بالأحداث الواقعية فى الأرض، وفيها إنباء بغيب الأحداث نتيجة الكشف فى المنام. بذلك يكون الرسول ﷺ متصلا بربه متلقيا عنه فى الصحو من الوحى القرآنى، ومتصلا بربه متلقيا عنه فى النوم من الوحى فى الأحداث والأمور الغيبية، وفى كلتا الحالتين يرى الرسول من آيات الله، وفى الصحو يرى الرسول كبرى الآيات على الإطلاق، تلك التى رآها فى الإسراء والمعراج. وقد نزلت هذه الآيات موضع حديثنا هذا ضمن سورة الأنفال التى نزلت فى أعقاب غزوة بدر، أولى الغزوات فى تاريخ الإسلام. وقد كانت هذه الغزوة فى رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت أول جولة بعد الهجرة بين المؤمنين والكفار، وفيها تم النصر للمؤمنين رغم قلتهم العددية والكثرة العددية لعدوهم من الكفار.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

ليس فى هذه الآيات عتاب للنبى كما ذهب إلى ذلك البعض، وإنما الأمر هنا:

أولا: تقرير لقاعدة يراد من المؤمنين اتباعها وتطبيقها، وتتضح فى التقرير: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ).

ثانيا: بيان لما ينبغى أن يكون عليه اتجاه المؤمنين الفكرى والشعورى، وما يعكسانه من ضروريات ولوازم فى سلوكهم حيث يتجهون فيها بالكلية إلى الآخرة وليس إلى الدنيا وعرضها الفانى الزائل: (تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ثالثا: بيان انعدام العقاب على إعمال مبدأ الاجتهاد حتى ولو كانت نتيجة الاجتهاد خاطئة.

الأمر الأول: يعنى أنه ليس لنبى صاحب دعوة عالمية تدعو إلى تقويض دعائم الشرك وإزالتها، وإزالة القيادات المشركة غير المؤمنة بالقرآن من الوجود، وهو معنى الإثخان، أى إكثار القتل لمن ذكرناهم من المشركين غير المؤمنين بالقرآن، الذين ناصبوا النبى والمؤمنين العداء بوسائله المختلفة التى وصلت إلى حد القتال لوأد الدعوة والقائمين عليها، وفى مقدمتهم صاحبها، النبى ﷺ: ليس لنبى صاحب مثل هذه الدعوة أن يواجه صنوف الاضطهاد والإيذاء والقتل والتعذيب الموجه إلى

المؤمنين برسالته أن يعامل مقاتليه باللين: لأن ذلك قد يفسر على أنه ضعف يزيد بالتالى من طمع الطامعين فى وأد الرسالة والقضاء عليها فى شخص قائدها والقلة المؤمنة الملتفة حوله. وإنما الواجب هو الإثخان أولا. ثم بعد أن تتبين الأمور وتستقر الدعوة يمكن تغيير أسلوب المعاملة: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ).

والقاعدة عامة وموجهة إلى المؤمنين حول الرسول، وإن كان الحديث موجها إلى النبى. ذلك أنه روى أن النبى أتى بسبعين أسيرا، فيهم عمه العباس وعقيل، فاستشار أصحابه فيهم، فقال أبو بكر: «قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك» وقال عمر بن الخطاب: «كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله قد أغناك عن الفداء، فمكن عليا من عقيل وحمزة من العباس، ومكنى من فلان -نسيب له- فلنضرب أعناقهم» فقال عليه الصلاة والسلام لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم» فقالوا: «بل نأخذ الفداء».

فى هذه الظروف نزلت الآيات، ومنها يتضح أن النبى أخذ بمبدأ الشورى بين المؤمنين ليترك لهم الاختيار بعد التشاور والوصول إلى القرار، وقد كان ﷺ واسع الحكمة، سديد الرأى، مهدى الرشد، ولكنه أراد إعمال مبدأ الشورى يهتدى به المؤمنون مستقبلا، فاستشار أصحابه وأمضى رأى الجماعة. وكان ذلك كله بعد موقعة بدر وأسرى المشركين فيها.

والأمر الثانى: يبين الاتجاه الذى يريده الله من المؤمنين أن يخلصوا له، وأن يعملوا للآخرة، وليس لعَرَض الدنيا، فبهذا وحده تكون لهم الغلبة على عدوهم والقوة فى ذاتهم والرهبة لجمعهم:

وهنا يأتى **الأمر الثالث** الذى يتجاوز فيه الله سبحانه وتعالى عن العقاب نتيجة تقديم المؤمنين لمصالح الدنيا والمتصلة بمستقبل دعوتهم، لأن ذلك كان نتيجة اجتهاد فى الرأى منهم على أساس مبدأ الشورى بين المسلمين الذى أرساه النبى ﷺ ليكون أساسا فى شئونهم الدنيوية، مع ارتباطه بالضرورة بالتوجه بالكلية للآخرة، والعمل من أجلها؛ حتى فى إطار التشاور والشورى **فى الأمور** الهامة. فالذين

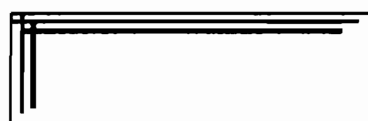
قالـوا بالفداء أخطئوا فى حق الرســول على اعتبار ما كان ينبغــى أن يكون عليه الأمر بالنسبة لرسالته... ولذلك فالخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين الذين اختاروا الفداء: (تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا) والله يريد منكم أن تريدوا الآخرة. والذين قالوا بقتل الأســرى أصابوا فى حق الرسول ﷺ على اعتبار ما كان ينبغى أن يكون بالنسبة لرسالته.

فالقــرار كان من المؤمنين، والقاعدة تقررت بالنســبة لهم فى شــخص الرســول ليطبــق، باعتباره القائد، هذا الحكم الذى قرره الله في القرآن فى هذه الآيات، ويطبقه المؤمنــون معه بالتبعية فى تلك الظروف التى كانت تواكب الفترة الزمنية لنزول هذه الآيات فيما يتعلق بســير الأحداث بالنســبة للدعوة الإســلامية آنذاك. ولــولا تقدير الله الأزلى بأن الدعوة ستنتصر فى النهاية على أعدائها من الكفار والمشركين -وهو ما تم فعلا وَفْقًا لتقدير الله أو ما سبق فى الكتاب- لأصاب المؤمنين عذاب ومعاناة وآلام من هؤلاء المشــركين وأئمة الكفر فيما لو انتصروا على المؤمنين انتصارا حاسما يقضون بــه على الدعــوة نهائيا نتيجة قرار الفدية التى أخذهــا المؤمنون: (فِيمَآ أَخَذْتُمْ) تاركين لهم حريتهم من جديد. فعندئذ كان ســيصيب المؤمنين عــذاب عظيم من هؤلاء الكفار والمشــركين من ضراوة العــداوة الكافرة والمشــركة (لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) كمــا فــى قوله تعالــى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٤] والله أعلم.



٨

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــــورة التــــوبة



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣].

توجيه للرسول ﷺ يظهر معه مقام الرسول عند الله ظاهرا جليا. فقد جاء العفو قبل الحديث فى أمر التوجيه نفسه، وهذا لا يكون إلا لشخص عظيم عند الله، عزيز عند الله، حبيب إلى الله.

وقد أوضح الله للرسول حقيقة المستأذنين فى سياق النصوص القرآنية التى جاءت بعد النص السالف على النحو التالى: ﴿ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤-٥١].

الحقيقة الأولى فى أمر هؤلاء المستأذنين أنهم من غير المؤمنين بالله واليوم الآخر، وأنهم من المرتابين المترددين الضعيفى النفوس.

الحقيقة الثانية فى أمر هؤلاء المستأذنين أنهم لو كانوا جادين فى الخروج إلى القتال لأعدوا له عدته. ولكنهم أصحاب النفوس المترديـة المترددة التى جبلت على الشك والنفاق، والتى لا تصلح مع ذلك فى الدفاع بصدق عن الرسالة، وفداء الدعوة الجديدة بالنفس والمال فى سبيل الله ووقوفا خلف رسول الله.

الحقيقة الثالثة فى أن هؤلاء المستأذنين لو أفضوا إلى صفوف المقاتلين المؤمنين لكانوا عالة عليهم، بل أكثر من ذلك كانوا سيكونون سببا فى إضعاف الصف المؤمن الذى يقاتل كالبنيان المرصوص: إذ إنهم كالشرخ فى البنيان. وكاللبنة الهزيلة التى يمكن أن يتساقط بسبب فسادها البنيان الصحيح كله: ولذلك فهم عبء على المؤمنين يعمل على إضعافهم، ولا يزيدهم إلا (خَبَالًا) كما تذكر الآية.

وهم سبب فى تفكك الترابط الإيمانى والفكرى والعقائدى الذى كان يربط المؤمنين برباط المحبة والإخاء والفداء والاقتداء. فهم فى نفوسهم كانوا يريدون الفتنة بالدس والوقيعة وتفتيت المعنويات وتحطيم الوحدة النفسية والتماسك النفسى للمؤمنين. والأخطر من ذلك أنه كان فى صفوف المؤمنين من لم يصدق إيمانه فيستمع لفتنتهم، ويستمع إلى أسرار المؤمنين فيبلغها للأعداء، وهذا أخطر أنواع الهدم من الداخل ذلك الذى نسميه اليوم (الطابور الخامس).

الحقيقة الرابعة فى هؤلاء المستأذنين أنهم أرادوا للرسول ﷺ الفتنة من قبل. حين قدم المدينة، ودبروا له الدسائس والمكائد للإضرار بهذا الدين الذى جاء به. ولكن نصر الله لهذا الدين كان أمرا مقدورا فى تاريخ هذه الأرض: أمرا علا فوق هذه الدسائس والمكائد التى انعكست فى السلوك الظاهر. وفى النفوس وما تخفيه من نفاق. وقد كرهوا -وهم بهذه النفسية تجاه هذا الدين- ظهور أنوار هذا الدين وانتصاره على قوى الكفر والشرك.

الحقيقة الخامسة فى أمر هؤلاء المستأذنين هى حقيقة النفس التى كان يعيشها هؤلاء، وما كشفه الله فى قرآنه من خبثها وعدم صدقها تجاه الله ورسوله. لا يريدون الخير للرسول وللمؤمنين، بل أكثر من ذلك يسوءُهم ذلك الخير الذى يصيب الرسول ﷺ والذين آمنوا معه. وعلى العكس إذا أصاب الرسول والذين آمنوا معه شدة

فإنهم يفرحون لما أصابهم، وقد فاتتهم حقيقة مهمة فى شأن أمر أحداث هذه الأرض، وسيرة حركة التاريخ الإنسانى فيها فى الأحداث المتتالية على مر العصور؛ وهو أن أمر المشيئة الإلهية فى شأن من الشئون إلا والله يعلمه بسابق علمه، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

بعد هذه الحقائق كلها تتضح حقيقة أسلوب وجوهر التوجيه الربانى للرسول ﷺ... لم أذنت لهم... حتى تعلم حقيقتهم وما فطرت عليه نفوسهم... إن الأمر فى البداية والنهاية معفو عنه من الله؛ إنه توجيه للتعليم والإفادة، وليس فيه أى خطأ من جانب الرسول؛ لأن الله فوض رسوله فى أن يأذن لهم أو لا يأذن: ﴿ ...فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ...﴿٦٢﴾ ﴾ [النور: ٦٢].

إن كل ما أحاط بهذا الرسول ﷺ من أحداث وتجارب، وكل ما أحاط بهذا الدين فى أطواره من أحداث وتجارب منذ نشأته وحتى اكتماله هو نبراس تهتدى به الإنسانية فى كل أطوارها، ونور تهتدى به الإنسانية فى كل عصورها. فالرسول فى شخصه وأخلاقه وعبادته وعقيدته وقيادته الحكيمة وسلوكه وأقواله.... إلخ هو قدوة للإنسانية فى كل عصورها تقتدى به، وهو قدوة للمؤمنين فى كل عصورهم يقتدون به. والدين الذى جاء به هذا الرسول من عند الله فى نصوصه وأحكامه وشريعته وجوهره وروحه ونوره هو قدوة للإنسانية فى كل عصورها تقتدى به، وقدوة للمؤمنين به فى كل عصورهم يقتدون به..



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

ينصب هذا التقرير القرآنى أساسا على الرسول ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه عام الهجرة، لما هَم المشركون بقتل الرسول، فخرج يصحبه الصديق أبو بكر حيث لجأا إلى غار ثور احتماء من المشركين وتمهيدا للسير إلى المدينة. وسنعود إلى بيان دلالة هذا النص بعد أن نتناول عدة مسائل تتصل بهذا التقرير القرآنى.

المسألة أساسا تتصل بالجهاد فى سبيل الله من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا. وتتصل بسنن الله التى هى الأسباب كما نعرفها فى تاريخ الأرض، والتى يكون فى إطارها النصر والهزيمة فيما يتعلق بجهاد المؤمنين فى سبيل الله. ومن أجل أن تكون كلمة الله هى العليا. كما تتصل الآيات فى هذا التقرير القرآنى بتحقق إرادة الله فى الأرض، تلك الإرادة المتمثلة فى الانتصار لدين الله وكلام الله بالتأييد الإلهى للرسول حامل مهمة الإبلاغ لهذا الدين ولكلام الله.

فالنصوص إذن على هذا النحو تبين نوعين من عوامل النصر التى يتولاها الله بمشيئته وحدها تجاه رسوله الذى يحمل لواء الدعوة لدين الله وكلام الله:

العامل الأول: يتصل بالنصر بالأسباب التى تجرى متصلة بعمل الإنسان واجتهاده، ومدى قوة إيمانه واستعداده للتضحية فى سبيل العقيدة ونصرة الرسول الذى يحمل لواء هذه العقيدة المتمثلة فى الدين الخاتم كما ظهر فى كلام الله.

والعامل الثانى: يتصل بالتقرير موضع هذا الحديث اتصالا مباشرا؛ وهو نصرة الله لرسوله ﷺ عن طريق أسباب تتصل به شخصيا حين ينفرد فى الميدان وحده فى مواجهة المشركين بدون معين أو مؤيد من المؤمنين، فهى صلة مباشرة بين الله ورسوله ينصر فيها الله رسوله حين يقف وحده بلا أى عامل من عوامل الأسباب الدنيوية التى تتصل بالإنسان كما نعلمها من تاريخ ازدهار وانحلال الحضارات المبنية على العقيدة أو المبدأ، بحيث تتحقق إرادة الله فى الأرض وتسير أحداثها كما يريدها الله تبارك وتعالى بمشيئته وحدها. تستمر هذه الأحداث فى الأرض، وخاصة ما يتصل فيها بالدعوة الجديدة التى كان الجهاد من أجلها من أهم عناصرها فى ذلك الوقت، خاصة وأنها كانت وليدة ناشئة تحتاج إلى العون لإكمال إبلاغها.

والعامل الأول يوضحه النص القرآنى التالى، والذى سبق النص موضع حديثنا هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩] هنا أسباب الانتصار والهزيمة للمبادئ وَفْقَ سنن الله فى الأرض؛ أى وَفْقًا للعوامل التى تجتمع كلها ويكون فيها أسباب النصر والارتفاع والتقدم والانفتاح، كما تكون فيها أسباب الهزيمة والهبوط والتأخر.

عوامل النصر تتصل أساسا بالإنسان وما يتصل بهذا الإنسان من عدد القتال التى يملكها وهو عامل مهم أشار إليه القرآن فى تقريره: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ولكن مع الأخذ فى الاعتبار أهمية هذا العامل كسبب من أسباب النصر فى الحروب إلا أن العامل الإنسانى يظل هو العامل الأساسى والأكثر أهمية فى تحقيق النصر فى الحروب. فالإنسان هو الذى يحمل عدة القتال، وهو الذى

يستعمل عدة القتال، وهو الذى يصنع عدة القتال، وهو الذى يحدد المصير النهائى لنتيجة القتال. فإذا اجتمع العنصران فهو الوضع الأمثل.

والإنسان الذى تتوقف عليه عوامل النصر فى الحروب ليس إنسانا عاديا، ولكنه إنسان يحمل فى قلبه مبدأ وعقيدة تنبع منها أعلى مراتب الاستعداد النفسى للقتال، وخاصة إذا كانت العقيدة أو كان المبدأ متصلين بالله سبحانه وتعالى. وقد ربى القرآن فى الصدر الأول للدعوة رجالا من المؤمنين هم أمثلة فريدة فى تاريخ هذه الأرض... رجالا رضوا بالآخرة فهانت فى أعينهم الدنيا... رجالا آمنوا بالله ورسوله فهان فى أعينهم كل ما سوى الله ورسوله... رجالا أحبوا الرسول ﷺ فكانوا فداء له ولدينه... رجالا تميزوا بصفات وخصائص تناولتها نصوص القرآن وبينتها السنة وأوضحتها أحداث السيرة ولا مجال لتكرارها هنا. مثل هؤلاء الرجال أصحاب المبدأ والعقيدة القرآنية هم عدة النصر فى الحروب عندما يكونون السبب الرئيسى فى تحقيق إرادة الله من نصر رسوله ودينه: ﴿...هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ... ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

فإذا تغيرت المقاييس بالنسبة لهؤلاء الرجال من المؤمنين وتغيرت البنية الفكرية والنفسية والروحية لهم، فإن الأسباب تأخذ فى تحقيق مسارها فى الأرض وبنصر الله رسوله ودينه برجال آخرين يتحلون بالصفات والمقومات التى يمثلها الإنسان المسلم المؤمن بالله ورسوله الخاتم، والدين الخاتم، وبذلك فقط تتم أسباب النصر للرسول ودعوته. وبغير هؤلاء الرجال الملتفين حول الرسول ﷺ ودعوته يحيق بالمجتمع أسباب الضعف، ويستطيع أعداء هذا المجتمع أن ينتصروا عليه، وهم الذين يكيدون للرسول ولدعوته وللمؤمنين.

هذا -فى مفهومنا- هو بعض المقصود من النص الذى يسبق التقرير موضع حديثنا هنا والمتصل بموقف الرسول فى غار ثور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ... ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨] أى دخلت الدنيا فى قلوبكم ودخلت معها فى قلوبكم الشهوات واقتراف المعاصى التى هى أول وأهم عناصر الضعف التى تَنْخَرُ فى بنيان الفرد الفكرى والنفسى والروحى.

وينهـار معها المجتمـع المؤمن بالعقيدة الواحـدة، وتعمل على انهيـاره كل العوامل المتصلة بحـب الدنيا وكراهية المـوت: ﴿ ...أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

إن إرادة الله بالنصر لرسوله ولدينه غلبت على أمر الأحداث فى الدنيا، والله يوجد أسـباب النصر بالرجال المؤمنين ويسـتبدل بالمتخاذلين آخريـن لهم نفس صفاتهم، ولكنهـم أقويـاء الإيمان. وهذا النص وإن كان له تعلق خـاص بمعركة تبوك إلا أنه فى قواعـده العامة التى يقررها يتجاوز حوادث هذه المعركة فى الزمان الذى وقعت فيه، إلى الأحداث المماثلة عبر العصور المتتالية فى تاريخ هذا الدين على الأرض.

إن الأمر يتصل بإرادة الله مباشرة، والتى يعبر عنها لفظ الجلالة (الله) فى النص موضـع حديثنا. فإرادة الله هى فى نصر هذا الرسـول ﷺ بما يعنـى نصر هذا الدين الخاتم. نصر هذا الرسـول بالكيفية التى تتحقق بها إرادة الله كما تعكسـها الحوادث المتصلـة بتاريخ هذا الدين فـى بداية عهده حتى تكون كلمة اللـه هى العليا، ويتحقق النصر لهذا الدين بمشتملاته كمنهاج كامل ومستمر فى واقع حياة الإنسان فى الأرض إلى وقت قيام السـاعة. ويكون ذلك معناه فى الوقت نفسـه انهـزام العقائد والمبادئ التى تتسـم بالكفر بالله، أو الشـرك به فى أى صورة أو شـكل أو محتوى تشـمله هذه العقائد أو المبادئ التى يؤمن بها الإنسان فى الأرض: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ).

والرسـول له صلة مباشـرة بمبادئ هذا الدين وله أيضا صلة مباشرة بالله مصدر هذا الدين، وبذلك تكون نصرة هذا الرسـول هى نفسـها نصرة هذا الدين ونصرة الله سـبحانه وتعالى. وعندما يبلغ الأمر هذا الحد فى شـأن أمور الدنيا والآخرة فإن إرادة الله تتدخل مباشـرة وتجعل من الأسـباب النفسية والظاهرية الملموسة مصدرا يتولى فيه الله رسوله بالنصر.

هـذا هو الذى حصل لرسـول الله ﷺ فى غار ثور مع أبـى بكر الصديق... لا عدة

لهما من الرجال المؤمنين، ولا الأسلحة المادية التى تكفل النصر، وهو الأمر الذى روى لنا فيه الشيخان البخارى ومسلم قولة أبى بكر: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا وكان رد الرسـول المـروى لنا فى كتب الحديث والسـيرة: «يا أبـا بكر ما ظنك باثنين اللـه ثالثهما». وهو الرد الذى تتمثل فيه أسـمى معانى القـوة المنبعثة من العقيدة فى قلب الرسـول، وأسـمى معانى التوكل على الله، وأسمى معانى الصدق فى الاستمساك بالله، وأسـمى معانى المعرفة من جانب الرسول بمقدار قربه من الله قربا يحمل معه معانى الحفظ والأمن والحماية والعصمة والتأييد والنصر، وهى كلها معانٍ جعلت قلب الرسـول مطمئنًا اطمئنانا يقينيًا بنصر الله: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا).

والجنـود قال فيها أغلب المفسـرين إنهم الملائكة، وربمـا كان ذلك صحيحا، كما أنـه ربمـا كان أيضا معنى هذه الجنـود غير المرئية يتجاوز فهم الملائكة إلى أسـباب وإمكانات أخرى لا نسـتطيع تحديدها تتصل بالرسـول شخصيا آتت أثرها على هؤلاء النفر من المشركين الذين كانوا وقتها يهددون هذا الرسول وهذا الدين، وهم لا يدركون أن إرادة الله فى حفظ هذا الرسـول وهذا الدين كانت أمرا حتميا سارت وَفْقَهُ الأحداث فى الأرض وقت هذه الحادثة بالذات والأحداث التى أعقبتها، حتى تمت هجرة الرسول وصاحبه إلى المدينة وسارت حوادث الأرض المتصلة بهذا الدين الناشئ فى تسلسلها التحققى الذى يعكس إرادة الله المتصلة بهذا الدين حيث لا شئ هنا من الأسباب العادية المعروفة التى تتجمع لتحقيق النصر أو إنزال الهزيمة على النحو الذى بينًا فى العنصر الأول فيما سبق، وهو العنصر المتصل بالمؤمنين. وقبل ذلك وفوق ذلك كله ودون ذلك كلـه هو العزيز الذى يعز من يشـاء وهو الحكيم الذى تظهـر حكمته فى أفعاله، وكلها أمور توضحها خواتم كلمات الآيات موضع حديثنا هنا (وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

وربما يكون تعبير الجنود الذى استعمله النص القرآنى مقصود به الوسيلة أو السبب الـذى تتحقق معه إرادة الله فـى مجريات الأمور كما تتحقق فى الكون كله، وفى كوكب الأرض مـن هذا الكون، وبصفة خاصة فى الأحداث المتصلة بالإنسـان فى هذه الأرض. وكذلك تعاقب الأحداث المتصلة فيها بالإنسان عبر الزمان، وهو الذى اصطلح على تسمية ما مضى منها بالتاريخ، والحاضر منها بالواقع، والمستقبل فيها بالمآل أو المصير.

وقد ورد تعبير جنود الله فى مواقع أخرى من القرآن في غير هذا الموضع من سورة التوبة. ورد فى سورة الفتح فى الآية الرابعة متصلا بعلم الله وحكمته، ومتصلا بالسكينة التى أنزلها الله على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. وهكذا نرى أن جنود الله فى آية سورة الفتح تتصل بالسكينة، كما اتصل تعبير الجنود الوارد فى سورة التوبة بالسكينة التى أنزلها الله على قلب رسوله ﷺ وهو فى هذا الموقف الفريد فى نوعه، والذى كان سيحدد مسار الأحداث فى الأرض بالنسبة لإرادة الله من حيث التمكين لهذا الدين الناشئ ونصرة رسوله. فقد كان يمكن -لولا تأييد الله لرسوله بالجنود غير المرئية- أن تتغير الأحداث المتصلة بهذا الدين كما عرفناها، ولا تتوالى كما توالت على النحو الذى عرفناه من تاريخ هذا الدين.

ومصير الرسول وصاحبه الصديق فى تلك اللحظة من لحظات أحداث الأرض فى غار ثور كان فيه تحديد لمسار الأحداث ونوعيتها، إما بتحققها وَفْقًا لما أراده الله حسب علمه الأزلى القديم من أن كلمة الله ستكون هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإما بتحققها على نحو لا يريده الله وهو مستحيل؛ لأن إرادة الله هى التى تتحقق وفقها الأحداث وتعكس كلها علمه القديم الأزلى فى الكون كله.

كذلك ورد لفظ (جنود) متصلا بالكون وبالأرض فى هذا الكون، وبعزة الله وحكمته فى الآية السابعة من سورة الفتح. واسم العزة الذى ورد (عزيزا) فى سورة التوبة يتصل بمستقبل المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات: ﴿ ...ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ...۝٦ ﴾ [الفتح: ٦] أى الذين يظنون عن جهل وعدم إيمان أن إرادتهم لا تستمد فى الحقيقة من إرادة الله التى هى فوق إرادة الإنسان، وخاصة بالنسبة لهذا الدين ولهذا الرسول الذى أراد الله أن ينصره نصرا عزيزا، وأن يظهر دينه على الدين كله.

الحقيقة أن فهمنا لتعبير جنود الله الذى ورد فى سورة التوبة كما يلى: (وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) وورد فى الآيتين الرابعة والسابعة من سورة الفتح كما يلى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ قد يعكس -كما قلنا من قبل- تحقق الأحداث فى الكون (ٱلسَّمَٰوَٰتِ)، والأرض الذى جاء التعبير بالنسبة لها صريحا (وَٱلْأَرْضِ) تحقق الأحداث فى صورة حتمية تعكس إرادة الله المتصلة بعلمه الأزلى القديم، والتى

يوضحها النص المتصل بهذه الأحداث فيما يستعمله من تعبير لفظ الجلالة (**الله**) أى إرادته وما يتصل منها بهذا الدين وهذا الرسول، كما يوحيه تعبير (كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) أى إرادتهم فى القضاء على هذا الدين وهذا الرسول، وهى الإرادة التى ما كان لها أن تتحقق؛ نظرا لأن إرادة الله هى نصر الدين ونصر هذا الرسول (كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ).

وبذلك المفهوم فإن جنود الله لا يعلمهم إلا هو سبحانه وتعالى؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يدرك إرادة الله، ولا أحد يمكنه أن يدرك علم الله فى السابقية، وبذلك فقد يكون هذا هو المعنى الذى يهدف إلى بيانه القرآن فى سورة المدثر فى الآية الحادية والثلاثين ﴿...وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ...(٣١)﴾ بعد أن تحدث عن أصحاب النار من الملائكة، وتحقق إرادة الله فى أن يضل من يشاء ويهدى من يشاء، حيث لا يدرك أى إنسان إرادة الله سبحانه وتعالى وعلمه سبحانه وتعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) والله أعلم.

لقد كان الرسول ﷺ ـ وهو فى هذا الموقف من تحديد مصير مسار اتجاه الأحداث فى الأرض بالنسبة لهذا الدين ـ فى أعلى مراتب اليقين الحق والثقة بالله تعالى والإيمان بتحقق إرادته ونفاذ قدرته بما جعله ينقل هذه الطمأنينة التى كانت لديه إلى صاحبه أبى بكر حين قال له: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) وكان من نتيجة هذه الطمأنينة لنفس الرسول أن أنزل الله سكينته عليه بما جعله كامل الثقة فى نصر الله له، ومن الجائز أن تكون السكينة قد نزلت أيضا على أبى بكر؛ حيث ذكر القرآن هذه المعية الإلهية لهما بالقدر الذى جعل الرسول يطمئن صاحبه ويقول له عن يقين حق: (لَا تَحْزَنْ) ويكون الضمير فى لفظ (وَأَيَّدَهُۥ) عائدا على الرسول ﷺ؛ لأنه هو الوسيط الذى تتحقق به إرادة الله فى نصرة الدين الذى يبلغه هو بشخصه، وهى النصرة التى تكون بها كلمة الله هى العليا..



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١].

هـذا النص مكمل للآيات التى سبقته، والتى تناولت المنافقين وما يضمرونه فى نفوسهم تجاه الرسول ﷺ والذين آمنوا معه. فعن هؤلاء المنافقين يتحدث هذا النص. وفى إحساسات الرسول ومشاعره تنزل هذا النص، يبين حرص الله على هذا الرسول فى سلامة حياته النفسية، والحفاظ عليها خالصة لذكر الله تعالى فى كل وقت وحين. وغضب الله سبحانه وتعالى على الذين يتجرءون بالمساس بهذه النفس الطاهرة الزكية التى اصطفاها الله لنفسه وخلصها لوجهه لتدوم صلتها بربها ذكرا وفكرا. وهى النفس التى تكون هذه الذات النورانية التى أعدت فى تكوينها وخصائصها لتكون سراجا منيرا لغيرها من النفوس المؤمنة تستمد الضياء من هذا السراج المنير. إن من أعظم الأمور أن يظهر القرآن هذه الصلة بين الله ورسوله... الصلة التى ينزل فيها قرآنا يذكر صراحة حرص الله على سلامة البنيان النفسى لرسوله ليظل على مستواه العالى من الطهارة والسمو والصلة بربه تبارك وتعالى، إلى الدرجة التى يكون فيها وعيد الله صريحا لهؤلاء الذين يؤذون الرسول فى مشاعره وإحساساته، فهؤلاء (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ذلك أن الله الذى يدافع عن الذين آمنوا يدافع من باب أولى عن محمد رسوله ﷺ... والذى يحب الذين آمنوا يحب من باب أولى محمدا رسوله ﷺ. والله يعلم الظاهر والباطن من سلوكيات النفس الإنسانية، ويعلم الظاهر والباطن من سلوك نفس الرسول، ولا يستحيى الله من الحق بتنزيل آيات صريحة عن أن من المنافقين

من يؤذى مشاعر الرسول بقولهم إنه أذن: أى سمَّاع لما يقال له من الشر، وهو غير صحيح. فهم إلى جانب كونهم منافقين فقد اتصفوا بصفة الكذب على الرسول: أى أنهم جمعوا بين النفاق والكذب. ولعل الصفتين متلازمتان، فكل منافق كذاب وهو مصداق لما حدث به الرسول ﷺ «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان».

فالحقيقة التى يعلمها الله، والتى يتصف بها الرسول ﷺ أنه سماع لكل خير ويتحدث بكل خير حرصا منه على الناس كافة وعلى المؤمنين خاصة، والذين هم الصفوة من الإنسانية الذين استجابوا لداعى الله ودعوته، وحررتهم العقيدة التوحيدية الحقة من رق العبودية لكل ما سوى الله سبحانه وتعالى. من جاه وسلطان ومال وشهوة وكل مفاسد المادة من زينة الحياة الدنيا. من أجل هذه الخصائص فى المؤمنين يبين الله حقيقة مسلك الرسول تجاههم ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] أما المنافقون خاصة والناس عامة ممن يؤذون رسول الله بكلامهم وكذبهم وادعاءاتهم الباطلة فإن حسابهم يتولاه الله سبحانه وتعالى الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.. حسابهم شديد فى الدنيا، وفى الآخرة فيه من الإيلام والإيذاء ما يفوق ما آلموا به الرسول ﷺ وآذوه (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وهم يذهبون فى النفاق والكذب إلى أبعاد عميقة من اللاأخلاقية. يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢] ويعود القرآن فيقرر أن من يجاوز الحق والطاعة والأدب مع الله ورسوله فإن الله يخزيه يوم الحساب خزيا عظيما، حيث يدخله نار جهنم ليمكث فيها أبدا خالدًا ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة:٦٣].



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾ [التوبة: ٨٠].

يظهر فى هذا التقرير القرآنى مقام الرسـول العظيم عند الله. فإنه وإن كان يبدو لأول وهلة أن النص يخاطب الرسـول ﷺ فى أمر اسـتغفاره وكونه متساويا مع عدم استغفاره، وحتى ولو كان استغفار الرسول قد بلغ حدا من الكثرة التى استعمل النص بإزائهـا الرقم سـبعين مرة وإن الله لا يغفر لهؤلاء، أقـول إن كان ذلك يبدو لأول وهلة إلا أن التعمـق فى هـذا التقرير القرآنى يؤكد على أهميـة حقيقية هى من صميم دعوة الرسـول ذاته ومن صميم عقيدته ومن صميم أخلاقه، هـذه الحقيقة هى الإيمان بالله ورسـوله وإظهار هذا الإيمان فى المنطوق الكلامى الظاهر، وما يتصل به من سـلوك وما يترتب عليه من أعباء وواجبات، ومن مسـتور فى باطن العقل والقلب ينعقد عليه الضميـر وينبنـى عليه السـر وتطمئن به النفس. ذلـك الذى يقرره القـرآن يتمثل فى الكلمـات التالية من الآيات التـى نتحدث عنها هنا (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ) هـذه هى البداية التى ينبغـى أن ينطلق منها النظر المتدبر للآيات موضع هذا الحديث، فإن الإيمان بالله والرسـول هو القاعدة الأسـاس التى يوزن بميزانها الناس عند الله. وإقران ضرورة الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله يمثل ذلك الجانب الذى قلنا فى بداية الحديـث هنا إنه يوضح المقام العظيم للرسـول عند الله والـذى ينبغى أن تنبنى عليه نظرة الناس كلهم إلى هذا الرسـول. وهؤلاء الذين كفروا بالله ورسـوله صنف خاص مـن الناس يتصف بالنفـاق، فهم قد جمعوا إلى جانب الكفر نفاقـا فى قلوبهم صاروا

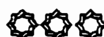
به أكثر فسقا من الكافرين الذين أعلنوا كفرهم. فهؤلاء الذين كفروا صراحة لهم من صفات النفس ما يجعلهم من الممكن أن يتحولوا إلى الإيمان بالله ورسوله فى يوم من الأيام حين يتوب الله عليهم فيتوبوا هم. أما الذين جمعوا النفاق إلى جانب الكفر فإن فى نفوسهم من الصفات البالغة التعقيد ما يجعل من الفسق والكذب والحقد وإضمار السوء والكيد والإيذاء بالكلام والقعود عن الالتزامات التى توجيها مقتضيات الإيمان، قعودا عن غش وخداع وضمير غير سليم، بما يجعل نتيجة هذه الصفات وما ينتج بدافعها من تصرفات، أشد خطورة من تصرفات الذين أظهروا الكفر وكان لهم موقف واضح صريح، يمكن أن يحسب الرسول والمؤمنون حسابه ويقيمون عواقبه، بينما المنافقون يصعب معهم إيجاد الحسابات وتقييم العواقب والتخطيط على أساس سليم. ويظهر ذلك جليا بصفة خاصة فى أوقات الحروب والإعداد لها والاستنفار والتعبئة والتخطيط لها واتخاذ القرارات بشأنها وإعداد الحسابات المتصلة بها، وهو الأمر الذى يقول فيه القرآن: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ [التوبة:٨٣]. إن هؤلاء المنافقين يمثلون عنصرا مهمًا خطيرا سواء فى جبهة القتال بين المحاربين أو فى صفوف الجبهة الداخلية التى تعبأ للمجهود الذى يقوم به المحاربون فى الجبهة الأمامية ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة:٤٧]. ونفاق القلوب من أخطر الصفات التى ينتج عنها غضب الله على صاحبها، ذلك أن نفاق القلوب ناتج عن عدم صدق الضمير واستخفاف بعلم الله الذى يعلم السر وأخفى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة:٧٨]. هؤلاء المنافقون الكافرون قرر الله بشأنهم مخاطبا رسوله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ... ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤]. فالله يعلم سرهم ونجواهم وهو علام الغيوب الذى يكشف عن أسرار نفوسهم وباطن فكرهم وخبث صفاتهم وإصرارهم على فسقهم، فيقرر بشأنهم فى تكملة الآية السابقة من سورة التوبة الآية ٨٤: (إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ) وهذه هى النهاية بالضبط كما كانت

البدايـة فى الآيات التى بدأنا بها حديثنا هنا (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ).

هذا الحديث عن المنافقين جاء كله فى سـورة التوبة، وقد تناول القرآن أيضا أمر المنافقين فى سورة الأحزاب وفى سورة الفتح وفى سورة الحديد وفى سورة الأنفال وفى سـورة المنافقون وفى سورة النساء وفى سورة العنكبوت وفى سورة التحريم، ويمكـن الرجـوع إليها لمن يريد أن يسـتزيد من معرفة هذه الآفـة الخطيرة وهى آفة النفاق التى تقرر فيها الآية التالية من سـورة النسـاء ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ...﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء:١٤٥].

بعـد ذلك كله يمكننا أن نبدأ النظر فـى التقرير الذى هو موضع حديثنا هنا- الآية ٨٠ من سورة التوبة. فرغم علم الرسول بكل ما جاء فى كتاب الله عن المنافقين وشأن الله معهم وشأنهم مع الله ورسوله، كان الرسول ﷺ من فرط ما جبل عليه من الرحمة بالنـاس أجمعين يريد أن يتلمس بابا ينفذ من خلالـه إلى الله تبارك وتعالى من خلال رحمته الواسـعة، لينقذ هذا الصنف من الناس مما ينتظرهم من عذاب أليم يوم القيامة يعلـم الرسـول قدره وأبعاده. وكان الرسـول يأمل فى أن يتوسـل إلـى الله من خلال رحمتـه فى أن يتوب على هؤلاء المنافقين ويجنبهم بالتالى عذاب يوم القيامة، الذى لا قبل لهم به خصوصًا مع علم الرسـول بما ورد فى سـورة الأحزاب خاصا بالمنافقين ﴿ ...وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحـزاب:٢٤] فلعـل هـذا الصنـف من المنافقين الذى ورد ذكره فى سـورة التوبة يدخل فـى عداد هؤلاء الذين إن شـاء الله تـاب عليهم. ولكن يبـدو أن هذا الصنـف من المنافقين الـذى ورد ذكره فى سـورة التوبـة جبل على هذه الآفة مـن النفاق، حتى بات من المسـتحيل أن تتغير معتقدات نفوسـهم طـوال حياتهم إلى أن ماتوا وهم فاسـقون، واللـه لا يهدى القوم الفاسقين إلى التوبة. ولذلك فإنهم من منطلق عدم توبة الله عليهم ليتوبوا فإنه يستوى أن يسـتغفر لهم الرسـول أو لا يسـتغفر من منطلق رحمته الشـاملة لكل الناس، مهما بلغ اسـتغفار الرسول من الكثرة تسـامحا منه فى حق هؤلاء المنافقين. ونعود فتكرر الحقيقة الأساس فى شأن هذا الاستغفار وهو (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ) ولا يرضـى عنهـم ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟

عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة:٩٦]. وكما أن النفاق يحمل معه الكفر فإنه يحمل معه الشرك أيضا. وفى أمر الاستغفار لهذا الصنف من الناس من جانب النبى ﷺ والذين آمنوا يقرر القرآن ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة:١١٣] وقيل إن هذا النص نزل بعد موت أبى طالب. وما روى منسوبًا إلى الرسول أنه حدَّث به: «والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت. وقد بين الله بعد ذلك فى الآية التى تلى الآية السابقة فى سورة التوبة بشأن النهى عن الاستغفار للمشركين ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة:١١٣]

كان النبى ﷺ رحيما فى تكوينه الخلقى، حتى إن القرآن يقرر فى شأن هذه الصفة فيه بشكل عام، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] كما يقرر القرآن فيها بشكل خاص أنه ﴿ ...بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨] ومن منطلق هذه الحقيقة -مع الأخذ فى الاعتبار سبب نزول الآية موضع حديثنا- يتضح لنا جليا أن ليس فيها عتاب للنبى وإنما توجيه ببيان حقيقة هامة تتصل بقاعدة أساس فى البنيان العقدى الإسلامى الذى يقيمه القرآن، ويمثله النبى ﷺ بالقدوة. تلك القاعدة الأساس هى العقيدة كعنصر أساس بالنسبة لأواصر العلاقات بين البشر وبالنسبة لميزان الحق تبارك وتعالى، والذى يزن أمور الناس على أساس من العقيدة؛عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. والحقيقة المهمة التى تتصل بهذه القاعدة هى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا هو عبده ورسوله الخاتم. ففى إطار «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يقيم الحق تبارك وتعالى مقادير البشر ويضع الحق تبارك وتعالى هذا التقييم فى ميزان العدل الإلهى الذى يجعل هذا الاعتبار هو الأساس فى تقرير مصير الناس يوم الحساب حتى إن الله تبارك وتعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. يذهب النبى لعمه أبى طالب يحثه على أن ينطق بالشهادة -لا إله إلا الله- ولكنه رغم الإلحاح أبى أن ينطق بها فقال الرسول ﷺ: -حسب ما ترويه لنا كتب السيرة- «أما والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله فى القرآن (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

ويروى لنا الإمام مسلم فى صحيحه أنه نزلت بسبب ذلك أيضا ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى

﴿مَنْ أَحْبَبْتَ ...(٥٦)﴾ (القصص). فالنبى من منطلق حرصه على نجاة عمه طلب منه أن يشهد أنه لا إله إلا الله ينطق بها قبل أن يموت على الشرك، وهو ملة عبد المطلب كما تروى لنا كتب التفاسير. وربما من الشعور المنبعث من وشيجة القرابة وصلة الدم... وربما من منطلق الرغبة فى نجاة أبى طالب من عذاب يوم القيامة الأليم. يجمع الاثنين تاريخ أبى طالب فى حماية النبى، بدايات الدعوة فى مكة، من كبراء قريش بالذات، وربما من العاملين معا كان قول النبى أنه سيستغفر له ما لم ينهه الله عن ذلك فإنه حينئذ لن يستغفر له. وهذا ما تحقق فعلا بنزول الآية موضع حديثنا هنا (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) كان ذلك هو النهى الذى عمل النبى له حسابا عندما قال إنه سيستغفر الله «ما لم أنه عن ذلك» وعندئذ علم النبى وعلم المؤمنين معه أن العقيدة لا تساهل إزاءها وأن لا إله إلا الله هى فى الحقيقة وشيجة القرابة وصلة الدم، وهى صلة النسب وهى صلة الأرض وهى صلة الدين، وأنه لا صلة تقوم مقامها إذا انعدمت هى من قلب الإنسان. ويستطرد القرآن موضحا هذه الحقيقة فى الآية التى تليها -١٤٤ من سورة التوبة- بالنسبة لإبراهيم وأبيه ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ (التوبة) هكذا تبرأ الابن -وهو نبى- من أبيه بسبب أن الأب كان كافرا بالله تبارك وتعالى وكان النبى إبراهيم من فرط رحمته ورأفته بأقربائه وخاصة أبيه، يريد أن ينجيهم من عذاب يوم القيامة المؤلم، وربما كانت العوامل النفسية التى دفعت إبراهيم لذلك هى نفس العوامل التى دفعت النبى محمدًا من بعده للاستغفار لعمه. وقد بين الله للاثنين أنه لا يقيم لصلة القرابة وزنا إلا إذا كانت وثيقة الصلة بالعقيدة التوحيدية لله بحيث تشتد الصلة وتقوى عند اقتران الأمرين وتضعف وتزول إذا انفصل التوحيد عن صلة القرابة وقامت الأخيرة وحدها فى ظل الكفر أو الشرك بالله. إذا انفصل العنصران فإن صلة العقيدة هى الأبقى وهى الرباط الذى يجمع بين البشر ويؤلف بين قلوبهم ﴿ ...لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ...(٦٣) ﴾ [الأنفال:٦٣] حتى ولو تباينت وتنوعت وشائج الصلات بسبب اللون أو الجنس أو النسب أو الوطن.

والعقيدة التى نقصد إليها هنا هى عقيدة التوحيد التى يقابلها الشرك الذى ذكرته

الآية. ففى هذه الآية إشـارة إلى مقام عال من مقامات التوحيد. الله سـبحانه وتعالى ذات تتصف بصفات وأسماء (الأسماء الحسنى) والإنسان ذات تتصف بصفات وأسماء. ومـن صفات الله الرحمة والرأفة، كما أن من صفات الإنسـان الرحمـة والرأفة، وهما الصفتـان المتجليتـان فى الوقائع المتصلة بهذه الآية من سـورة التوبـة؛ رحمة النبى ورأفتـه بعمه أبى طالب، وهو النبى ﷺ المتصف على لسـان الحق تبارك وتعالى فى القرآن بالرءوف الرحيم بالمؤمنين وبالرحمة للعالمين. وهذه هى «الصورة» التى خلق اللـه آدم عليهـا لتكون مثلا للـه فيما روته لنا كتب الأحاديث مـن أن الله خلق آدم على صورته. ولكن الذى ينبغى أن نعلمه جيدا هو أن أسـماء وصفات الإنسـان كما هى فى الإنسـان، مغايرة تماما مغايرة كلية لأسماء وصفات الله كما هى متصلة بذات الله. أى أن انعكاسات الأسـماء والصفات الإلهية فى أمثلتها أو صورها، كما فى الإنسان، تأخذ طبيعـة مختلفـة عن وجودها المتصل بذات الله. فالرحمـة الإلهية مثلا لا تعنى عاطفة كالتى يتحلى بها الإنسـان، وإنما تعنى تجليها فى الكائنات بآثارها -أى الرحمة- التى تعـود بمقتضى معنى الاسـم أو الصفة على هـذا الكائن أو ذاك مـن الكائنات. وأقرب مثـال لذلـك هو رحمة الله بالإنسـان. فمن أجلهـا ولمقتضى تجلى معناها أرسـل الله الرسـل والأنبياء لهداية الإنسان، وإخراجه من ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإيمان والتوحيد والعلم. ومن أجل تجليها فى أسـمى المعانى جمع الله مقتضاها فى إنسـان كامل اختاره رحمة للعالمين، وجمله بالرحمة والرأفة الخاصة بالمؤمنين بالله الموحديـن لذاتـه، بحيث يكون هذا التجلى للرحمة فى أكمل وأشـمل معانيه بالنسـبة للإنسان خاصة وللعالمين بصفة عامة. هذه الرحمة المتصلة بالعاطفة الإنسانية، والتى يتولد عنها سـلوك معين يتسم بمظاهر الاسـم أو الصفة «الرحمة» هى مظهر للرحمة المحمدية التى تنعكس أيضا فى سـلوك يدل عليها -كما فى سلوك النبى مع عمه هنا- وفـى علم يتصل بها، كما فى القـرآن ذاته الذى أنزله الله رحمة للناس وبالناس ورأفة لهم وبهم فى إطار العدل الإلهى الشامل والمتصف بالرحمة والرأفة، ولكن فى مظاهر خلقية تعود بالنفع وبتطور الوجود البناء ذاته للمخلوقات كلها، وَفْقَ سـنن هى مهدية إليهـا فى بيئة تصلح وتسـاعد على هـذا الوجود البناء واسـتمراريته، ومثال ذلك بيئة الإنسـان فى كوكـب الأرض، وبيئة النطفة فى الرحم، وبيئة البـذرة النباتية فى باطن الأرض، وبيئة مكونات الذرة داخل الذرة نفسها ونواتها.... إلخ وكما فى اختيار الرسل والمصطفين، وبالذات الرسول الخاتم الرحمة للعالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨]

صفات متناهية فى العظمة يصعب على إنسان الزيادة فى وصفها، فهى تصف نفسها بنفسها، وتوضح أبعادها مدلولاتها، وكون الله تبارك وتعالى يتحدث بها كفاية لنا فى فهمها. وقراءة (أَنفَسِكُمْ) بفتح الفاء يتمشى أكثر مع سياق النص فيما جاء به من أوصاف. والنفاسة هنا قرينة الاصطفاء والاختيار لهذا الإنسان ليكون خاتم الرسل من عند الله للناس كافة. والله أعلم حيث يجعل رسالته. لقد اختار الله لهذه الرسالة الخاتمة نفس من أنفس النفوس وعقل من أنفس العقول وروح من أنفس الأرواح. اجتمعت كلها لتكون مجموعة من الصفات والخصائص لم ولن تتوافر فى بشر من الناس أو بشر من الصفوة المختارة من أنبياء ورسل الله.

بهذه الصفات والخصائص -وغيرها مما أخبرنا به القرآن- تميز هذا الرسول ﷺ بما كان يتصف به من أخلاق على نحو ما وضح لنا القرآن فى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] خصائص وصفات تسمو بها هذه الشخصية الفريدة إلى قمة الكائنات الحية كلها، وكلها سبب ونتيجة للصلة القوية بالله عن معرفة هى أرقى درجات المعارف:

١- عزيز عليه ما عنتم.

٢- حريص عليكم.

٣- بالمؤمنين رءوف رحيم.

يحز فى نفس هذا الرسول أن تشقى هذه الإنسانية التى أرسل إليها هاديا وداعيا بإذن الله فى حياتها الدنيوية، وأن تتألم نتيجة ذلك بالعذاب فى حياتها الآخرة. ويعز

على هذا الرسول ﷺ أن يعلم أن جزاء الضالين هو الألم والعذاب يوم الحساب وما فيه من مشـقة وعنت نتيجة الانحراف الإنسانى فى الحياة الدنيا بعيدا عن هدى الله. وهذه المشـاعر النبوية من الألم والحزن والشـفقة لا تنتج إلا عن نفـس زكية أعلى ما تكون التزكيـة... نفس لا تكنُّ إلا الحب لـكل الناس دون تفرقة أعلى ما تكون المحبة... نفس تريد الخير كل الخير والسعادة الدائمة للإنسانية جمعاء أعلى ما تكون السعادة وأعظم ما يكون الخير... نفس تحرص على ألا يصيب أهل الأرض من البشـر أى شر عاجل أو آجل، دنيوى أو أخروى... نفس تعمل على هداية الإنسـانية وإخراجها من أنواع ظلمة الضلالات كافة إلى نور الهدايات السـاطع حتى تنجو مما يعلمه هذا الرسول من عذاب واقـع ليس له من الله مـن دافع لكل من انحرف عن جادة الطريق؛ طريق الله المضىء بنور القرآن العظيم. ولما كان الرسـول هاديا للإنسـانية فإنه لم يدُع قط على أحد من النـاس بأى شـر يصيبه لينتقم منـه لما تعرض له من إيذاء على يـد غير المؤمنين. بل علـى العكـس كان يدعو فى صالح هـؤلاء ولا يدعو عليهم أبـدا، وروى عنه ﷺ قولته المأثورة:

"اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون" أى خُلُقٍ هذا الذى يتمتع به هذا الرسـول ﷺ حتى يخص هذه الإنسانية غير العالمة بالدعوة لها حتى ينجيها من غضب الله الشديد... إنه الخلق العظيم الذى يدركه، بأبعاده الحقيقية، الله سبحانه وتعالى، ويعلم الناس من نماذجها التطبيقية ما يرونه فى سلوك النبى فى حياته اليومية مع كل الناس، مؤمنين وغير مؤمنين، إن خلق هذا الرسـول وعلم هذا الرسـول جعله حريصا على الناس كافة وعلـى أمتـه خاصة (حَرِيصٌ عَلَيۡكُم) أمـا الذين آمنوا بالله وبـه وبالقرآن، فقد أحبهم وأحبوه، لانَ لهم قلبه، ورق لهم فؤاده، وامتلأت بالخير لهم مشـاعره، وحملت لهم نفسـه الرأفـة والرحمة بهـم على نحو مـا يوضح القـرآن (بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ).



٩

في معية الرسول ﷺ

فى

ســــورة يـــــونس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس:٩٥].

النص له دلالة غير ما يوحيه من خلال النظرة السطحية الأولية. فهناك عدة أمور أساسية متصلة بالرسول ﷺ ومؤكدة بالنسبة إليه:

١- أن الرسول ليس فى شك مما أنزل إليه. بل هو فى أعلى مراتب اليقين الحق بما أنزل إليه من ربه ومن كونه الحق كل الحق.

٢- يوضح ذلك ما نسب إلى الرسول من أنه قال عند نزول هذه الآيات –لا أشك ولا أسأل- فهو ينفى الشك ويثبت اليقين ثم يزيد فى إثبات اليقين حين يقول إنه لا يسأل.

٣- الله تبارك وتعالى يعلم من رسوله وعن رسوله أنه فى أعلى مراتب حق اليقين بالنسبة للتصديق بما أنزل على قلبه بواسطة الروح الأمين.

٤- إن الذين يقرءون الكتاب –أى العلماء من أهل الكتاب- من قبل الرسول كانوا يعلمون أن القرآن الذى أنزل على الرسول هو الحق؛ لأنه وارد فى كتبهم التى كانوا يقرءون وخاصة التوراة والإنجيل. ولكن هؤلاء العلماء أخفوا هذه الحقيقة عن المؤمنين بهذين الكتابين وطمسوها كلية لأسباب عديدة ذكرها القرآن فى عدد من نصوصه كما فى تقريره ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[البقرة:٧٩] وكما فى الآية التى سبقت مباشرة التقرير الذى

نتناولـه فى هذا الحديث، والتى تتصل به استكمالا للمعنـى المراد وهى الآية ٩٣ التـى تقـرر ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾. والمقصـود أنهم مـا اختلفـوا إلا من بعد ما جاءهم ما كانوا به عالميـن، وذلك لأنهم كانوا مجتمعين علـى مبعث محمد ﷺ وعلى نبوتـه غير مختلفين، وذلك ممـا كان مكتوبا عندهم وطمسـوه ولكنهم يعرفونه حق المعرفة ﴿ ... فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ...﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة:٨٩].

٥- إن سـؤال الرسـول لعلمـاء أهل الكتاب لن يأتـى بالإجابة الصادقـة منهم لأنهم لم يعترفـوا بأن الـذى أنزل عليه هو الحق من الله تبارك وتعالى، بل سـينكرون ذلك تماما. فلا ولن تكون إجاباتهم إلا التشكيك فيما نزل على الرسول وتكذيبه والإنكار وعـدم التصديق وعدم الإيمـان به؛ وذلك كله إخفاء منهـم للحقيقة التى يعلمونها يقينا من كتابهم.

فالآيـة فى حقيقتهـا إنكارية نافية بمعنـى أنه لا يمكن أن تكون يا أيها الرسـول فى شـك بـأن الذى جاءك من الله هو الحـق؛ لأنك تعلم أنه الحق حتى ولو سـألت أهل الكتاب وشككوا فيما أنزل إليك من ربك وقالوا عنه إنه غير الحق فأنت لن تسألهم: لأنك لن تكـون من الممترين أى المتشـككين مثلهم. وكذلك فأنت لن تكون من الخاسـرين مثلهـم نتيجة تكذيبهم لآيات الله نظرا لأنك لسـت مكذبا مثلهم لآيـات الله، والله يعلم أنك آمنت بما أنزل إليك من ربك ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥] . وبقية سياق الآيات فى سورة يونس يوضح هـذا المعنى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ

وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (يونس). والإنكار والنفى هنا كما فى مثله فى تقرير القرآن ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الزخرف) فهذا إنكار ونفى فى الحقيقة يعنى استحالة أن يكون للرحمن ولد، فأنا أول العارفين بذلك منكم، ولكنه لا ولد له فأنا أعبده بأنه لا ولد له ولا ينبغى أن يكون له.



١٠

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـــورة هـــــود



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٠-١٢٣].

عطاء الله فى الدنيا للإنسان يأتى نتيجة العمل والاجتهاد والكفاح من جانب الإنسان. والله تبارك وتعالى يقرر أن عطاءه ليس محظورا على الإنسان إن هو عمل واجتهد وكافح من أجل تنمية بنيانه المدنى والحضارى. وهذا قانون من القوانين الإلهية المتصلة بالإنسان فى الأرض، أو سنة من سنن الله التى لا تبديل فيها ولا تحويل لها. فالإنسان يبنى مدنيته وحضارته أيا كانت عقيدته تجاه الإله وأيا كان الإطار العقائدى، مع ما يتبعه من عمل وعلم وثقافة يترقى بواسطتهم الإنسان وهو يعمل من أجل إقامة بنيانه المدنى والحضارى.

هذه قاعدة كما قلنا لا فرق فيها بين مؤمن برسالات الله وخاتمها المتمثل فى القرآن، أو بين غير مؤمن بهذه الرسالات وخاتمتها الرسالة القرآنية ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الإسراء:٢٠] ولكن الأمر الأساسى المتصل بهذه القاعدة التى ذكرناها هو فى مدى اتصال إرادة الإنسان بإرادة الله تبارك وتعالى كما تتجلى فى رسالته جميعا وفى القرآن خاتم هذه الرسالات. وأيضا فى توافق الإرادة الإنسانية مع إرادة الله تبارك وتعالى التى تجلت فى رسالاته إلى الإنسان عبر تاريخه فى الأرض، يحملها رسل مختارون من الإنسانية، وفى

رسالة القرآن التى هى رسالة الله الخاتمة التى حملها المختار من الإنسانية، صفوة المختارين وإمام المصطفين محمد ﷺ، وهو الذى يتوجه إليه القرآن بالحديث فى الآيات التى نتناولها هنا من نهاية سورة هود. القاعدة نافذة كما قلنا فى النتائج التى تأتى بها، والسبب والنتيجة متصلان بعامل الإنسان ولكن ذلك لا يعنى أنها نتائج مترتبة على اتصال إرادة الإنسان بإرادة الله، وأن إرادة الإنسان متوافقة مع إرادة الله كما تتجلى فى رسالاته وبالذات فى الرسالة الخاتمة. ومن هنا يقتصر العمل الدنيوى فى الجزاء فى اليوم الآخر حتى ولو أنه يؤتى النتيجة فى الدنيا ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾[هود:١١١]. ومن هذا المنطلق يبدأ السياق الذى هو موضع حديثنا ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود:١١٢]. إنه الأمر الربانى إلى الرسول الخاتم ﷺ فى أن تكون إرادته موصولة بإرادة الله متوافقة مع إرادة الله مستمدة من إرادة الله ومستقيمة على أمر الله، هو والذين آمنوا برسالته واهتدوا بنور القرآن تاركين ظلمة الشرك والكفر والجاهلية ملتزمين جميعا بإرادة الله وأمره كما تجلى فى كلمته القرآنية الأخيرة. آمنوا بها عن تدبر وتمسكوا بها عن إيمان وطبقوها فى حياتهم منهاجا عمليا لا يتجاوزون فيها حدود الله كما جاءت آيات القرآن معبرة عنها بأمر الله. إن الإنسان كما قلنا يقيم ويبني أسس مدنيته وحضارته ويسلك في حياته سبيل العمران فيها وتأتي النتيجة على قدر العمل، كل ذلك بإرادة الله تبارك وتعالى المطلع على أعمال الإنسان كلها وعلى مجال نشاطه كله (إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ولكن ذلك ليس يعنى أن نتاج العمل الإنسانى هو دائما نتاج الخير، فموضوع الخير الذى يتصل بنتائج الأعمال الإنسانية هو أمر يتحدد بميزان الله تبارك وتعالى، ويمكننا أن نكون مطمئنين أن القرآن الموحى به من الله إلى رسوله الخاتم هو الفرقان الذى يستطيع به الإنسان أن يزن به الأمور والأعمال والنتائج بما تعنيه من خير أو شر، على أساس اتصال هذا القرآن بمصدره الربانى وجمعه لمعايير الخير التى تقاس بها الأعمال فى الدنيا، وما يرتبط من نتائج فى الدنيا تتصل هى أيضا بالنتائج التى تترتب عليها فى الآخرة وليس فى الدنيا فقط.

وقد وصف القرآن الإنسان بأنه ظلوم وجهول، وهذا يعنى أنه لا يستطيع بإرادته

المستقلة عن إرادة الله أن يدرك أين يكون الخير وأين يكون الشر، فهو قد يكره شيئا وهو خير له وقد يحب شيئا وهو شر له، ومن هنا يكون الإنسان ظالما لنفسه جاهلاً بمواضع الخير لنفسه على أساس القاعدة الأساسية التى جاءت فى رسالات الله كلها وهى قاعدة ارتباط الدنيا بالآخرة. وقد يتعدى ظلم الإنسان نفسه إلى نطاق واسع بظلم غيره، ذلك أن الإنسان إما تابع وإما متبوع، وغالبا ما يظلم المتبوع تابعيه بأن يحقق لهم نتائج نابعة من إلزامهم باتباع عمل معين قد يظن أن فيه الخير ويعتقد أن فيه السعادة، بينما هو بميزان الله لا خير فيه ولا سعادة معه. ولذلك يحذر القرآن الذين آمنوا بمنهاج الله كعقيدة وكأسلوب حياة، أن لا يركنوا أو يميلوا إلى أو يتبعوا هؤلاء القلة من الناس الذين يتخذون القرارات فى واقع الأرض من خلال إرادة غير متوافقة مع إرادة الله، يقررون حدود سبيل الفكر الإنسانى والنشاط الإنسانى ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٣] إن النتيجة التى تصيب المؤمنين إن هم ركنوا إلى الذين ظلموا –بمفهوم الظلم الذى بيناه سالفا- هى نتيجة تلحق بهم فى الدنيا والآخرة. أما الدنيا فالنتيجة فيها هى الفشل الذى يصوره القرآن فى تعبيره (وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) وأما الأخرى ففى التعبير الذى يقرره القرآن (فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ) ثم يأتى الأمر الربانى فى قرآن الله ليوضح الأسس الخلقية النابعة من قيم الدين الروحية المتصلة بسلوك الإنسان فى كفاحه المستمر من أجل العمران والتمدين والتحضر، ويتمثل ذلك الأساس فى ضرورة إيجاد الصلة المستمرة بين الإنسان المؤمن وبين ربه، بالذكر الدائم مدعومًا بالصبر عليه، مع بيان نتيجة ذلك كله من الخير الذى آتاه الله الإنسان الذى يتمسك بهذه الأسس الأخلاقية النابعة من قيم الدين الروحية ليرتبط بها سلوكه العمرانى والمدنى والحضارى. وقد أكد الدين أن هذا الذكر المستمر من جانب الإنسان لله تبارك وتعالى، والصبر عليه عموده الأساس هو الصلاة والاصطبار على الصلاة ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[هود:١١٤]. إن النتيجة التى تتولد عن عمل الإنسان غير المرتبط بالمثل الأخلاقية النابعة من قيم الدين الأساسية، نتيجة تعود على الإنسان نفسه بالضرر وبالشر لأنه لا ينتج عنها إلا تدمير الإنسان لنفسه ولكل ما بناه من أسس عمرانية ومدنية وحضارية

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود:١١٦،١١٧]. والإنسان يستطيع بالتنقيب فى الأرض أن يرى آثار بعض المدنيات والحضارات السابقة، كما أنه يمكنه بدراسة التاريخ أن يعلم ما كان قائما من مدنيات وحضارات لأمم سابقة وذهبت آثارها نهائيا من على وجه الأرض وهو ما تدل عليه آيات سورة هود أيضا فى تقريرها ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾[هود:١٠٠]. وفى السورة نفسها تحدث القرآن عن بعض من الرسل الكرام مبتدئا بنوح عليه السلام، ثم هود عليه السلام الذى أرسله الله إلى قوم عاد العتاة المتجبرين، ثم صالح عليه السلام، ثم إبراهيم عليه السلام، ثم لوط عليه السلام،ثم شعيب عليه السلام، ثم موسى وهارون عليهما السلام. وذكر القرآن ما فى هذه القصص من العظات، كما ذكر الحكمة من تناول هذه القصص للاعتبار والتدبر والتصرف على أساس سليم نابع من كلام الله المتمثل فى القرآن العظيم الذى ابتدأت سورة هود ببيان عظمته، وانتهت ببيان عناصر التوحيد فيه، ليتناسق فيه البدء مع الختام فى وصلة الوحى وموحيه. وكل هذه الأخبار التى قصها القرآن على الرسول ﷺ فيما يتعلق بالرسل السابقين، فيها تثبيت للرسول لأداء رسالته وطمأنة لقلبه وتثبيت ليقينه؛ ليعلم علم اليقين تاريخ هؤلاء الرسل مع الإنسان فى الأرض والأحداث التى واكبت دعواتهم، باعتبار ذلك قصصا يحمل الحق فى كلماته وتتجلى الموعظة فى طياته وتبدو الذكرى للمؤمنين، حتى يثبت سبيل الرشد الذى ينتسب إليه المؤمنون، وسبيل الغى الذى ينتسب إليه غير المؤمنين، وحتى يتضح الفارق جليا بالنسبة لعمل الإنسان بين ذلك النوع والأسلوب من العمل المرتبط بهدى الله، والذى تكون نتيجته الخير على هذا الأساس من الارتباط بالله، وبين عمل الإنسان غير المرتبط بإرادة الله، والذى تكون نتيجته لهذا السبب هى الشر والضرر يعود على الإنسان نفسه تابعا ومتبوعا فى الدنيا مهما طال الأمد وفى الآخرة مهما طال الأمد. فالأمر كله فى الدنيا والآخرة يرجع إلى الله سبحانه وتعالى الذى يطلع على عمل الإنسان بنوعيه؛ خيرًا وشرًّا، وهو الأمر الذى تؤكده النصوص القرآنية الموجهة إلى الرسول ﷺ ويتنزل من خلاله الوحى القرآنى على هذا الرسول مقيما

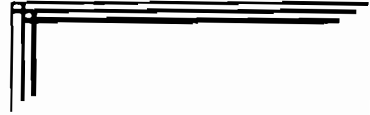
أســس التوحيد الخالص الذى هو جوهر دعـوة القرآن، والمتمثل فى الاتجاه لله وحده فــى العبادة والاتصال بإرادته فــى العمل والتوكل عليه فــى النتيجة (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾) .

بهذه الآيات انتهت سورة هود وبها ينتهى حديثنا فى هذا الموضوع.





في معية الرسول ﷺ



في

ســـورة يوســـف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣].

يسبق هذه الآية تقرير لحقيقة عامة شاملة تتصل بالقرآن الذى يتضمن إعجازا فى بيانه فيما تشمله آيات هذا الكتاب وهو الحق الذى لا ريبة فيه، نزل بالبيان العربى تشريفا من الله لهذه اللغة على سائر اللغات التى يتعامل بها البشر، والهدف منه بالنسبة للناس كافة هو أن يعقلوا معانى هذه الآيات التى تتكون من حروف عربية؛ والحرف هو أساس الكلمة والكلمة هى أساس الآية والآية هى أساس السورة فيها من الحكم والحقائق والعلوم والمعارف والحجج والبراهين والصدق التاريخى للأحداث... إلى آخر ما يتضمنه هذا القرآن العريق المعجز الذى يستحيل أن يأتى به من عند نفسه هذا الرسول أو غيره من المخلوقات الذكية. وفى إعجازه، وقد جاء به النبى الأمى، دليل قولى أنه كلام الله موحى به من عند الله وليس من صنع أحد غير الله. هذه هى الحقيقة العامة التى تبدأ بها سورة يوسف، والتى نتناول فى هذا الحديث الآية الثالثة منها التى تخص بالذكر حقائق التاريخ المتصل بقبائل وشعوب وأمم الأرض السابقة، بالخبر الصادق الأمين الذى لا يحتمل أى خطأ، ولا يحيد عن الحق أبدًا، ومن ثم فهو أصدق مصادر الأخبار بالأحداث التاريخية، يعلو محاولات البشر فى تتبع الأحداث التاريخية على اختلاف زمنها واختلاف تفاصيلها، سواء فيما يطلق عليه الإنسان زمان ما قبل التاريخ، أو زمان ما بعد التاريخ، والفيصل بينهما هو الحروف وما تكونه من لغات، وذلك لأن القرآن وحى من عند الله تبارك وتعالى الأول الذى لا بداية له، والآخر الذى لا نهاية له، والذى يعلم وحده كل ما كان وما هو كائن وكل ما سيكون، هو القيوم على الكون كله منذ بدأ الخلق ولم يشهده معه أى مخلوق بما فى ذلك الإنسان من البشر

ومـن ثم -كمـا قلنا- فإن كل ما يخبر به هـذا القرآن من أخبـار التاريخ هو كما يقرر القرآن ذاته (أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) وحيا بواسطة الروح الأمين (بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) ثم يقرر القرآن طورين من الأطوار المتعلقة بشخص الرسول ﷺ: طور ما قبل البعثة وبـدء نزول الوحـى، وطور ما بعد البعثة وبـدء نزول الوحى. وهمـا الطوران اللذان يفهمان مـن تعبير القرآن فى نفس هذه الآية (مِن قَبْلِهِۦ) فهذا التعبير يعنى ما ذكرناه مـن تفرقـة بين طورين مـن أطوار حياة الرسـول، طور ما قبل نـزول الوحى وطور مـا بعـد نزول الوحى. ففى الطـور الأول يوضح لنا القرآن أن الرسـول لم يكن يدرى شيئا عن تفصيلات هذه الأحداث التاريخية التى جاء بها القرآن ولم يكن ليتوفر له أى مصـدر من مصـادر المعرفة لهذه الأحداث التاريخية، وقـد كان ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ولذلـك يصـف القرآن هذا الطور أو هـذه الفترة من حياة الرسـول أنه كان فيها (لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ) وهـو التعبير الذى يعنـى - إذا أضفنا إليه تعبير (وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ)- أن الرسـول فى الطور الثانى من أطوار حياته أو الفترة الثانية من فترات حياته، وهى فتـرة مـا بعد نزول الوحـى القرآنى، انتفت عنـه صفة الغفلة بما يعنيـه ذلك من عدم علمه بأخبار الأحداث التاريخية للقبائل والشـعوب والأمم السـابقة والأنبياء والرسـل السـابقين، وأصبح بعد نزول الوحى واصطفائه بالرسالة من العالمين بتلك الأحداث، المدركين لحقائقها وأبعادهـا وأهدافها ومراميها وتفاصيلها بالصورة التى حدث بها القـرآن ذاته، ومن ثم اقترن الخبر القرآنى الصادق بالمخبر به الأمين الصادق؛ ليصبح الإخبار ذاته صادقا يعبر عن الأحداث التاريخية أصدق التعبير، يحتكم به ويرجع إليه؛ لأنه الخبر الحق، وأخبر به الحق وعلمه الرسـول واستحضره ثم قرأه على الناس كافة قرآنـا عربيا، لعـل الناس يذكرون. وفى هـذا الإخبار التاريخى مـن الأحداث المتصلة بيوسـف النبى عليه السـلام وعلى وجه التحديد ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (يوسـف) وفيه تأكيد مرة أخرى على صدق الإخبار من خلال صدق المخبر به وهو الله سبحانه وتعالى، موضحـا تمام الإيضاح أن هذا الخبر ليس من صنع الرسـول ولا من تأليفه ولا من وضعه؛ لأنه ﷺ ما كان لديهم معاصرا هذه الأحداث التاريخية المتصلة بيوسف عليه السلام.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨].

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق:١] كانت بداية التنزيل. و(بسم الله الرحمن الرحيم) كانت تأكيدا لهذا الأمر الربانى الذى تنزل على الرسول، يبدأ بها ﷺ سورة آيات التنزيل. والآيات يتجلى فيها معنى الاختيار والاصطفاء لتبليغ كلام الله تبارك وتعالى الذى نزل به الروح الأمين على قلب الرسول الأمين بلسان عربى مبين. ومن الاختيار والاصطفاء بالرسالة كانت تبرز معانٍ وحقائق نيابة من الرسول عن رب العزة سبحانه وتعالى. فهو لا ينطق -فيما ينطق به من قرآن- عن الهوى وإنما هو وحى يوحى علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى. ومن خلال هذه الإنابة الرسولية من الله تبارك وتعالى تتجلى عظمة الكلمة التى تبدأ بها الآية محل هذا الحديث (قُلْ) هكذا أمر وتفويض وإنابة من الحق تبارك وتعالى لرسوله الذى ينطق بالحق ويبلغ الحق ويدعو إلى الحق. ومن خلال هذا التفويض فى البيان والإيحاء بالبيان نعيش فى هذه الآية مع الرسول فى أمرين:

الأول: الرسول كمختار ومصطفى من الله تبارك وتعالى مبلغ كلام الله للناس كافة فى إطار التبشير والإنذار.

الثانى: جوهر الدعوة القرآنية التى اختير هذا الرسول لإبلاغها للناس كافة وأساسها التوحيدى بشقيه:

١- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف:٣].

٢- ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف:٤-٥]. وهو أكبر أنواع الشرك الـذى تليه مراتب فى الشـرك يحويها الشـرك الظاهر والشـرك الخفى والشـرك الأخفـى، بحيث يبدأ فى الوعى الباطن العميق ثم يظهر فى السـر ثم فى الكلمة ثم فى السلوك.

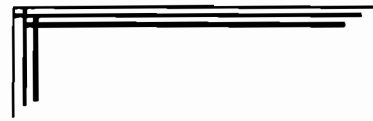
إن سـبيل الرسول ﷺ هو سـبيل القرآن. ومن خلال القرآن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ليؤمن به البشـر ويتجهوا إليه وحده، دون شـريك بالعبـادة، ويلتزموا تجاهه بالطاعة امتثالا لأوامره واجتنابا لنواهيه، كما يتجليان فى الشرعة والمنهاج اللذين جاء بهما القرآن. وفى الأمر فى الآية (قُلْ) بيان لأمانة الرسـول فى أداء رسـالته التى كلف بها، فهو لا يعلو الناس ليكون عظيما بينهم بشتى معايير العظمة التى يحترمها البشر ويدينون لها بالولاء والإكبار والإجلال. وليس بعيدا عنا ذلك الذى تحدث به الرسول إلى عمه أبى طالب حين عرض عليه المشـركون ما عرضوه من مال وسـلطان وعز وجاه، ليترك ذكر آلهتهم بالسوء وينتهى ويكف عن الاستمرار فى إبلاغ ونشر الدين الجديد: «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». إنه الإيمان القوى بالله، والثقة القوية بالنفس، والعـزم الصادق فى الأداء، والرؤية الواضحة للطريـق، والارتباط القوى بالدعوة إلى الله يتقرر معها ركنها الأساس المتمثل فى الألوهية وما يتصل بها من تنزيه وتوحيد. (وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ) فيهـا التنزيه عن علم يرتقى من الحس المجرد الذى يمثله البعد، وما معه من حواس إلى ما فوق الحس من إدراك زائد فيه نوع من الإلهام هو الذى يسميه القرآن فـى هـذه الآية بالبصيرة، تلك التى تدرك الحقائق من زوايا أعمق وأبعد وأكثر شـمولا وإحاطة من مجرد البصر. (وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) فيها التوحيد الكامل الذى لا تشـوبه أى شـائبة من شـرك خفى أو أخفى. وبالاثنين -سـبحان الله وما أنا من المشـركين- يقتـرن الإيمـان بالتنزيه وبالتوحيد فى «لا إله إلا الله»، وترتبـط بها بأمر الله: «محمد رسـول الله». وهذا معنى (هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ). سـبيل محمد ﷺ هو سـبيل الله، ومن اختار سـبيل محمد ﷺ فقد اختار سبيل الله ومن بايع محمدا ﷺ على هذه السبيل فقد بايع الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ... ۝١٠ ﴾ (الفتح) ليس ذلك فقط وإنما ﴿ ...يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ ۝١٠ ... ﴾ (الفتـح) وطاعة محمد ﷺ هى طاعة الله والطاعة فى سـبيل محمـد ﷺ هى بعينها الطاعة فى سـبيل الله. فهو سـبيل واحد يدعـو إليه محمد ﷺ

ويبينه بالاختيار الربانى مجمعا للقلوب على الله وسبيله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴿٨٠﴾﴾ (النساء) والآية توضح أن الذين اتبعوا هذا الرسول هم أيضا على بصيرة، وهذا نابع من كون الرسول الذى اتبعوه هو نفسه على بصيرة. ذلك أن الحق واحد، واضح وجلى، وسبيله واحد، واضح وجلى، فإن كان الداعى على بصيرة فالذين يلبون الدعوة هم أيضا على بصيرة. فكل من الداعى والمستجيب أو المتبع قد سار فى طريق الله، الأول يدعو بإذن الله والثانى يهتدى ويتبع بإذن الله وكلاهما على بصيرة من أمر الله. وفى نفس هذا المعنى جاء التنزيل القرآنى يقرر أمرا متصلا بسبيل الرسول الذى هو فى الحقيقة سبيل الله. أمر قدرته سورة الشورى بالنسبة لهذا الدين ولهذا القرآن باعتباره مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، وباعتبار الوصلة القائمة بين رسالات الله جميعا إلى الإنسان فى الأرض. إن هذا الدين الذى يدعو إليه الرسول هو الحلقة الخاتمة فى سلسلة الأديان التى بعث الله بها الرسل إلى الإنسانية فى الأرض. هذا ما تقرره الآية الثالثة عشرة من سورة الشورى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى). ثم يتحدث القرآن عن الاختلافات العقائدية التى حلت بأصحاب هذه الديانات ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾ (الشورى) ويدخل المشركون فى هذا التفرق العقائدى. ثم يخص القرآن بالذكر أتباع موسى وأتباع عيسى عليهما السلام (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ) . ثم يأتى التصحيح فى أمر العقيدة وليس بعده تصحيح. والتصحيح فى أمر الدين وليس بعده دين. فهو التصحيح الأخير والدين الأخير قبل يوم القيامة. ويأتى توجيه الرسول بأداء رسالته بعزم وقوة يمتزجان بالاستقامة على الدعوة التى هى الحق كما جاء فى الكتاب الخاتم ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾ (الزخرف). صراط هذا القرآن الذى يكبح جماح أهواء البشر فى انحرافاتهم العقائدية والفكرية والسلوكية ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الجاثية). يبين لهم السبيل الصحيح المؤدى إلى معرفة الله وتوحيده واتباع منهجه الذى يهدف إلى سعادة الإنسانية فى الدنيا والآخرة...



١٢

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الرعـــد



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد: ٧].

تقرير لحقيقة الرسالة التى جاء بها الرسول الخاتم والدعوة التى يدعو الناس إليها. الحقيقة الأساسية فى هذه الدعوة، وهذه الرسالة إنما تخاطب النفس والعقل والضمير، وتدعو الإنسان ليتصل بالله سبحانه وتعالى من خلال النظر فى الكون ومخلوقاته، والتفكير فى الإعجاز الخلقى لكافة النظم والسلالات المخلوقة المادية والطاقية، الميتة والحية... التدبر فى آيات الله فى الكون والتدبر فى آيات الله فى القرآن، كلاهما كتاب ينطق بالحق ويشهد على وحدانية الله. وقلنا فى غير هذا الموضع إنه لذلك كانت آيات التنزيل الأولى هى "القراءة" و"الخلق" و"خلق الإنسان" بصفة خاصة، ومن هنا فإن المنطق الذى يخاطب به الكفار الرسول منطق لا يتمشى مع طبيعة الرسالة ودعوتها باعتبارها خاتمة الرسالات وآخر الدعوات يسرى مفعولها فى كل العصور إلى أن تقوم ساعة حساب الناس. والرسالة التى هذه صفتها لابد أن تخاطب العقل والنفس والضمير فى الإنسان؛ لأنها بذلك تخاطب الإنسان فى كل عصر حسب ابتكاره العقلى وحسب توازنه الجسدى والنفسى حتى تستقر حقائق هذه الرسالة فى الضمير ويستوعبها الفكر ويعمل بنشاط فى إطارها العريض حيث لا يتصادم النتاج الفكرى مع الحقائق القرآنية متى أصاب الأول الحق وإدراك لب الحقيقة التى يحويها الثانى. ليست الرسالة الخاتمة كالرسالات التى سبقتها تستند إلى المعجزات الحسية التى قد يؤمن بها من عاصرها وشاهدها، وقد لا يؤمن بها من لم يعاصرها أو لم يشاهدها، وإنما هى رسالة تكتسب قدسيتها من مصدرها الربانى الذى أوحى به باللفظ والمعنى لتطوى فى سجلها الكتاب الخَلْقِى كله وهو الكون كله. ولذلك لم يكن من مهمة الرسول الخاتم -ورسالته رسالة علمية ومعرفية- أن

يأتى بالمعجزات الحسية والخوارق الطبيعية ليراها الناس الكافرون فى عصورهم ثم يطول بها الزمان فتندثر ويزول أثرها. ويوضح القرآن نفس الحقيقة فى سياقات عديدة من آياته منها على سبيل المثال ما جاء فى سورة الرعد فى الآية ٣٦: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الرعد) . وهو يضيف أمرًا جديدًا فيما يقرره من أن هذا الرسول لابد عائد إلى الله ليواجهه بالمسئولية التى كلفه بها وهى الدعوة إلى الله. والرسول الأمين يدرك هذه الحقيقة ويقدر تبعاتها تمام التقدير من منطلق أمانته وحرصه على إبلاغ الرسالة بمضمونها الجوهرى الذى هو التعرف إلى الله والاهتداء إلى سبيله وإخلاص الفكر والضمير بالتوحيد الكامل للإله المنزه عن الشريك والكفوء والمثل، وهو الذى ينفرد وحده سبحانه بالخلق والإيجاد ﴿ ... أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الرعد) إن الله وحده هو القادر على إمساك هذا النظام فى كل مراتب الخلق والنظام الخلقى، وهو سبحانه وحده القادر على إعادته، وكلها حقائق أدركها الرسول جيدا.

ولا تعارض بين كون الرسول «منذرًا» وكونه «هاديًا» فرسالته تجمع الاثنين معًا؛ لأنه ينذر بآيات القرآن العظيم تحذيرًا من يوم الحساب وما فيه من عذاب وألم للإنسان، وينذر من خلال الربط بين الحقائق القرآنية والحقائق الكونية باعتبارهما كتابًا واحدًا مصدره واحد هو الله سبحانه وتعالى، وهو هاد بهذا القرآن ـ آيات الكتاب المقروءة ـ إلى آيات الكتاب الكونى المشهودة. ويجوز أن يكون المعنى أن الرسول فى الأساس "منذر" للناس بين يدى عذاب شديد؛ لأنه ليس بينه وبين قيام الساعة أى رسول أو نبى آخر ومن هنا فإن دوره الأساس هو إنذار الناس كافة من هذا اليوم الآتى الذى لا ريب فيه بما فيه من أهوال وعذاب يشيب منها الولدان. ويكون المقصود من (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الأنبياء والرسل والهادون السابقون على خاتمَ الرسل ﷺ. أما الأقوام الذين عاصروا الرسول ﷺ والذين جاءوا من بعده فالرسول هو هاديهم؛ لأنه يجمع فى رسالته بين الوعد والوعيد والبشارة والإنذار والهداية إلى الطريق المستقيم الحق. كما يجوز أن يكون فى الأقوام بعد بعثة الرسول بشر مهتدون بهذا الرسول ذاته يقومون بهداية الناس وإرشادهم إلى طريق القرآن ومنهاج الرسول، يستمدون من الرسول الهادى قواعد الهدى والهداية والإرشاد، باعتبارهم ورثة علمه ﷺ.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد:٣٠] وما بعدها.

لقد كان الرسول ﷺ يدعو أساسا إلى التوحيد. توحيد الإله المعبود. وتخليص الإنسانية من كافة صنوف الشرك الذى كان يملك على الناس أفكارهم وعقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم، وبما تنعكس به كل هذه الأمور فى أنماط السلوك فضلا عن أسس الأبنية الاجتماعية لكيانات الأمم بما فيها الأمة التى بعث فيها هذا الرسول وأسس التقييم للأفراد فيها. ولقد مضت هذه الأمم السابقة بكل الملابسات والأحداث التى كانت تعاصرها، وخاصة بالنسبة لمواقفها من الرسل والأنبياء ودعواتهم. فالآية درس فى تاريخ الرسالات ومصائر الأمم والشعوب كيف تزدهر وكيف تذبل وتزول. تسلية للرسول على ما كان يلقاه من الكفار من مقاومة وعداء، وذلك بالنظر إلى نفس المقاومة والعداء الذى عاصره الأنبياء والرسل السابقين من الأمم السابقة إلى الأمم التى خلت. وفى الآية إشارة خفية إلى حقيقة مهمة هى تعاقب الأجيال والأمم على هذه الأرض ووجود ظاهرة الفناء التى تنتهى معها الأجيال وتنتهى معها الأمم، لتجئ بعدها أجيال وأمم أخرى تتعاقب فى وجودها على هذه الأرض. وكذلك الأمر بالنسبة للجيل الأول الذى عاصر الرسالة والرسول، فمصيره إلى الزوال والفناء، ولكن الذى يبقى هو الفكرة، العقيدة، الدين، والذى يظهر ويغلب فى النهاية هو الفكرة والعقيدة؛ هو الدين، وبصفة خاصة الفكرة والعقيدة والدين الذى يمثله هذا القرآن، والذى كلف الرسول بأن يتلوه على الأمة التى بعث فيها وعلى سائر أمم وشعوب الأرض. وهو يتلو عليهم هذا القرآن يدعو فيه فى المقام الأول إلى التوحيد، التوحيد فى العقيدة

والتوحيد فى العبادة والتوحيد فى كل الأمور التى تتصل بالعقيدة والعبادة من أبنية سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية، توحيد يقوم على أساسه الانتماء الشعورى فى الأمة الواحدة. فالآية تبدأ بالإشارة إلى تاريخ الأمم السابقة ومصائرها. ثم تنتهى ببيان غاية رسالة الرسول الخاتم وهى تلاوة القرآن الذى أوحاه الله إليه، ثم تذكر فكرة الكفر بالله، ويحدد اللفظ القرآنى هنا هذه الفكرة بتعلقها "بالرحمن". والرحمن يعنى عظيم الرحمة ولكن لا يلزم منها الدوام. ولذلك نسب القرآن فى موضع آخر "العذاب" إلى الرحمن. ومن هنا التقاء هذا المعنى بزوال وفناء المدنيات والحضارات التى وجدت بوجود الأمم التى سبقت هذه الأمة التى بعث فيها الرسول. ومن هنا أيضا يتضح معنى الإنكار على الكافرين الذين يجهلون حقيقة مهمة وهى أن الرحمن -كما ذهب إلى ذلك الخطابى- ذو الرحمة الشاملة التى وسعت الخلق كله فى الأرزاق والمصالح ويدخل فى إطارها المؤمن والكافر.... من هنا كان الإنكار على الكافرين الذين يكفرون بالمصدر الذى يستمدون منه فى حياتهم ووجودهم وبقائهم وأنماط حياتهم وتعاملاتهم الاقتصادية (الرزق) ولذلك تقرر الآية موضع حديثنا بعد هذين الأمرين (قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) فهنا نسبة الخلق إلى الخالق. والصنعة إلى الصانع، والحياة إلى الحى، والبقاء إلى الباقى، والتدبير إلى المدبر، والرزق إلى الرازق، والعافية إلى القوى المتين، والسعى إلى المعين. وكافة أنواع العطاء المكون للتمدن والتحضر إلى المنعم المعطى الوهاب. ومن هنا التوجيه إلى الرسول أن يبين ذلك كله فى (قُلْ) هو ربى لا إله إلا هو، وهي كلمة يتضح بها الفارق الأساسى فى الفكر والعقيدة والتصور الوجودى الشامل بين الذين يوحدون ولا يشركون أو يكفرون والذين لا يوحدون ويشركون ويكفرون. وهو فارق جوهرى تنتج عنه من الآثار الاجتماعية المختلفة ما تختلف فيه الأمم فى أبنيتها المدنية والحضارية وأهدافها وعلاقتها بغيرها اختلافا أساسيا، قوامه ذلك الذى يتلوه الرسول من الوحى القرآنى، والذى يقوم أساسا على فكرة أو قاعدة التوحيد وكل ما ينبع منها متصلا بفكر وسلوك الإنسان. وهو نفس المعنى الذى تقرره الآية ٣٦ من نفس هذه السورة -سورة الرعد- ﴿ ... قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرعد:٣٦]. فالإنسانية مدعوة من هذا الرسول ومن خلال القرآن إلى

التوجه لله الواحد بالعبادة والخضوع والاحتكام ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرعد:٣٧] والخطاب هنا –كما ذهب إلى ذلك القرطبى- إلى النبى والمراد الأمة القرآنية فى ذلك الجيل وعبر الأجيال المستمرة التعاقب فى حياة البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقيام ساعة حساب الناس ومهمة الرسول ﷺ هى البلاغ ﴿ ...فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد:٤٠].



١٣

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـــورة الحجـــــر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ
إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٨٧ - ٩٩].

يبدأ التقرير بإثبات أمر فى غاية الأهمية بالنسبة للرسول ﷺ (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى). والمفسرون فى الرأى الأرجح على أن السبع المثانى هى الفاتحة، وإن كان بعضهم قال إنها السبع السور الطوال فى القرآن. ونحن نعتقد أن المراد هنا –والله أعلم– هو تحديد الزمان الذى تحياه الرسالة المحمدية، والذى تقوم الساعة بعده. بمعنى أن تكون مدة حياة الدعوة المحمدية فى الأرض هى سبعا من المثانى؛ أى أربعة عشر ثم القرآن العظيم وهو الخامس عشر.... قرون محسوبة بالزمان الأرضى يظهر فى الخامس عشر منها من المعارف والعلوم ما يتبين معه أن القرآن حق فى كل ما جاء به، وتظهر من خلال هذه المعارف والعلوم "عظمته" باعتباره لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما فرط الله فيه من شئ فهو جامع للحق.

يرى المؤمنون به العظمة ظاهرة فيه من خلال توافق النتائج المعرفية والعلمية مع تقريرات آيات هذا الكتاب ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]. وإن صح هذا الفهم يكون المقصود بالقرآن العظيم هو القرآن كله كما ذكر المفسرون باعتبار أن التجربة الإنسانية على مر القرون الخمسة عشر ستثبت للإنسان ذاته صدق هذا القرآن، وستتجلى بهذه الرؤيا لصدق القرآن، عظمة هذا القرآن فيكون الأمر أمر القرآن العظيم الذى أوحاه الله لرسوله الخاتم محمد ﷺ، كأعظم ما أعطيه إنسان من عطاء وفضل. فالسبع المثانى هى أربعة عشر قرنا من الزمان تظهر بعدها عظمة القرآن نتيجة التقدم المعرفى والعلمى للإنسان فى الأرض وهو ما يجد عند المؤمنين انعكاسا فى الرؤيا لآيات هذا القرآن بما يجلى عندهم عظمته. بعد هذا العطاء الذى يحوى الخير كله، والنعيم كله، الخير الأبدى والنعيم الأبدى، واللذان لا يزولان أبدًا بل تمتد ظلالهما من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ليسعد فيها من آمن بهذا الرسول وبهذا القرآن العظيم الذى آتاه الله إياه. بعد هذا العطاء يخاطب الله رسوله فى القرآن فيوجهه إلى أن لا يحفل أو يهتم أو بتعبير أدق وألا ينظر مطلقا إلى ذلك العطاء والنعيم الدنيوى الذى آتاه الله لبعض الناس من الرجال والنساء. فهو ليس عطاء دائما ولا هو نعيما دائما بل هو عطاء الابتلاء والاختبار ونعيم الابتلاء والاختبار. ولما كان الرسول ﷺ يعلم حقيقة هذا العطاء والنعيم الابتلائى والاختبارى كانت نفسه تحزن على هؤلاء الذين أوتوا هذا النعيم ودلت الدلائل على عدم تجاوزهم للاختبار أو الابتلاء، وتتضح بذلك أمام عينيه حقيقة سقوطهم فى الاختبار والابتلاء. وحزنه ﷺ نابع من معرفته للمصير الذى ينتظر هؤلاء فى الآخرة التى يحاسب فيها كل فرد من الإنسانية على عقيدته وعلى سلوكه وعلى أسلوب استغلاله لما أعطاه الله إياه من متاع الحياة الدنيا. فالتقرير القرآنى هنا يخاطب نازع الرحمة والرأفة فى طبيعة الرسول ويأمره أن يوجهها للمؤمنين وألا يهتم بمصير غير المؤمنين مهما كان المصير مؤلما. فالرحمة والرأفة والعطف جديرون من الرسول للمؤمنين بالله ورسوله وهذا القرآن العظيم، وهو يوضح لهم الحقيقة المتصلة بالمصير الذى ينتظر المؤمنين وغير المؤمنين –على تباينه– وهى حقيقة كون الرسول "منذرًا" بهذا المصير الأليم الذى ينتظر غير المؤمنين حيث العذاب والشقاء والألم والضيق النفسى، وهى كلها حالات غير المؤمنين يذوقونها بعد ساعة الحساب فيما أخبرنا عنه القرآن من أنها نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة. وهو منذر للمؤمنين الذين يخشون عذاب الله ويشفقون من أمر الساعة ويخشون موقفها.

وبعد هذا التوجيه بعدم الالتفات أو النظر إلى غير المؤمنين، وإسباغ عواطف الرأفة والرحمة والعطف والشفقة واللين على المؤمنين، يأتى توجيه آخر فى نفس الاتجاه الأول، فيه الأمر بالتمسك القوى بالحكم وَفْقا للمنهاج القرآنى. فيه وجوب الإعراض عن المشركين الذين لا يقرون بحقائق الألوهية الأحدية التى تمثل الحقيقة الفعلية المتصلة بذات الإله وبأحداث وشئون الكون وكل مخلوقاته فى صلة بالزمان الممتد الذى ينتهى بقيام الساعة التى يحاسب فيها الناس أجمعين. ومن أخص خصائص التوحيد الإيمان بأن الله وحده هو الذى يملك ماضى وحاضر ومستقبل الإنسان جميعا.. خلقه ابتداء فى الماضى.. ويعلم الأحداث والشئون المتصلة به فى الحاضر.. ثم يملك مستقبله فى الحياة الآخرة ملكا ينفرد به ولا يشاركه فيه أحد حيث العذاب أو النعيم. ومن هنا كان من مهمة الرسل وخاصة خاتم الرسل أن ينذروا من المصير القادم وأن يبصروا الناس إلى حقيقة التوحيد الظاهرة بجلاء فى الخلق كله ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل:٢] إن هذا أمر سيعلمه الناس أجمعون وسيعلمه غير المؤمنين بالذات حين يفاجأون به حقيقة واقعة يعيشون أحداثها ويمرون بتجربتها المخيفة الثقيلة حين يأخذ التكوين الإنسانى بعدا فى الزمان تكون فيه حياته بالنسبة للزمان أبدية خالدة لا موت فيها. والله كاف عبده ورسوله المستهزئين من هؤلاء المشركين الذين كان استهزاؤهم يضيق بسببه صدر الرسول لما يرتبط به هذا الصدر الشريف فى الفكر والضمير من علاقة بالحق تبارك وتعالى، وبكلام الحق الذى هو القرآن العظيم. ومع هذه الحالة النفسية للرسول يأتى إليه التوجيه الأخير فى هذا التقرير القرآنى موضع هذا الحديث ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٨-٩٩] فيرفع الرسول إلى أعلى درجات الاتصال الفكرى والروحى بالله رب العالمين ليكون فى جواره فى الدنيا ويكون فى جواره بعد الموت.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧]

يقول إسحاق أسيموف[1]: "إنه فى الحضارات القديمة كانت الرموز تستعمل كأرقام، كما لدى البابليين. والإغريق فى البداية كانوا يستعملون نفس الأسلوب إلا أنهم عدلوا عن ذلك فى عهدهم الأخير وبدءوا يستعملون الحروف للدلالة على الأرقام، وقد كان للإغريق حروفهم الخاصة بهم. كذلك استعمل اليهود الذين كانوا يعيشون فى العصر الإغريقى والرومانى نفس فكرة تعبير الحروف عن الأرقام، لكنهم طبعا كانوا يستعملون الحروف العبرية. وأعطى اليهود أرقامًا لكل الكلمات التى وردت فى العهد القديم. وفى زمن العهد الجديد كونوا نظاما رمزيا غامضا متكاملا للعلاقة بين الحروف فى الإنجيل والأرقام. وقد أطلقوا على هذه الرقمية بالحروف لفظ (gematria) والذى اشتقت من اللفظ الإغريقى (gematria) وهو العلم الذى يسمى الآن علم الأرقام (numerology) ويوجد مثال لهذا النظام الخفى للعلاقة بين الحروف والأرقام فى الكتاب الأخير من العهد الجديد[2] وهو مكتوب بأسلوب غامض جدا يرجع سببه إلى أن مؤلفه كان يحض على معاداة الحكومة الرومانية معرضا بذلك نفسه لتهمة الخيانة التى كانت عقوبتها الصلب، ومن هنا كان حرصه على ألا تكون كتاباته صريحة وواضحة. فإن كتاباته كانت تأتى بأسلوب يمكن أن يفهمه المقربون منه والمؤمنون به فى الوقت الذى يصعب على السلطات الرومانية فهمه. ففى الفصل الثالث عشر يتحدث عن وحوش لها قوة جهنمية أو وحشية وفى المقطع الثامن عشر يقول: (هذه هى الحكمة فليقم كل من لديه فهم بعد رقم الوحش: فهو رقم لإنسان.

---

(١) فى كتابه (عن الأرقام). (On Numbers).

(2) The revelation of St. John the Divine

والرقم هو ستمائة وثلاث عشرينات وستة) ولما كنا نعلم أن الكتب المقدسة أو الوحى قد تم كتابته بعد عدة عشرات من السنوات بعد الاضطهاد الكبير الأول للمسيحيين على يد نيرو NERO ولما كان اسم نيرو هو NERON CAESAR عندما يكتب بالعبرية فإنه يساوى نفس عدد الأرقام التى وردت فى الفقرة الثالثة من الكتاب الأخير للعهد الجديد، أى ستمائة وست وستون، فإنه يحتمل جدا أن يكون هو المقصود بالوحش ذو القوى الجهنمية. هذا تفسير محتمل. لأن نفس هذا الرقم يمكن أن ينطبق على شخصيات تاريخية كثيرة". انتهى

وقد ذكر إسحاق أسيموف مثلا أن هذا الرقم كان يمكن أن ينطبق على كل عدو للمسيح (anti- christ) فى المستقبل، فقد كان يمكن لليهود أن يطبقوه فى قرن لاحق على هادريان (hadrian). وبعد خمسة قرون كان يمكن تطبيقه –بل وقد طبق فعلا- على النبى محمد ﷺ. كما طبقه الكاثوليك على مارتن لوثر، ورد البروتستانت عليهم بتطبيقه على عدد من الباباوات الكاثوليك.

ونحن نقول هنا إنه إذا كان أهل الكتاب –العهدين القديم والجديد- قد ربطوا بين هذا الرقم واسم النبى الخاتم محمد ﷺ، فإن ذلك يؤكد حقيقة كون محمد مكتوبًا فى التوراة والإنجيل –العهد القديم والعهد الجديد- وإن ذلك كان أمرا معروفا فى الزمان الأول للعهد القديم الصحيح والعهد الجديد الصحيح؛ أى الأصليين قبل أن يصيبهما التغيير والتحريف والتبديل المقصود، ثم يفسر المحتوى ليشار إلى النبى الخاتم القادم على أنه نقمة ضد المسيح؛ أى أتباع المسيح، وذلك بفعل أصحاب المصلحة من الكهنة ورجال الكنيسة. ولا ينفى ذلك التبديل والتغيير وجود الحق الواضح فى الكتابين من توقع ظهور النبى الخاتم الذى ناصبه أولئك الذين كان شغلهم الشاغل هو الحفاظ على سلطانهم ومصالحهم التى يعرفها كل مطلع على التاريخ الكنسى والكهنوتى اليهودى، كان شغلهم الشاغل هو إخفاء الحق بشأن النبى القادم الذى هو خاتم الأنبياء، وهو الأمر الذى يقرر فيه القرآن ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ...﴿١٥﴾ ﴾[المائدة:١٥].

وهو لذلك سراج منير يبدد الظلمات التى تختفى وراءها الحقيقة، أو نور تظهر به الحقيقة، وكتابه نور فيه الحق الذى تستبين بنوره وضيائه الحقيقة التى تكتنفها الظلمات. والتى تختفى وراءها الحقيقة التى جاءت فى العهدين القديم والجديد ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]. فالرسول سراج منير ومعه نور القرآن ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦] أى إلى الحق. ولكن الراسخون فى العلم من أتباع الديانتين يعلمون بصدق نبوته ﷺ على أساس البشارة التى جاءت فى العهد القديم والبشارة الإنجيلية به ﷺ، كما نعرف من موقف ورقة بن نوفل من النبى عند بداية نزول الوحى فى مكة على ما ترويه لنا كتب السيرة[١].

وقد جاء فى تفسير البيضاوى رواية لحادثة تاريخية التقى فيها يهود المدينة بالرسول ﷺ ليناقشوه فى رسالته وكانوا ماهرين فى عام (القبالة) أو علم (حساب الجُمَّل) وهو علم مبنى على أساس القيم العددية للحروف الأبجدية[٢] .

فيروى أن اليهود قالوا للرسول ﷺ أنهم لا يمكنهم أن يؤمنوا بدين سوف يعيش فى هذه الدنيا ٧١ عام فقط. وذلك لأنهم حسبوا الأرقام التى تقابلها حروف ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة:١] (ا= ١، ل= ٣٠، م- ٤٠) المجموع ٧١ وهى الحروف الأولى من سورة البقرة التى هى أول سورة مدنية. ويروى أيضا أن الرسول ﷺ أجاب اليهود بأن (الٓمٓ) ليست الحروف الوحيدة فى القرآن وأن هناك أيضا ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ [الأعراف:١] و الٓرۚ ، و الٓمٓرۚ ... إلخ. والسبع المثانى التى هى موضع حديثنا هنا تشير إلى رقم سبع من المثانى؛ أى ٧ × ٢ أى ١٤ يليها القرآن العظيم. وقد ذهب الدكتور رشاد خليفة -فى بحث له عن نهاية العالم- إلى ربط الرقم ١٤ هذا، باعتباره المقصود بالسبع المثانى، بالحروف المتقطعة التى وردت فى أوائل السور القرآنية وأن عمر

---

(١) راجع فى البشارات بمحمد فى العهد القديم والعهد الجديد كتاب الشيخ رحمة الله الهندى (إظهار الحق) وكتاب الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء).

(٢) عندما نزل القرآن لم تكن هناك أرقام مكتوبة وإنما كانت الحروف تستعمل كأرقام، فالصفر مثلا اكتشفه المسلمون فى وقت لاحق عندما وضعوا الأرقام وأخذ عنهم الأوربيون نظام الأرقام بما فيه الصفر الذى أطلقوا عليه اسم Cyfer.

الرسالة الإسلامية -وبالتالى قيام الساعة أو نهاية العالم- مرتبط ارتباطا وثيقا ومباشرا بالحروف القرآنية فى فواتح السور. يقول الدكتور خليفة: "ولقد بقى معنى الحروف القرآنية سرا إلهيا محفوظا لمدة ١٤ قرن ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس:٢٠].
﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].
ثم تبين من دراسات الحاسب الإلكترونى للقرآن الكريم أن هذه الحروف تساهم فى نظام حسابى قرآنى فائق الدقة بحيث يثبت للعالم بطريقة مادية ملموسة أن القرآن الكريم هو رسالة الله إلى العالم وأن كل كلمة فيه، بل وكل حرف، قد حفظت على مدى السنين والقرون ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩] إذ يعلمنا القرآن الكريم أن عمر الرسالة المحمدية الخاتمة يساوى مجموع القيمة الحسابية للحروف القرآنية". انتهى. والله أعلم بالحق فى هذا..

لقد تقدمت المعرفة فى القرن العشرين -وبصفة خاصة فى النصف الثانى منه- تقدما هائلا فى شتى العلوم التى يمكن أن يتصورها إنسان حتى أصبح هذا العصر الذى نعيش فيه يسمى بعصر العلم. وهنا تبدو وعظمة القرآن. ولعل تعبير القرآن العظيم يعنى هذا المعنى الظهورى لكتاب الله بمحتوياته التى يمكن أن تضفى عليها شتى مناحى المعرفة المعاصرة أضواء على معانيه بالتأويل والتفسير والبيان. ولعل القرآن حين يقرر (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) فإنه يشير إلى الفترة الزمنية التى تستمر فيها الرسالة القرآنية متصلة بعمر الوجود وحتى اللحظة التى تقوم فيها الساعة. أى لعل المقصود هنا من السبع المثانى -والله أعلم- هو أربعة عشر قرنا من الزمان يستمر فيه التحقق الوجودى الإنسانى متطورا ومترقيا فى المعارف حتى يأتى القرن الخامس عشر الهجرى لتظهر فيه عظمة هذا القرآن، أو بتعبير آخر يظهر القرآن العظيم. والذى يدعم هذا المعنى الذى نقول به -والله أعلم بالحق- هو تعبير القرآن العظيم ذاته. فالقرآن معروف أساسا أنه عظيم ويحتوى على قول ثقيل بمقدار ما يحويه من التكاليف وبمقدار ما يحويه من الحقائق الشاملة التى تفسر حقيقة الوجود ودور الإنسان فيه.

فكل كلمة فى القرآن لها ثقل معين فى ميزان الحقيقة الكلية للوجود. وهذا أمر

معروف. فلماذا يبرز القرآن هذا الأمر المعروف مؤكدا أمر (وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ)؟ نعتقد -والله أعلم- أن المقصود هو أن الإنسان سيمكنه نتيجة ترقيه فى المعارف والعلوم وتطبيقاتها أن يتبين جوانب العظمة فى القرآن من خلال تطابق الحق فى الكون مع الحق فى القرآن، بوسيلة المعرفة والترقى العلمى الإنسانى سواء فى العلوم المتصلة بالإنسان فى شمولها، أو العلوم المتصلة بالكون والمخلوقات فيه. وهذا ما نعتقد أن النص القرآنى التالى يتضمنه فى مفهومه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

أى أن هذا القرآن هو الحق وقد نزل من الحق تبارك وتعالى، وأنه عظيم وقد نزل من العظيم تبارك وتعالى.



١٤

في معية الرسول ﷺ

في

ســـورة الإســـراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

[الإسراء:١].

نـزول القرآن على قلب محمـد ظاهرة فريدة فى نوعها لا تتكـرر فى الزمان منذ الأزل وإلـى الأبد. واختيار محمد بالذات فيه اصطفاء من الله يرفع من قدر المصطفى ﷺ ليجعله من ضمن أولى العزم من الرسـل. وكون محمدا خاتما للرسـل المصطفين من أولى العزم يجعله من منطلق الآخرية، أعظمهم قدرا. واتصال محمد بالقرآن بالذات يجعله أكثرهم علما بعد أن كان لا يعلم من علوم القرآن ذلك القدر الذى هو محتوى هذا الكتاب العظيم. فى هذه الآية من سورة الإسراء استعمل القرآن تعبير (بِعَبْدِهِۦ) أى عبد الله. فهل للعبدية دلالة خاصة فى هذا الاستعمال؟ إننى لا أميل أن أثبت للعبدية هنا أى صفة خاصة تعلو على الرسولية أو النبوة.

فاسـتعمال تعبيـر عبده بصفتـه العبدية للـه تعالى هو تقدير يهـدف فى الأصل إلى إعلاء شـأن الله تعالى بإثبـات تنزيهه التنزيه اللائق بذاته باعتبـار أن العبدية لله تعالى شـأن كل الناس مهمـا علا قدرهم ومهما ترقوا فـى المعرفة ودرجة القرب من اللـه. فـكل النـاس عبيد لله أو عبـاد لله، بـل إن كل من فى السـموات والأرض إلا آتى الرحمـن عبدا، ومطلع سـورة الإسـراء يوضح هـذا المعنى الذى نقول بـه حيث جاء فيها السـياق بإثبات التنزيه لله ابتداء ثم الإسـراء بمحمد العبد بفضل هذا الإله المنزه (سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...) ولذلـك ورد فى القرآن اسـتعمال هذا الوصف لكثير من الأنبيـاء والمرسـلين لا للدلالة على مقام متميز أو درجة تغاير النبوة أو الرسالة وإنما

لتقريــر حقيقة الألوهية فى مقام التنزيه الكامل مـع تقرير فرق الخالق عن المخلوق: أى الألوهيــة والربوبية عن العبدية. فعن المســيح مثلا يقــرر القرآن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريــم:٣٠]. وأيضــا ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النســاء:١٧٢]. وعن ســليمان عليه الســلام ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص:٣٠]. وعن نوح عليه الســلام ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣]. وعن داود ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص:١٧]. وعــن أيــوب ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [ص:٤١] وعن زكريا ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ [مريم:٢].

وبالنســبة لمحمــد ﷺ بالــذات فقــد اســتعمل القــرآن تعبيــر العبديــة فى عدة مناسبات:

١- ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ [العلق:١٠].

٢- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٣].

٣- ﴿ ... إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال:٤١].

٤- ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ... ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

٥- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١].

٦- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان:١].

٧- ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر:٣٦].

٨- ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم:١٠].

٩- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد:٩].

وهى اســتعمالات لا يختلف فيها المعنى المقصود من التعبير المســتخدم للعبدية فى حد ذاتها، وإنما بما اتصل بها من صفات النبوة والرسالة والاصطفاء.

وهــى الصفات التــى يعلو فيها الإنســان المختار فى مقام القرب مــن الله تبارك وتعالــى وإن كان يتصف، حتى وهــو فى أعلى مراتب القرب. بصفة العبدية؛ لأن العبد

عبـد وإن ترقــى والــرب رب وإن تنزل. ولا يختلف مــا جاء فى ســورة الكهف خاصا بموسى.. وهو من أولى العزم من الرسل.. والعبد الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، عن هذا المعنى الذى نقول به، وتميز العبد عن موسى فى العلم والرحمة ليس من منطلق العبدية كصفة متميزة عن الرســولية أو النبوة لهذا الرجل الذى طلب منه موسى أن يصاحبه على أن يعلمه مما تعلم رشدا، هو عبد من عباد الله صفة التميز لديه التى فاق بها موســى الرسول -وهو عبد أيضا- هى صفة الرحمة التى أوتيها من عند الله، والعلم الذى تعلمه من لدن الله، ولا أميل إلى اعتبار ما يقال عن "العلم اللدنى" الـذى كان يعلمــه هذا الرجل العبد لله تعالى وإلا جاز بنفس المنطق أن نقول "الرحمة العنديــة" وهــو ما لا نميل إلى الأخذ بــه. ومحمد ﷺ فى محيط العلم، ســواء النظرى أو الشـــهودى عن تجربــة ذاتية، هو فى أرقــى المقامات.. ففى الجانــب النظرى يقف محمد بمســتواه القرآنى، وفى الجانب الشــهودى يقف محمد فى مســتواه فى الإسراء والمعراج. وفى كلا الجانبين اســتعمل القــرآن لفظ العبدية لله وهو ما يغلب حقيقتين متصلتين فيما بينهما:

الأولــى: كون محمد ﷺ عبــدًا من عباد الله مهما ارتقى فى العلــوم والمعارف، وذلك تنزيها لله تبارك وتعالى التنزيه اللائق بذاته الأحدية.

الثانيــة: كــون محمد ﷺ عبدًا من عباد اللــه حتى حين بلغ القمة فى مســتوى العلوم والمعارف سواء بصفاته بالقرآن كما قلنا أو فى مستواه الشهودى فى الإسراء والمعراج.

وتعليــم الرســول بالقــرآن قررتــه نصــوص عديــدة مــن آيــات الذكــر الحكيم ﴿ ...وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ... ﴿١١٣﴾ ﴾ [النســاء:١١٣] ﴿ ... مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ... ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشــورى:٥٢] ففــى مقام الاســتعداد للتلقى من الله تبارك وتعالى بواســطة الروح الأمين، يكون محمد فى مقام الاصطفاء الرسولى الذى يتحقــق فيــه بالعبدية لله تعالى بالمعنيين الســالف ذكرهما، وهو مقــام العبدية الذى يصــل فيه الفرد المختار إلى درجة القمــة والكمال بعد الإعداد للتلقى الروحى من الله تبارك وتعالى للروح القرآنى بواســطة الروح الأمين. والرسول -بصفة عامة- يرتبط برســالته وبمحتواها وما تمثله من ثقل بالنســبة للمرسل إليهم وما تمثله من مضمون

بالنسبة للمُرسِل وهو الله تبارك وتعالى. ومن هنا يكتسب الرسول الخاتم امتيازه عن سائر الأنبياء والمرسلين من حيث كون القرآن كلام الله تبارك وتعالى الموحى به باللفظ البيانى العربى والمعنى الدال عليه المقصود لذاته بلا تحريف، ولذلك وصفه الله تبارك وتعالى بعدة صفات كمالية من حيث هو كلام الله القويم:

١- ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾[المزمل:٥].

٢- ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ ﴾[الأنعام:٣٨].

٣- ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ... ۝٤٢ ﴾[فصلت:٤٢].

٤- ﴿ ... وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ... ۝١١١ ﴾ [يوسف:١١١].

٥- ﴿ ...لَا رَيْبَ فِيهِ... ۝٢ ﴾ [البقرة:٢].

٦- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝٦٠ ﴾ [الإسراء:٦٠].

الرؤيا متصلة فى هذا المقام بالإسراء والمعراج، وشاهد الرسول أثناء تحققه بهذه التجربة ذات الأبعاد التى تعلو على ما نعرف من أبعاد أربعة من المكان (ثلاثة) والزمان (البعد الرابع). والرؤيا هنا رؤيا حق يقين كانت سببا فى فتنة بعض الناس حين حدث الرسول ﷺ بها[١] .

وقد سبق هذا الحديث القرآنى عن الرؤيا التى أراها الله لرسوله تقرير حقيقة بالغة الأهمية جاء بها النص القرآنى فى ابتداء الآية الستين من سورة الإسراء (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ...) والإحاطة الإلهية -والله أعلم- هى إحاطة وسعة وعلم.. الوسعة من الاسم الواسع.. والعلم من الاسم العليم.. وهما يتصلان بأربع أسماء أخرى لله تبارك وتعالى هى: "الأول- الآخر- الظاهر- الباطن". فمن مقتضى الوسعة والعلم كانت إحاطة الله بالناس، ومن مقتضى الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية كانت إحاطة الله بالإنسان والأحداث المتصلة به.. فالإنسان فى تكوينه الجسدى والروحى بما يشمله ذلك من أجهزة متكاملة متناسقة متعاونة تشكل ذلك الكائن الإنسانى بما

---

(١) راجع كتاب "الإسراء والمعراج" للمؤلف.

يكمن فيه -باشتراك هذه الأجهزة جميعا- من عوامل نفسية وعقلية وهيكلية وروحية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق:١٦] هذا يفسر معانى الإحاطة التى تتسع لتشمل ماضى الإنسان وحاضره ومستقبله فى خلقه التكوينى وفى سلوكه الممتد طوال فترات وجوده، فى حياته الدنيا على نحو ما نعرف من الأحداث التى تتصل بالناس ويتصل الناس بها، وفى حياته البرزخية بالكيفية التى يحياها كل الناس، وفى الحياة الآخرة على النحو الذى يبعث الله فيه كل الناس. ومن ثم لا يملك إنسان، ولا يستطيع، أن ينفذ من قبضة الله تبارك وتعالى الذى يحيط بالناس من خلال سعة الإحاطة الإلهية والعلم الإلهى، وهو يشمل الرؤيا وإدراك أقصى مراتب الفكر فى الباطن من الوعى وفى الظاهر من الفكر والسلوك، وهذا ما يعلمه رسول الله ﷺ علما يقينا تعليما من رب العزة تبارك وتعالى، وتحقق به الرسول تجربة حق يقينية فى مشاهد الإسراء والمعراج. ومن هنا ارتبطت الإحاطة والربانية بالناس التى أخبر بها الله ورسوله بالرؤيا التى أراها الله لرسوله ليتحقق بشهود حق اليقين ما علمه إياه ربه علم يقين (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ...) وهكذا تؤكد إحاطة الله بالناس فرق العبدية عن الألوهية، كما تؤكد أخص خصائص الألوهية فى العلاقة بين الله الخالق والناس المخلوقين. كما تؤكد هيمنة الله تبارك وتعالى على شئون الكون وشئون الإنسان وأعماله فى أى مكان من أماكن هذا الكون الفسيح فى الأرض وفى غير الأرض.. فالإحاطة الربانية بالناس لا يحدها المكان ولا يحدها الزمان وتنبعث من خلال أبعاد فوق الأبعاد التى تعرف أو تكتشف مع المزيد مع تطور العلوم والمعارف وتتصل بمدارك تعلو مداركنا فى هذا الجيل وستظل تعلو مدارك كافة الأجيال الإنسانية القادمة مهما بلغت من ترقٍ فى المعرفة؛ لأن الألوهية لا يمكن الإحاطة بها علما، بينما الله تبارك وتعالى محيط بعلمه بكل شئ ﴿ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه:١١٠] والله هو العليم الذى يمد كل الناس من عطائه دون حظر بقدر اجتهاد الناس ووفق مشيئته ﴿ ...وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥] فى كشف الآيات للناس ليتبينوا الحق. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣] أى شاهد لكل شئون الكون وشاهد لكل الشئون

والأفعـال ممـا يفهمه الإنسـان. والإنسـان قد يحيط ويسـع وتعلو روحه السـماوات والأرض، ولكنـه يظـل محاطا بالهيمنـة الإلهية التى تخضع الكون كلـه بما يريد الإله لقبضتـه فى الدنيا والآخـرة. وفى هذا المعنى يقول أسـتاذنا أبـو العزائم من منطلق الحديث القدسـى: "لم تسعنى أرضى ولا سماواتى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) إن الإنسـان بروحه أو عقله أو قلبه (محيط محاط فـى مقام الهوية الألوهية) فهو فى إطلاقـه فى الوسـعة (محيط) وهو فى نفس الوقت من جانـب الهوية الإلهية (محاط) فهـى قبضـة الخالق التى لا يمكـن الفكاك منها من جانب أى مخلـوق. ولعل الذى دعا هؤلاء المتصوفة الأعلام من إعلاء شأن قدر مقام العبدية هو ما يتصل باستعمالات هذا اللفظ من علوم وتجارب ومشـاهد تناولها القرآن سـواء باسـتعمال لفظ عبد أو عباد. فاقترنت بذلك عندهم هذه العلوم والمشـاهد والتجارب بهذه الصفة بالذات باعتبارها مقامًـا معينًا يعلـو المقامات كلها. وهم وإن كانوا محقين فى هـذا الربط بيم المعرفة والتجربة والشـهود وبيـن الصفة العبدية، إلا أننى اعتقد والله أعلم، أن الصفة ليسـت مقصودة فى ذاتها كمقام متميز وإنما المقصود منها هو بالقدر الأكبر والأسـاس بيان مقام الله المنزه الذى ليس كمثله شئ، بتقرير حقيقة الصفة العبدية لكل مخلوق مهما قربه الله إليه ومهما حباه به من معرفة وشهود عن تجربة. فالصفات الأخرى المتصلة بالحقيقة الأساسـية لكل الناس وهى حقيقة العبدية لله تعالى، هى التى تميز عبدا عن عبد أو تميز عبادًا عن عباد. كما على سـبيل المثال فى ﴿ ... نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص:٣٠] وفـى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] وفـى ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤٢] وفى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقـان: ٦٣] وفـى ﴿ ... وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل:١٩] وفى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢] وفى ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصافات:٨٠، ٨١] وفى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصافات:١٧١].

ولعـل ما روى منسـوبا إلى النبـى ﷺ يوضح ما نقول. فقـد روى عنه أنه حدث قائـلا: "لا تطرونى" كما أطرت النصارى عيسـى بن مريم فإنمـا أنا عبد: فقولوا: عبد

الله ورســوله" وبذلك يظل محمد حتى وهو فى قمة مقامه الروحى النورى، عبدا لله، كما يظل وهو عبد لله، نورانيا فى حقيقة ذاته. ولما رفع أتباع المسيح نبيهم إلى مرتبة التأليه قرر القرآن أن المســيح ذاته لم يستنكف أن يكون عبدًا لله، وهى حقيقة تنطبق على المســيح وعلى غير المســيح من عباد الله. فلم يستنكف أحد أن يكون عبد الله، بل على العكس لكل إنســان أن يعتز بعبديته للــه وبعبوديته لله، وهى حقيقة ثابتة رضى بها من رضى أو اســتنكف منها من اســتنكف، على أن ذلك لا يغير من الأمر شــيئا. الله خالق كل شئ وكما بدأ الخلق يعيده، إليه يرجع الأمر كله يوم القيامة ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ ﴾[مريم:٩٣].



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩].

حديث فى الخصوصيات الرسولية التى تشكل جزءا من العلاقة بين الله ورسوله. العلاقة التى ينفرد بها هذا الرسول فى قمتها السامية ولا يشاركه أو يدانيه أحد من الناس. فالنافلة بالتهجد، وهو الصلاة بعد فترة من النوم القصير فى الليل، خاصة بالرسول وحده. والصلاة فى الليل نور على نور يبدد ظلمات الليل الفيزيقى والليل المعنوى الذى يشمل كل أنواع الظلمة التى كانت تسود الأرض حين نزل هذا الخطاب الخاص إلى الرسول، وهى بعينها -مع تغير تفرضه ظروف تعقيدات الحياة بفعل تطورها- الظلمات التى تعم الأرض اليوم كما فى ذلك اليوم الذى نزل فيه هذا الحديث القرآنى.

الرسول سراج منير. والقرآن نور. ولفظ (بِهِۦ) الذى جاء بعد التهجد مقصود به هذا القرآن الروحى النورى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... ﴿٥٢﴾ ﴾ (الشورى) فالسراج المنير بروحه وذاته يقف فى حضرة نور السماوات والأرض يقرأ آيات النور، فيبدد هذا النور كل ظلام أو ظلمة ليشرق الحق بنوره فى الليل الساجى فى حضرة القرب فى الصلاة التى فرضت أصلا فى حضرة القرب فى المعراج وكانت هى بعد ذلك وسيلة المعراج إلى حضرة القرب أو الصلة التى تقيم هذه الآصرة من القرب على الدوام فى كل لحظة من لحظات أنفاس هذا الرسول ﷺ.

والصلاة فى المقام العادى وسيلة للقرب والعروج إلى الحضرة الإلهية. وهى فى هذا المقام بالذات الذى جاء به النص القرآنى وسيلة لغاية أخرى هى فوق هذا القرب أو، إن شئت قلت، من دواعيه وخواصه وضروراته. هذه الغاية هى بلوغ درجة من

القرب يصفها القرآن بأنها المقام المحمود. والمقام المحمود مقام يناله فرد واحد هو الرسول الخاتم ﷺ يوم القيامة بعد البعث (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ) فالرسول قد نال مقام القرب الأعظم فى المعراج وفيها فرضت الصلاة ومنها استمر وجود الرسول فى هذا المقام من القرب.

هذا فى الصلاة العادية. أما فى هذا التهجد الليلى الذى كلف به الرسول فإن الأمر أمر حضرة أكثر قربا يبعث عليها الرسول ويحيا فيها أو فى ظلها يوم القيامة وهى حضرة «المقام المحمود»، والذى قال فيه المفسرون الكثير مثل قولهم إنه الشفاعة، وإنه المقام الذى يحمده فيه جميع خلق الله... إلخ. وهو مقام يشتمل على هذه المعانى وقد يشملها ويفوقها فى القدر والطبيعة والحالة بما تستريح معه روح الرسول ونفسه ويحمد فيه ربه على تميزه به ووجوده فيه. إن حقيقة هذا المقام المحمود لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله عليه وسلامه، وهو ناتج عن تخلٍ وتحلٍ عظيمين حققهما الرسول فى تهجده بالليل زيادة عن عروج القرب فى الصلوات الأخرى وهو أمر اختص به الرسول. ويمكن أن نستشف جوانب من حقيقته باستيعابنا لصلاة الرسول التهجدية بالليل؛ كيف كان يطيل فيها القيام وقراءة القرآن حتى تتورم قدماه، وكيف كان يتخلى عن الخصائص الأرضية والدنيوية والأخروية على السواء ويتحلى باستشعار وجود الله فى حضرة تكون فيها ذاته نورا أو سراجا منيرا، يتلو نور الله الموحى إليه من روح الله النورانى جبريل، فلا تكون هناك ظلمة كما فى ليل الدنيا، وإنما نور على نور يبدد كافة مراتب الظلمات فى الأرض ويسمو بهذه الروح النورانية إلى آفاق فى القرب الغاية فيها هى بلوغ هذا المقام المحمود. وإذا كان المقام المحمود هو الشفاعة، فالمقصود عندئذ الشفاعة العامة الكبرى للرسول ﷺ. ذلك أن الله يأذن لمن يشاء بشفاعة جزئية كالذى نفهم من آية سورة طه ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩ ﴾[طه:١٠٩].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا
قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا
يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا
وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ
عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء:٧٣-٨١].

الحديث هنا فيه تعظيم لشخص الرسول ﷺ وتقرير عصمته التى حباه الله بها وحفظه بها... العصمة الربانية فى تثبيت الرسول على الحق الذى أوحاه الله إليه... هذه العصمة هى الركن الأساس فى هذه الآيات... تليها دعائم ومقومات وأسس الصلة التى تربط بين الرسول -وهو فى مقام عصمته- والله تبارك وتعالى... يليها إيمان الرسول العميق بما يقوله ويظهر به أمام الناس كافة من أن القرآن الذى حمل مسئولية تبليغه هو الحق بعينه وما سواه هو الباطل بعينه... تليها محاولات غير المؤمنين فتنة الرسول عن طريق إثنائه عن تصميمه عن الجهر بالدعوة القرآنية والمضى قدما بالإيمان الكامل والعزم الأكيد والتصميم البالغ فى نشر تعاليمها كاملة غير منقوصة

ولا محرفـة؛ أى بغيـر تنازل لغير المؤمنيـن عن أى مبدأ أو حكم مـن مبادئ وأحكام هـذه الدعوة القرآنية. والحديث فى هذه الآيات موجه للرسـول ﷺ وفيه بيان عظمته، عظمة شـأن هذا الرسـول، ويمكن مع ذلـك أن يكون الأمر –كما قـال الإمام القرطبى فى تفسـيره- فيه تعريف للأمة لئلا يركـن أحد من المؤمنين إلى غير المؤمنين أو إلى المشركين فى شئ من أحكام الله تعالى وشرائعه.

أما العصمة النبوية فيقررها بوضوح –وباعتبارها الأصل فى هذه الآيات المتتالية لهـا- تقرير (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ...) فلولا حرف امتناع لوجـود. والمقصـود امتنـاع الركون من جانب الرسـول إلـى غيـر المؤمنين لوجود العصمـة ابتداءا. هذه هى الحقيقة الأسـاس والقاعدة التى تـدور عليها الآيات كلها فى هذا التقرير موضع هذا الحديث. لقد حاول غير المؤمنين والمشركين محاولات كثيرة ليثنوا الرسول عن المضى فى دعوته. يذكر المفسرون منها:

١- مسـاومتهم له على أن يعبـدوا إلهه مقابل أن يترك التنديـد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم.

٢- مساومته بعضهم أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله.

٣- طلب كبرائهم أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء.

ولكـن الفيصل فى ذلك كله هو فى أمر مهم يفـرق بين الحق وبين الباطل تفريقا صريحا واضحا لا لبس فيه ولا تنازل عنه، حيث لا يملك الرسـول المعصوم أن يساوم فـى الحق ليتنازل عـن جزء من مقررات القرآن الذى هو دعوته؛ لأنه كلام الحق تبارك وتعالى الذى لا يملك الرسـول أن يفترى فيه على الله بإبلاغ غير ما أوحى إليه باللفظ والمعنـى كاملا غير منقـوص ولا محـرف (لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ) الفيصل هو ما يقرره القـرآن فـى (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وهـى الآيـة ختام آيات التقريـر الـذى نتناوله فى هذا الحديث فى معية الرسـول ﷺ. لقـد تعددت محاولات الإثنـاء فى أمور كثيرة ذكر منها المفسـرون تلك الثلاث التى ذكرنا سـالفا وهى عماد محاولات اختراق الحق الذى جاء به الرسـول فى ذلك العصر، وهى نفسـها محاولات الاختراق من جانب غير المؤمنين بالنسـبة لهذا القرآن الذى نزله الله وحفظه الله من

كل ســوء يمكر به غير المؤمنين تجاه هذا الدين الذى يعتبر القرآن ركيزته الأساســية. فالعقائد الموروثة بالنسبة للآلهة التى تعبد من دون الله تبارك وتعالى، وتفتيت وحدة الاتجاه الدينى والروحى إلى الله وحده متمثلا فى الاتجاه إلى بيت الله الحرام (الكعبة) فى مكة المكرمة من جانب ســائر المؤمنين فى كل بقاع الأرض. والاستناد إلى النفوذ والامتيــازات والتفرقة فى المعاملة -حقوقــا وواجبات- نتيجة التميز المالى فى نظام اقتصــادى كان يجعل المال دولة بين الأغنياء فقط... كل ذلك وغيره... كانت محاولات يريد بها غير المؤمنين ويريد بها المشــركون أن يؤثروا بها على موقف الرســول ﷺ من آيات القرآن الذى جاء يدعو إليه ويذكر بها من يخاف وعيد الله. ولو كان الرســول وقتهــا -والمؤمنون من بعده- تجاوب مع محاولات الاختــراق هذه لتغير موقف غير المؤمنين من الرســول شــخصيا ومن المؤمنين من حوله ومن دعوته بصفة عامة. لو اســتجاب الرســول لمحاولات الإثناء هذه لصار عندهم محبوبا يمدون إليه يد الصداقة والخُلة، ولتعاونوا معه نتيجة لقائه معهم فى منتصف الطريق. وليس معنى ذلك أنهم كانوا سيحترمونه؛ لأن الاحترام لا يتأتى إلا باقتناع الخصم بأن خصمه متمسك بمبدئه قائــم على عقيدته لا يتلــون ولا يداهن ولا يتنازل فى أمر من أمور دعوته التى نزل بها كتــاب هــو وحى لكلام الله تعالى. إن التنازل عندها يبدأ بخطوة لكنه يفتح باب المزيد مــن التنازلات التى تنتهى بتغيير المبدأ والعقيدة. وينفصل الرســول عن رســالته كما ينفصل معنويا عن الله تبارك وتعالى الذى جاء هو فى الأصل ليدعو إليه ويدعو الناس إلــى توحيده وعبادته. وهذه الأمــور كلها بهذه الصورة عبارة عــن فتنة يكيد بها غير المؤمنين للرسول وللقرآن وللمؤمنين، وهى فتنة خطيرة لها من العواقب ما يؤثر على مستقبل دين الله المتمثل أصلا فى القرآن الذى حمل عبء تبليغه رسول الله ﷺ. وكما أن الفتنــة خطيــرة فإن الجزاء هو أيضا بنفــس الخطورة (إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) أى أن نتيجة الركون إلى هذه الفتنة والوقوع فى حبائلها هى تحقق ضعف العذاب فى الدنيا وضعف العذاب فى الآخرة.

لكن الحقيقة المتصلة بشــخص الرســول توضح وعيه التام الكامل لعناصر هذه الفتنة التى يبغيها غير المؤمنين، وهى تستند إلى:

١- عصمة الرسول ابتداء.

٢- إدراكه التام بأن ما جاء فى القرآن هو الحق وأن ما يخالفه هو الباطل.

٣- تدعيم الصلة الفكرية والروحية بين الرسول وربه حفظا لمقام القرب العبدى والرسولى.

الأمر الأول يقرر بشأنه القرآن كما ذكرنا (وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا) **والأمر الثانى** يقرر بشأنه القرآن (وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا) **والأمر الثالث** يقرر بشأنه القرآن (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾).

ثم التوجيه إلى الرسول ليتوجه إلى الله تبارك وتعالى فى أن يدخله مدخل صدق وأن يخرجه مخرج صدق... فى حياته منذ البداية وإلى النهاية... حياة الاصطفاء بإبلاغ الرسالة وحمل الأمانة ونشر الدعوة وقراءة القرآن على الناس على مُكْثٍ، وتبليغ آياته كلها بالبيان النظرى والتطبيق العملى بالصدق مع الله ومع كلام الله فى هذه المرحلة فى حياة الرسول ﷺ منذ البعثة وحتى اختياره ﷺ للرفيق الأعلى، حيث يستمد السلطان فى الأرض من سلطان الله، والنصر فى الأرض من نصر الله؛ لأن النصر ليس إلا من عند الله. وقد أراد غير المؤمنين كما أراد المشركون أن يخرجوا الرسول من بلادهم التى كان لهم فيها السلطان والتمكين والنفوذ والجاه والكلمة المسموعة بعد أن أزعجهم وأقضَّ مضاجعهم وهدد امتيازاتهم... ولو تحقق ذلك الإخراج من وطنه –مكة آنذاك- لتغير مصير هؤلاء القوم تغييرا جوهريا بإهلاكهم على نسق مجريات الأحداث فى الأرض كما يدبرها الله سبحانه وتعالى، وكما كانت تتحقق مع الرسل السابقين وأقوامهم على نحو ما بين القرآن ودلت عليه آثار التاريخ. ولكن أمر الرسول الخاتم كان يختلف عن أمر الرسل السابقين بمقتضى كونه خاتم الرسل، ومن خلال طبيعة رسالة هذا الرسول الخاتم القرآنية وطبيعة مهمته ذاتها وأهداف رسالته بالنسبة للإنسانية من بعده. إن هذه الطبيعة الخاصة للرسالة ومعها بالضرورة طبيعة مهمة الرسول فى أسلوب وكيفية الدلالة إلى الحق والهداية إلى الحق وبيان حق قدر الله تبارك وتعالى من خلال نشاط الإنسان الفكرى الخلاق فى معالجة واكتشاف وتدبر آيات الله فى الكون وفى النفس وفى القرآن، مما يبرز تطابق

الآيات فى الكل، ويتبين للإنسان الحق الذى جاء به القرآن... كل ذلك جعل أمر إخراج الرسول غير ممكن التحقق لأن الله أراد له ألا يتحقق، إرادة متصلة بإرادته فى طبيعة الرسالة الخاتمة التى جاء بها الرسول الخاتم للإنسانية جمعاء فى كل زمان وفى كل مكان ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ لكنهم فشلوا فى استمالته إلى الخروج أو إزعاجه للخروج حتى جاء أمر الله إليه بالهجرة فخرج عندئذ تلبية لأمر ربه ونصرة للدعوة على يد الأنصار فى المدينة.

من هذا السرد نستطيع أن ندرك العظمة فى شخصية الرسول ﷺ من هذا الجانب الذى تعالجه هذه الآيات... ونستطيع أن نعيش معه مواقفه البالغة القوة فى التمسك بالعقيدة وفى إبلاغ الأمانة التى كلف بتبليغها... قرآنا... هو الحق من ربنا تبارك وتعالى.



١٥

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســــورة الكهــف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف:٦].

جاءت هذه الآية بعد الحديث عن الذين قالوا اتخذ الله ولدا. وجاء الرسول لينذر هؤلاء الذين يقولون ذلك القول العظيم. وهؤلاء هم الضالون الذين جاء الرسول ﷺ ليخرجهم من هذه الظلمة فى الاعتقاد إلى النور الذى هو التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى. وقد أمر الرسول أن يبلغ الذين تاهوا فى غياهب الاعتقاد الباطل بأن لله ولدا ـ سبحانه ـ أمر ليقول لهم إن الله أحد. صمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهى الحقائق الخالدة التى جاءت فى سورة الإخلاص.

لقد كان الله يعلم من بواطن التفكير والشعور عند الرسول أنه يأسف -وهو الرحيم بالبشرية- أن يكون هناك ناس من البشر يعتقدون هذه العقيدة المخالفة للحقيقة الناصعة، وهى عقيدة لا تقدر الله حق قدره. وقد كان الرسول يود لو أن الذين يقولون بأن لله ولدًا يرجعون عن هذا الاعتقاد الخاطئ فى حق الله الذى يعلم الرسول علم اليقين أنه لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبة ولا ولد. ولعلم الرسول بشدة هول يوم الحساب وما ينتظر هؤلاء الذين يقولون ذلك من عذاب أليم، كان يأسف عليهم وعلى موقفهم الاعتقادى وموقفهم السلوكى تجاه القرآن (هذا الحديث).

والآية هنا واضحة تمام الوضوح فى بيان علاقة هذا الرسول بالجنس البشرى كله دون تفرقة. فهو رحيم بهذه البشرية وهذه الإنسانية. وهو بالهدى القرآنى الذى جاء به من عند الله قد بين الرشد من الغى، وألقى أضواء من نور القرآن ومن نور هديه وروح معناه على العقيدة الحقة والتوحيد الحق الذى أراد الله أن يبرزهما للناس كافة،

حتى لا تكون لهم حجة بعد هذا الرسول الخاتم. إن الحقيقة التى كان الرسول يدركها تماما هى وجود يوم للحساب آت لا ريب فيه. وهو ﷺ كان يدرك مقدار هول هذا اليوم الذى وضح القرآن مظاهر من مشاهده الرهيبة المخيفة المروعة. ومن خلال هذا الإدراك ليوم الحساب ولأهواله وشدته كان الرسول يود لو أن البشرية جميعها، فردا فردا، آمنت بما جاء به من قرآن الحق حتى تنجو من عذاب ذلك اليوم العظيم. وكان ﷺ يبذل قصارى جهده لتؤمن البشرية جميعها، فردا فردا، حتى لا يُعَذب أحد منها يوم القيامة. وكان ﷺ يود لو أن الشعوب الضالة فى عقيدتها من هذه البشرية تدرك أنوار الحق فى قرآن الحق الذى جاء به من عند الله فتنجو هذه الشعوب الضالة من المصير الذى ينتظرها يوم القيامة بصنوف الآلام والعذاب. ولكن الحقيقة أن الرسول لم يكن فى استطاعته أن يهدى كل الناس؛ لأن الإنسان بتركيبه المعقد درج على تقليد الآباء ووراثة العقيدة عن السلف حتى ولو كانت باطلة فى ذاتها. والهدى فى حقيقة الأمر هو نعمة ربانية يمنحها الله لمن سبقت لهم الحسنى وأراد الله لهم الهداية والنجاة من عذاب يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الأنبياء) وقد قرر القرآن عدة حقائق هنا فى منتهى الوضوح:

١- أنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.

٢- وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.

ذلك أن الهدى والضلال متصلان بطبيعة تركيب النفس الإنسانية على تباين فى النفوس، وبالتالى وجود المهتدين والضالين. وطبيعة الرسالة والرسول تتفق وطبيعة التركيب العضوى والعقلى البشرى الذى يملك الحرية فى الاختيار مع مسئولية الإرادة الحرة التى هى الأمانة التى حملها الإنسان. هذه الحرية فى الإرادة والاختيار ينتج عنها تباين فى العقائد وفى المعارف وما ينتج عنهما من هدى وضلال. وينتج بالتالى هالكون يوم القيامة وناجون، معذبون ومنعمون، فريق فى الجنة وفريق فى السعير..



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

(تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ) أى تبتغى هؤلاء الأكابر من الكافرين الذين آتاهم الله زينة الحياة الدنيا، سواء أكانت هذه الزينة مالا أو جاها أو نسبا أو سلطانا، وليس المعنى أن الرسول نفسه كان يبتغى بمجالستهم الشرف والفخر لنفسه باعتبارهما من أنواع زينة الحياة، فالرسول ﷺ كان أكثر الناس بعدا عن زينة الحياة الدنيا، وكان أكثر الناس قربا من الله تبارك وتعالى، وكان حاملا لرسالة تحض الناس كافة على تفضيل الآخرة على الدنيا، وكان أكثر الناس تعلقا بالله واليوم الآخر، وكان أكثر الناس زهدا فى الدنيا وزينتها وزخرفها، وكان أكثر الناس علما بالقيمة الحقة لهذه الدنيا الزائل زخرفها، وكان أكثر الناس بعدا عن التأثر بمغريات الدنيا من الزينة، وكان أكثر الناس قربا من الفقراء والمساكين الذين لا يملكون من زينة الحياة الدنيا شيئا، وكان أكثر الناس علما بأن «القيمة» العليا فى ميزان الحق العادل هى قيمة الصلة بالله فى إخلاص وتوكل وصدق؛ إفرادا لله بالاتجاه الكلى للفكر والشعور. فلا نعتقد، والأمر كذلك، أن الآية مقصود بها ميل نفس الرسول إلى زينة هذه الحياة الدنيا، وهو النبى الذى جاء يدعو إلى الله والحياة الآخرة، حاملا من الصفات ما ذكرناه آنفا، وهو الذى يقرر بشأنه القرآن ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام) وإنما المقصود بها فى فهمنا هؤلاء الأكابر من كفار قريش الذين آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا الشئ الكثير على اختلاف أنواعه. وقد

روى فى سـبب نزول هذه الآية أن أشـراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا لـه: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك. يعنون بلالا وخبابا وصهيبا وسلمان الفارسى وغيرهم.....

فإنــا نأنف أن نجتمع بهم، فعين لهم وقتا يجتمعون فيه عندك: فأنزل الله (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا) . والمقصود مـن (تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) هـو حرص الرسـول على إيمان وهداية هؤلاء الرؤســاء والأكابـر من القوم الكافرين؛ ليؤمن بإيمانهم أتباعهم وعشـائرهم فيعز الدين وتقوى شوكته. ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يقيم فى ميزان الدين وزنا للكبرياء والغطرسة ومظاهر الدنيا المؤثرة على الناس من المال والجاه والعز والسـلطة والعزوة.... إلخ. ولا يحتــاج لنصر الدين إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين اختلت عندهم القيم والموازين من خـلال بعدهم عن حقيقة الدين وحقيقة التميز والأفضليــة عند الله. فالإيمان والتقوى والإخـلاص هى القيم التى يزن الله بها أقـدار الناس وهى قيم متصلة بالآخرة وبالنية الخالصــة لوجه الله. وأشــخاص يحملون هذه الصفات أكثر ثقـلا فى ميزان الحق من أشخاص زاغت قلوبهم عن الإخلاص لله وحده وتفضيل وجهه والحياة الآخرة على ما فــى الدنيا من زينة ومتــاع زائلين. فالإيمان بالله وإفراده بالدعاء والوجهة، أى التوجه إليه وحده إسـلاما وإيمانا وإحســانا ويقينا (يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) فى كل لحظة من لحظات الحيــاة (بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ) هـو مقياس الأفضليــة عند الله كما أنه مقيــاس التفاضل فى الدنيــا بين الناس. فإن اجتمع مع هذا المقياس الغنى أو الجاه أو السـلطان فهو الخير كل الخيـر بـل هو الزيادة فى الخير، وإن افتقد الغنى أو الجاه أو السـلطان فهو يتميز عن الغنى أو الجاه أو السـلطان إن كان كل واحد من هذه فاقدًا لإسلام الوجه والوجهة للــه بالكلية. قيمتــان. الدنيا وحدها والآخـرة وحدها. الثانية أفضل فــى ميزان الحق. والأمثل أن يجتمع الاثنان فى قلب الإنســان فيكون لله وجهته وللآخرة نظرته، وتكون مقومات زينة الحياة الدنيا وسـائل تستعمل فى الخير الشخصى والعام فى إطار ذكر اللــه واليـوم الآخر، لتكـون الدنيا مطية للآخرة أو وسـيلة للعمل لنيـل رضاء الله فى الدنيا والآخرة. إن هذه الرسالة التى حملها خاتم المرسلين تضع الأمور فى مواضعها

الحقيقية، وتضع تصورا شـامل كاملا للألوهية متصلا بالكون والإنسان، والله يوجه رسوله إلى تكييف حياته الفكرية والنفسية والسلوكية ضمن هذا التصور الشامل الذى يقيمه القرآن ويمثله فى الواقع هذا الرسول ﷺ وأولئك النفر من المؤمنين الذين كانوا يعيشون فعلا ضمن إطار هذا التصور، ويكيفون حياتهم على أساسه، وجهتهم بالكلية هى الله. إن الاستعجال فى سبيل نصر الرسالة من جانب الرسول ومن جانب المؤمنين -حين تختل معها الموازين- غير مطلوبة؛ لأن الله غالب على أمره ولا تستطيع أن تقف أمـام إرادته أى إرادة، ولا يمكن أن يؤثر على أحداث وأطوار ومسـتقبل هذه الرسـالة غير ما يريده الله بمشـيئته هو، والنصر فى الحقيقة للرسـالة من عند الله، وهو يكون فـى صورة واقعية بأولئك الذين امتلأت قلوبهم بمبادئ هذه الرسـالة، باعوا أنفسـهم وأموالهم لله واشترى الله أنفسهم وأموالهم بجزاء هو النعيم الخالد فى الحياة الآخرة، ومن ثم فالصبر من جانب الرسول مع هؤلاء الفقراء أو الضعفاء فيه فى الحقيقة غنى وفيـه قوة وفيه ارتبـاط وثيق بالله تبارك وتعالى الذى يسـتمد منـه المؤمنون طاقة الجهاد من أجل الرسالة وطاقة الدفاع عن هذه الرسالة ضد قوى مادية بحتة لا تستمد مـن قيم وأخلاقيات وروحانيات ومبادئ وتعاليم هذه الرسـالة، ومن ثم فلا طاعة من الرسول للاتجاه الفكرى لهؤلاء الذين يستمدون من قيم الحياة المادية ويتبعون الهوى النفسـى دون أى ارتبـاط بقيم الدين التى تسـتمد من الله تبـارك وتعالى (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا) وليـس المقصـود من هـذا التوجيه إلى الرسـول تشـجيع الفقر أو ذم الغنى؛ أى سعة المال وسـعة الرزق، أو ذم الجاه أو ذم السـلطان أو المنصب، وإنما المقصود هـو تمييز هذه القيم الأخلاقية الدينية الموصلة باللـه حتى ولـو كان معها الفقر، وافتقرت إلى الجاه أو السـلطة أو المنصب على هذه الاعتبارات -الغنى والجاه والسـلطان والمنصب- إن لم يكن يسندها أو لم تكن ترتبط بالقيـم الدينيـة الأخلاقية الموصولة باللـه. فالمال الآتى من السـعى الحلال نعمة من الله يسـتعملها الإنسـان المؤمن المرتبط بقيم الدين الأخلاقية فى سبيل الخير والنفع العـام... ونفـس الأمر بالنسـبة للجاه والسـلطان والمنصب، كلها خيـر عندما يرتبط أصحابهـا بقيم الدين الأخلاقية موصولة بـرب الناس تبارك وتعالى. فالمال والأخلاق يجب أن يكونا مرتبطين؛ لأن الفقر النابع من سوء توزيع المال وسوء استغلاله نتيجة

وسائل فيها ظلم؛ أى غير مشروعة- فيه خروج عن مبدأ العدالة الاجتماعية التى ينادى بها الدين. إن الاعتبارات السابقة التى ذكرناها -مع غيرها- هى من مقومات التمكين فى الأرض، والتمكين فى الأرض مطلوب فى حق المؤمنين بالرسالة الخاتمة. ولكنه تمكين ترتبط به التزامات من الارتباط بالله ورسوله مع التمسك بالأخلاقيات فى التصرفات المالية التى ينبنى عليها صرح المجتمع الاقتصادى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... ﴾ [الحج:٤١] من هنا كان الدين فى الحقيقة طاقة بناءة تقيم حياة الإنسان فى توازن يتمشى مع طبيعة تكوينه الفسيولوجى نفسه باعتبار عنصرى التجسيد والروحية فى الإنسان. الأول يمثله السعى فى الأرض والكد من أجل التمدن والتحضر. والثانى يمثله الارتباط الفكرى والسلوكى بالله وبقيم الدين وتعاليمه. ونماذج التضحية بالمال فى سبيل العقيدة كثيرة فى ذلك العصر الأول للرسالة الخاتمة -كما لا يخلو عصر من نماذج هذه التضحية- الذى تواجد فى مجتمعه الأغنياء والمتوسطون والفقراء يظلهم جميعا العدل الاجتماعى والترشيد الاقتصادى فى ظل الأخوة الدينية. ومحبة وإيثار نابعين من هذه الأخوة التى دعمت الانتماء ودفعت للبناء. والآية توجه الرسول ﷺ إلى مجالسة هؤلاء الفقراء الضعفاء؛ لأن الإنسان الذى يتمسك بقيم الدين الأخلاقية ويتوجه بالكلية لله تبارك وتعالى رغم معاناته من الضيق المالى. هو إنسان قوى فى شخصيته، مخلص فى اتجاهه الربانى، قوى فى إيمانه. يملك من الطاقة الروحية والسند الأخلاقى ما يستقيم معه بنيان المجتمع المؤمن وهو طاقة بناءة يمكن أن يستفيد منها ذلك المجتمع عند الحاجة. إننا نعرف جميعا أن الفقر بالذات هو من أكثر الدوافع المؤدية إلى الانحراف الأخلاقى فى العادة -شأنه شأن الغنى الفاحش- كما أنه أساس الشعور بالظلم الاجتماعى وما يترتب عليه من اضطرابات. ومن ثم فإن إشعار الفقير برعاية الله له -فى شخص رسوله آنذاك- يقوى فيه ذلك الوازع الأخلاقى الذى هو زاده الذى يملكه فى هذه الحياة، ويمنع ذلك الانحراف والفساد المتشعب الجوانب الذى عادة ما يؤدى إليه الفقر، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى قال: «لو كان الفقر رجلا لقتلته»؛ لأن القرآن لا يمجد الفقر لذاته ولكنه يمجد الفقر حينما يقترن بفرد اختار الفقر تمسكا بالعقيدة وباع ماله فى سبيل العقيدة حيث تتجلى

فكرة التضحية بزينة الحياة الدنيا فى ســبيل الله وفى سبيل نصرة الرسالة والعقيدة، وهى الرسالة التى تضع سياسة للمال وسياسة للاقتصاد تنبنى أساسا على مبادئ من عدالة التوزيع وتشــجيع السعى الحلال والعمل من أجل الكسب الحلال، فى ظل تكافل اجتماعــى لا مهانة فيــه للفقير ولا تميز فيه للغنى، كلاهما مســاوٍ للآخــر أمام قانون المجتمع ونظرة المجتمع.



١٦

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســــورة طــــه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه:١٣٠]

يذهب البعض إلى القول بأن (لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) يمكن أن تقرأ أيضا بضم التاء والمقصود منها ثواب الله الذى يعطيه لرسوله ﷺ نتيجة هذا التسبيح. وهو جائز. ولكنى اعتقد أن سياق الآية يشير إلى معنى أعلى وأعمق من هذا بكثير، إنه يكشف الصلة الفريدة بين هذا الرسول وربه؛ صلة الانخراط الكلى، النفسى والعقلى والروحى والجسدى لهذا الرسول، فى سلك الذاكرين الحاضرين مع وجود الله، الشاهدين لآلائه الحامدين لنعمائه، وهو مقام الذكر الأكبر...... الذكر الدائم... الذى لا غفلة معه أبدا فى أى لحظة من لحظات الزمان ولا فى أى نفس من أنفاس الحياة. ذلك المقام من الذكر الذى يتحقق به المقربون وأعظمهم قربا رسول الله ﷺ. فهو فى هذا المقام من الذكر والتسبيح قريب من الله فى مقام القرب الأعظم؛ ذلك المقام الذى روى أن الرسول ﷺ قال بشأنه عندما قرأ سورة هود: «شيبتنى هود» ذلك أن السورة جاءت فيها آية تذكر البعد فى مقام البعد ﴿ ...أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود:٩٥] والرسول قريب فى مقام القرب، وهو المقام الذى عاشه فى نفسه وسيرته وبكل مشاعره وحواسه ومداركه العقلية والروحية، والذى أعرب عن حقيقته فى قولته السابقة التى تدل على مدى الهول والرعب الذى استشعره الرسول عندما تصور فى ذهنه مجرد افتراض يمكن حصوله وهو أن يبعد عن ربه أو يبعد ربه عنه. إن هذا فى هوله وشدته يماثل شدة هول يوم القيامة الذى قال فيه القرآن: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾[المزمل:١٧] هذه الصلة بين هذا الرسول وربه، صلة التسبيح الدائم المستمر تولد رضاءا شاملا عند الرسول؛ لأنه يحيا بها فى معية رب العالمين وفى

القــرب من جنابه بل فى قمة المقربين الذين لهم الروح والريحان وجنة النعيم. وليس رضاء الرســول ﷺ هــو الذى ذكرته ســورة الضحى فى القرآن الــذى كان ينزل على الرســول تباعــا، يعطيه من قوة اليقين وقــرب الصلة برب العالمين ومشــاهدة الروح الأميــن مــا يجعله يرضى بهذه الصلــة القوية الفريدة بينه وبين ربــه. تلك الصلة التى اختاره الله لها ورضى الله بها عنه ورضى هو عن الله فيها. ونذكر فى هذا المقام قول أستاذنا الإمام أبو العزائم:

١- فى القرب:

أنا لا أخــاف وحقّــه من نَــاره   كلا ولا أبغــى الجِنَان لطـيبها

فالقرب منه جنتــى ومحاســنى   والبُــعد عنــه نــاره ولهيبــها

٢- فى الرضا:

نار الجحيم مع الرضا هى جنتى   أما الجنان بغير رضاه فلا أرغب



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ
أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾

[طه:١٣٠-١٣٢].

الرسول وثيق الصلة بالله تبارك وتعالى. قريب أشد ما يكون القرب من الله تبارك وتعالى. وهو ﷺ يعلم أن ما متع الله به الناس من غير المؤمنين إنما هو زهرة الحياة الدنيا، وأن لهم فى هذا الرزق فتنة من الله يبتليهم به، وهم لا يشكرون النعمة من المنعم، ولا يحمدون العطاء من المعطى، ولا يدركون قيمة الهبة من الوهاب، والرسول يعلم أيضا أن رزق الله من الخير فى الدنيا للمؤمنين الذين يشكرون النعمة من المنعم ويحمدون العطاء من المعطى ويدركون قيمة الهبة من الوهاب، هو الخير فى الآخرة، خير من كفران النعمة فى الحياة الدنيا وإنكار العطاء الإلهى وهو الكفران والإنكار الذى يؤدى بصاحبه إلى خسران الآخرة بكسب عاجل فى الدنيا هو فى الحقيقة قليل القدر إذا قيس بقدر الخير فى الآخرة، كما أنه قليل فى الزمان الذى يتمتع به الإنسان فى الدنيا إذا قيس بطول الزمان الذى يتمتع فيه الإنسان المؤمن فى الآخرة. فالقرآن هنا يقرر -والله أعلم- ليس تطلع الرسول إلى ما فى أيدى المؤمنين من متاع الدنيا، وإنما إطالة النظر من جانب الرسول فى تدقيق وتحليل وتدبر لأمر هؤلاء غير المؤمنين الذين حجبوا بمتاع الحياة الدنيا عن متاع الحياة الآخرة... وآلهتهم النعم الكثيرة عن رؤية المنعم والتوجه إليه بالحمد والشكر والثناء على عطائه... إنهم الغافلون

بنعـم الدنيا عن رؤيــة نعم الآخرة... نعم الدنيا فتنة لهم يهبطون فى الاســتغراق فيها والاســتزادة منها دون تقيد بالإيمان بالله وذكره المســتمر ورؤية وجه الابتلاء فيها، يهبطون إلى مســتوى من الســلوك يكون فيه الدافع هو الغريــزة الأنانية النفعية التى جبل الإنسان عليها حبا للمال لذاته كغاية، وحبا للثراء والترف والجاه والسلطة لذاتهم كغاية، بحيث لا يستخدمون ذلك كله باعتباره نعمة من الله الذى يهب الخير لمن يشاء فتكون بتلك النظرة الإيمانية وسائل خيرة تستخدم فى سبيل الخير، مع تذكر الله ذكرا مســتمرا والتصــرف من منطلق الإيمان بــه إزاء هذه النعمة الدنيويــة باعتبارها عطاء ربانيا، هو فى الحقيقة أمانة استخلفهم الله فيها وعليها من أجل أن يتخذوا منها وسيلة لنيل رزقه الأعظم والأبقى وهو ابتغاء الدار الآخرة فيما يعطى الله الناس من سعة فى وسائل العيش فى الدنيا. بذلك يكون رزق الدنيا متصلا برزق الآخرة بسبب قيام الصلة بيــن الدنيا والآخرة فى حس المؤمن حيث الله هو صاحـب العطاء فى الدنيا والآخرة. إن الرســول ﷺ يطيل النظر فى التدبر فى هذا الأمر وهــذه المعانى وهو الذاكر دائما أبــدا لخير ربه عليه وعطائــه لهم، ولذلك فبرحمته به يوجهه ربه إلى ألا يذهب نفســه حســرات عليهم لما ينتظرهم من حســاب ثقيل، وقد فتنهم الله بسعة الرزق والخيرات فــى الدنيا وهو هين إلى جانب رزق الله فى الآخــرة لمن اتعظ ولم يفتتن، وإنما خاف اللــه واتقاه فيما آتاه من رزق وخيرات، واســتخدم عطاء الله فــى ظل الصلة الإيمانية بالله، وصلة الذكر الدائم المســتمر له بما يحقق الاستخدام الأمثل لرزق الدنيا بالنسبة للنفس والأقربين والمجتمع ككل.

إن القرآن هنا ـ والله أعلم ـ يقرر هذا التوجيه للرســول ليخفف من أسى الرسول ﷺ على مصير هؤلاء الذين فتنهم الله بزهرة الحياة الدنيا ولم ينسبوا الرزق إلى الله، ولم يعلموا أن الرزق حين ينســب لله فإنه عندئذ يكون خيرًا وأبقى ســواء فى الدنيا أو فــى الآخرة. وهــذا النظر الطويل المتصل بمعنى التدبــر والتأمل هو المقصود فى هذا النــص من الحديث القرآنى الموجه من الرســول، ولذلك وفى اتســاق مع هذا التوجيه يأتى التوجيه الربانى إلى الرسول ﷺ بأن يديم الصلاة والتسبيح والذكر فى كل وقت وحيــن، وليس فقــط فى أوقات الصلاة الخمس، وإنما فــى كل وقت وفى كل نفس من الأنفاس؛ ليدوم مقام قرب الرسول من الله مع هذا الذكر المستمر سواء فى الصلاة أو

فى التسـبيح أو فى الذكر؛ ليظل الرسـول فى مقام قربه من الله، ويرضى بذلك المقام الـذى يكون هـو فيه قريبا من ربه وربه قريب منه وهو كذلـك فى كل أحيانه وأحواله ﷺ. والصـلاة فـى الحقيقة مفتاح هذه الصلـة بين الله ورسـوله؛ ولذلك يؤكد النص عليهـا ويوجهه إلى أن يصطبر على أدائها بالكيفية التى كان يؤديها بها الرسـول ﷺ وأن ينقل هذا الخير إلى أهله فيأمرهم بالصلاة ليكون لهم فى أدائها تحقيق الصلة بين أهلـه وبيـن ربه قربا وتسـبيحا وذكرا، لا يريد الله له أن تشـغله أمور الرزق عن أمور الذكر المستمر بحيث يظل وهو فى سعيه البدنى لطلب الرزق مستمرا فى صلته العليا بالله فى مقام التوكل الكامل حيث لا يشـغله شأن عن شأن، شأن الرزق عن شأن فراغ القلـب للـه والتوكل عليه. فالرزق ابتلاء ينبغى أن يحمل معه الإنسـان خاصية التقوى فيتصرف فيه على أسـاس من هذا الإحسـاس المسـتقر فى الضمير المؤمن بالله الذى يعلم أن الرزق مصدره الله، وهو مقدر بتقدير الله. وأن اقتران التقوى لله بالرزق الذى يهبه الله هو مناط الاسـتخدام الأمثل لرزق الدنيا وخيرها، ذلك الاسـتخدام الذى حين يرتبـط بتقوى الله ومراقبته يولد الرزق الأبقى والخير الأبقى فى الدنيا والآخرة معا. وقد علمنا القرآن فى هذا المجال أن من صفات المتقين الإنفاق مما رزقهم الله، والرزق يتسـع فى الحقيقة ليشـمل جوانب كثيرة فى عمل الخير مثل المال والجاه والسـلطة والصحة والعلم والربح وأدوات الإنتاج والذرية.... إلخ.



١٧

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة الأنبيــــاء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

هذا المقام من الرحمة مقام أعم وأشمل من رحمة الرسول بالمؤمنين ورأفته بهم. فالعالمين لفظ يشمل المؤمنين وغيرهم من أنواع ومراتب المخلوقات كافة. والحق أن هذا الرسول بشخصه رحمة لكل الناس، وبرسالته القرآنية التى جاء بها، رحمة لكل الناس، ولفظ العالمين جاء فى القرآن فى عدة مناسبات مثل كون الله رب العالمين كما فى الفاتحة، وبنو إسرائيل مثلا فضلهم الله على العالمين كما فى سورة البقرة، ومحمد ﷺ رحمة للعالمين كما فى سورة الأنبياء، وهكذا..... ويبدو أن لفظ العالمين يقصد به البشر أجمعين إذا اعتبرنا هذا اللفظ فى القرآن على معنى واحد فى دلالته. بل واللفظ فى بعض الاستعمالات يقصد به البشر المعاصرين لمن فضله الله على العالمين، أى الناس وقت هذا التفضيل وليس كل الناس فى كل العصور، وذلك كما فى تفضيل بنى إسرائيل والسيدة مريم على نساء انعالمين فى ذلك الوقت، فلا يعقل أن يكون بنو إسرائيل قد فضلوا على العالمين بالمعنى الذى يسع البشر وغير البشر من خلق الله تعالى فى هذا الكون العظيم من جن وملائكة، وما قد يوجد من مخلوقات أخرى ذكية. ومحمد ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين على المعنى الشمولى للفظ العالمين -كما فى رب العالمين- لأنه أرسل للناس كافة وللجن أيضا ولأى مخلوق ذكى فى الكون الفسيح. وقد ذهب البعض إلى أن لفظ العالمين هو جمع العالم. والعالم الخلق كله، فيكون المقصود سائر المخلوقات من الملائكة والجن والإنس والوحوش والطيور وغيرها.... والنبى رحمة للإنسانية جمعاء؛ لأنه جاء يخلصها بالمنهج القرآنى من جاهلية الظلمات التى رانت على قلوبهم، وخاصة من أهل الكتاب الذين حرفوا التوراة والإنجيل، مفسدين بذلك عقيدة التوحيد الحقة والعبادة الخالصة التى تستظل بالتوحيد

الخالص الذى لا تشوبه أى شائبة من شرك خفى أو أخفى وبذلك وضح وبين الطريق الحق المؤدى إلى الجنة فى الآخرة والسعادة فى الدنيا فارقا بين هذا الطريق وطريق الباطل المؤدى إلى النار فى الآخرة والضيق فى الدنيا. بالإضافة إلى كونه ﷺ صاحب المقام المحمود يوم القيامة، والذى قيل فيه إنه مقام الشفاعة الكبرى التى أذن الله له بها. ورحمة النبى بالإنسان هى أكبر درجات الرحمة حيث راعى فى الإنسان جانبه الجسدى واحتياجاته، وجانبه العقلى أو الروحى واحتياجاته ولم يطلب من الإنسان أن يكون ماديا صرفا ولا روحيا صرفا، وإنما كائنا وسطا بين المادة والروح، أى بين دواعى الجسد ودواعى الروح، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا. رحم الإنسان باحترام عقله وتفكيره الحر، وبتقدير كرامته وحريته ومساواة كل إنسان بالآخر فى الإنسانية التى ترجع لأصل واحد هو آدم وهو من تراب الأرض. ورحم الأمة عندما طلب منها أن تكون متمسكة بما يجعلها خير أمة أخرجت للناس، وهو أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم الصلاة عبادة لله وحده، وتؤتى الزكاة تكاملا منها مع الضعفاء والفقراء والمحتاجين من الناس باعتبار أن كل الناس متساوون فى الإنسانية وفى الحقوق المشروعة الأصلية اللصيقة بالصفة الإنسانية. ورحم الشعوب فى كل الدنيا حين طلب منها أن تتعارف وتتعاون فى ظل من تقوى الله وبهدف سعادة البشر أجمعين فى إطار من السلام النفسى أولا والسلام العالمى ثانيا. وتعدت رحمة الإنسان إلى الطير والحيوان حين أمر بالرفق بهما حتى فيما أحله الله للإنسان من الاستفادة من الغذاء الحيوانى أو الطيرى. ورحم عوالم الجن بأن بين لها طريق الإسلام المؤدى إلى السلام والسعادة فى الدنيا، وإلى الجنة والثواب فى الآخرة.

والمؤكد أن رحمة الرسول شملت البشر أجمعين وشملت الجن، وكلا النوعين يعيش على الأرض، حتى ولو استطاع فريق من كل من النوعين من اختراق أجواء الفضاء المحيطة بالأرض إلى الكواكب القريبة فى المجموعة الشمسية أو أحد توابعها -كالقمر بالنسبة للأرض- بسلطان من العقل أو الروح. ويكون لفظ العالمين عندئذ شاملا للإنسانية جمعاء وللجن أجمعين. ورحمة الرسول بهذين النوعين من المخلوقات الذكية المدركة هى رحمة فى العقيدة ورحمة فى العبادة ورحمة فى الأخلاق والسلوك

ورحمة فـــى المعاملات الفردية والاجتماعية والعلائق بين الشــعوب والدول... رحمة فى الســلام والحرب على السواء. أما إنه رحمة فى ذاته وشخصه فذلك كائن فى الدنيا بمعانٍ معينة وذلك بالاقتداء، وكائن فى الآخرة فى مقام الشــفاعة العظمى التى يرحم بها حضرته ســائر الناس وســائر الجن. وأما إنه رحمة فى العقيدة فلأنه جاء بعقيدة التوحيــد الخالصة من أنواع وأصناف الشــرك كافة الظاهر منهــا والخفى. جاء يوجه البشــرية إلى حقيقة أساســية فى وجودها. حقيقة تمثل الركيزة الأساسية فى نظرتها إلـــى الكون الذى تحيا فى إحدى مجراته وفى نظرتها إلى الغاية من وجودها هى ذاته وتطــور هذا الوجود فـــى تنظيمات مدنية وحضارية متعاقبة. **وتلك النظرة تســتند إلى فكرتين أساسيتين:**

١- وجود إله.

٢- لا إله إلا هذا الإله.

من هاتين القاعدتين جاءت الرحمة الضرورية المترتبة عليهما بكل ما تشملانه من معانٍ ومقتضيات، هذه الرحمة الضرورية المتمثلة فى التوجه إلى هذا الإله بالخضوع والعبــادة والطاعة، وما يرتبط بذلك من كون هذا التوجه بالخضوع والعبادة والطاعة لهذا الإله وحده فقط دون غيره. وإذا كان التوحيد فى العقيدة هو القاعدة الأساسية فى وجود الفرد والمجتمع على الســواء، فإن النتيجة المترتبة على ذلك هى الاتجاه الكلى: النفســى والشــعورى والفكرى، بالعبادة والخضوع والطاعة لهــذا الإله الواحد وحده دون غيره وذلــك **كان يقتضى أمرا مهما هو انعكاس هاتين القاعدتين فى أمرين بالغىْ الأهمية وهما:**

١- السلوك الأخلاقى.

٢- التنظيم الاجتماعى.

أما الأمر الأول فقد كان الرســول مســتويا على قمته، ويشــهد القــرآن ذاته بهذا المســتوى الرفيع من الأخلاق الذى كان يتمتع به الرســول ﷺ، والذى ترويه لنا كتب الســيرة عنه فى شخصه كفرد وفى أسرته وفى رحاب المؤمنين القريبين من حضرته والفقراء الذين يريدون وجه الله فى دنياهم، ثم بالنسبة للمسلمين كافة، والناس عامة.

حتى الذين كانوا لا يؤمنون بالرسول ودعوته القرآنية كما تجلى الأمر فى وقائع فتح مكة. وقد نزل القرآن ليقرر ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] وفسر الرسول ذلك فيما روى عنه أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفى قوله «أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا» إلى غير ذلك من نصوص القرآن والسنة القولية والعملية التى بنى عليها النظام الأخلاقى القرآنى كله، والذى يشكل أعظم ما يمكن أن تعرفه البشرية من قواعد السلوك الأخلاقى للفرد والأسرة والمجتمع. وقد وصفت السيدة عائشة الرسول ﷺ قائلة: «كان خلقه القرآن» وهذا يكفى فى بيان القدر العظيم من الأخلاق الذى كان يتمتع به هذا الرسول فى ذاته وهو القدوة الحسنة لسائر الناس.

وأما الأمر الثانى، وهو التنظيم الاجتماعى، فقد كفل لأول مرة فى حياة البشرية على الأرض أساسيات كرامة الإنسان وحريته واستعلائه بالإيمان ووضع قواعد العدالة والرحمة والإخاء والمحبة والتعاون المثمر البناء فى الخير، وقواعد المساواة بين الناس وأسس التفاضل بينهم وهى كلها أسس ربانية القيمة والمصدر والمحتوى، تقوم على التقوى، ومعناها سلامة الضمير وسلامة الصدر وخشية الله وقوة الصلة بدين الله ومبادئه وأحكامه وشرائعه.... كما وضع قواعد الأمن والأمان للأفراد المسلمين وغير المسلمين، وقواعد الصلة بين الحكام والمحكومين وإطارها السليم الذى يجب أن يبنى عليه، بما يحققه ذلك من إيجابيات فى الوضع الاجتماعى كله... وهى أمور تفتقدها أعداد هائلة من أفراد البشرية الذين يعيشون فى ظل استعباد النظم الشيوعية ـ يوم كانت ـ كما لم تصل إلى مستواها النظم الرأسمالية الديمقراطية نتيجة طغيان المادة والمال وجماعات الضغط المختلفة المصالح، وإن كانت حققت أشواطا لا بأس بها فى مجال الحرية والتقدم الحضارى لا يمكن إنكارها، ونحتاج نحن المسلمين إلى نظرة تأخذ إيجابيات الحضارات المعاصرة وتترك سلبياتها لتسير فى طريق التقدم والرحمة للإنسان.



١٨

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة الــــحج



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ
إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

[الحج: ٦٧-٦٩].

المنسك -بفتح السين وكسرها- فى اللغة هو الموضع الذى تذبح فيه النسائك أى الذبائح. وروى بعض المفسرين عن ابن عباس أن المنسك هو الشريعة والمنهاج، وقد ذهب إلى ذلك الرازى وهو المعنى الذى نميل إليه نحن، فقد جاء الرسول بمنهاج كامل تضمن -فيما تضمن- تشريعات كثيرة تحكم أمور المؤمنين، وَفْقَ هذا المنهاج فى شئونهم الدينية والدنيوية؛ ليكون القضاء بمقتضاها فى المجتمع الذى يدين بهذا المنهاج ويطبق تشريعاته ضمن بقية الأسس التى يضعها المنهاج ذاته، ويكيف بها أمور الناس فى عقائدهم وعباداتهم وأخلاقياتهم ومعاملاتهم وَفْقَ المؤسسات التى يقيمها. والمناسك التى تطبقها الأمم على اختلاف العصور وتعاقبها فى الزمان منذ المدنيات والحضارات القديمة وحتى المدنيات والحضارات المعاصرة، مناسك متباينة وأحيانا متصارعة حيث تقوم أسسها على شرائع وعقائد وفلسفات تختلف ركائزها الفكرية من أمة إلى أمة كما تطور هى ذاتها فى التطبيق من جيل إلى جيل ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الرسول ﷺ، فإن لأمته منسكا هم ناسكوه؛ أى منهجا هم ناهجوه يتضمن ـ فيما يتضمن - تشريعات تحكم أمورهم الدينية والدنيوية. والمنهاج الذى جاء به الرسول منهاجا كاملا متكاملا يتضمن تشريعات وأحكامًا أوضحها القرآن، وأخرى بينها الرسول تتشعب وتتكاثر وتتعمق مع مدار الزمان وتعاقب الأجيال على النحو الذى تعلمه جميعا من ذلك التراث

الفقهى -- مع العلوم الأخرى- الذى خلفه لنا الأئمة المسلمون الأعلام فى الوقت الذى كان المنهاج معمولا به، والتشريعات القرآنية معمولا بها، فى ظل مجتمع مسئولية قمة السلطة فيه هى الحفاظ على هذا المنهج. وتطبيق تشريعاته فى ظل حركة فكرية نشطة دائمة الترقى والتوسع، وكان الاجتهاد هو أحد أعمدتها الرئيسية التى تتيح مواكبة هذه التشريعات التى يتضمنها المنهج، لاعتبارات تطور الحياة وازدياد مشاكل واحتياجات الناس واستمرار التقدم العلمى والمعرفى باتساع رقعة الدولة الإسلامية.... وما صاحب ذلك من دخول شعوب مختلفة العادات والتقاليد واللغات فى إطار الدولة الإسلامية تُكَوِّنُ جميعا الأمة الإسلامية التى يحكمها القرآن والحركة الفكرية الدائبة والدائمة المتصلة به. فالرسول ﷺ كان هو المسئول الوحيد عن إبلاغ القرآن؛ أى المنهج وما يتضمنه من تشريعات. وكان من الطبيعى أن يتضمن المنهج القرآنى أمورا تختلف عما اعتاده الناس فى عقائدهم وفى معاملاتهم وفى عباداتهم وفى أخلاقياتهم، وكان من الطبيعى، والأمر كذلك، أن يلقى الرسول معارضة تنبع من الخصومة، ينازع فيها خصوم الرسالة، ذلك المنهاج الذى جاء به هذا الرسول الخاتم. وينبه الله رسوله لهذه الحقيقة بأسلوب النفى للنزاع، والذى تقرره هذه الآية على سبيل النفى، بمعنى أنه لا ينبغى منازعة الرسول ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ لأن الذى جاء يبلغه ويدعو إليه هو الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ ومن المنهاج والشريعة التى أوحاها الله بإرادته ومشيئته لتكون هى المنهاج والشريعة التى يتبعها الناس كافة، وهى الحق من عند الحق ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ولكن أصعب شئ على النفس البشرية هو تغيير العقيدة التى يدين بها الفرد. وأصعب شئ على الأمم والشعوب هو تغيير التركيبة التى ينبنى عليها نظام المجتمع لهذه الأمة أو تلك وهذا الشعب أو ذاك. ونحن نستطيع أن ندرك هذا المعنى بما نشهده من اختلاف الأنظمة والتركيبات التى ينبنى عليها نظام المجتمعات سواء فى الإطار العَقَدِى أو السياسى أو الاقتصادى. ونفس الأمر الذى يحدث اليوم فى عصرنا هذا، حدث فى عصر البعثة الأولى حين كان الرسول ﷺ يدعو بالمنهج القرآنى ومن أجل المنهج القرآنى.. ونفس صعوبة قبول التغيير أو إحداثه اليوم هى نفس الصعوبة التى كانت تواجه الرسول فى عصر الرسالة الأولى... وهو الأمر الذى يحدث فى كل عصر، ويكون فى جزء كبير من ملابساته أحداث التاريخ والعلاقات الدولية فى السلم والحرب.

ونحـن نعلم فى عصرنا هذا مدى أهمية وحجـم الجدل الأيديولوجى بين المناهج والشـرائع القائمة، وصعوبة تغلب منهج على آخر رغم الوسـائل الحديثة المسـتعملة فى كسـب الشعوب والأمم إلى هذا المنهج أو ذاك. ومن هنا يقرر القرآن (وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) والفيصـل النهائى فى كل مسـائل الاختـلاف العَقَدِى هو الله سبحانه وتعالى الذى يفصل فيه يوم القيامة حين يكون الحساب من الله وحده، يحكم بيـن مناهج الإيمان ومناهـج الكفر ويفصل فـى الخلافات والاختلافـات القائمة بين المؤمنين وغير المؤمنين؛ لأن الرسـول مأمور بأن يدعـو ويبلغ ويبين عن يقين كامل بـأن الـذى يدعو إليه هو الحق، وليس عليـه إجبار أو إكراه الناس علـى اعتناق مبادئ المنهج وتطبيق الشـريعة التى جاء بها ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾(الغاشـية) ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾(البقرة) ﴿ ...فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ... ﴿٢٩﴾ ﴾(الكهـف) إلى آخر الآيات التى تقرر نفس المعنى. والرسول يعلم هذه الحقيقة ويضع خطا واضحا أو فرقانا بين الحق الذى جاء به وبين غيره من المناهج والشـرائع، سواء فى وقت رسالته ودعوته أو فى العصور التالية ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (الكافرون).

فمناهـج الكفر والشـرك باقية ومناهج الإيمان والتوحيـد باقية، ويصعب جدا أن ينقلب الناس كلهم إلى مؤمنين بل يسـتحيل، مهما كانت أسـاليب الدعوة فى كل عصر ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(يوسف) ولذلك فإن حل الخلاف فى حقيقة الأمر يكون يوم القيامة حين يتسـاوى الناس ويذهب عنهم سـلطانهم ويقفون جميعا عبيدا أمام الله سبحانه وتعالى يحكم بينهم فى ذلك اليوم فيما كانوا فيه يختلفون ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(الحـج) فالآية فيها تثبيت للرسـول ﷺ علـى دعوته، وفيها بيان يتمشـى مع الواقع التاريخى المسـتمر، وفيها تقرير لعودة الأمور كلها إلى الله تبارك وتعالى الحاكم العادل الذى يحكم بعدله بيـن الناس فى يـوم آت لا ريب فيه، ولعل الآية الأخيرة (٧٨) من سـورة الحج تتصل بهـذه المعانـى التى توضحها الآيـة موضع حديثنا هنا، فهـى تقرر ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ

ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (الحج) الآية فيها بيان لنمط السلوك الواجب بالنسبة لهذا المنسك من جانب المؤمنين به، وفيه بيان لمسئولية هؤلاء المؤمنين تجاه هذا المنسك، وفيها بيان ليسر هذا المنسك. وفيها بيان لاتصال هذا المنسك بالأصل الأول للمناسك، منسك إبراهيم، وفيها بيان لاسم وصفة هذا المنسك، وفيها بيان لقدر هذا المنسك والمؤمنين به، تجاه سائر المناسك والمؤمنين بها، وفيها بيان لقدر الرسول ودوره المستمر بالنسبة لتوجيه وتوحيد شمل وكلمة المؤمنين بهذا المنسك، وفيها أخيرا بيان لركيزة هذا المنسك ومركزه الذى يدور عليه وهو الله سبحانه وتعالى.



١٩

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـــورة النـــــور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور٦٢-٦٣].

يبدأ التقرير القرآنى فى هذا المجال الذى نتناوله بالحديث عن المؤمنين الكاملين فــى الإيمان، وقد يوحى ذلك أن النص يتناول هؤلاء المؤمنين فى غير علاقة الرســول ﷺ، ولكــن الحقيقة التى تتأكد فى هذه الآيات التى تتحدث عن المسـلمين هى حقيقة كون الرسول ﷺ هو المحور الذى تدور حوله حقيقة الإيمان الكامل. وإن لشخص هذا الرســول فى أمره الصادر عن إرادته وكذلك فى أمره الصادر فى إطار اتباع رســالته، هما القاعدة الأســاس التى تقاس إليها درجة الإيمان الكامل، ويقاس إليها بالتالى مدى كمــال واكتمال الإيمان لدى المؤمنين الذين لا يكتســبون هــذه الصفة إلا إذا آمنوا بالله ورسوله، واستقر هذا الإيمان فى ضمائرهم وانعكس فى سلوكهم بحيث يكون الإيمان هــو ما حدث به الرســول من أنــه «ما وقر فى القلــب وصدقه العمــل» فتقرير حقيقة الإيمان الكامل التى جاءت بها هذه النصوص القرآنية ترفع أفرادا من البشــر ليتميزوا بحقيقــة الإيمان الكامل، ليصبحوا متميزين على غيرهم من غير المؤمنين إيمانا كاملا. ولكن هذا التميز بالإيمان لهؤلاء الأفراد من البشــر لا ينبع من فراغ، فهو يتصل بمقام الألوهية كما يتصل بالرســول فى شــخصه وفى رسالته. فمن خلال الوصلة التى تقيم

الصلة بين هؤلاء الأفراد من البشر والرسول ﷺ يتحدد الإيمان الكامل الذى استقر فى القلب ويقترن به الإخلاص والصدق فى العمل فى سبيل الله ورسوله فى مرتبة التصديق الجازم الذى لا يقابله شك، وهنا تظهر عظمة هذا الرسول الذى لا يكون إيمان إلا بالإيمان به، ولا يكون إيمان كامل إلا بالصدق معه والتصديق له والإخلاص لشخصه ولرسالته، تعظيما لهذا الرسول. وذلك هو الإيحاء الأساس الذى تطالعنا به هذه الآيات.

ومن منطلق هذا التعظيم للرسول ﷺ يدعو القرآن فى الأساس إلى تعظيم هذا الرسول تعظيما يُستمد من تعظيم الله، ولا يخرج الرسول مع ذلك من حقيقته البشرية بكونه بشرًا كسائر الناس، ولكنها حقيقة مع ذلك أيضا تعلو بما تميز به هذا الرسول من الصفات التى حباه الله بها واصطفاه من خلال تحليه بها ليكون خاتم المرسلين، يبلغ خاتم الرسالات كما نزلت عليه فى القرآن العظيم. ومن هنا؛ أى من هذا التميز بالخصائص والخصوصيات التى حبا الله بها رسوله، فرق القرآن فى هذه الآيات بين الرسول وسائر البشر إظهارا لحقيقة قدره وعظمة شأنه وتميزه بالاصطفاء الربانى فقرر (لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) والمقصود هو عدم مناداة الرسول ﷺ كما ينادى الناس بعضهم بعضا بأسمائهم؛ وذلك حتى يروا فى شخصه تلك المكانة الاصطفائية التى تربط بين الله ورسوله. وحتى يتدبروا حقيقة هذا المقام الاصطفائى من خلال القرآن الذى جاء الرسول ليبلغه للناس كافة. لقد وجه القرآن البشر جميعا لينظروا إلى الرسول من خلال هذا المشهد فأمرهم أن ينادوه بما يوضح لهم هذا القدر العظيم للرسول، ووجههم أن ينادوه (يا رسول الله) و(يا نبى الله) وهى نفس المناداة التى كان ينادى بها الله رسوله حيث لم يناديه الله باسمه أبدا حين استعمل حرف النداء، وإنما كان القول من الله لرسوله دائما (يا أيها الرسول) (يا أيها النبى).

ثم نعود إلى حقيقة ارتباط الإيمان الكامل بما يأمر به هذا الرسول من منطلق إرادته الحرة أو منطلق تبليغ أمر ربه كما جاء فى القرآن. والمناسبة التى نزلت فيها هذه الآيات الخاصة باستئذان الرسول يذهب المفسرون إلى أنها كانت وقت حفر الخندق فى المدينة. فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون فى الانصراف لضرورة.

وكان المنافقون يذهبون بغير اســتئذان، فنزلت هذه الآيات تبين أمر حقيقة المؤمنين الكاملين فى الإيمان (وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ) ثـم إن أمــر هؤلاء المؤمنيــن الكاملين فى الإيمان الذين لا يتركون مجلسه حتى يستأذنوه متروك لإذن الرسول لهم بالانصراف بتقديره لأمــر الحكمــة والمصلحــة العامــة لأمور الديــن وهو ﷺ حيــن يأذن لمن شــاء منهم بالانصــراف يطلب من الله لهم العفو والمغفرة؛ لأن الاســتئذان ولــو لعذر فيه إخلال بالمشــهد الســابق بيانه لمقام الرســول ﷺ فى صفته الاصطفائيــة، وفيه تقديم لأمر الدنيا -ولو كان يسيرا- على أمر الدين الذى يعتبر هذا الرسول رمزه بين الناس كافة. والرسول الذى يطلب لهؤلاء الكُمَّلِ من المؤمنين العفو والمغفرة من الله يجد استجابة مــن الله تبارك وتعالى لدعائــه، فيعفو الله عن هؤلاء الكمل مــن المؤمنين ويغفر لهم تقصيرهم فى المشهد الاصطفائى من الرسول الذى يتمثل، كما قلنا، فى شخصه وفى تطبيــق أمــر ربه، فيعفو الله ويغفر مــن منطلق رحمته وعلمه بالإنســان وضعفه وما تســعه نفســه من الائتمار بأوامر التكليف (وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) ثم يقــرر القرآن فى ختام هذه الآيات أمــرا بالغ الخطورة، يوضحه بكلمات لا يعتريها أى شك بأنه تتصل بالجماعة المؤمنة وأمنها الذى يحدد مستقبلها وبنيانها المتكامل الذى يحــدد أمرها وبالتالى أمر هذا الدين نفســه (قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى فليحــذر الذين يخالفون أمر الرسول، ويتركون سبيله ومنهجه وسنته أن تنزل بهم نتيجة ذلك المحن الشديدة والصعوبات والمشاكل التى تحصل نتيجة مخالفة أمر الرسول وهى قد تأخذ العديد من الأشكال والصور التى تفرق شمل الجماعة المؤمنة، وقد كانت يوم ذاك فى بداية التكوين كجماعة مســتقلة فى عقيدتها يقوم بها مجتمع المؤمنين بالله ورســوله فــى هذه البقعة من أرض الجزيرة العربية. (أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فى الدنيا بمختلف المصاعب والشــدائد والتحديات والمشــاكل. وفــى الآخرة بمجازاة الله لهم بالعذاب نتيجة مخالفة أمر الله ورسوله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾[النور:٦٣].

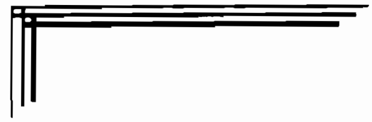
إنه سمو بهذا الرسول ﷺ فوق القدر العادى الذى يتساوى فيه كل الناس حتى المؤمنين منهم الذين يعتبرون الصفوة من الإنسانية فى هذه الأرض. إن الأمر هنا فيه تفريق بين العلائق العامة فى التعامل والتنادى المبنية على اعتبارات كثيرة بين الناس فيما بينهم؛ تفريق بين هذه الاعتبارات فى العلائق بين الأفراد وبعضهم وبينهم جميعا وبين هذا الرسول. العلائق والاعتبارات العادية التى تحكم البشر بشتى المقاييس القائمة بينهم سواء كانت منبثقة من المادة أو الثراء أو الجاه والانتماء الأسرى أو المركز والسلطان... إلخ.. هذه الاعتبارات تقف هنا لينتهى مفعولها كلها... إن العلاقة هنا بين سائر البشر على اختلاف درجاتهم والمكانة وأسبابها التى ذكرنا آنفا وبين هذا الرسول. إنه فرد من الإنسانية ولكن ليس ككل الأفراد. وواحد من أفراد البشر ولكن ليس ككل الآحاد. إنه شخصية متميزة فيها خاصية ربانية.. فيها نور ربانى.. وروحانية ربانية... جعلت هذا الشخص فى قمة البشرية والإنسانية جميعا، يستمدون منها أسس الأخلاق فى الضمير وأسس العقيدة فى القلب والفكر، وأسس السلوك فى الحياة الاجتماعية، بما يجعل هذا الرسول قائدا أو موجها أو معلما أو مرشدا أو هاديا أو مذكرا أو بشيرا أو شاهدا أو داعيا... إلخ صفات التميز للرسول الخاتم. فى خصائص تجمعها كلها حقيقة الرسولية وصفة العبدية بما يجعل من هذه الشخصية «سراجا منيرا» للأرواح والعقول والقلوب والأفئدة. وكان لابد مع فرق المكانة هذا أن تختلف نظرة الناس إلى هذا الرسول وخصائصه ودوره فى التوجيه السماوى

لأهل الأرض والسماء، نظرة تختلف عن نظرتهم إلى بعضهم البعض أيا كانت البواعث والاعتبــارات الكامنــة وراء نظرات الناس إلى بعضهم... فهم ســواء جميعا فى النظرة إلى هذا الرســول ﷺ وهو يعلو بفضائله الرســولية عن أهــل الأرض جميعا.... ويعلو بمنهجــه القرآنى على اعتبــارات أهل الأرض جميعا ببواعثهــا المتعددة، والتى ترتكن إلى قيم الأرض. إنه رســول السماء يقيم الســماء واعتبارات السماء، منظورا من أفقها السامى إلى أهل الأرض لتخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن العبــث إلى الجد. فهو داع إلى قرآن الســماء، قرآن اللــه، وهكذا يجب أن ينظر إليه أهل الأرض فيضعونــه فى المرتبة التى بعث من أجلها، والتى كانت حياته كلها من خلالها وفى ســبيلها هى نظرة من أدنى إلى أعلى، من الذين يســتمدون التوجيه والهداية إلى الذى يمد الناس بهداية السماء وتوجيهات السماء، ومن هنا كان حفظ الله له ولمكانته الضرورية اللازمة لإنجاح رسالته الربانية ذاتها، وكان التوجيه الربانى فى هذا الإطار هــو (لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) وهكذا ســماه الله ســبحانه وتعالى «الرســول» لنفهم من إيحاءات هذا اللفظ ما نفهم ـ كل على قدره ـ من معانى الاصطفــاء والاختيــار لأداء دور مهم فــى الأرض هو دور إبلاغ الرســالة الربانية بما يقتضيه ذلك من خصائص تتوافر فى هذا الرسول تمكنه من أداء دوره الذى أرسل من أجل تحقيقه، وهو إبلاغ فحوى الرسالة، رسالة القرآن العظيم..



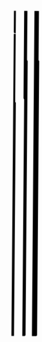
٢٠

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســورة الفرقــان



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان:٧-١٠].

شخصية الرسول ﷺ هي المحور الذي تدور عليه هذه الآيات. فقد كانت هذه الشخصية موضع النقد والتجريح من جانب الكفار، ربما عن اقتناع بما يقولون، وربما عن غير اقتناع، وإنما من منطلق معارضة الرسالة وتجريح شخص مبلغها والداعي إليها حتى ولو كانت قلوبهم قد استيقظت للحق الذي جاء به الرسول، وحتى لو كانت عظمة هذا الرسول وشخصيته المؤثرة قد تغلغلت إلى أعماق نفوسهم، أيا كانت دوافع النقد والتجريح فإن منطق الكفر كان غريبا في حد ذاته لا يرتقي إلى مستوى العمق الفكري الذي كان يتمتع به الرسول من خلال الوحي القرآني الذي نزل عليه، وكان عليه أن يبلغه ويعلمه للناس. ومكر الكفار في ذلك كان مكرا كبيرا. ذلك أن معارضة الرسالة الجديدة تمثلت في معارضة شخص القائم بها بحيث تصوروا أنهم لو نالوا من شخصية الرسول لاستطاعوا بالتالي أن ينالوا من الرسالة ذاتها التي جاء بها هذا الرسول. ولذلك قال الكافرون -ضمن ما عارضوا به الرسول والرسالة- ﴿ ...إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤] فالرسول عندهم كذاب في دعواه أن الذي يبلغهم به هو وحي من عند الله، فهو -عندهم- قد

اختلق هذا القرآن من تلقاء نفسه وساعده فى هذا الاختلاق أفراد من العالمين بالكتب السابقة. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما (فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا) وقال الكافرون -ضمن ما عارضوا به الرسول والرسالة- إن الذى يبلغه من آيات القرآن هى ﴿ ...أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[الفرقان:٥] ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان:٦]. إذن فقد حاول الكافرون تجريح وبلبلة النظرة إلى شخصية الرسول ﷺ فرموه بالكذب فيما يدعيه من الوحى بل وتعدوا ذلك إلى جوهر القرآن ذاته فوصفوه بأنه أساطير الأولين. وادعوا أن بعضا من أهل الكتاب أعان الرسول فى كتابة آيات القرآن، وقالوا أيضا إنه ساحر، وإنه شاعر، وإنه مجنون، ولم يكتفوا بهذه الادعاءات فجاءوا بانتقادات أخرى (وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾) والمنطق الكافر كله مفضوح لأن حجته واهية وهو منطق ينبع كله من العنصر العميق فى نفوس الكفار، وهو رفض هذه الرسالة ابتداء ورفض هذا الرسول لأسباب كثيرة، منها ما يتصل بالرسول ذاته بالنسبة لبيوت قريش. ومنها ما يتصل بالرسالة ذاتها التى جاءت لتغير تغييرا شاملا دعائم المجتمع القبلى الجاهلى الذى كان قائما آنذاك على اعتبارات زلزلها القرآن من أسسها ووضع بدلا منها دعائم جديدة قائمة على التصور الشامل للألوهية والعبودية بما يحتويه من سلوكيات ونظم للمجتمع وأهله ودوافع اندفاعه النشط للبناء فى الأرض، تلك التى وضعها القرآن على أساس فكرته من التوحيد والأخوة والانصياع لأوامر هذا القرآن ونواهيه. والقرآن يوضح هذه الصورة فى الآية ٢١ من نفس سورة الفرقان ﴿ ...لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان وبلغوا غاية الاستكبار. والحقيقة أن الكفار لم يكونوا على نفس المستوى الفكرى الذى يصاحبه هذا التصور الذى قلنا إن القرآن جاء به. وكل ما قدموه أو ساقوه من ادعاءات واعتراضات تتصل بشخص الرسول ﷺ يتضح ويظهر أنها واهية وضعيفة وتفتقر إلى الفحوى العلمى العميق. وتنبع جميعها من تصور ساذج للصورة التى ينبغى أن يكون عليها الرسول الذى يختاره الله ليبلغ

كلامــه، إلى جانب تصور بنفس السـذاجة فيما يتعلق بمضمــون كلام الله الموحى به. فتصورهم الساذج بالنسبة للرسول ﷺ مقترن بضرورة أن يكون هذا الرسول ملكا، أو أن يكون معه على الأقل ملكا يساعده ويأتى بالخوارق التى يبهرون بها. ولكن الرسول أرسـل -فيمن أرسـل إليهم- إلى البشـر ومن ثم كان يتعين أن يكون بشـرا ليخاطب البشـر بنفس منطقهم وليعيش حياة الرسـالة وأحداثها فى هذا الثوب البشـرى الذى على أساســه تقوم وتتم الأحداث فى الأرض، فهى أحداث البشر هم عنصرها الأساسى ولو اتصلت بغير البشر أحيانا، والقرآن ذاته يوضح هذه الحقيقة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[الأنعـام:٩] فهو يـأكل الطعام لأنه بشـر كسـائر البشـر، ويمشـى فى الأسـواق يسـعى إلى الرزق؛ لأنه ليس من شروط اسـتحقاق الاصطفاء أو الاختيار بالرسـالة أن يكون المصطفى أو المختار من الملوك الأغنيـاء أو أصحاب الثروات أو عظماء القوم، وهى أمور تحكمها كلها اعتبارات مادية بحتـه لا صلة لها بالاعتبارات التكوينية العقلية والروحية والأخلاقية والفسـيولوجية التى تسـتلزمها مسـئوليات ذلك الاصطفاء أو الاختيـار ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الزخرف:٣٢]. المال والسـلطان. هذان هما العنصران الأساسـيان لدى البشر فى تقييم الناس فى العادة، ولكن الأمر عند الله لا يسـتقيم مع هذه الاعتبارات، أو هذه الاعتبارات وحدها فقط، لأن الرسـالة تحتاج إلى اسـتعداد عقلى وروحى وجسـدى لا دخـل فيه مطلقا لا للمال ولا للسـلطان ولذلك قال الكافرون: (... أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) لكـن معيار التميز عند الله ليس هـو هذه المعايير، كما قلنـا، وقد كان من السـهل على الله تبـارك وتعالى أن يؤتى رسـوله المختار ما كانوا يقولونــه وأكثر ممـا كانوا يقولون، ولكن اللــه يعلم أن ذلك مـا كان ليغير من موقف هؤلاء الكفار شـيئا؛ لأن الاعتراض الأسـاســى نابع من المصالح والمراكز والاعتقادات التى جاء هذا القرآن ليقضى عليها من القواعد ويقيم على أنقاضها أبنية مختلفة تماما، المال فيها ليس هدفا لذاته وإنما هو وسـيلة لهدف أسـمى هو خير وسـعادة الإنسـان عامة، والجاه والسـلطان ليس فيها هدفا لذاته وإنما هو وسـيلة لهدف أسمى هو خير

ومســاعدة المجتمع الإنســانى عامة، الأمــر الذى بينه الله ســبحانه وتعالى فى القرآن أساس الرســالة التى جاء بها الرسول الخاتم (تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا).

ولكن الترف يتلف الرجال وغالبا ما لا تصلح معه أســرة أو قدوة لحياة الوســط. ولا قدرة على تحمل الأعباء والمســئوليات والمشــقات المقترنة بالجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال. والتصور الذى جاء به هذا الرسول ﷺ هو تصور يربط الدنيا بالآخرة ويربــط الاثنين بالله الواحد الذى لا إله غيره ولا شــريك لــه فى الملك. هذا هو التصور الأساسى الذى جاء به الرسول وعاشه قدوة يحتذى بها فى سلوكه وأخلاقه التى تستمد من هذا التصور، «كان خلقه القرآن» كما حدثتنا الســيدة عائشــة فى الحديث. فالحياة كد ومشــقة وكفاح وجهاد خاصة حياة الدعوات، كلها فى ســبيل الله وفى سبيل خير وسعادة وتقدم ونجاة الإنسان.

وغالبا ما يقترن تكذيب الرســول بتكذيب رســالته ومحتواها الذى يحمل الإنسان بصفة خاصة مســئولية أعمالــه أمام حكم أكبر وأقدر وأعظم منــه ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾[الفرقان:١١] وســنة الله بالنســبة للمصطفين من الناس لهداية البشــر واحدة لا تتغير؛ لأن المضمون واحد والهدف واحد ومســرح الأحداث واحد، والموجودون على هذا المســرح لا يختلفون فى طبيعتهم البشــرية فى كل مــكان وكل زمــان ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾[الفرقــان:٢٠]. فالحقيقة إذا أن هذا المنطق الكافر لا يؤثر على عظمة شــخصية هذا الرســول ولا يؤثر على الخصائص الروحية والأخلاقية والتميزات فى الاســتعدادات المختلفة التى كان يتصف بها هذا الرسول. ومنطق الكفر قــد واجهه القرآن بما يبين مقداره الضعيف الواهى ودوافعه النفســية من الاســتكبار والحقــد والخــوف على زوال المصالح الذاتية. ولذلك يبقى القــرآن وحيا من عند الله. ويبقى الرســول على خلق عظيم. وتبقى أمة المؤمنين خير أمة أخرجت للناس. ويبقى الذكــر محفوظا من منزله، ويبقى نور هذا الرســول ســاطعا دائما أبدا ســراجا منيرا للقلــوب والعقول والنفوس. إن الرســول لم يســأل أحدا من الأغنياء أجرا، ولم يســأل أحدا من الرؤساء منصبا، ولم يسأل أحدا من ذوى الجاه نفوذا؛ لأن الهدف من رسالته وأخلاقه الشــخصية تجعلان ذلك أمرا غير متصور ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الفرقان:٥٧].

لقد جاء هذا الرسول خاتما للرسل، وجاءت رسالته القرآنية ختاما للرسالات ولذلك كانت جامعة شاملة لكل ما يهم البشر من أمور فى الدنيا والآخرة، فى حياتهم الفردية والاجتماعية، عقائد وعبادات وأخلاقًا وتشريعات وأحكامًا للمعاملات والقضاء... جاء القرآن بتصور شامل للحياة والإنسان والكون فى العلاقة بالإله الواحد الأحد، جاء يبنى إنسانا ومجتمعا فاضلين ويضع الإطارات العامة لعلاقات هذا المجتمع بسائر مجتمعات الإنسان فى الأرض فى السلم والحرب على السواء، جاء ليضع أسس الأخوة والمحبة والحرية والكرامة والمساواة للإنسان، جاء ليكون فكرا وسلوكا ومن ثم كان من اللازم أن يعايش الرسول هذه الأمور كلها وأن يبين أسسها وقواعدها فى مجتمع حى ويعيش هو حياته قدوة لهذا المجتمع فى التمسك وتطبيق هذه الأسس والدعائم ليقتدى بها المؤمنون أثناء حياته وبعد موته يستضيئون من هديها على تعاقب أجيالهم عبر الزمان حتى تقوم الساعة، ومن هناك كانت الصفة البشرية عنصرا لازما وضروريا لهذا الرسول وكانت القيمة الأساسية التى تربط الدنيا بالآخرة فى الفكر والسلوك هى من أهم القيم التى تتشعب فى إطار مبدئها بقية الأسس والعناصر للمجتمع المؤمن الذى يتخذ من القرآن منهجا مرشدا. ولذلك فإن هذه الصفة البشرية التى تعجب من أمرها الكفار فى صدر الدعوة هى من أخص خصائص الرسول فى ارتباطه بالدعوة ذاتها، ولذلك نزل القرآن على دفعات وفترات ولم ينزل جملة واحدة -وهو ما طلبه الكفار أيضا- حتى يعايشه الرسول ويعايشه المؤمنون معايشة تتماشى ومواكبة الأحداث الواقعية فى الأرض فيما يتصل بالرسالة ذاتها لينبنى المنهاج كاملا على مهل وتريث يجارى التركيب النفسى للبشر ذاتهم، ويكون التغيير الذى جاء فى القرآن تدريجيا ومدروسا، يغير ما بالنفس البشرية الضالة أولا ثم من خلالها يغير واقع الكفر الذى كان يعارض الرسالة فى عصرها الأول. فالبشرية إذن جانب من الجوانب التى تتمثل فيها عظمة هذا الرسول ﷺ وسمو شخصه الذى حمل الرسالة للبشر فى الأساس. وكانت معرفة جوانب التميز فى هذه الصفة البشرية لازمة لمعرفة قدر الرسول بالضبط كما كانت معرفة التميز فى حقيقة سراجيته المنيرة لازمة لمعرفة قدر الرسول.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان:٣٣].

الجاحدون للحق أصلا، والجاحدون للحق استعلاء واستكبار، لا يدركون طبيعة المنهج القرآنى. لا يدركون أن القرآن جاء بالعقيدة الحقة والعبادة الحقة والأخلاق الفاضلة والنظم التعاملية الحقة؛ ليكون كل ذلك أسس المجتمع المؤمن الذى يتخذ القرآن ومبادئه منهاجا لحياته كلها. القرآن ليس كتابا للرياضة الفكرية النظرية يعيش معه المؤمنون به فى عزلة عن واقع الحياة التى يعيشها الناس فى الأرض. إنه جاء كخاتم الرسالات والمناهج الإلهية ليكون نورا يهدى البشرية جمعاء فى كل أمور حياتها المستقرة فى الأرض، ولذلك فقول غير المؤمنين بأن القرآن كان يجب أن ينزل دفعة واحدة قول فيه تصور عن جهل -أو ربما عن سوء نية- بطبيعة القرآن ككتاب جاء ليصحح المفاهيم وينظم علاقة الإنسان بالله كما ينظم شئون المجتمع الإنسانى فى الأرض وَفْقَ منهاجه ويبنى الإنسان بناءا أخلاقيا جديدا قوامه الإيمان والتقوى والإخاء والمحبة والعمل الصالح فى طريق الخير. وكان من الضرورى إذن أن تواكب آيات القرآن أحداث الأرض فى كل زمان وفى كل مكان أو الرئيسى منها. وهذه ميزته ومعجزته الأساسية الخالدة. إنه كتاب يضع أساسيات القواعد والمبادئ العامة للمجتمع المؤمن فى شئونه كافة وعبادة وأخلاق ونظم تعاملية تنتظم المجتمع المؤمن فى شئونه كافة، ولذلك فهو يخاطب الإنسان فى عقله وضميره: يتيح للاثنين معا فرصة العمل الخلاق البناء فى سبيل سعادة الإنسان فى الأرض فى ظل الركيزة الأساسية التى تقوم على توحيد الألوهية واتباع خاتم الرسل ﷺ وتطبيق شريعة

القرآن واستيعاب روح هذا المنهج وإرشاداته العامة باعتبار هذه الروح هى جوهر الدين الحق الذى يستند إليه بنيانه وتقوم عليه أركانه. ومن هنا كانت مواكبة آيات القرآن لأحداث الأرض وسلوكيات الإنسان فيها بحيث تكون هذه المواكبة هى أساس التغيير الشامل الذى جاء لينفذه الرسول ﷺ وَفْقَ تعاليم القرآن باعتباره منهجًا ربانيا كاملاً متكاملاً نزل من الحق بالحق. ومن هنا كان من الضرورى أن يعيش الرسول أحداث هذا التغيير الشامل فى الواقع الذى جاء ليجرى التغيير فيه وهو واقع الأرض كلها. ولم يكن من الحكمة، والأمر هكذا، أن ينزل القرآن جملة واحدة لأن هذا ضد طبيعته كدستور ينظم حياة البشر، ويتحمل الرسول معه مسئولية التغيير الجذرى الشامل لمعتقدات النَّاس وأخلاقهم وعباداتهم وأساليب معاملاتهم ونظمهم التى يؤسسون عليها مجتمعاتهم. كان من الضرورى أن يواكب الرسول أيضا أحداث التغيير كما ينظمها القرآن ويقررها ليكون التغيير على فترات ممتدة تتسم بسمة التدرج، بحيث يختلط بضمائر وعقول المخاطبين به ليعيشوا أحداث التغيير عن تجربة فعلية واقعية فى المجتمع تتطابق فيها النظرية القرآنية مع التطبيق الفعلى الواقعى لهذه النظرية. من أجل ذلك يقرر القرآن نفسه ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾(الإسراء) والناس يختلفون فى المواقف تجاه هذا القرآن الذى جاء ليغير أسلوب الحياة فى الجاهلية لأسلوب حياة إسلامية قرآنية. واختلاف المواقف يأتى من أسباب كثيرة منها تقليد الآباء، ومنها الخوف على ضياع مواقع السلطة أو ضياع سطوة المال والجاه وتأثيراتهما أو ضياع عنصرية النسب أو الجنس، وبتعبير مرادف الخوف من ضياع المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلى آخره. ولذلك قاوم الكافرون هذه الدعوة منذ نشأتها على ما نعرفه من سيرة هذا الدين وسيرة الرسول الخاتم ﷺ وهما سيرتان متصلتان. هذه المقاومة تتخذ أشكالا وصورا عديدة منها النظرى الفكرى الذى يجادل بغير حق، ويجرح بشتى أنواع التجريح، سواء لكتاب الدعوة أو شخص الرسول أو الذين معه، ومنها المقاومة المادية المستندة إلى القوة التنفيذية بحيث يجتمع العنصران معا فى وقف عجلة التقدم والانتشار التى أراد الله لها أن تنتهى بالفتح والنصر لهذا الدين حتى اكتمل وقام على أركانه مجتمع المدينة الإسلامى الأول ليحدث فى تاريخ الإنسان أول تغيير ثورى فى علاقة الإنسان بالله

وعلاقة الإنسان بنفسه وعلاقة الإنسان بأقاربه وعلاقة الإنسان بمجتمعه وعلاقة المجتمع ككل بمجتمعات وشعوب الأرض كلها؛ تغيير قوامه الإيمان بالله الواحد، والإيمان بكلامه الخاتم وهو القرآن العظيم، والإيمان برسوله الخاتم محمد ابن عبد الله ﷺ. والقرآن يختصر هذه الحقائق عن مواقف الناس تجاه الدين الجديد والكتاب والرسول والمؤمنين، وكذلك أساليب المقاومة لهذا الدين الجديد والكتاب والرسول والمؤمنين به من جانب غير المؤمنين فى هذه الآية موضع حديثنا هنا فيقرر (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ليكون القرآن فى النظرية والتطبيق هو دائما الأعلى ويكون المؤمنون المتمسكون تمسكا كاملا به هم دائما الأعلون: ولذلك أيضا أمر الله رسوله أن ينزع فى سلوكه تجاه هؤلاء غير المؤمنين منزعا خاصا فى شمولية وإحاطة واستمرارية: يوضح هذا جميعا التقريرُ القرآنى التالى فى سورة الفرقان ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان:٥٢] وهو نص عميق المعنى واسع الدلالة شامل الإحاطة كما قلنا. وعلاقة الرسول حينئذ علاقة تتصل بربه تبارك وتعالى الذى اصطفاه وهو الذى يجزيه خير الجزاء، وهو الذى يعطيه خير العطاء فلا يكون للرسول ملجأ إلا الله، ولا احتياج إلا إليه يستغنى بذلك عن الناس كافة –وغير المؤمنين بصفة خاصة- ويكفيه أن يكون الله وكيله بما يعينه على أداء رسالته فى الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ويترفع عن اللجوء إلى عطاء الناس وإغراءاتهم وعروضهم التى تبغى الحد من السير فى سبيل الدعوة حتى تكتمل ثم يحفظها الله بعد ذلك فى القرآن حفظا دائما مستمرا ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾[الفرقان:٥٧] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان:٥٨].

لقد كان الرسول ﷺ أحيانا من فرط حماسه وإيمانه وثقته بنفسه وبالله يميل نحو أن يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه فجاء التوجيه الربانى له ﴿ ... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ... ﴿١١٤﴾ ﴾[طه:١١٤] وذلك بهدف تثبيت قلب الرسول بهذا القرآن فى معارفه النظرية ونظمه التطبيقية (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) ليخرج به إلى الناس وهو المثل الأعلى لما يدعو إليه يقيم دعائمه فى نفسه أولا ويكون بذلك قدوة حسنة لتابعيه. وهذا الجهاد يكون من منطلق ما

يقرره القرآن من حقيقة بالنسبة للرسول ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩]. وقد أمر الله رسوله أن يباهى الكفار بالقرآن لأنه كلام الله الذى نزل بالحق من الحق ليسعد الناس فى الدنيا والآخرة. ولا يزال الأمر مستمرا فى حكمه متعلقا بكل المؤمنين على اختلاف العصور وتعاقب الأجيال. والله يكشف للمؤمنين جوانب من طبائع النفوس البشرية التى جبلت على إنكار الحق اتباعا للهوى والغرض والمآرب والمصلحة وخضوعا لظروف مادية بحتة أو عقائد فاسدة..... إلخ. هذه النصوص يخاطب الله فيها رسوله موضحا جوانب من طبائعها التى تدفعها إلى مواقف المجابهة للدعوة القرآنية بشتى الصور التى تختلف من عصر إلى عصر وإن كان هدفها واحدا على مر العصور وذلك كما توضحه الآيات التالية من سورة النمل ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل:٨١]. كما تزيد الآيات التالية من سورة القصص الأمر وضوحا حين تقرر ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] وتكون النتيجة ﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠].



٢١

في معية الرسول ﷺ



في

سورة الشعراء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

بعد أن قال الكافرون إن هذا القرآن تنزلت به الشياطين. وبعد أن نفى الله سبحانه وتعالى هذا الادعاء لأسباب طبيعية ترجع إلى قدرات الشياطين ذاتها، وإلى صفات الناس من البشر الذين تتصل بهم الشياطين. فأولا الشياطين من الجن لا يستطيعون بحكم قدراتهم وطبيعتهم الخلقية أن يأتوا بمثل هذا القرآن. ثم إن طبيعتهم ذاتها يستحيل معها أن يكون لهم اتصال وتعامل مع الأتقياء المؤمنين وإنما معاملاتهم واتصالاتهم مع الآثمين العاصين الذين لهم طبيعة نفسية معينة فيها السوء والحقد والحسد والرغبة فى الإضرار. هذه النفسية لم تكن نفسية هذا الرسول، كما أن هذا القرآن فوق قدرات الجن والإنس معا، هذا ما يقرره القرآن فى آخر سورة الشعراء حيث يقول ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٣] ثم يأمر القرآن رسول الله ﷺ أن يتوكل على العزيز الرحيم؛ الله ذو العزة جميعا وذو الرحمة جميعا. فأنت بتوكلك على العزيز تستمد منه العزة والاستعلاء والاستقرار والاطمئنان والطمأنينة، وبتوكلك على الرحيم تستمد منه طيبة القلب والتواضع والرحمة بالذين آمنوا بك والتفوا حولك ﴿ ...وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الحجر:٨٨] وهى حقيقة كان يتمتع بها الرسول ﷺ ويتبعها فى الوقت نفسه؛ أى هو أمر وضعه أو حالته أو خلقه أو سلوكه وقد تنزل إليه الوحى القرآنى بأن يترك كل هذه الافتراءات وراء ظهره لا يلتفت إليها ولا يلقى لها بالا؛ لأنه على صلة برب العالمين تتلاشى معها تأثيرات هذه الادعاءات الباطلة فى ذاتها، والتى كان يعلم الرسول نفسه بطلانها. ويتنزل القرآن الكريم على الرسول

يحثه على إدامة استقامة الصلة بينه وبين ربه (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ) وهى صلة ذات طبيعة خاصة غير عادية. فهى صلة حية بكل معانى الكلمة، كلمة حية ذات تأثير عميق فى نفس الرسول وفى تكوينه النفسى والعقلى والروحى الذى كان مرتبطا بربه ارتباطا غير عادى نتيجة اختياره للرسالة، والتأهيل اللازم المرتبط بهذا الاختيار. صلة حية من جانب الرسول نحو ربه. وصلة حية من جانب الله سبحانه وتعالى نحو رسوله، تبث اليقين الحق فى فؤاد الرسول وتجعله ربانيا فى كل أنفاسه؛ فى صلاته ونسكه ومحياه ومماته، فى الشعور والوجدان والنفس والعقل والروح. لا يغفل لحظة من لحظات حياته عن ربه. هذا النموذج الفريد من الصلة بين الرسول وبين ربه من جانب، وبين الله وبين رسوله من جانب آخر يصورها التقرير القرآنى (ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾) صلة فيها الرؤيا من الله لرسوله وهى أعلى مراتب الصلة والاتصال بما ينتج عنها من طمأنينة القلب، وبها سَمْع من الله لما يتحدث به هذا الرسول من كلمات التعبد والذكر لله سبحانه وتعالى. وفيها علم من الله بسر هذا الرسول وعلنه، بحديثه النفسى وحديثه الفعلى، بما ينطبق به جهرا وبما يتحدث به سرا. إنها صلة حية كما قلنا لا يمكن التعبير عنها بأكثر من ذلك، والنص فيه الدلالة الكافية.

المركز الفريد العالى من الصلة بين الله وبين رسوله والناجمة عن محبة الله لرسوله ومحبة الرسول لربه إلى الدرجة التى ينظر بها الله سبحانه وتعالى إلى هذا الرسول عندما يتوجه بكليته إلى الله سبحانه وتعالى حين يقوم وحين يتقلب فى الساجدين. وهذا النظر لهذا الرسول بالذات فيه مزيد من الدلالة على المقام والرفعة التى يحظى بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند ربه.



٢٢

في معية الرسول ﷺ

في

ســـــورة القـــصص



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[القصص:٨٦-٨٨].

هنا الرسول ﷺ هو الفيصل بين طريقين. طريق الله وطريق غير الله. طريق الإيمان بالله ورسوله وطريق عدم الإيمان بالله ورسوله. والطريقان مختلفان تماما ولا تلاقى بينهما؛ ذلك أنه ليس مع الكفر إلا الضلال وليس مع الإيمان إلا الهدى. ويوضح القرآن هنا هذين الطريقين فى الآية التى تسبق هذه الآيات ﴿ ...قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾[القصص:٨٥]. طريق الهدى يرتبط بالرسول الذى جاء يبلغ هذا الهدى، وطريق الضلال الذى يسلكه الكفار. ويقرر القرآن صراحة ألا مداهنة بين الهدى والضلال، ولا مسايرة بين الهدى والضلال، ولا تعاون بين الهدى والضلال. فالمؤمنون المهتدون لهم طريق واتجاه، والكافرون الضالون لهم طريق واتجاه، والاثنان لا يلتقيان (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) لأن دعوة الرسول تنصب على طريق الله (وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ) طريق التوحيد والاتجاه الكلى بتركيز الوجهة نحو الإله الواحد تمسكا بهديه ومنهجه والخضوع له وحده بالعبادة افتقارا إليه واستمدادا منه وتوكلا عليه، وهو ركن قوى يستند إليه المؤمنون، وهو ركيزة قوة طريق الهدى. ذلك أن كل شئ فى هذا الوجود يفتقر إلى الاستمداد من الله تبارك وتعالى الذى خلق كل شئ فقدره تقديرا. ولما كان كل شئ يفتقر إلى الله سبحانه وتعالى فإن القرآن يقرر الحقيقة الخالدة ذات الدور الكبير المؤثر (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ).

وهـو الذى يحكم بين الخلائق بقضائه وقدره فى الدنيا، وهو الذى يعود إليه أمر الخلائق فى الآخرة فيحاسب الأفراد على مسالكهم وطرقهم فى الدنيا، وهى الطرق التى تختلف بين الهدى والضلال. ويقرر القرآن هنا فى أسلوب توجيهه الحديث إلى الرسول ﷺ بينما المراد بيان طريق السلوك فى الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ...﴾ أى لا ينبغى للمؤمنين بالرسول والإله الواحد الذين يسيرون على طريق الهدى والحق أن يميلوا مطلقا لأى قدر ولو ضئيل إلى جانب الطريق الآخر؛ طريق الضلال والباطل مهما كانت أساليب الأعداء العلنية والخفية، الصريحة والملتوية، الفكرية الجدلية أو الدعائية، بل الواجب على أصحاب الطريق الأول -طريق الهدى والحق- هو التمسك بدستور هذا الطريق، الفرقان النورى بين الطرفين والنهجين بما يتضمنان من أسلوب حياة واتجاه سير ودافع توجيه، وهى تلك الآيات المباركات التى جمعها الكتاب الأخير، القرآن العظيم الذى هو أساس طريق الهدى وأساس الحرب على طريق الضلال.

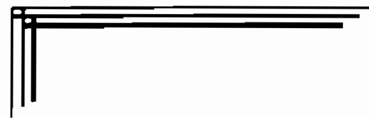
نحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يعلم يقينا أن الذى أنزل إليه من ربه هو الحق، وكان يعلم أن الاستمساك بهذا الحق فى منهجه القرآنى هو مهمته الأولى باعتباره القدوة للمؤمنين السائرين على نفس الطريق. ومن هنا كان شخص الرسول هو الموجه إليه الخطاب البيانى فى هذه الآيات موضع حديثنا هذا، والقصد به أولئك المؤمنون بالله وبالرسول وبالمنهج القرآنى الذى أنزل فى صورة آيات بينات. وما كان النبى يطمع أن ينال النبوة ولا كان يعلم أن الله قد اختاره أن يلقى إليه الكتاب، ولكن الله رحم النبى بهذا الاصطفاء، ورحم الناس كافة بهذا الاصطفاء الذى كان محتواه هو إنزال هذه الآيات من الكتاب وهى الآيات التى تفرق بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الإيمان والكفر وبين التوحيد والشرك وبين أوضاع الجاهلية وأوضاع الإسلام. ومن ثم يقرر القرآن بوضوح، لا تلابسه أى شبهة، أن المؤمنين لا يجب ولا ينبغى عليهم أن يفرطوا فى هذا المنهاج القرآنى بكل ما جاء فيه ودعا إليه من أجل إرضاء الكافرين لأى سبب من الأسباب، بل يجب مخالفة الكفار ومنابذتهم والوقوف أمام طرقهم الضالة بكل قوة، وأن عليهم التمسك الكامل بهذا الكتاب الفرقان بين الإيمان والكفر، ووجه الخطاب فى هذه الحالة -كما فى الآيات كلها موضع حديثنا هذا- إلى

الرسول ﷺ والمراد به أمته والمؤمنون (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ) أى لا تكن عونا لهم على دينهم بأى وجه من الوجوه، ولا تمد يدك إليهم بالمساعدة بأى وجه من الوجوه، وكن على حذر منهم وكن متنبها ومستيقظا وفطنا إلى شراكهم التى ينصبونها للنيل من دينك والنيل من الكتاب الذى أنزل إليك، سواء بالطعن فى حجية هذا الكتاب أو بالطعن فى مصدره أو بالطعن فى محتواه أو بالطعن فيك أنت بشخصك أيها الرسول. والرسول بشخصه ليس مقصودًا بهذه التوجيهات كما قلنا، وذلك مما نستشفه من الآية ٨٥ من هذه السورة –سورة القصص- التى تقرر فيصل الأمر فى التفرقة بين الحق الذى جاء به هذا الرسول ويدعو إليه وبين الضلال المتمثل فى غير هذا الطريق الإلهى الذى يدعو إليه الرسول، والله يعلم ذلك عن الرسول وعن دعوته ﴿ ...قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص:٨٥]. فالآيات فى محتواها درس للمؤمنين بالله ورسوله وإن كان الرسول هو المحور الذى يدور عليه هذا الدرس باعتباره المسئول الأول عن إرشاد المؤمنين ومؤازرتهم فى التمسك بالرسالة التى جاء بها مع تحذيرهم من طريق الكفر ومنهج الكفر. وقبل هذه الآيات مباشرة كان إخبار الله لرسوله بأنه مُرجعه إلى مكة بعد أن تركها الرسول مهاجرا ـ وعدًا من الله إلى رسوله بالنصرة والعودة إلى مكة فاتحا، والآية تقرر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ...﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص:٨٥] أى أن الذى أنزل عليك القرآن وفرض عليك العمل به والدعوة إليه لرادك إلى مكة؛ بلدك الذى نشأت فيه ويتعلق بموطنه قلبك، بعد أن أخرجك منها بسبب دسائس وكيد الكافرين الذين تآمروا عليك للتخلص من شخصك، وبالتالى من دعوتك التى كانت تهدد بنيان الكفر بكل دعائمه ومقوماته فى مكة. ومحور سورة القصص يدور أساسًا حول فكرة الحق والباطل، وتصوير أسس الصراع بين أنصار هذا وذاك، وساقت فى معرض بيان هذا المعنى قصة فرعون الطاغية وتجبره على بنى إسرائيل وتعاليه بادعائه الربوبية، كما ساقت قصة قارون –البليونير اليهودى المستغل- مع قومه بما فيها من منطق الاستعلاء على الناس والاستغلال لهم بالمال والثروة، ثم انتهت السورة بذكر موقف الرسول الخاتم والمؤمنين به، بين طريق الحق وطريق الباطل ضمن المحور العريض الذى تدعو إليه على النحو الذى بيناه فيما سبق.



٢٣

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســورة الأحــزاب



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب:١-٣].

ذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب المراد به أمة محمد ﷺ. إذ ليس فى البشر جميعا أتقى منه لربه. والحق أن فهمنا هنا هو أن الخطاب موجه إلى النبى ﷺ. وهو المقصود به فى شخصه. وليس فى ذلك أى مساس بالمستوى الإيمانى للرسول كما أن ليس فيه أى تأنيب أو توجيه إلى التقوى بفرض أن النبى قد حاد عنها... كلا... وإنما هو خطاب الله عز وجل إلى حبيبه ومصطفاه بتأكيد المستوى الذى عليه النبى فى التقوى، وتثبيت لحضرته فى هذا المستوى العالى الخاص الذى ينفرد به هذا النبى. كما أن فيه تأكيدًا للنبى فى أن يداوم على حقيقة اتجاهه إلى الله وحده بالطاعة لأنه العلى الحكيم. وفيه تأكيد للحقيقة القائمة فعلا من اتباع النبى لآيات وتعاليم القرآن الكريم. وفى النهاية فيه هذه الترضية التى نراها بصفة عامة فى الآيات القرآنية التى تتناول العلاقة بين الله ورسوله فى مستواها من القمة الفريدة فى مقدارها... فيه الاطمئنان بعد الطمأنة... وفيه الإرضاء بعد الترضية.

الله جل علاه يخاطب مختاره النبى ﷺ ويدعوه إلى أن يستمر على ما هو عليه من تقوى لله وحده. يا أيها النبى استمر على ما أنت عليه من تقوى لله فهذا مقامك الفريد وأنت مختار الإنسانية وأتقى أتقيائها. يا أيها النبى استمر فى توجيهك بالطاعة لله وحده دون غيره من البشر وخاصة الكافرين والمنافقين، فإن الله الذى أنت متقٍ له على هذا المستوى الفريد هو العلى المستحق وحده للتقوى، وهو الحكيم الذى تقتضى حكمته أن تستمر على هذا المستوى من التقوى لجنابه والطاعة لحضرته.

يـا أيها النبى اسـتمر فيما أنـت فيه من اتباع مـا يوحى إليك من آيات القـرآن الكريم. والله سـبحانه وتعالى يعلم أنك متبع ومستمسك بهذا الاتباع؛ لأنه يعلم سرك وجهرك وطبيعة سلوكك، وكلهم على منهج الله القرآنى. والله عليم خبير بذلك منك... فلا تلقى بـالا إلى ما يقوله الكافرون ومـا يقوله المنافقون. وما يعملـه ويدبره أولئك وهؤلاء. وتـوكل علـى الله الذى أنت متـوكل بالفعل عليه وكفى بالله وكيـلا. وأنت تعلم أن من ينصـره الله فلا غالب له، وتعلم أن اللـه يحفظك ويعصمك من الناس فكفى به -وأنت متوكل عليه وحده- كفى به وكيلا.

والحق أن هذه الآيات توضح بما لا يدع مجالا للشـك ذلك المسـتوى الفريد الذى كان يمثلـه النبى فى صلته الباطنة والظاهرة بربه سـبحانه وتعالى. تؤكد هذه الصلة ومـا يقتـرن بها من علاقة خاصـة بين الله والنبـى ﷺ حتى إن الخطـاب جاء بصفة النبـوة ابتداء، وجاء فى النهاية ليطمئن النبى بكفاية المقام الإلهى باعتباره السـند له والأنيـس فى كل الأوقات (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا) ونسـتطيع أن نتصور الراحة النفسـية التى كان يستشـعرها النبى وقد نزلت عليه هذه الآيات من كلام الله تعالى تثبت فؤاده علـى ما هو عليه من تقوى لله وطاعة له وحده وإيمان واتباع لكلام الله الخاتم القديم الـذى ينتهى فى هذا المقام بإبراز حقيقة الرباط الذى يحكم الصلة الدائمة المسـتمرة بين الله ورسـوله، ويركز عليها، صلة توكل الرسـول على ربه وحده دون شـريك ولا ند ولا نظير. أى راحة نفسـية يمكن أن نتصورها فى هذا التعبير العظيم الذى يوجهه الله لرسـوله المختـار (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا). إنه النفحة الربانية لرسـوله فيها التثبيت والتقويـة والمطامنة وفيها الكفاية. وبعدها جاءت الآية التالية ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾[الأحزاب:٦] فهو تكريم لهذا الرسـول إلى مرتبة لا تدانيها أى مرتبة؛ لأنه ليس أحب إلى الإنسـان من نفسـه وليس أغلى على الإنسان من نفسـه، كما لا يحب الإنسان خيرا لأحد كما يحبه لنفسه. ولكن القرآن يقرر كلمات الله التى ترفع هذا الرسول فوق مرتبة النفس من كل إنسان، ترفعه فوق النفس من صاحبها فى كل شـئ، فى الحـب وفى الخير وفى الاقتداء. وهو قمـة الإيثار وقمة المحبة وقمة الإيمان فى العلاقة بين الرسول والمؤمنين الذين التفوا حوله وآثروه على أنفسهم فى كل شىء حتى نزل كلام الله بميزان الحق يضع القاعدة الخالدة المستمرة فى كل زمان

ومكان، والتى تقرر أن هذا الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وعلى أساس من هـذه القاعدة وبميزانها يقيس ويزن الناس أحوالهم من الإيمان بهذا الرسـول والحب له والفداء فى سـبيله والالتزام بمنهجه القرآنـى الربانى مهما كانت الظروف فى هذه الدنيـا، والاقتـداء بحضرته والاهتداء بهديه. ليس ذلك فقط بل إن أزواج هذا الرسـول لسن كسائر النساء، بل فضلن باختيار الرسول لهن زوجات لحضرته، فُضِّلن على نساء العالمين، فهن أمهات المؤمنين، تكريما لهن نابعا من صلتهن بالرسول الذى يعود إليه التكريم فى حقيقة الأمر.

ثم مرة أخرى فى نفس السـورة وبعد هذا التكريم للرسول، يتنزل كلام الله مبينا مقام هذا الرسـول وحقيقة اتجاهات ونزعات النفس الإنسانية المؤمنة بصفة خاصة، تلـك التى ترجو وجه اللـه واليوم الآخر وتذكر الله ذكرا كثيرا ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحـزاب: ٢١]. فالله يعلم اتجاهات البشـر، وكل واحد من البشـر له اتجاهه فى هذه الحياة الدنيا ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ...﴿١٤٨﴾ ﴾[البقـرة: ١٤٨] فأمـا الصفوة الذين كانـت اتجاهاتهم فى هذه الحياة الدنيـا خالصة فى رجائها وطلبها لله واليوم الآخر، وكانت بذلك على ذكر دائم ومسـتمر وكثير لله سـبحانه وتعالى وليوم الحساب.... أما هذه الصفوة التى اختارت هـذا الاتجاه فى هـذه الحياة الدنيا فإن نبراسـها وسـراجها المنير هو ذلك الرسـول المختار. فهو الصلة التى تدعم هذا الاتجاه وتزكيه وتقويه وتعززه وتؤازره وتصححه كلما هبط قليلا فى قوته المندفعة نحو الله. الرسول المختار هو الأسوة الحسنة لأولئك الذيـن اختاروا هذا التوجه بالكلية فى الدنيا، ووسـط زخارفها ومباهجها وإغراءاتها، اختاروا التوجه بالكلية إلى الحقيقة الخالدة الأزلية الأبدية؛ حقيقة الألوهية وما يتصل بوجودها من وجود يوم للحساب هو يوم القيامة أو اليوم الآخر. إن هذا الرسول قدوة لهـذه القلوب، وسـراج منير لهذه الأرواح، ونور لهذه العقـول، التى اختارت الله على كل ما سواه وعاشت فى الحياة الدنيا وَفْقَ هذا الاختيار لله وحده بما يستتبعه ذلك من تبعات وسلوكيات ومشاق وكفاح...

والأسوة هنا عميقة المعنى شاملة فى مدلولها، وهى تمثل علاقة خاصة لطائفة من البشـر مخصوصة، تلك هى التى اختارت -كما قلنا- طريق الإيمان وكان الله ورسوله

أحب إليها من كل شــئ حتى حبها لنفســها. أما أنها عميقة المعنى فلأنها أســوة حسنة فيها الخير كل الخير، وفيها الحق كل الحق، وفيها التقدم كل التقدم، وفيها الارتقاء كل الارتقاء، وفيها الرفعة كل الرفعة، وفيها السعادة كل السعادة، وفيها الاستقرار الفردى والجماعى كل الاستقرار. وأما أنها شاملة فى مدلولها فلأنها تشمل التأسى به صلوات الله وســلامه عليه فى العقيدة وفى العبــادة وفى الأخلاق وفى المعاملات الاجتماعية. فيهــا تأسٍ بحضرتــه واهتداء بنوره وبالنور الذى أنزله اللــه عليه قرآنا عربيا غير ذى عوج يهدى به الله من يشــاء وهم المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والذين منهــم من قضى نحبــه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. هم يرثون الحق القرآنى فى كل عصر من العصور ويحفظ الله بهم الذكر المنزل. هم صفوة الإنســانية الذين بلغوا مرتبة الإيمان الحق الذى مقتضاه تحكيم رســول الله فيما شجر بينهم من أمور دينهم ودنياهم؛ يســلمون بما يقضى به الرســول من حكم فى هذه الأمور الدينية والدنيوية، دون أن يترك حكمه الذى قضى به أى حرج فى أنفســهم بل ويسلموا تسليما. فقد جاء فى ســورة الأحــزاب ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٥].



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٦].

ذكرنا في غير هذا الموضع أن حب الله الصادق يظهر في حقيقته في اتباع محمد رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ..﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران:٣١] وعلمنا من هذا النص أن الرسول هو الباب الذى يدخل منه المؤمن على ربه، وهو الفرد المختار الذى يقاس إليه صدق دعوى حب الله تبارك وتعالى. وبذلك يقرن القرآن بين هذا الشعور الفياض لدى المؤمنين وهو شعور الحب لله تبارك وتعالى -وهو أرقى أنواع الحب- بشخص الرسول وهديه القرآنى؛ لأن اتباع الرسول يعنى اتباع المنهج القرآنى، ويقترن من خلال موحيات هذا النص فى حب الله من جانب المؤمنين يقترن حب الله بحب الرسول، الأمر الذى يزيده وضوحا النص الذى سقناه فى هذا الموضع من حديثنا عن معية الرسول وهو النص الذى تتضمنه الآية السادسة من سورة الأحزاب. يوضح القرآن -بما لا يداخله أى شك- طبيعة النظرة التى ينظر بها المؤمنون إلى الرسول ﷺ، وهى نظرة تنبع من الشعور الكامن فى باطن النفس، والذى يعكس بدوره اتجاه الفكر وأحاسيس الوجدان النابعين من صدق الإيمان بالله وعمق المحبة لرسول الله. وهى نظرة يقرر بشأنها القرآن ذلك الذى يسوقه هذا النص من آيات سورة الأحزاب، يرفع فيه رب العزة تبارك وتعالى رسوله إلى مقام معين محدد يتقرر فيه أن الرسول -أو النبى كما فى النص- أولى

بالمؤمنين من أنفسهم.. والله يعلم أن حب الإنسان لنفسه يعلو على كل اعتبار تقديرى عن الإنســان بالقياس إلى الغير.. وربما لا يفوق حب الإنســان لنفســه إلا حبه لوالديه وأولاده، ولكنه أيضا حب نابع من ومتصل بحب الإنســان لنفسه؛ لأن الأبوين والذرية من أسباب وجوده ومن نتائج وجود النفس الإنسانية ذاتها. ومن هذا فإن النص يتسع فى معناه ليشمل الوالدين والذرية للإنسان.. ويكون الرسول بذلك أولى بالمؤمنين من أنفسهم ومن آبائهم ومن ذرياتهم...

وبذلك يتقرر أمران:

الأول: أن المؤمن لا يبلغ درجة الإيمان الكامل إلا إذا كان الرســول بالنســبة إليه أولى وأحب عنده من نفسه ذاتها ومن والديه وأولاده والناس أجمعين.

الثانى: أن القرآن يضع الرســول ﷺ فى مقام فريــد ويربط نظرة المؤمنين إليه بهذا المقــام الذى يجعل نفس المؤمن فداء لهذا الرســول. ويحدد بذلك شــأن هذا الرسول العظيم داخل إطار المؤمنين بالله ورسوله.

وبالأمــر الأول يريــد اللــه أن يطهر قلــوب المؤمنيــن؛ أى اتجاهاتهــم الفكرية أو الروحية من أى حجاب دنيوى يقف حائلا دون إســلام الوجه الكلى لله رب العالمين. فهــذا الإخلاص الكامل فى الاتجاه إلــى الله بالكلية فى صدق نابع من عمق الإيمان هو المســتوى الذى يريده الله من المؤمنين الذين أخلصوا وجودهم كله لله وأخلصهم الله فى وجودهم كله لذاته. ولهذا حكمة؛ فإن هــذه الدعــوة القــرآنية لا يتحمــل تبعاتهــا ولا يكون على مستواها إلا رجال تبلغ نفوسهم مستوى من الإيمان هذا مقداره. والإيمان الكامــل ليســت كلمة تقال وإنما هو ما وقر فى القلب وصدقــه العمل. وللإيمان تبعاته ومســئولياته، كما أنه له جزاؤه وثوابه. ونصر هذه الدعوة القرآنية لا يكون إلا برجال من المؤمنين هذا مستوى إيمانهم، وهذه نظرتهم التى تعكس مشاعرهم الباطنة تجاه الرسول الذى بعثه الله ليبلغ هذه الدعوة. هكذا فى زمان الرسول فى حياته وبعد زمان الرسول عقب وفاته. صحيح أن النصر من عند الله، هذا ما لا شك فيه، ولكن نصر الله بالنســبة لأحداث الكون المتصلة بهذا الدين له متعلقات ســببته فى التاريخ الإنســانى بصفة عامة، وتتصل بالأسباب المباشرة المحيطة بهذا الدين، تلك الأسباب التى قوامها

فى الأساس الإنسان المؤمن الذى ينصر الله وينصر رسوله وينصر رسالة الله التى دعا إليها رسوله ﴿ ...هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ...﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال:٦٣] ونصر الله يتنزل على الرجال المؤمنين الذين يتجهون بالكلية فى صدق وإخلاص لنصر الله، أى نصر دينه؛ ورسوله الذى جاء مرسلا من عند الله ليبلغ هذا الدين. ﴿ ...إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾[محمد:٧].

(ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ) إذن فيها تصفية النفس المؤمنة من أى حجاب قد يحجبها عن أن تهب حياتها بالكلية لله ورسوله، لترتقى النفس المؤمنة إلى مرتبة الإخلاص الكامل لله، فتكون من المخلِصين لله كما تكون من المخلَصين من الله. وهذه المرتبة من الحياة النفسية والفكرية فى الصلة بالله بيانُ صدقِها وواقعُ تميزِها هو الرسولُ نفسه، لأنه مصطفى من الله برسالته الخاتمة وفى شخصه يكون امتحان صدق النيات وإخلاصها فى الإيمان بالله وفى حب الله. وقد روى عن رسول الله ﷺ فى الحديث المنسوب إليه أنه حدث به قوله ﷺ ما معناه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه» وهو حديث يتفق فى معناه مع التقرير القرآنى الذى نتناوله هنا من حيث كون الإيمان الصادق المخلص مرتبطا بالضرورة بحب الرسول وتفضيله على المال والولد والنفس. وقد كان القرآن واضحا تمام الوضوح أيضا فى تأكيد هذا المعنى فى آيات أخرى غير هذه الآية حين قرر ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾[التوبة: ٢٤].

والنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم تتسع لتشمل ـ إلى جانب شخص الرسول ـ ما جاء به الرسول من أحكام الدين، وما يقضى به الرسول فى شئون الدين والدنيا معا. وإذن فلا يحب الرسول هذا القدر من الحب إلا مؤمن كمل إيمانه، وصدق الله ما عاهده عليه، ووهب حياته كلها لله ورسوله تمسكا بأهداب هذا الدين وطاعة -بقدر الوسعة- لأحكام منهاجه القرآنى. والرسول، كما قلنا، هو المحك فى بيان هذا الأمر وهو الباب الذى يدخل منه المؤمنون على ربهم إيمانا وتصديقا وحبا واتباعا. وهذا يوضح مقام

رسـول الله عند ربه ذلك المقام الذى أراد الله أن يكون مشـهودا أيضا فى واقع الحياة فى الأرض فى الصلة بالبشر فيها واتجاهاتهم المتعددة حين جعل من شرائط الإيمان الحقيقى الكامل الصادق المخلص هو أن يكون (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسـهم..) وتأكيدا لهذا المعنى وترسـيخا لبيان عظمة قدر هذا الرسـول فى شخصه وفى حرمة أهـل بيتـه؛ وهى حرمة لا تنفصل عن شـخص الرسـول بـل تتصل بها أوثـق الصلة، جعل من زوجات الرسـول أمهات المؤمنين، يسـتحققنَ كل ما تسـتحقه الأم بالنسبة للإنسـان من مشاعر وواجبات بالإضافة إلى التعظيم والاحترام الذى كان من مقتضاه حقوق حرمة الرسـول فى أزواجه، وحقوق مشـاعره وكرامته من منطلق علو منزلته عنـد اللـه بتحريم نكاح زوجاته من بعـده، وبمراعاة الأدب الكامل فـى الحديث إليهن والتعامـل معهن.... إلخ الأمـور التى توضحها الآية الثالثة والخمسـون من نفس هذه السـورة، سـورة الأحزاب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٣] وفيها يتضح توجيه المؤمنين بمعانى الأدب السـامى مع الرسـول ﷺ ومـع زوجاته بحيث أمروا ألا يدخلوا بيوت النبى فـى حال من الأحوال إلا عندما يأذن لهم الرسـول فى الدخـول. فإذا أذن لهم فى الدخول أو دعاهـم إلى طعام فى بيت من بيوته فلهم أن يدخلوا ولكن على أن لا يطيلوا المكوث بالبيت ولا ينتظروا طويلًا الطعام الذى دعوا إليـه وإنما عليهم أن ينصرفوا فور انتهائهم من الطعام ولا يطيلوا الانتظار مستأنسـين بحديث بعضهم إلى بعض، فإن هذا كان يؤذى الرسـول ويضايقه ويثقل عليه، ومن ذلك أن أخلاقه العالية كانت تمنعه ويمنعه حياؤه الشديد وأدبه الجم وقلبه الرحيـم أن يطلب منهم الانصراف فنزل هذا التقريـر القرآنى من الحق تبارك وتعالى بالحق يوضح أدب السـلوك مع الرسول تعظيما له وحفاظا على مشاعره وحرمة أهل بيته (وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ
فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى
ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا
مَّقْدُورًا (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا
(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب:٣٧-٤٣].

لقد كان الرسول ﷺ يخشى أن يكون رأى الناس غير مستسيغ لما كان الله قد قضاه فعلا من تشريع خاص بزوجات الأدعياء –أى الأبناء بالتبني– من أنه يجوز للمسلم أن يتزوج زوجة دعيّه أو الذى يتبناه بعد تطليقه زوجته (وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ) كان هذا تشريعا أراد الله له أن يكون ساريا أو وشيك التطبيق. وكان الرسول ﷺ يعلم أمر هذا التشريع الذى قضاه الله كما قضى أن يظهره على يد الرسول ذاته ليكون قدوة للمسلمين بشأنه، يزول معه حرج الضيق والإثم المتصلين بعرف عدم تزوج الشخص من زوجة دعيه بعد طلاقها. كان هذا تشريعا كما قلنا قضاه الله وأراد أن يكون الرسول مطبقه الأول بحالة لصيقة بالرسول ذاته ودعيه زيد بن حارثة وزوجه. فقد كان زيد

ابن حارثة من سبى الجاهلية، اشترته خديجة ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكا عنده ثم أعتقه الرسول وتبناه، وزوجه ابنة عمه زينب بنت جحش. وقد أنعم الله على زيد بالهداية وبالإسلام وبرفقة الرسول والعيش فى دائرة قرابته، وأنعم عليه الرسول بالتحرير من العبودية والاعتناق ثم التبنى (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) لقد كان الرسول يخشى أن تكون نظرة الناس غير مستعدة فى ذلك الوقت لقبول قضاء الله فى تشريعه الذى كان وشيك الظهور فى واقع حياة الناس، والذى اختار الله رسوله ليكون منفذه الأول باعتباره قدوة الاقتداء وسراج الاهتداء. وكانت الخشية وهى بمعنى الحرج الناتج من إعطاء رأى الناس وزنا وإعطاء نظرتهم قيمة، ومن هنا يقابلها ما هو أحق أن يتبع وهو عدم الحرج الناتج من إعطاء قضاء الله وحكمه وأمره الوزن كله والقيمة كلها فيما هو فى الحقيقة تشريع لخير الناس والتيسير عليهم (وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ). ولكن الله لا يستحى من الحق والدين لا حياء فى تشريعاته ولا مبدل لكلمات الله ولا لمنهاجه. إرادة الله قضت بإظهار مبدأ معين هو عدم اعتبار الأدعياء كالأولاد الذين من الصلب، ومن ثم إجازة التصرف بحرية فى مسائل الأحوال الشخصية المتصلة بالزواج على سبيل التحديد. ويجيء القرآن فيقرر للرسول أن أمر الله هو دائما الحق ودائما الخير وفيه دائما المصلحة حتى ولو كان فى بدايته يبدو صعبا لمخالفته عرفا أو عادة أو تقليدا جرى عليه الناس. فإن الناس حين يؤمنون بالله ورسوله الإيمان الحق يتقبلون كل حكم تشريعى من الله كما قضاه فى منهجه القرآن، وبالتالى فإن الأمر الذى قضاه الله هو الواجب النفاذ، وهو الذى ينبغى أن تنصاع إليه تصرفات الناس لتتقيد به أعرافهم وتقاليدهم وعاداتهم (وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ) ومن ثم كانت مخاوف الرسول من الحرج أو من اعتبارات آراء الناس ونظرتهم هى فى غير موضعها: لأن هذه الاعتبارات والآراء والنظرات ليست هى الأساس فى التنظيم الاجتماعى والأسرى فى الإسلام. وإنما الأمر أمر التشريع القرآنى فيما جاء فيه نص صريح لا يحتمل التأويل كما هو الأمر بالنسبة لأزواج الأدعياء. ولذلك كان موقف الرسول هو موقف المتحرج أولا ثم موقف العطوف الرحيم الشفوق على دعيه زيد بن حارثة ثانيا. وكان رد فعل ذلك هو الموقف الذى يبينه القرآن (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) ذلك أن شدة حساسية النبى ﷺ وشدة حبه لزيد ورغبته فى أن يدوم

زواجه ويسعد فى ظله بالاستقرار والسعادة والأسرية كان يدفعه إلى اتخاذ الموقف الذى يمنع فيه زيدًا من تطليق زوجته، رغم أنه كان يعلم بأن تشريعا فى هذا الأمر كان مقضيا به وكان حتمى النزول وواجب التطبيق (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ) حتى تم أمر الله وتحقق قضاؤه ونفذ الرسول ﷺ أمر الله المقضى ببيان الحل فى تزوج زوجات الأدعياء، وذلك حين فاض بزيد من زوجته وطلقها بحريته التامة رغم نهى النبى ﷺ له عن ذلك. من بعد ذلك نفذ الرسول أمر ربه المقضى فتزوج زينب بنت جحش وسن بذلك سنة جديدة نزل بها التشريع الإسلامى ليعمل بها المسلمون دون حرج (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا) ثم يحدد القرآن الموقف واضحا جليا بالنسبة إلى الرسول شخصيا بعد أن وضحه بالنسبة إلى المؤمنين في شخص الرسول ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أى أن الأمر الذى قدره الله تقديرا لابد نافذ وحادث، وهو فرض فرضه على الرسول ليبلغه وليطبقه على نفسه باعتباره أسوة للمؤمنين جميعا الذين يلزمهم أن يطبقوه كما طبقه الرسول، وذلك متى صادفهم نفس الموقف فى حياتهم.

وهذا هو الموقف الذى ينبغى أن يقفه الرسول من منطلق أمانته فى التبليغ واتجاهه الكلى لله تبارك وتعالى وإعطائه سبحانه وتعالى الاعتبار الأول والأوحد، بحيث منه وحده سبحانه تكون الخشية وله وحده يكون الحكم، ومنه وحده يكون الحساب، وإليه وحده يخضع التقييم، وبه وحده يكون ميزان الحق والعدل، ومن خلاله وحده يكون الخير والنفع، وهذا هو التوحيد الحقيقى والدينونه الخالصة لله (ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا) ثم يعلو بنا القرآن إلى أعلى مراتب السمو لننظر على قدرنا إلى المقام السامى لهذا الرسول... وهى نقلة واضحة وجلية فى السياق القرآنى فى هذه الآيات... نقلة يستشعرها العقل المؤمن بمجرد قراءتها واستيعاب معناها العميق... نقلة فى اعتبارات الخلق القاصرة إلى اعتبارات الحق الكاملة فى حق الرسول وقدره ومقامه بعد أن جعله الله أسوة فى أمر التشريع بالنسبة لأزواج الأدعياء وما أحاط بهذا التشريع من عوامل نفسية تتصل بشخص

الرسـول ثم بالمؤمنين ثم بالنـاس أجمعين... نقلة يرتفع بهـا المؤمنون فى نظرتهم تجاه هذا الرسـول إلى المقام الذى يسـتحقه فعلا، أو الذى هو قائم فيه فعلا باعتباره رسـولا من عند الله مصطفى الله من الإنسـانية جمعاء بالرسـالة الخاتمة. هذه النقلة الكبيرة يوضحها القرآن فيما يقـرره (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) وبعد تقرير هذه الحقيقة يحث القرآن المؤمنين والنـاس أجمعين- أن يوجهوا نظرهم واهتماماتهم وأفكارهم إلى الأمر المهم أو الأهم فى هذه الحياة الدنيا وأحداثها وهو أمر الصلة القلبية: أى الفكرية بالله تبارك وتعالى فـى كل وقت وحين، بما يحقـق علو المؤمنين من الانغماس فى مشـاكل الحياة الدنيا دون اعتبار لمصير الناس فى الآخرة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾) وييسـر الله تبارك وتعالى من منطلق رحمته الواسعة، ييسر للناس وللمؤمنين طرق التوجه إليه سبحانه بالإسلام والإيمان والإحسان واليقين ليستقيموا على عقيدة هذا الدين الخاتم الذى جاء مصدقا لما بين يديه من الرسـالات السـابقة فى جوهرها الذى هو الإسـلام وذلك بهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور ليستظلوا بظل رحمة الله فى اليوم الآخر الذى يحاسـب فيه الناس على معتقداتهم وأعمالهم فى الحياة الدنيا. وكذلك التيسير للاتجاه إلى الخير ونحو الاستقامة ونور الدين التوحيدى الخاتـم، وهـو معنى الدعاء فى هذه الآية مـن الله تبارك وتعالـى... والملائكة يدعون لأهل الأرض أن يستقيموا على هدى الدين الخاتم رحمة بالناس حيث تعلم الملائكة ما ينتظر الناس من عذاب بعد الحسـاب يوم القيامة وهم من منطلق الرحمة أيضا يدعون للمؤمنين وللناس أجمعين بالهداية والاسـتقامة والتمسك بالحق الذى جاء به الرسول ﷺ الذى هو الرحمـة الحقيقية للعالمين (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾).



نساء النبى ﷺ أمهات المؤمنين

إن التفضيل الذى حباه الله نساء النبى والتكريم الذى حباهن الله به هو بسبب كونهن زوجات للرسول وليس لأشخاصهن. ولذلك سماهن القرآن وناداهن بنساء النبى، بينما خاطب القرآن النبى ﷺ فى نسائه قائلا له ﴿ ...قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ...(٢٨) ﴾[الأحزاب: ٢٨] فهن فى حد ذواتهن وبالنسبة لأنفسهن زوجات ونساء عاديات.. ولكنهن أصبحن بمقتضى صلتهن الزوجية بالنبى ﷺ، نساء متميزات على العالمين، لسن كأحد غيرهن من النساء، ولذلك كان العذاب بالنسبة لهن -لو كان سيقع- مضاعفًا عنه بالنسبة لسائر المؤمنات، وكان الثواب لهن أضعاف ثواب النساء العاديات؛ لأنهن كن يعايشن آيات الله تتلى فى بيوتهن، وكذلك الحكمة النبوية كانت تقال فى بيوتهن. وكل الصفات والخصائص التى ميز بها القرآن نساء النبى، وكل آداب التوجيه المتعلقة بهن كانت بسبب كونهن زوجات النبى؛ أى كانت بسبب الصلة التى تربطهن بهذا الرسول الكريم ذى الخلق العظيم، وخاصة كونهن أمهات المؤمنين ونساءه؛ أى نساء النبى ﷺ ﴿ ...أُمَّهَٰتُهُمْ ...(٦) ﴾[الأحزاب: ٦] أى أمهات المؤمنين. وحرم الله بسبب حبه للنبى وتكريمه له، على غيره أن يتزوج أحد من نسائه من بعده ليحفظ مكانة هذا النبى من أن يَمْسَسْها بشر من الناس.

وفى سورة التحريم نزل ما نعرف من تقرير القرآن ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم: ٥] وهذه الخصائص من الرفعة النفسية والروحية هى المقومات الأساسية التى ينبغى أن تتحلى بها من تكون زوجة للنبى حتى يمكنها أن تعايش هذا الرسول فى مستواه الروحى الذى كان يتمتع به، وحتى تستطيع أن تصبر على حياة الدعوة وحياة الوحى وحياة تلاوة القرآن والحكمة النبوية وحياة الذكر والعبادة والتسبيح.. وكلهم قوام الصلة الروحانية العالية التى كانت تربط هذا النبى المختار بربه سبحانه وتعالى..

ولذلك قرر القرآن الحقيقة الخالدة فى شأن هذا النبى ﷺ عندما تظاهرت عليه اثنتان من زوجاته هما عائشة وحفصة، فقرر أن ﴿ ... ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤].

أى عظمة تلك التى يكون فيها إنسان بهذا القدر من الرعاية والحماية والنصرة من الإله، تبارك وتعالى، لمجرد أن زوجات هذا الرسول مالت قلوبهن إلى ما يكرهه هذا النبى، وعلم الله مشاعر نبيه النفسية وإيذاء اثنتين من زوجاته، له فنزل التقرير القرآنى الخالد السالف الذكر مجلجلا مدويا بما تقرر ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤].

والعلاقة التى يبرزها القرآن ويركز عليها فيما بين النبى وأزواجه هى علاقة «المؤمنات» بالمختار رسولا من عند الله. وهى كما يظهر من كافة التقريرات القرآنية علاقة سامية تقتصر على الإطار الربانى الذى يضفى على هذه العلاقة سمات الروحانية والأخلاقيات والقيم العالية التى تتعدى نوازع الغريزة التى تحكم العلاقة العادية بين الأزواج وزوجاتهم. وقد فات المستشرقين الذين تناولوا حياة الرسول مع زوجاته أن يفهموا هذه الظاهرة، وراحوا يرددون الافتراءات على نوازع زيجات النبى ﷺ. فعلوا ذلك عن عدم علم وإلمام بآيات الذكر الحكيم المنزلة بالبيان العربى الغريب عليهم. هذا إذا افترضنا حسن النية عندهم، والذى نشك فى توافره.

من أجل هذه العلاقة الربانية الأساس والجوهر، الروحية المقصد والطبيعة، كانت التوجيهات القرآنية؛ هؤلاء الزوجات فى مقام غير عادى، مقام يعلو ويغاير مقام سائر النساء ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ...﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] مطلوب منهن أعباء وواجبات وأخلاقيات وسلوكيات تغاير مثيلها عن سائر النساء... وذلك كله تعظيما لشخص النبى ﷺ وحفاظا على مقامه ومشاعره التى يعتبر العرض فيها عنصرا جوهريا. هو عنصر جوهرى عند العاديين من الرجال، فما بالك بأشرف الرجال وأحبهم إلى الله تبارك وتعالى! هذا الطابع الروحانى الربانى الذى يسمو بعلاقة الرسول من نوازع الغريزة إلى سماء الروحانية والقيم والأخلاقيات والسلوكيات المرتبطة بطاعة الله ورسوله، وذكر الله وعبادته وتسبيحه واستيعاب

مفاهيم الآيات القرآنية والحكمة التى تتلى فى بيوت النبى فى الخلوة المحمدية. وهذه حكمة أن تكون زوجات النبى من اللائى يتلى فى بيوتهن آيات الذكر الحكيم والحكمة النبوية التى ينطق بها النبى فى خلوته المنزلية لا يشغله شاغل من شواغل الدعوة فى واقع الحياة الاجتماعية التى كان يعيشها هذا النبى فى ذلك الوقت من تاريخ الأرض وفى هذه البقعة المباركة من امتداد الأرض الجغرافى. ويبدو أن ذلك هو أحد الأسباب الأساسية فى أن بعضا من زوجات النبى كن فقيهات فى الدين كالسيدة عائشة رضى الله عنها. وسورة الأحزاب فيها بعض من آيات الذكر الحكيم نزلت قرآنا يوضح هذه السمة البارزة التى شرحناها فى علاقة النبى بزوجاته فهى تقرر فى الآيتين ٢٨ و٢٩ ما يلى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٢٨-٢٩] أى معنى أسمى من هذا المعنى الذى تتجلى فيه بوضوح فكرة التوجه الكلى من زوجات النبى إلى الله ورسوله والحياة الأخرى، وليس إلى غرائز الأرض وزينة الحياة الدنيا.. وبعد هذا يقرر القرآن فى آيات متتالية من نفس السورة -سورة الأحزاب- القواعد الأساسية فى أوضاع زوجات الرسول باعتبارهن زوجات محمد رسول الله: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٠-٣٢]. ثم تأتى الغاية من ذلك كله... وهى غاية ذات سبب هو اتصال هؤلاء الزوجات بشخص النبى وبيته ويسميهم القرآن ﴿ ...أَهْلَ ٱلْبَيْتِ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أى أهل بيت رسول الله ﴿ ...إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٣-٣٤]. إن محمدا ليس أبا أحد من رجالكم ولكن ﴿ ...رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ولذلك كان هذا النبى

الخاتم ﴿...أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴿٦﴾﴾[الأحزاب: ٦] ولذلك أيضا كانت فكرة أن زوجاته هن أمهات المؤمنين (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ).

زوجات النبى ﷺ أمهات المؤمنين

زواج النبى ﷺ من السيدة خديجة:[1]

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منية تخطبه لنفسها. ورأى الرسول فى خديجة سيدة ذات خلق كريم، وعقل راجح، رغم فارق السن بينه وبينها. كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة.

ولم ينظر إلى مالها، ولا إلى جمالها، ولا إلى حسبها، وإنما نظر إلى عقلها وخلقها، وهكذا عظماء الرجال.

كلم الرسول أعمامه، فوافقوا على هذا الزواج، فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك.

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين، الأول منهما (عتيق بن عائذ التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) واسمه (هند بن زرارة). وبعد موتهما طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا، فلم تفتح لهم بابها؛ لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة، حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة.

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق.

لكنها رأت فى محمد الإنسان الصادق الأمين. فخطبته لنفسها، ورأى فيها محمد السيدة العفيفة الطاهرة، فرضيها زوجا.

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خُطبة الزواج.

وقف يقول، الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بيتا محجوجا، وبلدا حراما، وجعلنا الحكام على الناس، أما بعد فإن محمدًا بن عبد الله

---

(١) عن كتاب حديث من القلب لفضيلة الشيخ (عبد الحميد كشك).

ابـن أخــى لا يوزن به فتــى من قريش إلا رجح بــه برا وفضلا، وكرمــا وعقلا، ومجدا ونبـلا، وإن كان فى المال قلا، فالمال ظل زائل، وعارية مســترجعة، وإن لمحمد رغبة فى خديجة، ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلىَّ.

إن قصة زواجه ﷺ من خديجة رضى الله عنها كما ذكرنا سابقا، توضح للإنسان وضوحا لا تلتبس معه الرؤية، أن رســول الله ﷺ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجســدية ومكملاتها، فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع فيمن هى أقل منه سنا، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير.

ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها، حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

ولقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما، وقد ناهز النبى ﷺ الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى.

وما بين العشــرين والخمسين من عمر الإنســان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن محمدا ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم على خديجة مثلها من الإناث، زوجة أو أمة، ولو شــاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء دون أن يخرق بذلك عرفا أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس. هذا فضلا عن أنه تزوج خديجة وهى أيم، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره.

وفــى هذا مــا يلجم أفواه أولئــك الذين يأكل الحقــد أفئدتهم على الإســلام. وقوة سلطانه، من المبشرين والمستشــرقين، وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم، ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى فهم لا يعقلون.

إنهم يهرفون بما لا يعرفون، ويحاولون أن يطاولوا السماء، وأن يمدوا إلى الشمس يدًا شلاًّء.

إنهم يمضغون الهواء، ويفتلون من الرمال حبالا.

لقــد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلا يصاب منه الإســلام، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ.

وتخيلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد، العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح. حاشا لله يا رسول الله.

أما زواجه بعد ذلك من عائشة، ثم من غيرها، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسبب، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه.

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة الجنسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان إذ ذاك خالى الفكر، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية.

يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية ما نصه:

لقد طعن كثير من سِفْلَة البشر ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام، واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به وقالوا: إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء ﴿ ...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾[الكهف: ٥].

فى حين أن زواجه ﷺ يسمو بإنسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه فيها إنسان ولا يباريه فيها بشر.

فلو أراد أن يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الخرائد، لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب، وأجمل الجوارى من سبايا فارس والروم، يرفلن فى حلل الدمقس، ويتحلين بأفخر الجواهر، ولكان سماطه كسماط قيصر وكسرى.

كيف لا وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده، فلا يقوم وفى كفه منها شئ.

وما شبع هو وآله من خبز الشعير، وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا.

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتملات التى مات عنها زوجها، فلم تجد مأوى، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج، ولم تكن بينهم من فتاة عذراء سوى واحدة، هى عائشة رضى الله عنها ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق

﴿ ...ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ...﴿٤٠﴾ ﴾[التوبة: ٤٠].

وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها، وجاوزت الشدة مداها.. نزلت آية التخيير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

وقـد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسـن الاختيار، واختـرن دار القرار وقلن جميعـا: بـل نريد الله ورسـوله والدار الآخـرة. ففُتِحَتْ لهن بذلك السـعادة. وحُسْنُ الحسنى وزيادة.

وقد تزوج عليه الصلاة والسـلام بالسـيدة خديجة رضى اللـه عنها ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين، ولم يدفعه لزواجها سوى أنها خطبته لنفسها وبنفسها. وكانت أعف النسـاء وأعرقهن نسبا وحسـبا، ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الإسلام، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة، وماتت وسنها خمس وستون سنة، وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمسا وعشرين سنة. ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

ولـم يكن وفـاؤه لخديجة رضى الله عنهـا وفاء المتعة والحس، بـل وفاء الروح والنفس، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهى أصغر زوجاته وأحبهن إليه.

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شـبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها، وعقلها وطهرها، ومعاونتها له ومناصرتها إياه.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة سَوْدَة رضى اله عنها:

وتزوج بالسـيدة سـودة بنت زمعة رضى اللـه عنها، وكانت زوجا للسـكران بن عمرو، وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ومات حين قدما مكة، ولو عادت إلى أهلها -بعد موت زوجها- لعذبوها وقتلوها فى دينها. فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة، وكانت مسـنة ولم يكن معه غيرها، ومكث معها خمس سـنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشـة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة.

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته، وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة عائشة رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق، الذى كان معه ﴿...ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ...(٤٠)﴾[التوبة: ٤٠] ولم يتزوج بكرا غيرها.

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما. وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية خصوصا ما يتعلق منها بالنساء.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة حفصة رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وكانت زوجا لخنيس بن حذافة، ومات عنها من جراح أصابته ببدر، وتزوجها ﷺ مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف، ورغبة فى إيوائها وتعويضا عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله. وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش، وهى ابنة عمته، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير، ويعلى من قدره، ويجعله أهلا لمصاهرة بنى هاشم، مصداقا لقوله تعالى ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...(١٣)﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد بوحى من الله للتشـريع ﴿... لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقـد كان زواجـه بها إعفـاء لها من إهمـال يصيبها بعـد طلاق يذلهـا، فيقضى عنهـا الخاطبيـن الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحـرار. فما بالك بمطلقات الأرقاء.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها:

وتزوج بالسـيدة زينب بنت خزيمة، وكانت زوجـا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالـى عنهما. فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيـواء لها وجبرا لمصابها فى زوجها وحفظا لدينها.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها:

وتزوج بالسـيدة أم سلمة «هند بنت أبى أمية» وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسـد، وكانا أسلما قديما، وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة، وهاجرا إلى المدينة. فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد، فتزوجها ﷺ.

ويـروى عنها أنها سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «ما من مسـلم تصيبه مصيبة فيسـترجع ويقـول: اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيـرا منها إلا أخلفه الله خيرا منها» فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول ﷺ وقالت فى نفسها:

ومن خير من أبى سلمة؟

رجل نال الصحبة. وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ولكنها استرجعت مقالتها، فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ فآواها وحفظها.

فنرى من هذا أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته.

وكانـت كثيـرة الأولاد، فآواها وأولادها، وقام بشـئونها جزاء لهـا على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة أم حبيبة رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة «أم حبيبة» «رملة بنت أبى سفيان» وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش، وقد هاجر إلى الحبشة، الهجرة الثانية، ثم تنصر زوجها، ومات بالحبشة، وثبتت هى على إسلامها، وأبت أن تتنصر معه وخالفته واختارت الإسلام عليه، فأتم الله تعالى لها: الإسلام والهجرة والصحبة، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ.

ويروى أن أباها -أبا سفيان- قدم المدينة فدخل عليها، فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس. فقال: لقد أصابك بعدى شر، قالت: بل خير.

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها. وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة، وقد تزوجها إيواء لها وتألفا لقومها. وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها. منهم: ابن أختها: سيف الإسلام خالد بن الوليد.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار، وكانت زوجا لمسافع بن صفوان المصطلق، وقد قتل كافرا يوم المريسيع. وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق. وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم. فأعتقها ﷺ وتزوجها. فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق، وقالوا: هم أصهار رسول الله ﷺ فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم. وحسن إسلامهم.

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها، وقد أنقذها من الأسر

وأعتقها من الرق وأعزها من الذل.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

زواجه ﷺ بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها:

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير، قتل أبوها مع بنى قريظة، وكانت زوجا لسلام بن مشكم القرطبى، ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق، وقتل عنها يوم خيبر، فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى، فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول، فاختارت الأخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم.

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

حكمة رائدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهنَّ إلا لأسباب دينية، ومقاصد أخروية لا تمت إلى الشهوة بسبب، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة.

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم، وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتى لا يستطيع تبليغها الرجال، كالطهارة والغسل والحيض، والنفاس، والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها النساء ـ على وجهها الأكمل ـ سوى النساء.

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين –على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين- امرأة واحدة، بل عدة نساء، من عدة قبائل، وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره وبسط شرائعه.

وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علما وفضلا وفقها. ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء- من التمتع واللذة ليس غير، لانتخب الحسان الأبكار والكواعب والأتراب، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتملات.

فهل بعد هذا لمبشر –غير سمح، عتل زنيم- أن يقول عنه ﷺ إنه شهوانى يميل إلى النساء؟! فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره. وأقلامنا

عن تدوينه.

فسبحان من هدانا لدين الحق. دين النور- دين الفطرة. وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

وفضلا عن ذلك. فلم تكن علاقاته -عليه أفضل الصلاة وأتم السلام- بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا. بأى زوجة مهما علت.

فقد عاشرهن السنين الطوال. فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية. بل الكلمة الرقيقة. ولم تبد على سماته النظرة القاسية بل النظرة الحانية.

وما من رجل -بالغ من المروءة والرقة وسعة الصدر مابلغ- إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما. وبدا منه التذمر والضجر إزاء تصرف ما- وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما.

ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق.. الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر. ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم لم يكن كذلك.

ولم يكن هذا منه ﷺ جبنا أو ضعفا، بل كان كمالا وجلالا.

فإن الضعف الاختيارى: أقوى من سائر القوى. وأكمل من سائر الكمالات. وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها.

فإن من يقهر نفسه باختياره ليترفق بضعيف، لا طاقة له باحتمال القهر. و لا غنى له عن طلب اللين والرفق، لهو الشجاع الباسل القوى.

جاء فى كتاب «الإسلام والعلم الحديث» للأستاذ عبد الرازق نوفل بحث قيم فى زواج الرسول ﷺ. وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع.

وها هو ذا نسوقه بنصه. قال المؤلف:

«لم تظهر حكمة زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث، فإذا ما استعرضنا زواج النبى ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضا ساميا أو كسبا للدين. أو عملا بتشريع جديد. وأن الرسول الأمين كان بعيدا كل

البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم.

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد. كانت تزوجت عتيقا المخزومى. ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى فمات أيضا. بذلك ورثت عنهما مالا وفيرا علاوة على ما كانت تملكه. وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب، علاوة على مالها، مما جعلها مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم وأشراف قريش. ولكنها كانت ترد كل طالب. فقد كانت عازفة عن الزواج. وكانت ترسل الرجال على تجارتها. فأرسلت نبى الله ليشرف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة، وعادت القافلة وقد حققت أرباحا لم تعهدها ورواجا لم تكن تتوقعه. فلما سألت غلامها ميسرة الذى صاحب الرسول ﷺ روى لها رقة شمائل محمد وجمال نفسه- وصفاء قلبه. وطهارة سريرته، وحدثها عما شاهده من أمانته المطلقة، ونزاهته وعفته.. فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منية) تقترح عليه أن يتزوجها.. وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها.

فهل كان سيدنا محمد ﷺ رجل متعة؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوفا بالنساء؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين. وتكبره بخمسة عشر عاما؟

لقد شدت خديجة أزر الرسول برجالها وعصبيتها، حتى إنه عندما جاءه الوحى وخشى منه، سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان أول من بشر بنبوته، وشجعه على إعلان الدعوة، حيث قال له، وقد قابله فى طواف بالكعبة: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة. ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى. ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ثم قبله. وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشا فيعلن لهم دعوة الله.

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول فى جهاده. فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر.. وعاشت معه خمسة وعشرين عاما أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة. تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاما.

وبعــد موت خديجة ازدادت قريش فى أذاها للنبــى ﷺ. فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإســلام، فوجد من ثقيف التكذيب والإعراض. وبعــد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفرا. فلما أحس المســلمون بما شعر الرســول به من وحشة أوعزوا إلى خولة بنــت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه. وتقضى حاجة بيته، وتقوم على شــأنه فعرضت العذراء عائشــة بنت أبى بكر، أو ســودة بنت زمعة التى آمنت به وأســلمت وهاجرت إلى الحبشــة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة. فقبل الرســول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة الســن ضامرة الجســد، ليس فيها مشتهى الرجال، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات.

هذه هو زواج الرســول؛ إذ إن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كســب للدين، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج.

فالمشــاهد فى العصــر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولــون أن يرتبطوا مع وزرائهــم وقاداتهم برباط المصاهرة، بل إن قادة الأمــم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض. وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها.

فلربــط رجال المســلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرســول ﷺ بعائشــة بنت وزيــره الأول أبى بكر، ثم تــزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها. ولهذا الســبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن أبى عفان. فلما مات زوجه بعدها أختها أم كلثوم. كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب.

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمد ﷺ برجاله الأوائل، أبى بكر، وعمر وعثمان وعلى.. أقوى الرجال فى الإسلام، وأول من أسلموا.

وهنــاك هدف آخر هدف إليه الرســول بزواجه، فقد كان مــن عادة العرب إذا مات الرجــل ذهب إخوانــه وأصدقاؤه إلى أرملته يواســونها، ويعــرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراما لزوجها، وذلك للإشراف على شئون بيته.

وقد أبلى من المســلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى ســبيل الله ورســوله. ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله. فتزوج الرسول

من بعض نسـاء قتلى المسـلمين، ممن تحـدث التاريخ عن جليـل أعمالهم. ولم يجدن أزواجا لهن، إما لكبر سنهن، أو لكثرة أولادهن، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم، ورفع من روحهم المعنوية، وأصبح المسـلم يعرف أنه لو قتل فى سـبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته، ولم يعد م أبا يحنو على أولاده، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبى الله نفسه، بل حبب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا.

ولذلك تزوج الرسـول ﷺ من زينب أم المسـاكين زوجة عبد الله بن جحش أحد أمراء المسـلمين الذى قتل فى وقعة أحد، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الإسلام.

كما تزوج للسبب نفسه هندا أم سلمة زوجة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة، والذى أبلى بلاء حسنا فى الدعوة. فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب، ومنهم أبو بكر وعمر، فرفضت حيث قالت: «إنى امرأة مسنة وأم أيتام» وعز على الرسول ﷺ أن تظل السيدة حزينة وحيدة فتزوجها.

وهناك تشـريع هدف إليه الإسلام فى زواج الرسـول: يقول الله سبحانه وتعالى فى سـورة الحجـرات (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ).

وقد كان الرق منتشـرا فى بلاد العرب، فدعا الإسـلام إلى العتق وتحرير الرقيق، وكان للسيدة خديجة زوج النبى -عبد اسمه «زيد» وهبته لسيدنا محمد، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسـول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسـم زيد ابن محمد، هذا العبد الذى تحرر. فهل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندا له فيزوجه من قريبته مثلا؟

لقد طلب زيد يوما من الرسول ﷺ أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول. فوافق عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها.

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره، ولما تحقق الهدف. وانتفت الأسـباب التى مـن أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته، نزل قول الله تعالى فى سـورة الأحزاب ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب. وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين. وعملا بقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ...وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ...﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ولم يدم ذلك الزواج طويلا، فطلب زيد الطلاق من زينب. فكان رد النبى كما جاء فى سورة الأحزاب: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وأراد الله تعالى تشريعا جديدا؛ إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه، كما لا تجيز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه. ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد.

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول فى سورة الأحزاب:

﴿ ... وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾[الأحزاب: ٤].

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول القدوة للناس فى ذلك. وخشى فى نفسه أن يقول عنه الناس: تزوج من كانت زوجا لدعِيه، وكان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها. ولكن الله مُبْدِ ومُظهرٌ هذا التنافر. يقول المولى عز وجل فى سورة الأحزاب: ﴿ ...وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٧].

هذه هى حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش، وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها، فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها.

وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهى ابنة عمته، والتى كان يعرفها تماما؟؟

أو لم تستهوه محاسنها وهى عذراء؟!

ولكنه الحقد على الإسلام. ونبى الإسلام، الذى يجعل الخصوم يفترون.

وهناك حكم فى زواج الرسول، إذ حقق به أهدافا سياسية، فعندما هزم المسلمون

بنـى قريظة بعد حصار طويـل، كانت ريحانة بنت عمرو زوجـة الحكم أحد كبار بنى قريظـة مـن نصيب الرسـول فى الغنائم، فعرض الرسـول عليها الإسـلام، فأسـلمت وتزوجها، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشـر الدعوة الإسـلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها.

كذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق، كانت جويرية بنت الحارث بنت سـيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسـول ﷺ على فك أسـرها، فعرض عليها الإسلام وأسـلمت فتزوجها، وكان لذلك أثره فـى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسـول، فدخلوا جميعا فى الإسلام.

ولما انتصر المسـلمون على يهود خيبر، كانـت صفية بنت حيى بن أخطب ضمن الأسـرى، فأعتقها الرسـول وتزوجها، وهذا مـا يفعله الفاتحون مـن ذوى الرحمة إذ يتزوجـون من بنات الملوك والعظماء فى الـدول المهزومة حفظا لكرامتهم، وتخفيفا من وقع الهزيمة عليهم.

وبعد أن انتشر الإسلام فى جزيرة العرب، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبـة رملة بنت أبى سـفيان بعد أن مات زوجها عبيـد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد، وبقيت زوجته مسلمة، صادقة العقيدة، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم، وتمسكت بدينها تحافظ عليه وتقيم شعائره فى دولة غريبة، كما كانت سياسية بارعة، إذ إن أم حبيبة بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد، وأكبر مهاجمى الإسـلام، وبزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشـرك فى قريش، انتصارا دون إراقة دماء، وبدون حرب أو اعتداء.

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج. أرسل رسله إلى الملوك والأمراء، منهم هرقل، وكسـرى والمقوقس يدعوهم إلى الإسـلام. فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسـل للرسـول هدايا فيها جاريتان إحداهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول، وسيرين التى أهداها إلى حسان بن ثابت.

ولما أحل النبى بالدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل

الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء، وظلوا أياما ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة.

وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم؛ لا يشربون خمرا ولا يأتون معصية، ولا يتقاتلون على شراب أو طعام، ولا يعبدون أحجارا أو أوثانا وإنما دعوتهم الله أكبر. الله أكبر. زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار. فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارثة خالة خالد بن الوليد. فخطبها الرسول ﷺ وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم. وفتح لعائلتها التى كانت وما زالت على الكفر، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ كما كانت تصح دائما، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العُزَّى. وقتل سدنتها. وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعا. وكذلك أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة. وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة.

هذا هو زواج رسول الله ﷺ. فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه للنساء؟!

وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها؟

وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين.

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره. ولما تحقق الهدف، وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب: (لا يحل لك النساء من بعد).

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء؟

وهل كان بين كل هذه الزيجات عذراء سوى عائشة؟

أوليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى وعلى الحق أى افتراء؟؟!! (انتهى)



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

هذا النص القرآنى وإن كان يراه بعض المفسرين تتمه أو تتويجا لما سبقه من نصوص تنظم علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وبنسائه أمهات المؤمنين فى حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، إلا أننا نعتبره الأصل الذى انبنت عليه هذه النصوص حتى ولو جاء ترتيبها فى سورة الأحزاب سابقا على هذه الآية بالذات.. إن هذا النص يقرر شأنا عظيما بالنسبة لمقام هذا الرسول وما يتصف به من أخلاق سامية نادرة هى من أهم سماته كرسول مختار.

إنه الذكر الدائم لهذا الرسول فى الملأ الأعلى «الملائكة» وفوق الملأ الأعلى «الله» هذا الرسول الذى يذكر باستمرار عند الله فى أحديته له مقام أى مقام وشأن أى شأن كيف لا والله يصلى على النبى.. وصلاة الله على النبى ذكر له دائم.. فيا له مبلغ بلغه هذا الرسول لما له من أهمية عند ربه حتى إنه يصلى عليه ذكرا له! إنها حقيقة بالغة السمو والعظمة والجد فى الوقت نفسه. هذا شأن الرسول عند الله وهو شأن يستلفت النظر وتقف عنده العقول والأرواح لتتأمل أبعاده وحقائقه ونتائجه فى الدنيا وفى الآخرة على السواء. والملائكة تصلى على النبى... وهم عباد الله المقربون الذين جبلوا على الطاعة لربهم وهم أرواح نورانية طاهرة مطهرة ذات طاقة هائلة.. هؤلاء أيضا يصلون على النبى فى الملأ الأعلى... يالشأن هذا الرسول فى الملأ الأعلى حيث ذكره دائم مستمر...

إن هذه الحقائق التى قررنا بما تلقيه من أضواء على مقام هذا الرسول الخاتم المختار من الله تقتضى صفات لا مثيل لها فى البشر العاديين... صفات كان يتحلى بها

الرســول، ووصفها الله فى كلامه منسوبة إلى صفة من صفاته هى العظمة.. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم: ٤] اقتضى هذا المقام للرسول أمورا:

١- مقام الرســول الذى يقترن به معيار معاملة المســلمين وســائر الناس له وهى فى هــذا الشــأن العظيم عند الله وعند الملائكة، وبما اســتتبعه ذلك مــن أمر المؤمنين بالصلاة والتسليم على حضرته.

٢- مقام هذا الرسول الذى جعل الله سبحانه وتعالى يتحدث عنه بكلامه فى قرآنه فى شأن أخص خصوصياته.

٣- أخلاق هذا الرســول الســامية وحساســيته المرهفة التى جعلته يستحى أن يواجه المسلمين بما يؤذيه فى مشاعره ونفسه حرصا على مشاعرهم وسلامة نفوسهم.

وهى المعانى التى تبينها نصوص ختام ســورة الأحزاب التى نظمت العلاقة بين المســلمين وبيوت النبى ونســائه أمهات المؤمنين فيما يمس مشاعر هذا الرسول التى يحرص ربه تبارك وتعالى على ســلامتها ونقائها لتســتمر فى القمة السامية من ذكر الله والحضور مع جنابه تماما كما يذكره الله ويحضر مع حضرته.

تلــك الآيــات التى تقرر أمورًا فى منتهى الأهمية، وهى فــى مدلولاتها كافية لإلقاء الأثر الذى أردنا إبرازه بتقرير مقام الرســول فى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ونسوق كلمات الله تباعا وهى واضحة الدلالة...

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].



٢٤

في معية الرسول ﷺ



فى

ســــــــورة ســـــــــبأ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

[سبأ:٤٦].

الأمـر هنا أمـر العقيدة. عقيدة التوحيـد التى بعث الله رسـوله الخاتم ﷺ ليدعو إليها وليوضح أسسها ومضامينها ويزيل من حولها كل أثارة من شرك ظاهر أو خفى أو أخفى. وعقيدة التوحيد هذه التى جاء يدعو إليها الرسـول ليست كلمة تقال باللسان بينمـا الفكـر الباطن معقـود على غيرهـا، أو ينطوى على غيرها بحيث يجىء سـلوك قائلهـا على غير التمسـك بحقها؛ أى بما تقتضيه من التزامـات فى واقع الحياة. عقيدة التوحيد مؤسسـة ضخمة تنبنى عليها أمور كثيرة فى حياة البشـر فرادى أو جماعات. تنبنـى عليهـا اتجاهات البشـر وينبنى على أساسـها نمط حياتهم وأهداف معيشـتهم ودوافـع سـلوكياتهم وأنشـطتهم الفردية والجماعيـة فى الوحدة وفى الأسـرة وفى المجتمع وفى مجال العلاقات بين الأمم والشـعوب. هى عقيدة بدؤها ذو طابع فردى إلا أنها تتسـع لتسـتوعب الطابع الجماعـى أيضا. وهذا هو المقصود مـن الدعوة التى يدعـو إليها الرسـول ويعظ الناس ليتفهموهـا عن طريق إعمال الفكر ونشـاط العقل الـذى يتدبر ما يقوله هذا الرسـول ولـو كان مخالفا للاتجاه العام بيـن الناس. فالذى يقولـه الرسـول هـو الحق الذى لـن يأتى بعده وحى مـن عند الله للبشـر يهديهم فى عقائدهم وفى أنماط سـلوكياتهم وطرائق معايشهم وأسـاليب حياتهم. فالذى جاء به هذا الرسـول هو ختام الحديث الموجه من الله إلى البشـر وليـس بعده حديث، وليس بينه وبين الله إلا قيام سـاعة حساب الناس حيث العذاب الأليم الذى لا يطيقه البشر أو

النعيم المقيم الذى لا يتصور أبعاده بشر.. فالرسول نذير بالمعنى الأول وبشير بالمعنى الثانى، وهو داع إلى الله بإذنه ينير الطريق أمام الناس ليروا الحق حقا فيتبعوه ويروا الباطل باطلا فيجتنبوه، ولا يكون ذلك إلا بالتفكر فى آيات الله، وتدبر معانيها ومراميها، وتدارس أحكامها وتشريعاتها، والاحتكام إلى حكمها وقضائها، والامتثال لأوامرها واجتناب نواهيها... هذه بعض المفاهيم المتصلة بعقيدة التوحيد التى تعنى الاتجاه بالكلية إلى الله وحده بلا شريك وإسلام الوجه له بالكلية. وبين هذا الذى جاء يدعو إليه الرسول وبين مستقبل حياة الناس فى الدنيا هو فترة الحياة التى يعيشها الناس على تعاقب أجيالهم حتى تأتيهم الساعة، تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فالآية تبتدئ ببيان ما يدعو إليه هذا الرسول بالنسبة للأفراد كأفراد وبالنسبة للأفراد كلبنات للمجتمع وبالنسبة للمجتمع كأحد عناصر الأسرة الإنسانية العالمية الشاملة (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ) هذه هى الدعوة المحمدية فى أساسها.. جذب البشر إلى الله تبارك وتعالى على أساس هدى القرآن الذى تنزل عليه وحيا من عند الله بعقيدة التوحيد وكل ما يتصل بها وما ينبنى عليها من مبادئ النظم والأحكام، ومؤسسات توجهها فى اتجاهها المحيط الشامل الكلى، الفكرة الأساسية التى يدعو إليها الرسول بالقرآن، فكرة التوحيد. والذى جاء به هذا الرسول ﷺ ليس لكسب يكسبه أو لنفع عاجل أو آجل يعود عليه، مادى أو غير مادى، فدور الرسول هو دور الرحمة للبشرية، يدعوها إلى الطريق الصحيح فى منهجها المعيشى فى الحياة، وهو فى ذلك مكلف من الله ومأمور من الله ومأذون بالدعوة من عند الله ولذلك فمن الطبيعى أن تكون صلته كلها بالله فى هذا الأمر من التبليغ وإكماله وإتمامه، وهو فى هذا يعتبر نائبا عن الله بشكل أو بآخر ويأتى أجره من عند الله، وهو الذى اختاره للإبلاغ واصطفاه من دون البشر كافة لأداء هذا الدور، والله بذلك ولذلك يشهد على هذا الاصطفاء وهذا الاختيار ويدعم الصلة بينه وبين رسوله بما يجعل الرسول فى غنى تام عن الخلق المدعوين. فالرسول ليس محتاجا إلى الخلق ولكن الخلق هم الذين يحتاجون إلى هذا الرسول فيما لو احتاجوا إلى الحق وإلى الطريق الحق أى إلى طريق الله، فالنفع العائد إذن إنما يعود على الناس ولا يعود على الرسول شخصيا، بل إن الذى يعود على الرسول هو المشقة والجهاد وتبعات الإبلاغ ومسئولياته

الخطيـرة لما يحمله هـذا الإبلاغ من صعاب تنتج لمخالفته لهـوى الناس ومصالحهم المتشعبة والمنبنية على غير أسس التوحيد وتوجيه الوجهة إلى الله وحده والاستمداد منــه فى كل شــئ. ومن ضمن الافتراءات التى نسـبها الكافرون فى صـدر الدعوة إلى الرســول ﷺ أن به جنة، أى أنه مجنون، ولكن الله يعلم أن الأمر ليس كذلك والحق فى ذاتــه غيــر ذلك، وكل ما فى الأمر أن الرســول الذى جاء يبلغ القـرآن الذى يغير عقائد الكافرين والمشـركين والمنافقين من الأســاس، ويقلب رأسا على عقب كافة الأوضاع والامتيــازات والتميزات المبنية على الجاه والمال والنســب، ويبنــى بدلا منها مفهوما مخالفا تماما أساســه قيم هذا الدين، وأخلاقيات هــذا الدين، وعقائد هذا الدين وأحكام هذا الدين، وتشــريعات هذا الدين وأســس العلاقات الفردية والاجتماعية والأممية لهذا الدين، ومن ثم كان هذا الاختلاف بين منهج الكفار آنذاك ومنهج هذا الدين غير مقبول وغيــر متصور وغير مراد، فقالوا إن هذا النمط الجديد لتصورات الوجود والحياة نابع من شــخص «مجنون» بينما الأمر لا يحتاج إلى أكثر من إعمال الفكر فى حيدة وإعمال العقــل بــلا تحيز حتــى يتبين للمتفكر وللعاقــل أن الذى جاء به هذا الرســول هو عين العقل وعين الاتزان وعين الحق وعين الخير، وعلى المخالفين أن يغيروا ما بأنفســهم ويتقبلــوا هــذا التصــور الدينى والإســلامى الجديد؛ لأنــه الحلقة الأخيرة فى سلســلة الرســالات الإلهيــة، جاء فى أكمل صــورة وأتم وجه ليس بينه وبيــن مصائر الناس إلا إبلاغــه بالتمام والكمال من جانب الرســول ثــم تمضى فترة من الزمــان تقوم بعدها الســاعة أو القيامة فيحاسب الناس جميعا على أعمالهم فى الدنيا التى تعتبرها الأديان كلها ويعتبرها هذا الدين الخاتم فى شكله الإسلامى القرآنى، حياة لها نهاية، ونهايتها قيام الساعة التى فيها يحاسب الناس فرادى على أعمالهم فى الدنيا ثم ينتهى وجودهم إما إلى الألم والعذاب الشــديد، وإما إلى اللذة والنعيم الكبير، وفى كلتا الحالتين تكون حيــاة الأفراد فى خلود حيث لا مــوت ولا فناء ولا زوال لهذه الحياة الآخرة، والأمر فى ذلــك اليوم الرهيــب يملكه مالك الملك وحده بلا شــريك بحيث لا ينفــع الفرد فى ذلك اليــوم قيمــه الأرضية المادية التــى اتبع فيها هواه فــى الدنيا، ولا ينفعه ســلطانه ولا جاهه ولا ماله ولا عاداته ولا الذين أضلوه ســواء الســبيل ولا ينفعه الوسطاء الدينيون ولا ينفعه حتى هذا الرســول ذاته الذى يكون يوم القيامة شــهيدا على المبعوث إليهم

مــن الذين كفروا أو أشــركوا؛ يشــهد عليهم لا لهــم، ومن هنا كان منطق هذا الرســول منطقــا واضحا جليا فى غاية البســاطة مــع قوة الإقنــاع ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[ســبأ: ٥٠] فهــو لا يملــك للكافرين والمشــركين من الله شــيئا ســواء بالنفع أو الضر يوم الحســاب عندما تقوم القيامــة ويقــف الناس فرادى فى ســاحة العرض يحاســبون أنفســهم بأنفســهم بما ســجلوه على أنفسهم فى الذاكرة التى تســجل كل صغيرة وكبيرة من أعمال وتجارب الإنســان وخبراته الشــعورية والإحساســية فى أعمق مدارك الوعى -ومنها ما لا يعيه الإنســان ذاته ولا يعرفه- ولا يتصل بمستوياته إلا السميع القريب سبحانه وتعالى. إن الحق لا يجىء فى حجيته المطلقة وصورته الكاملة إلا من الحق تبارك وتعالى، ولذلك فهــو فى صورة كاملة متكاملــة يتهالك أمامها الباطل بكل صوره وأشــكاله، ولا ينكر الحق عاقل وإنما ينكره جاحد أو مســتكبر أو متعالٍ أو منافق أو ذو مصلحة أو متجبر أو ذو سلطان جائر طاغية... أما العقل المفكر النشط فى حياد والعامل فى تدبر، فهو يدرك الحق عندما يعرض عليه ويدعو إليه داع، وخصوصا داعى الله المأذون بالدعوة والإبــلاغ، وأمــام منطق الحق فإن منطق الباطل لا حول لــه ولا قوة، ولا يملك أن يغير من الحق شــيئا ولا يملك من الحجة والمنطق ما يقدم أو يؤخر أو ما يبدئ أو يعيد، بل هو يذهب بداية ولا يعود فى ميزان الحقيقة أبدا كشــئ له ثقل بالنســبة لأفكار العقلاء مــن الناس الذين يفكرون فى حياد عن غيــر دافع منكر إنكارا توجهه المصالح الذاتية المتداخلــة التى تجعل أهــل الكفر على اختلاف مناهجهم الفكريــة كتلة واحدة تجتمع -عندمــا تجتمع- على محاربة الإيمان والتوحيد والداعــى إليه والمؤمنين به. والداعى هــو أول من يحاربه الكافرون لأنه قــوام الدعوة، فبه نجاحها وبدونــه نهايتها. وذلك حتــى اللحظة التى ينتهــى فيها الداعى من إتمــام دعوته وإكمال دســتورها المنهجى وأعمدتها من المؤمنين بها الأقوياء، وهم ركائز تنطلق على أكتافهم الدعوة بعد انتهاء حياة الداعى فلا يؤثر فيها أى مؤثر من مؤثرات الكفار والمشركين والمنافقين ما دام المؤمنون قد استمســكوا بدســتور دعوتهم ومنهاجها بما فيه مــن توجيهات ومبادئ وقيــم. ولذلك حارب المشــركون الرســول ﷺ شــخصيا وقالوا عنه إنــه مجنون وإنه شــاعر وإنه ســاحر وإنه ناقل عن غيره إلى غير ذلك من أنواع الطعون. ولكن الله الذى

أرســل رسوله بالحق قد وقى هذا الرســول من هذه الحرب النفسية وما اقترن بها من حــرب اقتصادية وسياســية، وحــرب تعلن فى ســاحات القتال التى شــرع القرآن فى صددها أحكام الجهاد. وظل الرسول ﷺ هو الرسول، كما يعرفه المؤمنون به، مختار الله ومصطفاه بالقرآن إلى البشــرية جمعاء، حماه الله وكفاه أعداءه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانــة وظهــر دينــه على الديــن كلــه (...إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ). ما أعظــم أن يدرك الإنســان إدراكا مصدره الله ســبحانه وتعالى أنه على الحق المبيــن، وأن ما يدعو إليه النــاس هو الحق الــذى لا ريب فيه، وقــد كان هذا هو موقف الرســول ﷺ فهو حينئذ ثابت ومثبت، يبنى على قواعد دائمة موصولة بالدائم ســبحانه وتعالى. ويؤسس على دعائــمَ قويــةٍ موصولــةٍ بالقوى ســبحانه وتعالى، لا يتزعــزع بنيانــه أو قواعد بنيانه الإســلامى القرآنى بأى تشــكيكات من المعارضين الكفار أو أعاصير معارضتهم التى تدفعها ســيكولوجية النفس الأمارة بالســوء أو الحالمة فى الأوهام أو المطيعة للهوى المضل. ومن ثم فإن عنصر الاســتقرار هذا ـ والــذى تفتقر إليه الدعوات الأخرى التى تنحــرف فيه هــذه الدعوات عن طريق قيــم ومبادئ الدين الخاتم بمــا فيها من حقوق الإنســان ومقوماتهــا مــن الحرية والإخــاء والكرامة والمســاواة والتقــوى والأخلاق والارتباط بذكر الله فى الفكر والسلوك ـ ترتكن إليه هذه الدعوة الرسولية التى تحمل كلام الله، فتســتمر فى البقاء على وضعها دون تأثير من واقع حياة مغاير ينحرف بها عــن قيمهــا ومثلها العليــا مهما تتابــع عليها الزمــان وتوارثتها الأجيــال المؤمنة عبر الزمان فى تاريخ الإنســان فى هذه الحياة الدنيا. فعند علام الغيوب يوجد الاســتقرار المســتقبلى لهذه الدعوة المرتبطة بالحق، ذلك الاســتقرار المطلوب لاســتمرار عملية البنــاء التمدنــى والحضارى الذى يســتند إلى الأفــراد المؤمنين بهذا الدين ورســالته، ويعيشــون فى معية الرســول حتى بعد موته بما يتجملون به من صفات أهل المعية، هؤلاء الرجال المؤمنون هم قوام الاســتمرارية المستقرة لدعائم وأسس الرسالة، وهى الاســتقرارية التى تتميز بها رسالة هذه الأمة القرآنية، والتى تفتقر إليها سائر العقائد والمناهــج ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ســبأ: ٤٨] وربمــا كانت صحوة المناهج المعاصرة فى التوجه نحو الحقوق الإنسانية والحريات المتصلة بها هى نوع مــن التقدم إلى الحق بعد الاقتناع بأن الباطل ما يبدئ وما يعيد ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ

ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ: ٤٩] بعد أن عاشت هذه المناهج فترات طويلة من الزمان وراء ستارها الحديدى فى ظل القهر والضغوط التى سلبتها مميزاتها النظرية وتحولت عند التطبيق فى واقع الحياة الدنيا إلى مناهج بعيدة عن الحق وبعيدة عن قيم وأخلاقيات ومبادئ الحق (﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ). ويوجه الرسول ﷺ فى النهاية الناس كلهم إلى اتباع الحق الذى جاء به فيما لو اقتنعوا ورأوه الحق فعلا، وأن لا يتبعوه إذا رأوا أن ما جاء يدعو به وإليه ليس هو الحق، ولكنه فى الوقت نفسه موقن حق اليقين أنه يدعو دعوة الحق موحاة إليه من عند الحق سبحانه وتعالى الذى يدرك أفعال وأفكار الناس ويراقب تفاصيل ودقائق مجريات الأحداث والأمور فى دنيا الناس (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ).



٢٥

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـورة الشـــورى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى: ١٥] .

مـرة أخرى يبين الله فى أسـلوب توجيـه الحديث إلى الرسـول ﷺ وبيان دوره بالنسـبة للرسـالة التى جاء يبلغها للناس كافة، يبين جانبا من الجوانب التى تتناولها هذه الرسالة الشـاملة المحيطة فيما جاءت به وفيما تناولته من موضوعات شملت كل ما يهم الإنسـان من متطلبات فكرية وسـلوكية. والحديث حين يوجه إلى الرسـول فى هـذا الموضوع فهو يهدف إلى إرسـاء قاعدة هامـة من قواعد هذه الرسـالة التى جاء الرسـول الخاتم يدعو إليها. والآيات التى سبقت هذه الآية موضع حديثنا، تلقى الضوء على المعانى التى تستهدفها الآية موضع هذا الحديث : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) ﴾ (الشـورى) وواضح من هاتين الآيتين أنهما تتناولان مسألتين فى الأساس :

الأولى : طبيعة ذلك الدين الذى جاء به الرسول الخاتم باعتباره على نفس النسق والمضمـون للديانات السـابقة منذ نوح وحتى بعثة الرسـول الخاتـم ونزول الوحى بالقرآن عليه والذى هو كتاب مصدق لما سبقه من الكتب السماوية.

الثانية : الاختلاف والتفرق والتحزب والتشيع الذى أصاب الأديان السابقة قد افسد جوهرها الأصلى الذى جاءت به الكتب التى حملها الأنبياء والرسل السابقون إلى أممهم وبصفة خاصة أهل الكتاب من اليهود وأتباع المسيح.

والأمران متلازمان. الاختلاف بين أتباع الديانات السابقة، وخاصة اختلاف أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين وانقسامهم وتفرقهم على الوجه الذى نعلمه الآن من تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية إلى فرق، وانقسام الفرق إلى أحزاب، وانقسام الأحزاب إلى أقسام، وانقسام الأقسام إلى جماعات... إلخ. ونذكر على سبيل المثال – بعد أن ظهر التنظيم الكنسى ممثلا لمفهوم دينى ودنيوى معين – الانقسام إلى الكنيسة الكاثوليكية اليونانية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة القبطية والكنيسة الأرمينية والكنيسة النسطورية.... وانقسام هذه الكنائس داخل كل منها إلى طرق وأقسام، ثم الانقسام الذى صاحب حركة الإصلاح اللوثرية التى ظهرت فى ألمانيا، ثم الانقسامات داخل المذهب البروتستانتى ذاته إلى شعب تبلغ الآن ما يزيد على المائتين والخمسين شعبة منها على سبيل المثال :

Adventists- Anabaptists- Baptists- Calvinists- Congregationalists- . Lutherans- Methodists- Presbyterians

حتى نصل إلى ما يسمون : Unitarians – Universalists

وهم قسمان لا يؤمنون بعقيدة التثليث التى قوامها الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس وإنما يؤمنون بإله واحد. وتفصيل هذه الانقسامات يحتاج إلى مؤلف وحده،ويكفينا هنا هذا القدر الذى يلقى ضوءا على ما تشير إليه آيات القرآن فيما يتعلق باختلاف أهل الكتاب. والقرآن يقرر أن أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ أى من بعد ما جاءهم العلم الذى حملته كتبهم وقوامه الإسلام لله الواحد إلى جانب تشريعات العهد القديم – التوراة – فى أمور الحياة. وفضلا عن ذلك كله، ما جاءهم من العلم بأمر النبى ﷺ الذى يجئ من بعد موسى وعيسى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت فى أعناقهم. وكان ذلك التفرق بسبب الطغيان الكهنوتى والكنسى الذى أقامه الكهنة والرهبان ورجال الكنيسة – خاصة البابوية – هيلمانا من القداسة

والسيطرة والهيمنة على عقول الناس وشئون أخراهم يقومون بدور الوساطة بين الله والعبــاد حتى صدق الأتباع الذين غاب عنهــم الحق فى صورته الأصلية القديمة نتيجة عوامــل كثيرة؛ فقد صدقوا ما يمليــه عليهم رجال الكنائس باعتبــاره الكلام الحقيقى الذى جاء به عيســى وموسى من قبله – عليهما السلام – بينما هما – عليهما السلام – بريئان مما حرفه هؤلاء الأرباب الكنســيون وأملوه أو فرضوه على الأتباع دينا أصبح يقترن به مصير الملايين من أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية ويصعب التغيير فيه الآن بما يوضح الحق، نتيجة عوامل تاريخية كثيرة وعوامل متصلة بالسبق الحضارى والمدنى المتضمن للسبق العلمى والتكنولوجى لأتباع الديانتين عن أتباع الدين الخاتم مــن ســكان دول العالم الثالــث. وقد كان فى مقــدور الله ســبحانه وتعالى أن يقضى بقضائه كما يظهر فى الأحداث الأرضية المتصلة بالحضارات وأصحابها..... والعقائد والأيديولوجيــات وأصحابهــا... ببيــان الحجــة القوية الســاطعة التى تظهــر خطأ ما يعتقدون بالنسبة لتوحيد الإله الواحد الأحد، وخطأ ما تفرقوا إليه وأسباب هذا التفرق وجوانــب الانحراف فيه وجوانب الضعف فى العقيدة والســلوك لديهــم، وبيان أوجه الحق فى ذلك كله بإظهار البشير الذى جاءت تبشر بظهوره هذه الديانات وهذه الكتب وخاصة التوراة والإنجيل، ولكن الله شاء أن يبعث الرسول الخاتم الذى بشر به موسى وبشــر به عيســى كل فى زمانه ومكانه من تاريخ الأرض وصلة الإنسان بهذا التاريخ. وفى الفترة الزمنية والمكانية التى أراد الله تم فعلا إظهار الحق الذى زهق معه الباطل الــذى اعتقده أهل الكتاب فى ذات اللــه – التثليث – من قبل، وكان ظهور هذا الحق هو ظهور هذا النبى ﷺ بالكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، يبين لأهل الكتاب كثيرا مما أخفى رجال الكنيســة من حقائق كتبهم على أتباع السيد المسيح، وكثيرا مما حرفوه فى كتبهم، ويبين لهم الحق بالنسبة لكثير مما اختلفوا فيه، وأسباب هذا الاختلاف، وأوجه الضعف والانحراف فى العقيدة تجاه الإله، يدعوهــم إلى مفهــوم واضح لهذه العقيدة التى قوامها لا إلــه إلا الله، من خلال الكتاب الجامــع الذى يحمــل كلمة الله الأخيرة إلــى الناس، باقية إلى يوم حســاب الناس على المضمون الحرفى واللفظى والمعنوى الذى نزل به هذا الكتاب على قلب النبى الخاتم، بكل المفاهيم والمقومات التى تنبنى على التوحيد ومفهومه الواســع الشــامل المحيط بحياة الإنسان ونشاطه وأهدافه فى الوجود وصلته بالكائنات فى هذا الوجود.. توحيد فــى الكلمــة.. وتوحيد للكلمــة..(فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ) ولتقترن الدعــوة النظرية فى مجالها

الفكرى بالسلوك التطبيقى فى المجال الواقعى فى معترك الحياة. والرسول ﷺ يبلغ هذا النظر الفكرى، كما أنه قدوة ذلك السلوك التطبيقى فى المجال الواقعى فى معترك الحياة... خلقه وتصرفاته يمثل المنهج النظرى القرآنى فى الصورة الواقعية البشرية، وليصبح الرسول قدوة لمجتمع ينبنى على التصور التوحيدى الشامل الذى جاء به القرآن فى أمور العقائد تدعمها العبادات وتدعمها القيم والأخلاقيات وتدعمها الأحكام والتشريعات (وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ). ولا يجوز وقد ظهر الحق على يد هذا الرسول، أن يؤثر فيه الباطل أو أن يتأثر هو بالباطل، فالكتاب الخاتم نور وفرقان بين طريق الحق وطريق الباطل، الأول يمثله الإيمان بالإله الواحد وتطبيق منهجه، والثاني يمثله الكفر أو الشرك بالإله الواحد وترك منهجه جملة واحدة..وهما طريقان لا يلتقيان، لا فى حاضر الدعوة وقت نزولها وإبلاغها، ولا فى مستقبل الدعوة عبر أجيال المؤمنين بها فى تعاقب الأزمان على الأرض ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦].

والمهم أن يظل الدين الخاتم يملك زمام المبادأة ويؤدى دوره فى توجيه أهله وأهل الأرض جميعا نحو قيمه ومثله ومفاهيمه، وألا يفقد زمام المبادأة، وألا يلين ويضعف أمام هجمات الكفر والشرك أيا كانت أساليبها وأشكالها وصورها (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) دعوة للتعايش وعدم الاعتداء أو التدخل بين كل الديانات وأصحابها فى إطار التمسك بالحق القرآنى وعدم التخلى عنه وعدم الاستجابة لما يريده غير المؤمنين من المؤمنين تجاه مبادئ وقيم دعوتهم.... فلكل فريق أهدافه ومبادئه ومصالحه واتجاهاته التى يستحيل جذب الفريق الآخر إليها وإلى التمسك بها أو اتباعها نتيجة عمق جذور أسباب الخلافات وتشعبها واختلاف المصالح بإزائها (لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ) والحكم الفيصل بين المختلفين وخلافاتهم هو الله سبحانه وتعالى الذى يفصل فى الدنيا والآخرة بين الناس فى معتقداتهم وفى سلوكياتهم وإليه يرجع الأمر كله فى الدنيا وفى الآخرة.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

هـذه الآية مـن أهم الآيات التى تبين قـدرة الطاقة الروحية الكبيـرة الفريدة التى كان يتمتع بها رسـول الله ﷺ. ومحور الآية يدور على هذا السـمو الروحى للرسـول الـذى جعلـه يتلقى الوحى القرآنى ثـم تختلط به روحه اختلاط تلقٍّ يعتمد سـموا فى الإدراك والوعى البشرى بصورة لا يعرف قدرها الحق أى إنسان لأنها تخرج عن مجال التجربة والاختبار الإنسـانيين، وهى تتصل بشـخص بعينه هو الرسـول الخاتم الذى عـاش وحده هذه التجربة من التلقى لكلام الله. هـذا الاختلاط فى التلقى تم بين روح الرسول والروح القرآنى بواسطة الروح الأمين أو الروح القدس المسمى جبريل.

فهـى إذن علاقة روحية بحتـة بين هذه العناصر الثلاثة، تمتـزج جميعها لتخرج إلى منطق البيان الإنسـانى، ذلك الروح القرآنى فى صورة كلمات بالبيان العربى. فهنا يحصل التلقى بواسـطة الروح الأميـن أو الروح القدس من جانب الروح المحمدى فى درجـة من الوعى ما زلنا عاجزين عن معرفـة دقائقها وخصائصها. ويذكر القرآن فى موضع آخر عن نـزول هذا الوحى القرآنـى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الشـعراء: ١٩٥] ويفسـر القـرآن فكـرة القلب فى آيـة من آياتـه بالعقل؛ أى القدرة على إدراك الأشـياء وفهمها وتذكرهـا والتعبير عنها بالبيان اللغوى... إلى آخر صفات العقل المتصلة بالمخ والجهاز العصبى فى الإنسان.

والمقصـود بالقلـب إذن هو ذلك المعنى مـن الوعى المدرك أو العاقـل. وتعبير القلب يعنى بالذات درجة أو مستوى من إدراكه لذاته.

فقلب الرسـول الذى تلقى الوحى أو نزل عليه الوحى هو إذن ذلك المسـتوى من الوعى المتغلغل فى أعماق العقل فى مستوى يعلو حدود الحس التى تحكم نشاط المخ والحواس بما نعرفه من العقل ومراتب الوعى المتصلة به من خلال تفاعل الحواس مع العالم الطبيعى مع المخ أو الوعى الروحى، وهو مستوى يصعب جدا وصفه ولا يمكن أن يدرك مداه ويعبر عن تجربته بالكلمات قدر الإمكان غير الإنسـان الذى يعيش مستواه من التجربة الفعلية، ومن هنا فهو أمر يتعلق بالرسـول ﷺ شـخصيا. ويوضح القرآن أسلوب الاتصال الكلامى أو أسلوب نقل الكلمات الإلهية إلى البشر فى الآية التى تسبق الآيتيـن اللتين أشـرنا إليهما أعلاه وهما موضـع هذا الحديث، فيقـرر ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الشورى: ٥١].

هذه أساليب ثلاثة لنقل كلام الله سبحانه وتعالى:

الأول: الوحـى: ويكـون فـى اليقظـة بالإلهام أو فـى المنام بالرؤيـا كما حصل لإبراهيم مع ابنه إسماعيل.

الثانـي: من وراء حجاب : فهو كلام بلا واسـطة ناقلة وتنتفـى معه الرؤيا؛ لأنها مسـتحيلة فـى الدنيا كما نعرف من تجربة موسـى حين اندك الجبـل لما تجلى له ربه بعد أن طلب موسـى رؤيته ـ سـبحانه وتعالى ـ بعد سـماعه للكلام من وراء حجاب. أمـا الحجـب فهى كثيرة ومتصلـة بأبعاد العالـم الطبيعى وتركيباته فـى اتصال ذلك بالحواس البشرية. وهذا الأسلوب من نقل الكلام حصل للرسول ﷺ فى المعراج دون أن تصاحبه رؤيا لذات الله سـبحانه وتعالى وإنما كان مقام الوعى الروحى للرسـول أعلى من مثيله لدى موسـى، ومن هنا شـهد الرسول كبرى آيات ربه، وعندما سأله أبو ذر الغفارى عن رؤيته لربه قال فيما روته لنا كتب السـنن : نور أنّى أراه " أو " رأيت نورا ". فموسـى أونس بالكلام فـى حضرة الجمال النورانية ولم يتحمل قوة وشـدة النور فى حضرة الجلال فخر صعقا عندما تجلى ربه للجبل، بينما النبى ﷺ كان فطنا

لمقام الحضرتين؛ الجمالية والجلالية، وتحقق بالثبات لدى الأنس بالحضرة النورانية الجمالية فرأى كبرى آيات ربه مما لم يره موسى الذى طلب رؤية الله تعالى وهو ما لم يطلبه محمد الذى ثبت فى مقامه من القرب والدنو من الحضرة الإلهية الجمالية النورانية فلم يتعد حدوده؛ فما زاغ بصره وما طغى وإنما رأى الكبرى من آيات ربه متجاوزا قدر الروح الأمين جبريل ذاته الذى وقف عند السدرة وتجاوزها محمد ﷺ إلى مقام قاب قوسين أو أدنى وعندها أوحى الله إلى عبده ما أوحى.

الثالث : عن طريق إرسال رسول يبلغ وينقل الكلام الإلهى وهذا هو أسلوب التلقى بالنسبة للأنبياء حيث كان الروح الأمين أو الروح القدس المسمى جبريل ينقل إليهم كلام الله عن طريق الوحى.

هذه هى الأساليب الثلاثة التى يتم بها نقل أو انتقال كلام الله للبشر المصطفين، ومن هنا فان الآية محل حديثنا تبدأ بتعبير (وَكَذَٰلِكَ) أى وبهذه الطرق من نقل الكلام الإلهى إلى البشر (أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وكان نقل الكلام الإلهى إلى الرسول يتم عن طريق الأسلوب الثالث حيث كان جبريل هو واسطة نقل القرآن من الله تبارك وتعالى إلى الرسول.

أما أسلوب « الوحى » – وهو الأسلوب الأول من الأساليب التى ذكرنا – فقد ذكر له الإمام ابن قيم الجوزية[١] طرقًا أربعة :

(١) ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ».

(٢) أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول.

(٣) أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

---

(١) في كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد.

(٤) أنـه يرى الملك فـى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شـاء الله أن يوحيه. وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم. (انتهى)

والآيـة تذكـر ﴿ ...مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ...﴿٥٢﴾ ﴾ [الشـورى: ٥٢] ومعـروف أن الرسـول ﷺ كان يدرك وجود كتب سـابقة لليهـود والنصارى، وكان يـدرك إيمانهـم بكتبهم هذه. فهو إذن كان يعلم شـيئا عن كلام اللـه وعن الإيمان به... ولكـن المقصود من « (ٱلْكِتَٰبُ) هنا يتصل إذن بما سـماه القرآن روحا من أمرنا وهو مستوى الرسول فى التلقى، والذى حين يعايشه فى لحظات التلقى للوحى فإنه يدرك عنده، عن شهود تجريبى، حقيقة الكتاب وحقيقة الإيمان؛ الإيمان عن مستوى للشهود من خـلال تجربة التلقى بالامتزاج الفكرى بالوعى، فى ذلك المسـتوى العالى الفريد، بالوحى القرآنى فى صلة بالروح الأمين أو الروح القدس المسمى جبريل. ومن هنا فان المعنى الذى يريد القرآن نقله إلينا فى هذا الخصوص بالذات هو ذلك القدر من الوعى الروحـى العالى الفريد الذى جعل الرسـول فى مسـتوى أمكنه فيـه أن يتصل بالروح الأميـن أو الـروح القدس ويتلقى عنه الروح القرآنى الذى هو كلام الله أساسـا، يتلقاه وهـو فى أعلـى درجات الوعى المركز الممكن لبشـر. وهو الأمر الذى يفسـر الطبيعة الروحية والبشـرية فى آن واحد للرسـول الخاتم وهما ليسـتا طبيعتين – كما ينسب البعض إلى المسيح مثلا – وإنما طبيعة واحدة عبدية تتفاوت فيها المستويات من قمة الوعى فى الروحية السراجية المنيرة إلى الوعى فى المستوى البشرى المعروف، وهما مسـتويان للعبدية الرسـولية لمحمد صلوات الله عليه وسـلامه. فمحمد ﷺ فى ثوبه البشـرى لم يكن يتحلى بهذا المسـتوى العالى الفريد من الوعى الروحى الذى يشـير إليه تعبير « القلب » حين نتصور تلك الحالة من الوعى التى تعتبر نواة الشـخصية أو حقيقة الذات الفردية. ومن ثم فهو فى هذا الثوب البشرى ما كان ليدرى ما هى حقيقة ذلك الكتاب ولا حقيقة الإيمان وهو ذلك الشـعور الواقر فى القلب الواعى نتيجة العلم والتجربة والشـهود، والذى ينتج عنه السـلوك الإنسـانى المعبر. أما بعد نزول الوحى القرآنى وسـمو الرسـول إلى هذا المسـتوى العالى الفريد من الوعى فى أبعاد أعماق الذات المحمدية بسراجيتها المنيرة، فإنه بالطبع كان يدرى ما الكتاب وما الإيمان؛ لأنه عـاش تجربة التلقى عبر كل مراحلها حتى نزلت خواتيـم الآيات، وكان يبلغ ما يوحى

إليــه – متعجلا أحيانــا – ويبين مع الإبلاغ ما ينطق به من آيــات القرآن عن غير هوى وإنمــا بوحى يوحى.. فالآية هنا فيها فــى الحقيقة بيان لعلو قدر طاقة محمد الروحية التى يعبر عنها القرآن بالسراج المنير؛ ولذلك فهى – أى الآية – تقرر بعد ذلك مباشرة الحقيقة النورانية لذلك الكتاب سواء فى مستواه الروحى فى الكتاب المكنون أو اللوح المحفوظ أو أم الكتاب، أو فى مستواه البيانى العربى باللغة المنطوقة أو المقروءة أو المكتوبة، يهدى به الله من يشــاء من عباده، والرســول ﷺ هو الذى يتلوه ويهدى إليه باعتباره الإســلام الذى يعبر عن الصورة الصحيحة الكاملة للتمســك بالدين الحق فى صورته القرآنية الختامية، وهى الصورة المعبرة عن إرادة الله لكيفية التدين بالإسلام للــه وحده الذى يملك زمــام الخلق كلهم والمخلوقات كلها، والــذى إليه يعود أمر هذه المخلوقات ليفصل بين المكلفين من العباد يوم الحساب الأعظم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الشورى: ٥٣].



٢٦

في معية الرسول ﷺ

في

ســـورة محـــمد



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩]

أعلى قدر فى الموحدين وأمامهم يؤكده القرآن فى تقريره السالف – توحيد عن علم، وهو يقتضى الرؤية للآيات الكبرى التى يتقرر بها التوحيد، لأن العلم عن شهود هو أعلى مراتب العلم. وقد رأى الرسول ﷺ كبرى آيات الله فى إسرائه ومعراجه وشهد حينذاك أنه لا إله إلا الله. وهنا يأتى القرآن ليقرر العلم بهذه الحقيقة إلى جانب شهودها، فيجتمع عند الرسول الشهود والعلم بوحدانية الله تبارك وتعالى، ويكون المقصود هنا بيانًا لمستوى الرسول الفعلى الذى هو عليه من العلم عن شهود بحقيقة التوحيد الكبرى الخالدة أنه لا إله إلا الله ليستمر ويداوم على شهوده وعلمه بهذه الحقيقة الخالدة.

وقد ذكر النص هنا لفظ (الذنب) مقرونا مرة بالرسول ومرة بالمؤمنين ومرة بالمؤمنات. والثلاثة يختلفون فى المستوى العلمى والشهودى لحقائق التوحيد الذى يختلط عند البعض بأوحال كثيرة.

قال فيها الإمام أبو الحسن الشاذلى : (وانشلنى من أوحال التوحيد إلى فضاء التفريد المنزه عن الإطلاق والتقييد، وأغرقني فى عين بحر الوحدة شهودا حتى لا أرى ولا أجد ولا أحس إلا بها نزولا وصعودا...) (وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) وما دام القرآن استعمل هذا اللفظ صراحة فلا نستطيع أن ننفيه عن الرسول وإنما نحاول أن نفهمه فى إطار مقام الرسول الفريد فى مرتبته من حيث العلم والشهود بحقائق التوحيد، تلك الحقائق التى سبقت تعبير الاستغفار للذنب نفسه متصلا بها وبذلك يصبح الأمر

منظور ا إليه من ناحيتين :

الأولى: بالنســبة للبشــر كافة. وهنا لا ذنب فى حقيقة الأمر؛ لأن الرسول معصوم من الذنب بالقياس البشــرى العادى فهو ســيد الطائعين وإمــام المصلين وقدوة المستقيمين، فلا ذنب له بالقياس والمنظور البشرى العادى.

الثانية: بالنســبة لله ســبحانه وتعالى. وهنا الميزان دقيق أشد الدقة متصل بمقاييس عظيمة بل بالغة العظمة والدقة من حيث القدر.

فالذنب هنا هو فى إطار الطاعة فى حقيقة الأمر أى أنه ليس ذنبًا كالذنوب التى تقع من البشر العاديين، ولكنه ذنب بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى الذى يريد من رسوله الاســتمرار فى الظاهر والباطن على مســتوى عال بل هو أعلى مستوى من علم حقائق التوحيـد للألوهية وهو مقام ينفرد به الرســول ولا نعلم نحن دقائقه وتفصيلاته، لأن أحدا لم يدانِه فى هذا المقام بل انفرد به هو ﷺ فى صلة عليا بالله تبارك وتعالى بالعلم – فى هذه الآية – وبالشــهود فى آيات الإســراء والمعراج. فالذنب هنا هو فى الحقيقة انتقال من مرتبة إلى مرتبة أعلى فى علوم التوحيد، وترق من درجة إلى درجة أعلى فى هذه العلوم بحيث يكون الأمر بعد الانتقال والترقى وكأنه ذنب كان فى المقام والمرتبة التى تم الانتقال منهما والترقى لما يليها علوا وارتقاء فى مقامات العلم التوحيدى وفى المأثور «حسنات الأبرار سيئات المقربين». فلتدرك البشرية هذه الحقيقة وتعيها جيدا لتدرك أن الرســول هو أكثر الناس علما بحقائق التوحيد وأكثرهم شهودا للآيات الدالة على حقيقته؛ أى التوحيد وبذلك يكون ﷺ فى مقام القدوة لكل الناس، وفى مقدمتهم المؤمنــون والمؤمنات الذيــن تتفاوت درجاتهم من العلم والمعرفــة بحقائق التوحيد. وهى كلها فى مرتبة أدنى من مرتبة الرســول، ولذلك أمره ربه أن يســتغفر للمؤمنين وللمؤمنات الذين قد يقعون فــى أوحال الذنوب من خلال محدودية معرفتهم وعلمهم بأســرار التوحيد ومراتبــه ومقاماته وهــو ما تنص عليــه الآية ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِۗ﴾ ويكون فى ذلك تقرير لقرب الرســول من ربه ووســاطته عنده للمؤمنين والمؤمنات: لأنه أعلم بالله منهم وأكثرهم معرفة بجنابه المنزه وأتقاهم له وأخشــاهم له وهو بهذا الدور رحمة للعالمين؛ رحمة للجان ورحمة للملائكة ورحمة للروح الأمين. ولذلك جاء بعد الآية التى هى موضع حديثنا هنا فى نفس ســورة محمد أمر الله ســبحانه وتعالى

للمؤمنين والمؤمنات باتخاذ الرسول إماما وقدوة تجب الطاعة له كما تجب لله تعالى، والى الدرجة التى يمكن أن تكون فيها معصية الله ورسـوله مؤدية إلى إحباط الأعمال كلها أو إبطال الأعمال كلها فى السلوك الفردى لكل إنسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (محمد) .

التوحيـد هو شـهود الأحدية متجلية فى الآثـار الكونيـة؛ لأن إدراك ذات الله غير ممكـن حيث إنه تبـارك وتعالى لا تدركه الأبصـار، ولذلك كان طريـق التوحيد الآمن هـو التفكر فى آلاء اللـه لا التفكر فى ذات الله. ولذلك أيضا ترتبط مسـتويات التوحيد بمسـتويات العلم بمخلوقات الله فى الكون وسـننه التى ينتظم عليها أمر الوجود بكل مراتـب الكائنات والموجودات فيه. ولا يزال العلم فى ترق. وأعتقد – والله وحده أعلم – أن الرسول مر فى مستويات متتالية فى عروجها نحو الأعلى من المعرفة فيما يتعلق بحقيقـة توحيـد الله. أى أنه ارتقى فى علمه التوحيدى من مرتبة إلى مرتبة أعلى حتى وصل إلى قمة مرتبة العلم الممكن بالنسبة للبشر، فضلا عن البشر المصطفين بالنبوة والرسـالة الذيـن يتلقون المعرفة بوحى الله وهو علم مقترن بالشـهود أو المشـاهدة بقدر العلوم وهما العنصران اللذان باقترانهما تتحقق المعرفة الحقة فى أرقى مراتبها اليقينيـة التى لا يدخلها شـك، وهى المرتبة التى يأتى فى بيانها هذا النص فى سـورة محمـد (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) وهـذه الآية ضمن سـورة مدنية – باسـتثناء الآية ١٣ منهـا التـى نزلت فـى الطريق أثنـاء الهجرة – وكان الرسـول ﷺ قد تحقق بشـهود الأحدية فى مقام إسـرائه ومعراجه شـهودا هو عين اليقين وحقه. وفى هذه المرحلة من مراحل حياة الرسـول الروحية تحقق ﷺ بالعلـم الكامل بحقائق التوحيد وأصبح فى المنزلة العليا من منازل العلم التى تتنزل فى التدرج إلى المراتب التى يعلمها غيره من المؤمنين ومن العلماء. أما الاستغفار للذنب الذى ورد فى هذه الآية فليس المقصود منـه الذنوب المعروفة للإنسـان العادى، والتى فيها خروج عـن أمر الله أو طاعة الله، فحاشـا أن يكون الرسـول فى مقامه المختار مذنبا. وإنما الذنب المقصود هنا – والله أعلـم – هـو الوجود فى حالة روحيـة – فى الفكر والنفس – فـى درجة من العلم أقل من الدرجة التى كان سـيصل إليها الرسـول بفضل الله وإرادته. فبعد وصول الرسول إلى أعلى مراتب العلم المتاح أو الممكن للإنسـان العالم المؤمن، اعتبر الله ما سبق من

مراتب العلم التى كان يقف عندها الرسول – ذنبا يجب أن يستغفر منه الرسول. انظر بذلك كم كانت حياة الرسـول الروحية قريبة من رب العالمين..... وكم كان علو القدر الذى تميز به هذا الرسـول، خاصة من دون سـائر البشر عند الله رب العالمين. إن الله قد رقى ذات الرسول فى طاقاتها الروحانية لاستقبال الوحى القرآنى ابتداء، ثم مازال هذا الاسـتعداد الروحى يرتقـى حتى وصل إلى درجة خصوصيتـه فى المعراج حيث دنا فتدلى فكان قاب قوسـين أو أدنى وعندها أوحى الله إليه ما أوحى. وفى إطار هذه الحركـة الارتقائية للـروح المحمدى كان الارتقاء العلمـى والمعرفى بحقائق التوحيد التـى تتصل بحقيقة الإله الخالق حتى بلغ محمد قمة مراتب العلو وعاش فى مسـتوى من العلم، لا يدركه غيره، بحقائق التوحيد الذى كان يدعو إليه.

وقد أمر الرسـول أن يسـتغفر للمؤمنين والمؤمنات أيضا، من محدودية علومهم مـن حيث كان يراها الرسـول من علـوه المعرفى عن طريق الوحى رغـم كونه أميا لا يقـرأ ولا يكتـب. فعلوم المؤمنين والمؤمنـات حينئذ كانت مرتبطـة ومتصلة بالقرآن فى الأسـاس. وكان الرسـول أكثر الناس علمـا بحقائق القرآن ومعارفـه التى تناولها فى الإطار الشـامل فى مضمون ﴿ ...مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ...﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وكانت درجات المؤمنين والمؤمنات تتفاوت فى فهم آيات القرآن وفى المعرفة العلمية بحقائق التوحيد بمراتبها المختلفة. والإيمان يختلف عن العلم. والجمع بين الاثنين هو المطلوب. والعلم يمكن أن ينتج عن الإيمان والتقوى وإن كان العلم يمكن أن يؤدى إلى الإيمان إلا أنه يمكن أن يؤدى إلى عدم الإيمان.

ولذلك ذكر بعض الفلاسـفة المسلمين أن الإنسـان ليس فى حاجة إلى العلم لكى يؤمـن، ولكنـه فـى حاجة إلى الإيمـان لكـى يعلـم ﴿ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ...﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقـرة) فالمؤمنون والمؤمنات ليـس لهم فى الحقيقة ذنب من خروج على طاعة الله أو رسـوله، وإنما الذنب هو مسـئولية عدم إدراك المراتـب العليا من العلوم التوحيدية، سواء عن قدرة أو عدم قدرة،ولهذا السبب قرن الله استغفار الرسول لنفسه باسـتغفار المؤمنين والمؤمنـات الموحدين لله، ولكن دون المرتبـة العليا من مراتب المعرفـة التوحيدية مع ملاحظة علو مقـام النبى على الخلق قاطبة، حيث هو المقبولة شـفاعته للمؤمنين واسـتغفاره لهم، ولا أحد أعلى منه مقاما فيسـتغفر له الله، حاشـا

وكلا وهو ﷺ صاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة.

ثــم جاء تقرير﴿ ...وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد: ١٩] أى يعلم جميع أحوالكــم التى تكونون عليها فى علاقاتكم بالله ســبحانه وتعالى علما وتوحيدا وعملا فى الدنيا، سواء كانت هذه الأحوال باطنة فى النفس أو ظاهرة فى القول ومنعكسة فى الســلوك، ويعلم أخطاء يمكن أن يقع فيها المؤمنون والمؤمنات ويشفع فيها استغفار الرســول لهم. فالله تبارك وتعالى لا يخفى عليه أمر باطن فى السر أو ظاهر فى العلن مــن أمور المؤمنيــن والمؤمنات وســائر الخلق أجمعيــن، أى يعلم ســرهم ونجواهم، ومتقلبهم ومثواهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد: ٣٢-٣٣].

قرن الله تبارك وتعالى ثلاثة أمور كلها تؤدى إلى نتيجة جزائية معينة هى «إحباط العمل» وتعنى الخسارة فى النتيجة النهائية للأعمال فى الدنيا والآخرة على السواء. هذه الأمور الثلاث هى :

١- الكفر.

٢- الصد عن سبيل الله.

٣- شقاق الرسول.

وهى أمور توضح حقيقة مقدار ومقام هذا الرسول من مجموع البشر أجمعين عند الله تبارك وتعالى... وهو مقدار شدة القرب من الله وقوة الصلة به بما يجعل من يشاقق الرسول بعد الإقرار الباطن بصدق رسالته، وكذلك الكفر بالله والصد عن سبيل الله، كلها أمور تؤدى إلى نتيجة واحدة هى إحباط العمل فى الدنيا والآخرة. إحباط فى الدنيا بأن لا تؤتى هذه الأعمال النتائج التى كانت تستهدفها فى الوقوف أمام تعاليم الرسالة التى جاء بها محمد ﷺ، والتى كانت - ومازالت - تقوم على الإيمان بالله الواحد تبارك وتعالى وبيان تعاليمه القرآنية ومنهاجه القرآنى الذى يصل الإنسان - فى سلوكه فى الأرض - بالله رب العالمين وبتعاليمه القرآنية ومنهجه القرآنى. وإحباط فى الآخرة بأن لا تزيد هذه الأعمال فى ميزان الخير الربانى الدقيق أى مثقال، بل تجد فى ميزان الشر ثقلا يهوى بأصحابه إلى عذاب الحريق.

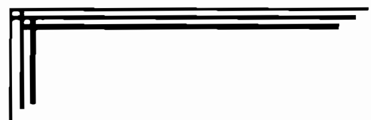
أما أسباب هذا الإحباط للعمل فهى كما قلنا مرتبطة جميعا فى حقيقة الأمور لأنها كلها تعبر عن نفسية معينة فى نوع معين من البشر. نوع يحب الاستئثار بما استحوذ عليه أو أقام فيه من سلطة أو مال أو جاه ويخشى أن تضيع منه هذه العناصر التى تعلى من شأنه بين الناس أو تعلى من قدره فى نظر الناس. وكلام الناس ونظراتهم وأحاديثهم هى التى تهمه فى المقام الأول ولا يهمه أن يرضى الله أو يسخط.. ونفسية فيها من نوازع الشر والأضرار ما تمثله صفات فى النفس كالحسد أو الحقد أو حب الرئاسة أو حب المال أو حب الحياة أو الكبر.. وكلها أمثلة فقط لنوازع غريزية فى النفس يحركها الشيطان الذى يتصل بهذه النفس اتصال وسوسة تحركها إلى اتجاه الشر فى الأرض بكل ما يدخل فى إطار الشر من معان واسعة تتسع أيضا باتساع أنماط السلوك والعمل والمسئولية فى المجتمع المعاصر الذى يتفرع ويتكون فى بنيانه إلى كيانات كثيرة ومعقدة فى تشابكها وصلاتها أشد التعقيد. إن هذه النفسية التى تدرك فى قرارها "الحق" ولكنها للأسباب التى ذكرناها آنفا كأمثلة للنفس الأمارة بالسوء، تمتنع عن الإقرار فى الظاهر من أمرها وأمام الناس بهذا الحق الذى تبين لها وعرفته فى الباطن من أمرها. إن القيود التى تفرضها التقاليد المتوارثة وأنماط السلوك المتعارف عليها وتأثيرات العرف والبيئة بما يضغطان به من تأثيرات على الإنسان – سواء كان مصدرها المال أو السلطة أو الجاه... إلخ – كل هذه الأمور تجعل من الصعب على النفس البشرية أن تعلن على الملأ – القريب والبعيد – إيمانها بالحق الذى أوحاه الله قرآنا إلى رسوله حتى بعد أن يكون هذا الحق قد تبين لها واضحا جليا. إن حمل الإنسان نفسه على عدم مشاقة الرسول يحتاج إلى إيمان قوى بالله رب العالمين وإيمان قوى بأن القرآن الذى أوحاه الله إلى رسوله الخاتم ﷺ هو سبيل الله الذى أراد للناس أن يسلكوه ويستقيموا عليه ويثبتوا عليه. أما الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وخالفوا الرسول بل حاربوه من بعد ما تبين لهم الهدى، فإن هؤلاء سيحبط الله أعمالهم فى الدنيا والآخرة وهم مع ذلك كله ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأن الله تبارك وتعالى يجرى أمور الدنيا والآخرة بتقدير أزلى. وحوادث التاريخ الأرضى مقضية بقضاء الله وقدره فى الخير كما فى الشر. والكفر بالله وبرسالته القرآنية، والصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول، كل ذلك لن يغير من إكمال تبليغ هذا الحق القرآنى وإكمال

واكتمال الدين وإتمام النعمة الربانية على الإنسان بهذا الاكتمال للتبليغ بالقرآن الذى جاء دستورا لهذا الدين الخاتم لسلسلة التشريعات الإسلامية قبله بفروعها السابقة جميعا كما يظهر فى تقرير القرآن ﴿ ...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾[المائدة: ٣]. وكنوع من العظة يريد القرآن أن يبرزها للمؤمنين يستمد السياق القرآنى ببيان الصلة القوية بين الله ورسوله بما حمله هذا الرسول من الوحى القرآنى وفيما يمثله اتباع هذا الرسول والاستجابة له وللهدى الذى جاء به من نتيجة حتمية فى الدنيا والآخرة، والتى تتمثل فى أن تؤتى الأعمال الصالحة؛ أى الأعمال فى مجال الخير الواسع الشامل، لنتائجها من المصلحة العاجلة فى الدنيا والمصلحة الآجلة فى الآخرة. وهى كلها نتائج تستتبع بالضرورة « طاعة » الله و« طاعة » الرسول ﷺ أى « طاعة » القرآن (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ). وكما ذكرنا من قبل فإن أعمال الشر تتسع باتساع أنماط السلوك والعمل والمسئولية فى المجتمع المعاصر الذى يتفرع فى بنيانه إلى كيانات كثيرة ومعقدة فى تشابكها وصلاتها أشد التعقيد. كما أن أعمال الخير تتسع أيضا بنفس القدر والدرجة فى المجتمعات المعاصرة. وتوجيه أعمال الخير بتصريفها بحسن نية فى صلح مع الله وإخلاص النية نحوه يعتبر أساس معنى الخير فى إطاره الواسع الشامل الذى يدخل فى إطاره – على سبيل المثال – إتقان العمل فى أى موقع من مواقع المسئولية... فى الحقل والمصنع والمكتب والمستشفى والمدرسة والجامعة وفى مؤسسات السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية وفى العمل العسكرى أو التخطيط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى... إلخ. فالصلح مع الله فى هذه المواقع كلها بإتقان العمل والإخلاص فيه وحب الخير للآخرين فيه مع الصدق فى الأداء.. كل ذلك يعتبر من أعمال الخير متى ارتبطت النية فيها بطاعة الله ليكون المجتمع الذى ينتمى إليه العامل فى الخير مجتمعا متقدما سباقا فى العلوم ومجالات تطبيقاتها التى تعود بالخير على جميع أفراد هذا المجتمع المصطلح مع الله تبارك وتعالى. والقرآن ملئ بالآيات التى توضح هذا المعنى الذى نقول به.



٢٧

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة الفتـــح



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ [الفتح: ١- ٣].

تبدأ الآيات بتقرير عظمة الإله بما يشمله ذلك من معانى الإحاطة والهيمنة والقيومية والقدرة فى الصلة بشخص هذا الرسول وبالأحداث فى الأرض ذات الصلة بشخص الرسول وبهذا الدين. ومن هنا كان الفتح الربانى فتحا يشمل الرسول نفسه فى شخصه ويشمل الدين الذى جاء يدعو إليه والأحداث الأرضية المتصلة به.

والرسول ﷺ ليس له ذنب من معصية كالذى اعتاد البشر على وصفها بهذا الوصف. فهو معصوم من المعاصى ومن ثم فإن غفران الماضى والمستقبل يعنى تقرير العصمة للرسول، بمعنى أنه لا يعصى ربه كمعاصى البشر ومن ثم فهو مغفور له ذنبه منذ الأزل إلى الأبد فى الماضى والمستقبل ويدخل فيهما الحاضر بطبيعة الحال. أما النعمة فهى الاصطفاء فى مقام القرب والاصطفاء بأداء الرسالة وتبليغ الوحى القرآنى الذى هو نعمة فى حد ذاته، وبذلك تتصل نعمة الاصطفاء الشخصى بنعمة التبليغ للوحى القرآنى فى صورة تتحد فيها معانى النعمة لتجمع الرسول والرسالة معا، وهذا هو المقام الذى تتحقق فيه الهداية الربانية إلى الصراط المستقيم، الصراط المؤدى إلى إرضاء الله ورضاء الله. والصراط المؤدى إلى حب الله ومحبة الله (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) وقد كان الرسول ثابتا ومثبتا على هذا الصراط، وهو قدوة المؤمنين وقدوة الناس أجمعين فى بيان الهداية إلى الصراط المستقيم والاهتداء إلى هذا الصراط.

لا يدانيه فيها مخلوق لا من البشر ولا من الجن ولا من الملائكة ولا من أى نوع ذكى آخر قد يكون فى أكوان الله الفسيحة الممتدة. تعدى الرسول مقامات التوحيد

كلهـا بكل وقائعها وارتقـى إلى مقام القرب الأعظم الذى لا مقـام بعده ولا درجة من القرب أعلى منه ممكنة لمخلوق وهو المقام الذى يشير إليه أمران:

١- غفـران ذنوب الرسـول كلها فى الماضـى والحاضر والمسـتقبل فأصبح بلا ذنب وهى إشارة إلى عليا المراتب من العلم والشهود بالتوحيد للألوهية.

٢- الفتح المبين من الله للرسـول وهو إعطاؤه خاصيـة القرب بالاختيار والاصطفاء قربًا لم يبلغه سابق فى وجوده ولا يبلغه لاحق على سوابق شهوده.

بهذين الأمرين تمت النعمة الكبرى على رسول الله ﷺ ولم يكن صلوات الله عليه وسـلامه ليرضى بأقل من ذلك درجة ولقد أعطاه الله إياها حتى يرضى، وفعلا رضى بهـا ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾[الضحى: ٥] وبهـذه النعمة الكبرى يكون الرسـول قد اسـتقام على الطريق الحق قربـا من الحق ويكون النصر فى واقع سـير تاريخ لأحداث فى الأرض أمرا مترتبا بالضرورة على هذا الذى اسـتقام عليه الرسـول وقـد حصل فعلا النصر الموعـود به كما نعلم من السـيرة النبوية العطرة (وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا). وإذا كان الأمـر كذلك فإن تعظيم هذا المصطفى المختار من الله يكون أمرا بديهيا بل واجبا متصلا بتعظيم الله ذاته الذى اختار واصطفى هذا الرسـول السـراج المنيـر ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح: ٩] ويقترن توحيد الله بالإيمان بهذا الرسـول (لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وتكون نتيجـة اتصال الأمرين هى عبادة الله وحده العبادة الحقة وتسـبيحه التسـبيح اللائق بجنابه المنزه (وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ويكون الرسول قد اختير للإنابة عن الحق تبـارك وتعالى، ولذلك جـاء النص القرآنى التالى للآية محـل حديثنا هذا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ [الفتـح: ٨-١٠] مـن منطلق التعظيم لله تبارك وتعالـى الذى يفهم من لفظ (إنا) يجيء القرآن مقررا حقيقة أمر الرسـول بالنسـبة للإنسـانية كافـة وليس بالنسـبة لطائفة محددة

مــن الناس... فهو رســول رب العالمين إلى الناس كافــة بخصائص ثلاث بارزة تكون السـمة العامة الأصيلة فى دور هذا الرسول تجاه الإنسانية كافة، من الإله الذى اختاره واصطفاه وأهَّله وأعده ليؤدى هذا الدور الذى يتصل بدوره بالخصائص الثلاث البارزة التى أشرنا إليها وهى كون الرسول:

- شاهدا.
- ومبشرا.
- ونذيرا.

فهو شــاهد على الخلق المكلفين بالرســالة من ذوى العقــول المدركة الواعية من كائنــات مثل الإنســان والجن. وشــاهد على الناس كافة حتى أتباع الرســل الســابقين وخاصة أتباع موسى وعيسى الذين انحرف بهم كهنتهم وقسسهم ورهبانهم، من ذوى النفوذ الدينى المؤثر، عن جادة الحق كما جاء فى الإنجيل الأصلى الذى حدث به عيسى عليه السلام وعن التوراة الأصيلة التى حدث بها موسى عليه السلام، ولا يعنينا هنا من أمر هذا التحريف شئ؛ فكل إنسان مسئول فى النهاية عن نفسه وحسابه شخصى يوم القيامة. وإنما الذى يعنينا بالدرجة الأولى كون الرســول الخاتم شــاهدا على أصحاب العقائـد والديانـات المختلفة من يـوم بدأ الوحى يتنزل عليه وإلــى يومنا هذا؛ حيث لا يــزال الوحــى الذى نــزل عليه محفوظا قرآنــا عربيا غير ذى عوج لا يأتيــه الباطل من بيــن يديــه ولا من خلفه. وقد جاء القرآن بالأمر الحق فى شــأن الألوهية وشــأن كل ما اختلف فيه الناس من أمور دينهم ودنياهم وخاصة فى شــأن عقيدة التوحيد بالنســبة للــه تبارك وتعالى وأمر نبوءة محمــد ﷺ وهما الأمران اللذان ضل فيها خلق كثير من أتباع الديانتين الموســوية والعيســوية، والذى جاءت الديانة الإســلامية ليظهرها الله على الدين كله بما حدث من البيان الحق لما اختلف فيه الناس واختلف فيه أهل الكتاب بصفة خاصة. فالقرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، وجاء بالحق ونــزل بالحق وترك الناس أحرارا فــى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا ﴿ ...فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴿٢٩﴾ ﴾[الكهف: ٢٩] ولكن تبقى الحقيقة التى تؤكدها صفة القرآن هذه ككلام الله الخاتم الذى اختتم به الله رســالاته إلى الإنســان فى الأرض وبلغه الرسول

كخاتم المختارين والمصطفين من البشر لحمل رسالات الله إلى البشر فى الأرض. ومن هنا فالرسول شاهد على الناس فى الدنيا بما أوضحه من الحق فى القرآن وهو حجة الله ومحجته، وشاهد على الناس فى الآخرة بما أوضحه من الحق فى القرآن وهو حجة الله ومحجته.

وهو أيضا مبشر من جانب ونذير من جانب آخر، والجانبان متلازمان تلازم الخير والشر فى الإنسان. رسالة الخير يمثلها الفعل الملتزم بالحجة القرآنية، ورسالة الشر تمثلها الغريزة غير الملتزمة بضوابط وتوجيهات الفعل الملتزم بالحجة القرآنية. فالذين يتغلب عندهم جانب الخير بالمعنى السالف الرسولُ لهم بشير. والذين يتغلب عندهم جانب الشر بالمعنى السالف فالرسولُ لهم نذير. والبشرى بالنعيم واللذة بالمفهوم الذى قربه الله فى القرآن للناس ليدركوا ما يتحدث الله عنه من نعيم ينتظرهم ضرب الله مثلا له فى القرآن للتيسير على مفاهيم الناس وتقريب الحقيقة إلى أذهانهم والإنذار بالعذاب والألم بالمفهوم الذى قربه الله فى القرآن للناس ليدركوا ما يتحدث عنه الله من عذاب ينتظرهم ضرب الله مثلا له فى القرآن للتيسير على مفاهيم الناس وتقريب الحقيقة إلى أذهانهم. الجنة تمثل جزاء البشارة.. ومعها درجات القرب من الله والرضا من جنابه والنظر إلى وجهه الكريم..والنار تمثل جزاء الإنذار... ومعها درجات البعد عن الله والغضب من جنابه وحجاب وجهه الكريم عنهم، والغم النفسى الذى يعيشه أهل النار.. إلخ. ومن منطلق هذه الخصائص الأساسية الثلاث للرسول يجيء السياق التالى لما قرره القرآن فى الآية الثامنة من سورة الفتح - السابق بيانها- (لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).

فالخير للإنسانية.. ولكل إنسان على حدة بالنسبة لنفسه.. حتى ينقذها ولا يخسرها؛ أى حتى يعيش فى نعيم الآخرة الدائم بدلا من عذاب الآخرة الدائم... الخير لكل إنسان منفردا.. وللإنسانية كلها.. وللمؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، أن يؤمن كل فرد، ذكرا كان أو أنثى بالله وبرسوله وأن يدركوا عظمة وخطورة وأهمية الدور الذى جاء هذا الرسول ليؤديه بالنسبة لكل فرد من أفراد النوع البشرى المكلف بالرسالة الخاتمة.. ومن خلال إدراك هذا الدور بهذه الكيفية وبالكيفية المتصلة بخصائص الرسول الثلاث التى ذكرنا، يجيء التوجه الذى يعتبر نتيجة طبيعية لكل

ما سلف من خصائص الرسول ودوره بالنسبة للبشر وحتى بالنسبة للمؤمنين منهم بالله ورسوله - أن يحبوا هذا الرسول ويعظموه ويحترموه وقد عرفوا عظمة الكتاب القرآنى الذى جاء به من عند الله... ولكن الناس إما جاهلون بعظمة هذا القرآن وإما كائدون لعظمة هذا القرآن وإما يمكرون بهذا القرآن وإما حاقدون على عظمة هذا القرآن وإما خائفون من التحديات التى يواجهها بهم هذا القرآن العظيم.. ولكن الذين أوتو العلم يؤمنون أنه الحق.. وهو آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم.. ومن أهل الكتاب من يعرف أنه الحق وأن بيانه هو الحق وحكمه هو الحق، هكذا يقرر القرآن ذاته فى قوله الحق ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ... (١٩٩) ﴾[آل عمران: ١٩٩].

كما يقرر فى شأن القسيسين والرهبان أن منهم من ﴿ ...لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾[المائدة: ٨٢] هؤلاء يعلمون صدق القرآن وعظمته ويوقرون رسول الله ويعظمونه، ويسبحون الله بكرة وأصيلا.. ولكن غيرهم كثير يكيد هذا القرآن عن جهل وعن مكر وعن حقد وعن خوف منه وما يفتح به من طاقة فى نفوس المؤمنين به وبما يمثله من تحدٍ لسلطان الناس فى الأرض الذى تتنازعه المصالح والأهواء والنزاعات والأغراض غير ذات الصلة بالله رب الناس أجمعين.

وبعد هذا التقرير يقرر القرآن أمرا هو نتيجة لازمة ومنطقية لكل ما سبق وقرره فى الآيتين الثامنة والتاسعة السابق الحديث بشأنهما. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾ [الفتح:١٠]. وكان ذلك أساسا فى الحديبية عندما بايع الرسول ﷺ أصحابه على أن لا يفروا من لقاء العدو حتى الموت " وهى بيعة الرضوان " التى قال الله فيها ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...(١٨) ﴾[الفتح:١٨] الأمر جد خطير ومهم وذو شأن عظيم بالنسبة لصلة هذا الرسول بالرسالة وبالرسل وبالله تبارك وتعالى. لقد جعل الله رسوله يقوم مقامه فى أمر هذا الدين.. وهو الوساطة بين الناس والله رب العالمين؛ وساطة يحيط بها الله علما بأسرار الضمائر

والنفوس وظواهر الكلم والسـلوك.. والرســول مفوض من الله حين يضع يده فى يد المبايعين.. فمبايعة الرســول فى تلـك الحضرة هى مبايعة الله فـى هذه اللحظة التى تعبر عن هذا الرسول كمظهر يستدل به على الله ووسيلة يتم بها الاتصال بالله.. فالله سـبحانه اختار محمدا ﷺ رسولا سـفيرا ومعبرا.. ومحمد ﷺ يحمل تبعة ومسئولية هذه الرســالة والســفارة..فحيث تكون أيديهم فى يد رسول الله ﷺ تكون يد الله فوق أيديهـم.. ويتصل أمر الله فى دينه بشـخص الرســـول الذى من أطاعـــه فقد أطـاع الله ﴿ ...وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[الفتح: ١٠] بينما من نكث ونقض البيعة فان الضرر يعود عليه هو؛ لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذى عاهد عليه الله حيث كان الله هو مقصوده بمبايعته لرسول الله.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

لأول وهلة قد يبدو أن التقرير القرآنى ينصب على المؤمنين الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة... وذلك وإن كان يدخل ضمن مقصود التقرير القرآنى ولا شك، إلا أن العظمة فى هذا التقرير تنصب أساسا وبالدرجة الأولى على الرسول ﷺ. فالرسول كان هو المبايع، ومن أجل هذه المبايعة التى تمت معه فعلا كان رضا الله عن المؤمنين الذين بايعوا فعلا تحت الشجرة. ذلك أن الله المطلع على أسرار العقول والقلوب كان يعلم ما يكنه هؤلاء النفر من المؤمنين نحو رسول الله من المحبة والتقدير والإيثار المبنيين جميعا على الإيمان بصدق دعوة هذا الرسول وبعظمة قدره فى شخصه، وعند الله تعالى، إلى الدرجة التى جعلت هؤلاء المبايعين يعقدون العزم والنية على نصرة هذا الرسول وفدائه بالأرواح والأموال والأولاد وبكل نفيس عندهم، والذى أدى بهم إلى هذا القرار هو رؤيتهم المؤمنة الصادقة لهذا الرسول ومعرفتهم لقدره عند الله تعالى، قدر الاصطفاء والاختيار والمحبة. ولولا هذه الرؤية المؤمنة لهذا الرسول الصادق الأمين العظيم لما تمت البيعة. ولكنها - ولهذه الأسباب- تمت فعلا، وتم فى الواقع التاريخى للأحداث ما يعكس ما تجيش به قلوب هؤلاء المؤمنين من عواطف ومشاعر نحو الرسول ﷺ. من أجل هذه المشاعر لله ورسوله تمت البيعة (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) وكان من نتيجة هذه الصلة القلبية القوية برسول الله أن أنزل الله السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا.. انتصارا للعقيدة وللدين الجديد... ووعدهم مغانم كثيرة يأخذونها... جزاء فى الحياة الاجتماعية للبشر الذين تختلط نفوسهم - باعتبارهم بشرا -

بالواقع الاقتصادى فى المجتمع الذى يعيشون فيه. ويكون فى ذلك كله عزة للمؤمنين تستمد من عزة الله الذى يعز من يشاء، وهى فى النهاية أمور كلها من حكمة الله (وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) إن نقطة الأساس فى رضا الله عن المؤمنين إذن كانت هى إخلاصهم لنصرة الرسول المصطفى عند الله بالرسالة الخاتمة من دون الناس أجمعين. من أجله تمت البيعة، ومن أجله رضى الله عن المؤمنين وأثابهم ما أثابهم مما اغتبط به قلب هذا الرسول خاصة بالإنباء بالفتح القريب الذى كانت تتطلع إليه نفسه وينتظر هو ﷺ وقت حدوثه، وهو فتح خيبر. وهذه البيعة هى التى تعرف ببيعة الرضوان التى بايع فيها الرسول حوالى ألف وأربعمائة من المؤمنين وكانت فى الحديبية. وبعد هذا التقرير القرآنى أخبر الله رسوله فى الرؤيا المنامية بأنه والمؤمنين به ومعه سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ﴿ ...فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الفتح: ٢٧] والفتح القريب هو صلح الحديبية على الأرجح. وقد رأى الرسول فى الرؤيا المنامية - ورؤيا الأنبياء وحى وحق - أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ثم حلق بعضهم وقصر بعضهم فحدث بذلك أصحابه ففرحوا واستبشروا، وقد تحقق ذلك فعلا بعد عام تقريبا من الرؤيا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تأكد بالتقرير الواضح الفاصل مستقبل الرسالة وحقيقة الصلة بين الله والرسول كما تجلت الصلة بين الله وأحداث هذا الكون وأحداث هذه الأرض من هذا الكون..



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

[الفتح: ٢٧-٢٩].

الرسـول يرى حدثا غيبيا. يرى المسـتقبل فى الأحداث. يرى الحدث قبل حدوثه. ورؤيا المسـتقبل تكون فى المنام كما تكون فى اليقظة. وهذه الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ كانت فى المنام، وهى غير رؤيا اليقظة التى كان يراها الرسول كما فى رؤياه ليلة أسـرى به. ورؤيا غيب الأحداث هى خاصية من خواص الملهمين من البشر، وهى تتفاوت بتفاوت مراتب البشـر الروحية. وقد كان الرسـول قبل بعثته يرى الرؤيا فى المنام فتجيء - كما تحدثنا روايات السـنة - كفلق الصبح.وحدث الرسـول نفسـه عن هـذا النوع من الرؤيا باعتبارها جزءًا من سـتة وأربعين جـزءا من النبوة. كانت الرؤيا الصادقـة إذن من مقومات تميزه الروحى. والقـرآن يتحدث عن عدة أنواع من الرؤيا، منهـا هذا النـوع من الرؤيا المنامية التى تصدق فى المسـتقبل فـى العلاقة بالأحداث التـى تتحقـق فعلا على نحو ما يـرى الرائى فى منامـه. ويحدثنا القرآن عن يوسـف النبـى أنه كان يتميز بهـذه الحاسـة ﴿ ...إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسـف: ٤] كمـا يحدثنا القرآن أن يوسـف كان قد علمه ربه من تأويل الرؤيا على نحو يتصل بتحقق الأحداث فى المستقبل كما فى رؤيا فرعون مصر

الذى رأى السبع البقرات والسبع السنبلات ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ [يوسف:٤٣] ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

أى أن يوسف أول الرؤيا بسنوات الازدهار وسنوات الجدب. ورؤيا صاحبى السجن مع يوسف اللتان أولهما لهما: الأول يعصر خمرا والثانى يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ ...﴿٣٦﴾ [يوسف:٣٦] ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ ...﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف: ٤١] ثم تأتى رؤيا إبراهيم فى المنام التى رأى فيها أنه يذبح ابنه إسماعيل ﴿ ...يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ...﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢]. هذه كلها رؤى تتصل بما يمكن أن نسميه غيب الأحداث، وهو ظاهرة روحية بحتة. وهى غير الرؤيا التى تعنى توقع الحدث المستقبل نتيجة تقصى واستقصاء واستنتاج ودراسة ظروف وملابسات وأحداث معينة أو استعمال وسائل قياسية معينة، يمكن معها كلها الوصول إلى نتيجة حدث معين. فهنا الرؤيا يعمل فيها السبب مع النتيجة وفق قانون طبيعى يؤيده الاستنتاج والتكهن نتيجة الدراسة والقياس، وهو ظاهرة طبيعية وليس فيها أى عمل من عوامل الإدراك الحسى الزائد الذى يتصل بالقوة الروحية فى الإنسان. وهذا النوع من الرؤيا يعترف به القرآن ويوضحه بالتفصيل فيما جاء فى قصة النبى موسى والعبد الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علما. أما رؤيا الرسول فقد كانت حقا دائما، تتحقق بتفاصيلها فى واقع حياة الناس المستقبلى بما يتحقق معه صدق الرسول فى دعواه وتأييده بمصدر روحانى عال يجعل رؤيا هذا الرسول تتعدى حدود الحاضر إلى المستقبل، قريبا كان أم بعيدا. وتقرير القرآن بالنسبة للأحداث بين الفرس والروم -وهما القوتان العظميان فى تلك الحقبة من تاريخ الأرض- فى الآيات القرآنية التى تنزلت من رب العالمين، تؤكد حقيقة مستقبلية بينها الرسول فيما قرأ من قرآن فى سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ

غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الـروم:١-٥] وقد تحقق ذلك فعلا فى المدة التى حددها القرآن. هذه رؤيا غير منامية، فيها يخبر الرسـول بالماضى وبالمسـتقبل فى اتصال بوحى الله، الله الذى له الأمر فى الماضى وفى المستقبل، يرى الأمور فى أزلها الأبدى وأبدها الأزلى، فى أولية هى عين الآخرية وآخرية هى عين الأولية (لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) وكذلك رؤيا الإسـراء والمعراج التـى طوى فيها الرسـول إبعاد الماضى والحاضر والمسـتقبل فى رؤيـا عين لا نوم تخطـت هذه الحجب وما يقترن بها من أبعاد الزمان ليرى كبرى آيات ربه عند سـدرة المنتهى، وهى أرفع أنواع الرؤى مسـتوى ولم يبلغ مسـتواها إلا رسول الله ﷺ.ومن هذه الريادة لهذا الدين يتقرر أمر تتصل به السـماء بالأرض. أمر يصل أحداث الأرض التى يعيشـها الإنسـان بخالق الأرض والإنسـان وخالق الكون بكائناته كلها. إن الذى أرسل هذا الرسول هو الله، وقد أرسله ليهدى الناس كافة إلى الحق الذى يصلهم بمقام الألوهية الحقة فى شـكل دين تقرر أن يكون خاتم الأديان مصدقا فى جوهره للأديان السماوية السابقة عليه، ويجمع الكل حقيقة واحدة هى الإسلام لله. لكن الفارق هو أن الإسلام القرآنى هو الدين الحق بمعنى أنه الدين الذى جاء ليصحح المفاهيم المنحرفة التى انتهت إليها الأديان السـابقة عليه (لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) بمعنى ليظهره على كل العقائـد التى يدين بها الناس أيا كان محتوى هذه العقائد وأيا كان عصرها التى تظهر أو تنتشـر فيه كدين يديـن به الناس... وهى اليوم كثيرة... ولكـن الذى أنزل الذكر قد ضمن حفظه والحفاظ عليه بحيث تظل مفاهيمه وتعاليمه سليمة المظهر والجوهر إلى أن تقوم سـاعة حسـاب الناس، وبحيث يظل هذا الدين ظاهرا بمحتواه من الحق على الدين كله حتى ولو تغلب غير أهله على أهله بالتمكين فى الأرض.

ثم يؤكـد القرآن هذه الصلة الربانية بين دين الله وبين المؤمنين وبين الرسـول. يؤكدهـا فى القـرآن ويذكر بورودها فى التوراة اليهودية وفى الإنجيل المسـيحى من قبـل نزول القرآن، وذلك تأكيدا لوصف الدين الخاتم بالدين الحق الذى سـيظل ظاهرا على الدين كله بالريادة فى المحتوى الدينى ذاته.



وهنـــاك فرق بين الرؤيــا والحلم. فالأحلام لها دوافعها التى يفســرها علم النفس وتتصل بالعقل الباطن والوعى الباطن وما يصدره من مسائل تتعلق بخبرات وتجارب ونشــاط العقــل الفردى فى الحيــاة اليومية. أما الرؤيا فهى غير ذلــك ولا تخضع لتلك التفســيرات –صحت أم لــم تصح– لعلم النفــس؛ فهى ظاهرة من ظواهــر علم البيان الســيكولوجى أو الإدراك الحســى الزائد. وهــى نوع من الإلهام يأتــى من الخارج ولا يعكس إحساســات وشــعور الداخل كالحلم. هى إلهامات تتصل بالعقل أو الروح حين تبلغ مراتب معينة من الصفاء والاتصال بالإدراك الأكبر الذى يطوى الكون كله وتتفاوت الدرجــات التى تصل إليها النفس أو الــروح أو الفكر من درجات الصفاء كما قلنا ومن ثم الاســتعداد للتلقى من الأرواح الطاهرة المســاوية فى الدرجة أو الأعلى فى الدرجة. ذلــك الذى نقول يوضحه بجلاء حديث الرســول ﷺ الذى روى عنــه، والذى قال فيه: "الرؤيا من الله والحلم من الشــيطان" فالشــيطان يتصل بالنفس البشرية وما تحدث بــه من انعكاســات الوعى الظاهر العادى فى الوعى الباطــن الخفى، والتى تظهر أثناء النـوم حين تقف أدوات الوعى الظاهر عن أداء وظائفها ويحتل الوعى الباطن مســرح الأحداث النشــطة. أما الرؤيا فمن الله أى من مصدر خارجى عن تجارب الوعى الظاهر لدى الإنســان، هى شــيء آخر يصل العقل الإنسانى أو الروح الإنسانى بمصادر أخرى للطاقة تجعله قادرا على تخطى حواجز الزمان والمكان التى تحجب العقل ويعمل من خلالهــا وفى إطارها، ليرى المرائى من خــلال قدرات روحه فى الإنطلاق غير المحدد بالزمان والمكان، ليرى أبعادا أخرى من الأحداث والأشياء والأشخاص كما تتحقق فى الماضى أو المســتقبل وتجيء صادقة "كفلق الصبح" كما عبرت الســيدة عائشة: وقد كان الرســول ﷺ قبل الرسالة يرى الرؤيا الصادقة "فى المنام" فتتحق، ويوضح ذلك حديث الســيدة عائشــة الذى رواه البخارى فى صحيحه أن السيدة عائشة قالت: " أول ما بدئ به رســول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثــل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء. (صحيح البخارى باب بدء الوحى) كما روت الســيدة عائشة أن رســول الله كان يأتيه الوحى أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشــده عليه فينفصم عنه عليه الصلاة والســلام وقد وعى ما قال

وأحيانـــا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه بنفس ما يقول وقالت الســيدة عائشـــة أنها رأته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.

فالرؤيــا إذن صفاء نفس روحى تبلغ به الروح الإنســانية مرتبة تؤهلها للاتصال بمصــادر روحانية أخرى للطاقة تعمل فى أبعاد تتخطى أبعــاد عالمنا الطبيعى، ومن ثم تأتى بمعارف ماضية أو مســتقبلية على قــدر المصدر الطاقى الروحى الذى يمدها بالمعلومــات. وهو نوع من كلام الله للإنســان الذى يعكــس ظاهرة الوحى التى يقول فيها القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الشــورى:٥١] وان كان كلاما واستعدادا فإن معينــة لتلقيــه هو أرقى أنواع الســمو الروحــى المتصل بطاقاته العليــا حيث لازلنا لا نعرف عنها شــيئا. فالرؤيا الصادقة والإلهام الإلهــى والتعليم الباطن من الله والوحى عــن طريق جبريل من صور ســمو الروح إلــى الدرجة التى تتأهل بهــا للتلقى عن الله بــألا يتعين لدى العاديين من البشــر وإنما المصطفين منهــم على تفاوت فى درجاتهم مــن الســمو الروحى. وقد يتصــل بالوحى فى القــرآن فى معانيه اللغوية المســتلهمة مــن الإلهام والإرادة والإيحاء وأيضا الوسوســة كما فى ســورة النمــل ٦٨ ومريم ١١ والأنعام ١٢١.

أمــا حديثنا هنا فهو عن رؤيا منامية رآها الرســول ومضمونها باختصار أنه رأى أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ثم حلق بعضهم وقصر بعضهم. حدث بذلك أصحابه ففرحوا واستبشروا فلما خرج إلى الحديبية مع أصحابه وصده المشركون عن دخول مكة ووقع ما وقع من قضية الصلح، ارتاب المنافقون وقالوا والله ما حلقنا وما قصرنــا وما دخلنا البيت فأين هى الرؤيا... فنزل القرآن ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ...﴿٢٧﴾ ﴾[الفتح: ٢٧] فقرر أن رؤيا الرسول حق وأن ما رآه سيتحقق لا محالة. والرؤيــا لم يحدد فيها زمان بعينه، وقد حقق الله ذلك الحدث التاريخى بالصورة التى رآها الرســول عام ســبعة من الهجرة –بعد صلح الحديبية بعام– حيث دخل الرســول مكــة فاتحا ومعه عشــرة آلاف بعــد أن كان معه يــوم الحديبية ألــف وأربعمائة فقط ﴿ ...فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ...﴿٢٧﴾ ﴾[الفتــح: ٢٧] أى فعلــم ما فى الصلــح من الحكمة ومن الخير والمصلحة للمؤمنين الذين لم يروا ذلك البعد من الحكمة المســتقبلية التى رآها

الرسـول. وهـى رؤيا من النوع الذى قلنا إنه يتسـم ببعد النظر والاسـتنتاج والحكمة ﴿...فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا...﴾ [الفتح: ٢٧] هو صلح الحديبية سـماه اللـه فتحـا لما ترتب عليـه من الآثار التى رأتها حكمة الرسـول ورآهـا بعد نظره ولم يدركها كل المؤمنين فى ذلك الوقت.

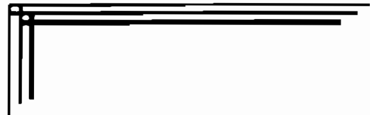
بعد ذلك يقرر القرآن حقيقة الريادة الدينية للإسلام الذى جاء به الرسول: الريادة لكل أنماط الأديان والرسالات التى سبقت هذه الرسالة الخاتمة. يقرر أمر انتصار هذه الرسـالة فى إتمام الإبلاغ وفى بناء الإنسان وفى إقامة النظام الاجتماعى المتكامل فى واقع الأرض كنموذج يتناسـق مع سـنة الله فى الأرض التى تبرز دائما فى شكل نظام فى كل مراتب الخلق الإلهى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

وبعـد ذلك يقرر القرآن أمر الرسـول ﷺ.. ليس هو فقـط.. وإنما أيضا أمر الذين معه. فهو رسـول بشر به موسى وبشر به عيسـى وتناولت التوراة كما تناول الإنجيل صفات أصحابه الذين معـه، فهم فى التوراة ﴿...أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ...﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] وهم فى الإنجيل مثلهـم ﴿...كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ...﴿٢٩﴾﴾ [الفتـح: ٢٩] وهم فـى القرآن ﴿...وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] ومعية الرسول ليست معية أسماء بعينها عاصرته ثم ماتت لتنتهى حظوة هذه المعية. كلا. أن معية الرسول معية صفات، يسـتطيع كل من يتحلى بهذه الصفات أن يحظى بهذه المعية لهذه الشـخصية النورانية التى تسـرج العقول والأرواح بقبس من نورها لتظل المعية دائمة مسـتمرة ويظل نورها ساطعا هاديا دائما أبدا فى كل عصر.



٢٨

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الحجـــرات



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ
(١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ
كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
(٥) ﴾ [الحجرات: ١-٥]

أى عظمة وإكبار لهذا الرســول تبرزها هذه التقريرات القرآنية... إنه درس الأدب للخلق أجمعين وللمؤمنين خاصة... يلقيه رب العالمين بيانا لعظمة شأن هذا الرسول.. وبيانــا لعظمة قــدره ﷺ...هذا الدرس فى آداب المعاملة بيــن المؤمنين بصفة خاصة والنــاس عامة؛ الدرس الذى ينــزل فيه قرآن من عند الله يبين جليا صلة هذا الرســول باللــه رب العاليــن... إنهــا صلة غيــر عادية.. صلــة الاصطفاء والاختيــار الذى جعل محمدا مختار الله ليكون خاتم الأنبياء والمرســلين.. فى رعاية الله دائما.. وفى حفظه اســتمرارا، ولا يستحى الله فى شأن بيان عظمة قدر رسوله ومقدار صلته القوية بربه أن يبين للمؤمنين وللناس أجمعين كيف ينبغى أن يكون ســلوك الناس تجاه الرســول الذى أحبه الله والذى أحب هو الله. إن بشــرا يحميه الله ســبحانه وتعالى... ويضع فى شأن التعامل معه والتخاطب معه قواعد محددة ومعينة للسلوك لابد أن يكون من غير العاديين من البشر.. خاصة إذا كان فى كسر هذه القواعد الأخلاقية فى السلوك إحباط لأعمــال الخير التى عملها الفرد طــوال حياته... والأمر واضح وطبيعى.. رســول الله ليس بشــرا عاديا كسائر البشــر.. ولكنه مختار الله من البشر الذى اصطفاه ربه ليبلغ أكمل الرســالات وخاتم الرســالات متمثلة فى كلام الله القرآنــى المنزل فى لغة البيان العربية. وتظهر حقيقة الصلة والحماية الإلهية للرســول فى اقتران الرســول بربه فى

هـذه التقريرات القرآنية التى تبدأ بنهى المؤمنين عن أن يقدموا قولا أو عملا بين يدى الرسـول حتى يبدأ هو ﷺ بالقول أو العمل... ومع هذا النهى يجيء التخويف الربانى مـن مخالفة الأمـر نذيـرا (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ثم يجيء النهى الثانـى، وفيه بيان مماثل لعظمة هذا الرسول وشأنه العظيم مع ربه.. ذلك الشأن الذى يلقى فى إطاره الله سـبحانه وتعالى بقية تعاليم درس الأدب فى التعامل مـع هذا الذى أحبه الله -وأحب هو الله- واختاره للدين القرآنى الخاتم. إنه درس التخاطب بالأدب والاحترام والإكبار والإجلال والتعظيم لرسول الله... أن لا يرفع أحد صوته فوق صوت الرسول...

ولا يجهر أحد له بالقول كما يجهر مع غيره من البشـر العاديين.. ولا يناديه أحد باسـمه مجردا ولكن بنسـبة النبوة إليه أو نسبة الرسـالة إليه.. نبى الله ورسول الله.. وجديـر بالذكـر أن القرآن لم يرد فيه مخاطبة الله لنبيه ورسـوله بهذا النداء الأسـمى مجـردا.. لم يرد فى خطاب الله لرسـوله قـول «يا محمد» نعم جاء الاسـم مجردا فى بعض الآيات ولكن لبيان حقيقة أو صفة.. أما النداء فكان فى القرآن دائما بنسبة النبوة «يا أيها النبي».. هذا شأن الله فى حديثه القرآنى إلى الرسول.. فما بالك بشأن المؤمنين وشـأن العاديين من النـاس.. إن واجب الاحترام والتعظيم أدعـى واجب.. ولذلك كان جـزاء هذا الجهر بالقـول المخالف لآداب التخاطب المطلوبة مع هذا الرسـول العظيم القدر والشـأن والهيبة هو إبطال العمل لهذا الذى يتجاوز الأدب المطلوب مع الرسول المهيـب ﷺ ذلـك أن تجاوز الأدب فيـه جهل بمقام المخاطب وفيـه الإقلال من قدره، وفيه دليل على فراغ القلب من الإيمان الحق الواجب تجاه الله ورسوله، وفيه دليل على قصور الفكر عن إدراك الصلة القوية الفريدة فى عظمتها، تلك التى تربط الرسول بربه وتربط الله برسـوله فى الاختيار والاصطفاء والتميز بتحمـل الكلمة القرآنية الثقيلة وتبليغها للإنس وللجن على السواء بلغة البيان المفهومة للثقلين...

ولهـذه الأمور كلها كان تقدير الحقيقة التى تحمل فى طياتها عكس المعانى التى ذكرناها سـالفا... وهـى أن الذين يغضون أصواتهم عند رسـول اللـه أولئك الذين لم يجهلوا مقام المخاطب بل عرفوه... ولم يسـتخفوا بقـدر المخاطب بل عظموه.. وفى ذلك دلالة على امتلاء القلب بالإيمان الحق الواجب تجاه الله ورسـوله، وفيه دليل على استيعاب الفكر للصلة القوية الفريدة فى عظمتها تلك التى تربط الرسول بربه وتربط الله برسوله فى الاختيار والاصطفاء والتميز، ليتحمل الكلمة القرآنية الثقيلة وتبليغها

للإنس والجن على السواء بلغة البيان المفهومة للثقلين... (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ) وجزاء ذلك استمرار الخير الآجل مع الخير العاجل (لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ) وقد كان جزاء غير المراعين لذلك هو إبطال الأعمال كلها بالجزاء العاجل والآجل.

ويستمر الدرس والتوجيه الربانى فى وصف الذين يسيئون أدب التخاطب والتعامل مع رسول الله ﷺ (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ) لأنهم فقدوا الميزان العقلى الذى يمكنه أن يميز بين الرسول والعاديين من البشر فيضع التخاطب مع هذا الرسول والتعامل معه فى كفة أرجح من الكفة التى يوضع فيها سائر الناس، فالعقل الذى لا يمكنه أن يميز الخصائص التى تميز بها هذا الرسول، والتى من أجلها وجبت التفرقة فى المعاملة بينه وبين غيره من العاديين من البشر، عقل قاصر عن إدراك حقائق الأمور ومقتضياتها.

إن مقتضى الاصطفاء والاختيار بالرسالة الخاتمة هو تعظيم شأن هذا المختار والمصطفى واحترامه لصلته بالله سبحانه وتعالى خالق الخلق أجمعين، ومحاسبهم على أعمالهم يوم تقوم ساعة حساب الناس.

إن العقل السليم يقتضى حسن الأدب والاحترام بميزان التقوى وأفضلية الاصطفاء والأخلاق الفاضلة؛ ولذلك فهؤلاء الذين ينادون الرسول من وراء الحجرات (أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ) وكان داعى العقل السليم فى تصرفهم أن يصبروا حتى يخرج الرسول إليهم فيخاطبوه عن قرب ومن غير حجاب.. وهى الحقيقة البدهية التى يقررها القرآن (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ) ومع ذلك كله فإن الله غفور رحيم لم يشأ أن ينزل على هؤلاء الذين تجاوزوا الأدب عقابه أو عذابه أو غضبه.. إنما اكتفى بدروس الأدب التوجيهى.. دروس التوجيه الأخلاقى (وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ).

من منطلق المحبة أولا من الله لرسوله.. ومن منطلق التوضيح للمؤمنين خاصة وللناس عامة مقام هذا الرسول العظيم.. ذى الخلق العظيم.. تجيء هذه التقريرات القرآنية دروسا فى آداب التعامل والتخاطب مع هذا الرسول فى إطار شخصيته الفذة التى عظمها الله واختارها بالاصطفاء لإبلاغ قرآنه.. تقديرا أزليا.. ومرادا أوليا.

إن توقير واحترام أكابر الناس عادة هو تقليد جرت عليه البشرية فى حياتها الاجتماعية فما بالك إذا كان الأمر متصلا بهذه الشخصية الفريدة ذات الصلة بخالق الخلق أجمعين.

٢٩

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـورة الطـــور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

ما أعظم أن يكون الإنسان بعين الله؛ أى فى رعايته وحفظه وولايته! هكذا تنزل هذا الكلام الربانى لعبد الله ورسوله يوحى إليه توجيها بأن يصبر لحكم ربه ولا يخاف مطلقا من أى شيء فى هذه الأرض مما يكيد الأعداء أو يدبرون أو يمكرون، وأنه ـ سبحانه ـ يضمن له النجاة من كل سوء.. ومن كل مكر سئ يدبر ضده. والنجاة فى هذا المجال عهد بين الله والرسول ﷺ ليطمئن قلبه وقد أمر بان يصبر فى تحمل أعباء الرسالة التى كلفه الله اصطفاء بأن يبلغها للإنس وللجن على السواء، وهم يعيشون معا فى هذا الكوكب.. لقد قضى الله فى الأزل أن يكون محمد هو الرسول الخاتم والنبى الخاتم الذى يحمل ثقل الوحى القرآنى ويبلغه للعالمين... هذا كان قضاء الله وحكمه.. وهو عبء ثقيل لكن الرسول مؤهل من الله تبارك وتعالى لأن يحمل هذا العبء الثقيل فلا يكل ولا يمل.. فقد بدأت الدعوة فى عهدها الأول «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». وطوال فترة التبليغ حتى اكتماله بما نزل من قوله تعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة:٣] لكن الرسول لم يهلك دون إتمام هذا الأمر العظيم وإنما كان التأييد الإلهى يتنزل قرآنا كلما ضاق الأمر بالرسول أو بالمؤمنين من حوله.. وفى هذا التقرير السالف كانت الطمأنة العظمى (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ولن يستطيع احد من الناس ولا قوة من القوى مهما بلغت أن تضرك أو تؤذيك يا أيها النبى المختار.. فعين الله تحرسك ولن تستطيع أحداث هذه الأرض وتاريخها فيما يتصل بالدعوة

الإســلامية أن تحول بينك وبين استمرار الصلة القوية الخالدة بينك وبين ربك..... أنت رســول الله.. كلفك بحمل الرسالة وتبليغها.. وهو لذلك حاميك.. بالقدر الذى نستشفه مــن تعبير (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وهــو تعبير بالغ العمق فى الدلالة على اصطناع الله رســوله لنفســه وشموله بعين رعايته.. وكفى الرسول فخرا وعظمة أن الله رب العالمين يقرر فى شأنه أنه يرعاه وهو الذى لا تأخذه سنة ولا نوم فى الأولية والآخرية من الديمومة الإلهيــة... وبعد، وقد تقرر هذا كله.. فإن حركة الرســول الفكرية والروحية ينبغى أن تتفرغ لمواصلة المقام الذى يكون فيه الرســول قريبا من ربه بالذكر الدائم والتسبيح الدائم والفكر الدائم مع تقلب الليل والنهار؛ أى مع استمرار حركة الزمان بمقياس هذا الكــون الذى تظهر فيه النجوم فى ســكون الليل. وتدبر فــى ضجة الحياة النهارية فى الحياة الاجتماعية الإنســانية.. هذا هو المقصود.. اســتمرار التســبيح واستمرار الذكر واســتمرار الفكر حتى يظل الرســول ﷺ فى مقام القرب الذى هو فيه وعليه، لا يبعده عــن ربه شــاغل من شــواغل الدنيا ولا حتى ما يتصــل بذلك من أمــور مجابهة الدعوة ومقاومة الرسالة ومحاربة القرآن وعداوة الرسول... (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾).



٣٠

في معية الرسول ﷺ



في

ســورة المجادلة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة: ١٢،١٣].

المبدأ فى حد ذاته فيه تقدير وتعظيم لشـخص الرسـولﷺ فهو ليس فردا عاديا يتنافـس معه من يريد دون أن يكون مسـتواه الإيمانى على درجـة مرتفعة من القوة فـى الإيمان، والإخلاص لله ولرسـوله. وصدق التوجه إلى اللـه بالكلية يكون من قلب امتلأ حبا لهذا الرسـول وتقديرا وتعظيما وتوقيرا لشـخصه، من منطلق إدراك مقامه الاصطفائى الذى اختاره الله فيه خاتما للأنبياء والمرسلين.

هذا المستوى يوضحه التقدير السالف فيما يقرره (فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ).

وقـد أصاب هـذا الأمر بتقديم الصدقـة هدفا من أكثر الأهـداف تأصلا فى النفس البشـرية؛ تلـك النفـس التى خلقها اللـه الذى يعلم ما تسـوس به لصاحبهـا؛ أى يعلم دخائلها وأسـرارها وطبائعها التى جبلت وفطرت عليها. المال ألصق الأشـياء بالنفس البشـرية... وأحبهـا إليها.. وأصـدق الأمور التى يمكـن أن تقترن بها تجربة الأشـياء والإخلاص والصدق فى إسـلام الوجـه لله بالكلمة. أصدق الأمـور فى محك تمحيص النفوس التى يحيط بها الإخلاص لله ورسوله من عدمه.. والصدق مع الله ورسوله من عدمه.. ويظهر بها مدى ارتباط النفس البشـرية بأحكام هذا الدين التى تشرع للتكافل الاجتماعى والتعاون الاقتصادى بين أفراد المجتمع الذى يدين بنفس العقيدة الواحدة

ويكون أفراده لبنات هذا المجتمع ككل فى تكافله وتلاحمه الشعورى والفكرى المنبعث من العقيدة أولا وابتداء، ليسير فى تشريعاته المنظمة لشئونه وَفْقَ هدى المنهج الذى يدين به أفراد المجتمع ويثبت سلوكهم من خلال الاعتقاد فيه والإيمان به.

إن الذى يريد أن يتحدث مع رسول الله سرا ولا يحضر مجلس الحديث أحد غيره، لابد أن يكون على مستوى رفيع من الإيمان الصادق المخلص والتوجيه إلى الله بالكلية إيثارا للآخرة على الدنيا واتباعا للمنهج الذى يحقق فى الواقع الاجتماعى حقيقة طاعة الله وطاعة الرسول (وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ). وإخراج المال الذى يلتصق الإنسان به حبا فى سبيل الله؛ أى فى مجالات التكافل المالى بين أفراد المجتمع الذى يدين أفراده بنفس العقيدة الواحدة.. هو كما قلنا الاختبار الحقيقى لصدق المؤمن وإخلاصه. وإنفاق المال يكون من الذين يملكون المال ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والذين يملكون المال ويصعب عليهم أن يخرجوا من أموالهم صدقات لغيرهم من أفراد المجتمع الواحد، هم فى حاجة ماسة إلى المال للاستعانة به على ظروف معيشتهم.. لا يرتقون فى ميزان المرتبة الإسلامية الحقة إلى مستوى الفرد المسلم الذى استوعب أحكام دينه واتبع آيات قرآنه وعلم قدر ربه ومقام رسول الله ﷺ، وما يفرضه هذا المنهج القرآنى من تبعات مالية على القادرين تجاه المحتاجين، فى إطار تنظيم عقدى يدين به الكل فى المجتمع الواحد.. وهذه أمور كلها تتصل كما قلنا بعلاقة النفس البشرية بالمال الذى يحبه الإنسان حبا جما كما يقرر القرآن. ولذلك فمن منطلق إدراك هذه الحقيقة ورحمة بالمؤمنين يقرر القرآن (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ) وأيضا فى صميم الاعتبارات النفسية المتصلة بالمال وامتلاكه (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ...).. إن هذه النفوس التى تتردد فى الصدقات وقد وقفت دون الارتقاء إلى مقام التطهير النفسى الذى يتمتع به المؤمنون الصادقون المخلصون يمكنها أن تتجه بعد ذلك إلى ما يعينها على الارتقاء بمستواها إلى هذه المكانة العالية من التطهر من الدنيا، اتجاها بالكلية إلى الله ورسوله فكرا فى الآخرة وذكرا لها. (فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ....) والله تبارك وتعالى يحيط بعلمه بخبايا النفوس.. ويعلم الصادقين من غير الصادقين.. ويعلم المخلصين من غير المخلصين.. ويعلم المؤمنين حقا من المنافقين الذين ينسحبون من أداء تكاليف المنهج والعقيدة حين يجد الجد

من الأمور، وحين يُراد من كل مؤمن أن يؤدى دوره الذى يناسبه لخير المجتمع ككل. ولذلـك قال المفسـرون إن فريضة الزكاة نسـخت هـذه الصدقات، وإن هـذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، هذا والقرآن فى الكثير من آياته يبين بوضوح الأمور المتصلة بالمال واسـتخداماته وتداولاته وصلته بالنفس البشـرية وكونـه عنصرا من العناصر الرئيسـية فى بيان حقيقة شخصية المسـلم والمؤمن ومقدار فهمه وتمسكه بالمنهج القرآنـى فى إطار التصرفات الفردية والتصرفات التى تتصل بالمجتمع ككل. وعنصر المـال الاقتصادى فى النظام القرآنى ومفهـوم (تَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ) لا يقتصر فقـط على الإنفاق فى أوجه الخيـر بالتصدق على الفقراء، وإنما هـو يتعدى إلى كافة أنماط الإنفاق البناء فى المجتمع، بحيث يتسـع مفهوم النص القرآنى ليشـمل عناصر مهمة من أسس البنيان الاقتصادى للمجتمع المؤمن بنفس العقيدة، والذى يقيم بنيانه الاقتصادى على أساس من المنهج تماما كما يقيم النظام الاعتقادى والنظام الأخلاقى والنظام الاجتماعى والنظام السياسـى.. إلخ على أسـاس المنهج. فالناس فى مثل هذا المجتمع يعيشـون وَفْقَ المبادئ الأخلاقية والقيم الروحية المسـتمدة من المنهج كما يعيشـون فى مسـائل المال والمبادئ الاقتصادية المتصلة به والمسـتمدة من أسـس وقواعـد نفس المنهـج، والاثنان معًا هما قوام المجتمع المتقدم المزدهر الذى يشـكل الأرضية والأسـاس الذى يمكـن أن يطبق المنهج فيه بكل جوانبـه وأحكامه، حيث إن سـيكولوجية الدين تعنى ارتباط الأخلاق فى المجتمع بسياسة المال، وهو الأمر الذى من أجله تناول القرآن العنصرين فى الغالب من آياته[1].



(١) انظر كتابنا "الأخلاق والمال فى الإسلام".

٣١

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الطـــلاق



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ .... قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ .... ١١ ﴾ [الطلاق: ١٠-١١]

ذهب البعض إلى اعتبار الذكر فى هذا التقرير القرآنى أنه الوحى أى القرآن. وذهب آخرون إلى اعتبار الذكر الوارد فى هذا التقرير أنه الرسول ﷺ. ونحن نميل إلى دمج المعنيين مع بعضهما، الرسول والقرآن معا فى حقيقة واحدة هى الذكر الذى يمثله القرآن فى آياته ويمثله الرسول فى تلاوته وفى أخلاقه وفى سلوكه باعتباره القرآن الحى.

أما الدلالة المباشرة فهى ما يدل عليه اللفظ فعلا من المعنى، وهو ذكر الله أو الذكر لله سبحانه وتعالى. وهو يتأتى من الرسول ومن القرآن اللذين يمتزجان فى حقيقة الأمر ليكونا حقيقة الذكر لله المراد فى هذا التقرير القرآنى الوارد فى سورة الطلاق. فالذكر المقصود هنا هو الذكر لله تعالى. والذى أنزله الله إلينا هو القرآن وقد نزل على الرسول الذى كلفه الله بتلاوة هذا الذكر علينا ليهدينا طريق الحق الذى ينير بالإيمان والعلم والعمل الصالح وهو ﷺ يعيش فى مستواه من الذكر القرآنى والخلق القرآنى والعلم القرآنى ولا يستقيم ذكر بغير هذين العنصرين؛ الرسول والقرآن. هما معا يكونان عنصر الذكر الحقيقى، لأن آيات الذكر الحكيم المتلوه علينا تلاها رسول الله وبين معناها لنا وعلمنا الحكمة الكامنة فيها. ولهذا الارتباط بين الرسول والقرآن فى معنى الذكر الوارد فى التقرير السالف فى سورة الطلاق كان السياق بعد (قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا) مشيرا إشارة مباشرة إلى الرسول حامل هذه الآيات وتاليها علينا، وهى مع تلاوته لها، تكون حقيقة الذكر الذى أنزله الله إلينا. (رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ

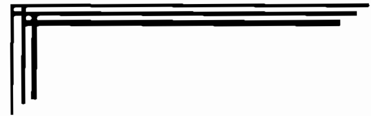
لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ...). غير خاف أن الله تبارك وتعالى اعتبر القرآن نورا واعتبر الرسـول ﷺ سراجا منيرا فجمع الاثنان بذلك فى حقيقتهما معانى النورانية وحقيقة الروحية.

والذكر مطلوب من الإنســان فى كل اللحظات.. ويجده الإنسان فى القرآن بمعناه ولفظه الشــامل لكل مقتضيات الوجود والكائنــات ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر:١٧] وهو كتاب شــامل جامــع كامل مكتمل ﴿ ...مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ... ﴿٣٨﴾ ﴾[الأنعام:٣٨] ولنا فى رســول الله الأسوة الحسنة فى كيفية أن نكون مــن الذاكرين لله تعالى من خلال تدبــر القرآن وفهم معانيه ومقاصد آياته... وقد كان الرسول ذاكرا للقرآن دائما لا ينسى ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى: ٦] وكان مقامه ﷺ الذكــر الدائم المســتمر ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[الأعــراف:٢٠٥]. إلى غير ذلك من آيات القرآن الدالة على مقام الذكر والتسبيح الدائم الذى كان يتمتع به الرسول ﷺ، فالرسول أكثر الذاكريــن لله وأخوف الذاكرين لله من الله. وأعلم الذاكرين لله بالله. والقرآن ذكر الله وآيات الله وكلام الله. والرســول والقرآن كما قلنــا يمتزجان فى حقيقة ومعنى الذكر ومضمونه النورانى، فالذين ذهبوا إلى اعتبار الذكر الوارد فى الآية هو الرسول أصابوا فيما ذهبوا إليه وإن كان المعنى الحق يتسع ليشمل الاثنين معا على أساس ﴿ ...وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل:٤٤]. فلا قرآن بغير الرسول ولا رسول بغير القرآن.



٣٢

فى معية الرسول ﷺ



فى

سورة التحريم



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ [التحريم: ١-٤].

ليس فى هذه الآيات ـ على الإطلاق ـ عتاب نتيجة تجاوز أمر الله. وإنما هو سؤال مجرد سؤال يحمل فى مضمونه وبين طياته رحمة من الله برسوله ﷺ ورفقا به وشفقة عليه. لأن الرسول اختار أمرا صعبا على نفسه وترك الأسهل. والله يقرر فى أمر قرآنه عن التبعات التى تحملها الرسول من أجل إبلاغه وتطبيقه والتجمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه ـ فى سورة طه ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝٢ ﴾[طه:٢] فلم يكن الله ليرضى أن يكلف الرسول نفسه فوق ما يطيق من أجل تحقيق مصلحة الله، وهى فى هذه الحالة بالذات مصلحة أزواجه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن. والحديث هنا يمس حياة الرسول الشخصية فى أسرته وبين أزواجه. والرسول فى هذا المجال يتمتع بأرقى مستويات الأخلاق فى التعامل ويتمتع بالرحمة والشفقة مع زوجاته. والله لا يترك رسوله أبدا وحده بعيدا عن عنايته ومراقبته له حفظا ورعاية، فهو مختار الله لإبلاغ الرسالة الخاتمة. فى الآيات الثالثة والرابعة والخامسة يستمر

القرآن فى رعايته أمر رسول الله فى حياته الشخصية؛ لأن الرسول حبيب ربه ومختار ربه والقريب من ربه، يرعاه ربه ويحفظه. وتسير الأحداث بالنسبة لهذا الرسول فى تقدير أزلى من الله تبارك وتعالى بما يحقق فعلا أمر هذه العناية والرعاية لأسباب كثيرة أهمها -فى اعتقادنا- أن يحافظ الله على صفاء قلب رسوله وفكره ليظل موصولا فى مستواه العالى بالله تبارك وتعالى وبذكره فى قرآنه، حتى تستمر حياة الرسول فى ذلك المستوى القرآنى الذى يكون فيه قريبا من ربه وربه قريبا منه(قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ) الله سبحانه وتعالى ينبئ رسوله ﷺ بأمر ما أسر به الرسول إلى بعض أزواجه فى الحديث الشخصى الذى يقول المفسرون أنه كان أمر تحريم جاريته مارية على نفسه إرضاء لحفصة بالذات من أزواجه، والآيات الثالثة والرابعة والخامسة من سورة التحريم تتناول أدق أسرار النبى الأسرية التى يحيطها الله برعايته عناية فى الحقيقة بنبيه. فقد أسر النبى إلى حفصة بأمر تحريم مارية على نفسه إرضاء لها وربما لغيرها أيضا من أزواجه، وهو ما يوحيه النص (فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ) أى فلما أخبرت حفصة بذلك السر عائشة وأفشته لها -وقال بعض المفسرين أنه أسر أيضا أمر خلافة أبى بكر وعمر- والله أعلم بمدى صحة ذلك. ولكن عناية الله المحيطة بهذا الرسول تنزلت على شخصه ونبأ الله رسوله بأمر إفشاء السر (وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ) وأخبر الرسول زوجته حفصة بجزء من مضمون كلامها الذى أخبرت به عائشة حيث استحى الرسول - وهو الرحيم الشفوق بأزواجه - أن يخبرها بدقائق كلامها الذى حدثت به عائشة (عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ) ربما لترفعه عن مثل هذه الصغائر التى تتحدث فيها النساء إلى بعضهن، وهو تقرير قرآنى عميق الدلالة بالنسبة لمعرفة الرسول عن طريق الوحى الإلهى بغيب ذلك التحديث الذى دار فى غير حضوره، وهى ظاهرة فريدة لا يتمتع بها إلا المصطفين من الله تعالى حيث تتم لهم المعرفة بلا واسطة من تسجيل على النحو الذى نعرفه الآن. واندهشت حفصة من معرفة الرسول لسرها

(قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ) ثم جاء الخطاب لحفصة وعائشة (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ...) فالأمر فى شأن هذا الرسول ليس عاديا كالأمر بالنسبة لسائر البشر. إنه إنسان غير عادى محفوظ بعناية الله فى حله وترحاله، فى ظاهر أمره وباطنه، فى مشاعره وفى خلجاته، فى أحواله النفسية

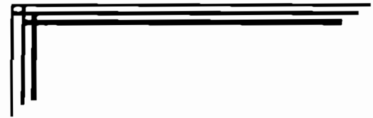
والفكرية فيما يتصل بحياته الشخصية وحياته كحامل للرسالة (فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) ليس ذلك فقط بل (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ). ذلك أن إيذاء الرسول فى شخصه أمر يهم الله تبارك وتعالى الذى أراد منذ الأزل أن يخلص هذا الرسول لذاته ويصطنعه لنفسه، ولذلك اختاره واصطفاه واجتباه وقربه وحفظه وعصمه من شرور الناس وكيدهم ومكرهم وإيذائهم لشخصه (عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا). وكل إنسان متزوج من زوجة واحدة – وبلا استثناء – يدرك جيدا ما يحدث أحيانا أثناء رحلة الحياة الزوجية من مشاكل بين الزوج وزوجته؛ مشاكل تنتج عنها مشاغل ينتج عنها تعكير صفو النفس وصفائها المطلوب لتقوية واستمرار صلة الفرد بربه، ناهيك عن المطلوب من الرسول ﷺ من تبعات التبليغ ومقتضيات مقام القرب من الله تبارك وتعالى. وهذا يؤكد المعنى الروحانى والإنسانى فى زيجات الرسول كما ذكرنا فى غير هذا الموضع باعتبار هذين العنصرين هما اللذان يريد الله حفظهما على الرسول فى ضميره وقلبه وفكره وفؤاده، ليظل على مستواه من الصلة العليا بربه سبحانه وتعالى. ونحن نعرف الآن أن أحسن علاج للآثار النفسية المترتبة على الطلاق هو زواج آخر ناجح موفق.
ولذلك يقرر القرآن فى الزوجات اللاتى تحدث عنهن أن الله يمكن أن يبدل الرسول بدلا منهن بمن هن (مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا) وبذلك يصيب الرسول التوفيق فى الاختيار من حيث توافر الصفات اللازمة لزواجه ﷺ ونجاح هذا الزواج، وهى صفات لا دخل فيها للجمال أو الحسن أو الجاذبية. فالقرآن صريح فى هذه الصفات اللازمة ليكون زواج الرسول على النحو الذى أراد الله له لكى ينجح كزواج وينجح معه الرسول فى أداء رسالته الربانية الموصولة بالله تبارك وتعالى (مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا) وليس يعنى ذلك أن الجنس لم يكن معروفا للرسول مع زوجاته؛ إن هذه مبالغة تجانب الصواب.. فالجنس ولا شك كان أمرا طبيعيا بين الرسول وزوجاته، وهو عامل يؤدى إلى نمو وغنى للحياة الروحية للرسول لكنه لم يكن الهدف والدافع والغاية بل كانت الغاية –ضمن أسباب أخرى– تكمن أساسا فى النواحى الروحية والاجتماعية. حيث اقترن تعدد الأزواج بأمر اليتامى ومستقبلهم المعيشى وما تتصل به من عوامل نفسية يعيشها اليتيم بعد أن يفقد أباه

أساسا بسـبب الحروب التى كانت تخوضها الدعوة الإسلامية فى صدرها الأول. وهى حكمـة كما انطبقـت على ظروف العصر الإسـلامى الأول فهى تنطبـق على العصور التالية وعلى عصرنا الحالى. فالحروب بين البشر لا يمكن أن تنتهى والاقتتال من أجل المصالح والدوافع الأخرى العديدة لا يتوقف، والذى يعرف كم فقدت مجتمعات الدول المتحاربة فى الحرب العالمية الثانية من رجال ترتب على موتهم وجود يتامى كالذين وجدوا فى صدر الإسـلام، يعرف الحكمة الأساسـية من تشـريع تعـدد الزوجات فى الإسـلام، والذى يعرف كيف تسـير حياة النساء فى المجتمعات التى فقدت فى الحرب العالمية الثانية ملايين من رجالها، يعرف الحكمة الأساسية من تشريع تعدد الزوجات فى الإسلام ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ [النساء: ٣] وتفصيلات ذلك ليـس محلها عن الرسـول الذى نعيش فى معيته فى هذه الكلمـات فيما يتعلق بزواجه الموفـق الذى يسـاعده على أداء الدور المطلوب منه وهـو دور كبير وخطير يتقرر به مصيـر الإنسـانية جمعاء والمجتمعات كلهـا وليس مصير فرد أو اثنيـن أو مجتمع أو اثنين وقد جاء قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٥] على سـبيل الزجر. والتهديد لأزواجه ﷺ، وليس معناه أن الخيرية لم تكن فيهن. ولكنه بيان لمقام رسول الله ﷺ عند ربه الذى لا يرضى له إلا ما تطيب به نفسه. فتولى عن الرسول زجرهن وتأديبهن حيث لم يتخل الرسول عن الرفق بهن على كل حال.



٣٣

في معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة القـــــلم



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]

الحقيقة أن الكيان الأخلاقى يعتبر من أهم العناصر التى تكون البنيان الإسلامى للفرد وللمجتمع على السواء، وأيضا على مستوى العلاقات بين الشعوب والدول. ويتصل الكيان الأخلاقى فى الإسلام بالركن الأساسى لقواعده وهو الركن العقدى. فالأخلاق ترتبط بالعقيدة ارتباطا وثيقا ومنها تنبثق الصلة بالعبادات والمعاملات وسائر الأركان التى يبنى عليها كيان المجتمع المسلم بأسره. ولا يجب فصل الأخلاقيات عن الواقع الذى يعيشه المجتمع المسلم بل على العكس فإن الأخلاق وثيقة الصلة بهذا الواقع وهى ترتبط عندئذ بالسلوك الفردى على كافة المستويات التفاضلية بين الناس فى المجتمع الواحد. ومن هنا فحين يقرر القرآن بالنسبة إلى الرسول ﷺ ما يلى (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) فانه بذلك لا يقتصر على مجرد وصف نظرة وإنما يقرر ذلك العنصر الأصيل والأساسى فى حياة البشر فرادى وجماعات، والذى على أساسه تقوم قواعد المجتمع الأمثل بعناصره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية... إلخ. والعقيدة فى الإسلام تقوم على أساس التوحيد. والتوحيد فى معناه العام الواسع هو الإيمان بإله واحد أحد. ثم يتخصص هذا المفهوم ويتجزأ أو يتفرع إلى عوامل متصلة بالتركيب الفكرى والنفسى للإنسان وبنيان الشخصية الفردية التى تعتبر أساس الانطلاق فى الاحتكاك بين الأفراد فيما يشكل المعاملات الاجتماعية – أى فى المجتمع الواحد – ثم المعاملات بين الشعوب وبعضها وبين الدول وبعضها. وربما كان عنصر التقوى جامعا فى معناه لهذا العامل الأخلاقى الذى أشار إليه القرآن وقرر أن الرسول ﷺ قد بلغ قمة مستواه فى هذا العامل الذى يتصل بالضرورة، كما قلنا، بالعقيدة وبالعبادة وبأسس التركيبة الاجتماعية الكاملة لما يعرف بالدولة.

وقـد وضع القرآن صراحة هذا العنصر -عنصر التقوى- كأســاس تقوم عليه علاقات الشـعوب والدول فيما بينها وبما تقيمه من مؤسســات متنوعة فى هذا الإطار للصلات العالمية حيث يقــرر ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجـرات: ١٣] كمـا وضع فى نفس هذا التقرير الســالف عنصر التقوى كأساس للتفاضل بين الأفراد ذكورا أكانوا أم إناثا على المستوى الإنسانى العام (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ). والتقــوى ليســت قليلة الشــأن فى حياة البشــر وإنما هى عنصر مهم جدا يتصل اتصالا وثيقا بالبنيان الإنســانى الفـردى فى تكوينه العقلى أو الفكرى وتكوينه النفســى وما يعكسه ذلك على أنماط السلوك ودوافعه المختلفة وهى العناصر الأساســية لتكوين الشخصية التى تعتبر الوحدة الأساسية للمجتمع ككل كما يعتبر المجتمع ككل الوحدة الأساســية فى العلاقات العالمية بين المجتمعات والدول، وكما يعتبر ســكان الأرض كلها كوحدة أساســية للتعامل مــع الكائنات الذكية التى قد تكون تعيش فى أماكن أخرى فى كوننا الفســيح. والدين فى معناه الواسع يكاد يعنى الأخلاق فى جوهره الأساســى -الأخلاق بمعناها الشــامل الذى ذكرنا من قبل- ولعل هذا المعنى يوطده قول الرسول فيما نسب إليه من أنه ﷺ حدث به قائلا: "إنما بعثت لأتمـم مـكارم الأخلاق" لأن الإله تبارك وتعالى شــرع لأمة الرســول الخاتم من الدين ﴿ ...مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ...﴿١٣﴾ ﴾ [الشــورى: ١٣] وإذا كان الدين -فى الأســاس- يعتبر إسلام الوجــه والوجهة للإلــه الأحد المنزه بما يعنيه ذلك من توحيــد قبلة العبادة والخضوع والتبعية له وحده ســبحانه وتعالى فإن الإســلام بهذا المعنى يقوم أساســا أيضا على عنصر الأخلاق المرتبــط بالضرورة بتبعية عناصر البنيان الاجتماعى التى أوضحناها فيمــا ســلف، والتى جاء المنهــج القرآنى العربى كصــورة ختامية لــه كملت واكتملت للإنسانية جمعاء، ليقتدى بها البشر كلهم من أفراد هذه الإنسانية فى كل زمان وفى كل مكان؛ لأنها نعمة من الله إلى الإنســان. وبذلك نفهم أن الإســلام ليس قالبا جامدا وإنما هو مبادئ للإنســانية كلها اتخذت صورا وأشكالا متعددة منذ الأنبياء والرسل الأولين السابقين وحتى النبى والرسول الخاتم الذى جاء إلى الإنسانية كلها بالصورة والشكل

النهائى فى مبادئه الأساسية متخذا القرآن العظيم، كتابا جامعا وهاديا للإنسانية كلها طريقها للحياة فى صلتها بالله، تبارك وتعالى، المالك للحياة ـ وكل شىء ـ على إطلاقها وكل حياة تعقب حياتنا التى نعرفها. والإسلام إذن يجد طريقه إلى التطبيق الواقعى فى أى مكان وفى أى زمان بواسطة أى مجتمع إنسانى ملتزم بمبادئه ويطبق تعاليمه وقيمه سواء أدرك هذا المجتمع أنه «إسلامي» بهذا المعنى أم لم يدرك. ولعلنا يمكن أن نقول أن المجتمعات المعاصرة ما زالت تقف جميعا دون المستوى الإسلامى القرآنى الجامع لتعاليم المنهج كلها.. ولكننا يمكن أن نقول أن هناك جوانب معينة من هذا المستوى القرآنى تجد التطبيق الفعلى فى مجتمعات تدين بغير دين الإسلام.. كما أن المجتمعات التى تدين بدين الإسلام تفتقد جوانب معينة أخرى تقف بها دون المستوى القرآنى الأمثل.. ويكون الإسلام بذلك «غريبا» فى هذا العصر الذى نواكب تطوراته بالضبط كما بدأ غريبا فى أول عصر الدعوة المحمدية إليه فى كتابه القرآنى الخاتم. وربما كانت العقيدة هى أكثر الأمور صعوبة فى قابلية التغيير. ولذلك فإننا نحن أصحاب العقيدة القرآنية نملك الأساس المتين الذى يمكن عليه إجراء التغييرات الممكنة فى النواحى الأخرى فى حياتنا والمتصلة بعناصر بنيان المجتمع أو الدولة لنقيم المستوى اللائق المدنى والحضارى الذى سبقنا إليه البشر من غير أصحاب العقيدة التوحيدية، والذين يكون التغيير عندهم أصعب ما يكون، لأن العقيدة كما قلنا هى أصعب ما يمكن تغييره على الإطلاق فى الإنسان. ومن هنا يجب علينا نحن أن نقوم بالتغيير الضرورى لنطبق عندنا ما طبقه الآخرون فى الغرب وفى الشرق مما هو إسلامى الجوهر والحقيقة. ورحم الله الإمام محمد عبده الذى فطن إلى هذا الأمر منذ فترة طويلة وكون بآرائه وكتاباته مدرسة فكرية ذات أفق واسع يمكن الاستفادة من تعاليمها عندما نعقد العزم على إجراء التغيير المطلوب لنتجه بحياتنا نحو الأحسن والأفضل. فى إطار مبادئ وأسس وقيم وأخلاقيات وروح الكتاب العظيم وهو القرآن، مستفيدين بما هو إسلامى من تجارب وخبرات الآخرين وإن كانوا على غير عقيدة هذا القرآن العظيم المبين للدين كله.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ
ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾
[القلم: ١-٧].

وتأكيد الخلق العظيم للرسول ﷺ لم يأت من فراغ. فهو فى هذا التقرير القرآنى موصول بما قبله من الآيات التى بدأت بها السورة وتنتهى بها. فالذين لا يؤمنون بهذه الرسالة ولا بهذا الرسول يرمون شخص الرسول بصفة الجنون. وهو اتهام كاذب، لأنه يتعارض مع رجاحة العقل. ورجاحة العقل صفة كان يتحلى بها الرسول، وكان الذين لا يؤمنون بهذه الرسالة ولا بهذا الرسول يعرفون فى شخصه هذه الصفة على وجه التأكيد غير المشكوك فيها. فكانوا يلقبونه بالأمين، وارتضوه لوضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة قبل بعثته ﷺ، واعترفوا بأنه كان لا يكذب وإنما كان صادق الحديث، واعترفوا بأخلاقه الفاضلة... فهل القرآن بعد بعثة الرسول يغير من رجاحة العقل هذه شيئا؟! على العكس إنه يثبت هذه الحقيقة تثبيتا عظيما واضحا جليا بلا أدنى لبس، لما تضمنته آياته من حقائق وآيات سواء ما يتعلق منها بالكون الطبيعى أو تاريخ الرسل السابقين والأمم السابقة، أو حقائق الكائنات وأسرار الحياة وأسس الأخلاق وتنظيمات الأسرة والمجتمع ومداخل النفس الإنسانية فى أعماق مراتبها من الوعى إلى درجات وأساليب السلوك الخارجى ودوافعه... والخير والشر وأمور الحياة الدنيا والحياة البرزخية والحياة الآخرة والثواب والعقاب... إلى آخر ما تناولته آيات الذكر القرآنى الحكيم. إن الذكر القرآنى جاء مقدرا للعقل نشاطه ومقدرا للروح حيويتها -وهما مستويان من الوعى الإدراكى لدى الإنسان- ومعجزة القرآن معجزة عقلية، وأول ما نزل من القرآن كان يثبت هذه الحقيقة التى تقترن بقدرة الإنسان

كمخلــوق فريد قادر على القراءة والكتابة والتحدث باللغة وتحصيل المعارف والعلوم فى ترق مستمر يرتفع ويزداد معه القدر الذى يحصله الإنسان من المعرفة كلما تقدمت حياة الإنســان ذاته فــى الأرض على مر العصور. فالإنســان تعلم البيــان وتعلم كيف يقــرأ، وهو قد تعلم بالقلم وبالقراءة للمكتوب وإدراك المســموع والمرئى... ومعارف الإنسان تترقى باستمرار وتتكاثر ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾[العلق:٥] والذين يقولون عن الرسول إنه لمجنون، جاهلون فى الحقيقة بأمر هذا القرآن، وأمر هذا الرسول الذى تنزل عليه هذا القرآن هو ﷺ الداعى إليه والعالم به. وربما لم يكن الأمر أمر جهل، بل أمر كيد ومكر وحقد وحسد ومواجهة وعداء ومحاربة وضغينة ضد هذا الرسول الذى جــاء بالحق واضحــا يدركه العقلاء جيدا ويدركون معه ومن خلاله عظمة الشــخصية التى جاءت بهذا الحق الموحى به من عند الله. ومرة أخرى يشــير القرآن هنا إلى القلم وما يســطرون ليقرر ما قرره فى بداية التنزيل فى سورة العلق من أمر رجاحة العقل الإنســانى وتميز الإنســان بهذا العقــل الذى هو فى الحقيقة أســاس تقدمــه وازدهار مدنياتــه وحضاراته فى الأرض، نتيجة العلم والمعرفــة ومنهاجهما القرائى والكتابى أساســا إلى جانب الوســائل الأخرى لتحصيل المعرفة –والقلم رمز لها- من سماع أو شهود عن طريق الحواس أساسا، وعن طريق الإلهام والوحى لقلة من الناس اختارهم اللــه تبــارك وتعالى وجعل قدراتهــم العقلية ترجح القدرات العادية للبشــر العاديين، وميــز خاتم هؤلاء المختاريــن بالرجاحة المطلقة فى العقل التى يكون معها ما وصف اللــه به رســوله من أنه على خلق عظيم فى التقريــر موضع حديثنا هذا (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) فلا يمكن أن تتحلى بالأخلاق العظيمة إلا شخصية عظيمة تكاملت فيها صفات التسوية الخلقية الفسيولوجية تماما بحيث يمكنها مع هذه التسوية أن تؤدى الوظيفة الفكرية والسلوكية على أفضل وأحسن ما يكون الفكر والسلوك المتحكم فى العواطف والغرائز التى يتصف بها البشــر لتغلب دائما دوافع الخير والحب والشــفقة والرحمة والأخوة والإيثار.... إلخ على دوافع الشر.

القرآن يقســم إذن بقدرات الإنســان العاقــل على تحصيل المعــارف والعلوم عن طريق الوسائل المختلفة التى تتطور وتترقى بمرور الزمان ليبين أن الرسول شخصية أوتيت من نفس ميزات هذا الإنسان بل وأكثر من ذلك تتميز –ضمن مميزاتها الكثيرة– على غيرها من بنى البشــر؛ لأن الله اصطفى هذه الشــخصية وأعدها إعدادا خاصا فى

القدرات الجسدية الفسيولوجية وما يتصل بها من قدرات عقلية وروحية لتعكس الذكر الحكيم، ذلك القول الثقيل فيما يحمله من حقائق وما يفرضه من تبعات ومسئوليات على المؤمنين به. ويقرر القرآن فى شأن هذا التميز الحقيقة التى توضحه (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) وبالتالى يكون من المنطقى والطبيعى أن تنتفى صفة الجنون عن هذه الشخصية الفريدة (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ). وفى ختام سورة القلم يقرر القرآن عظمة الرسول العقلية والروحية عن طريق الإشارة إلى القرآن باعتباره ذكرًا للعالمين يحوى الحق فى كلماته التى تتطابق فى معانيها مع كلمات الكون وكائناته المخلوقة ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم:٥١، ٥٢] ففى هذه المرة يجيء الجهل، أو يجيء الحقد والحسد والكبر والمكر والعداء والحرب والمواجهة، ليس ضد شخص الرسول مباشرة وإنما من خلال تناول ما يقوله الرسول أنه وحى من عند الله، القرآن، (...لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ ...) وهذه قضية يتهم فيها الرسول نفس الاتهام ولكن بطريقة غير مباشرة بعد أن فشلت دعوى الطريقة المباشرة التى تمس شخصه مباشرة. هذه المرة الاتهام بالجنون غير مباشر حيث يتصل بالقرآن... وهذه قضية سهلة فى الرد عليها سهولة الرد على القضية الأولى. والرد يتلخص فى أبدع صورة فيما قل ودل من القرآن ذاته (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ) فالقرآن لا يعتبر حكرا على ذلك الجيل الأول من غير المؤمنين فيما يتعلق بالعداء له، وإنما هو ذكر محفوظ تظهر وتتضح آياته الصادقة على مر الأجيال والعصور بما يتبين معه أنه الحق حين تتضح آيات الله فى الآفاق وفى النفس الإنسانية نتيجة تقدم العلوم والمعارف المستمر، وتتطابق الحقيقة فى القرآن مع الحقيقة فى الكون وكائناته. والعلم ورجاحة العقل متصلان. وهذا الذكر القرآنى يقرر فى حق العلم والمعرفة قواعد ذات مغزى مهم حين يقرر –مثلا– ﴿ ... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩] وحين يقرر ﴿ ... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ... ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة:١١] . ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٩]. ﴿ ...وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧]... الخ.

أن الذين يتمتعون بميزة العلم والمعرفة هم من أعظم الناس فى قدراتهم العقلية،

فما بالك بالإنسان الذى جاء يعلم الناس كافة بهذا العلم القرآنى الواسع وما يحويه من حقائق.. إنه لابد وأن يكون فى قمة التميز العقلى والروحى الذى أهله للتلقى عن طريق الوحى، وأن يعى ثم يبلغ ما يوحى إليه كاملا غير منقوص. هذا هو الحق فى شأن الرسول والرسالة رغم أن الكفار زادوا فقالوا مرة إنه شاعر ومرة كاهن ومرة ساحر إلى آخر هذه الافتراءات التى يمليها العداء المتأصل فى النفس بدوافعه المتعددة.



٣٤

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـورة الجـــن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ﴾ [الجن: ١-٢]

إننـا لا نعيـش وحدنا فى هذا الكوكـب الأرضى. هناك عقول ذكيـة أخرى تعيش معنا على نفس الكوكب، عقول لدى كائنات لا نراها بحواسـنا؛ خاصة حاسـة البصر، لاختلاف الذبذبات التى تعيش على مستواها هذه الكائنات، واختلاف الذبذبة الضوئية عـن النور المتاح لنا رؤيته بحواسـنا يحمل فى طياته معنى الاهتزاز الذى يشـير إليه القـرآن عنـد حديثه عن نـوع معين من هذه الكائنـات هو النوع المسـتتر عنا أو الجن كما يسـميه القـرآن ﴿ ...فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...(١٠) ﴾ [النمل: ١٠] موسـى والعصـا. فدرجة الاهتـزاز أو الذبذبة التى يحيا فى إطارهـا الجن تختلف عن إمكانات الرؤيا المتاحة لدى الإنسـان. والجن مشـتق لغة من الشـيء المسـتتر الذى لا يرى ومنه الجنة التى تسـتر من بداخلها فلا يرى بواسـطة من كان خارجها. وهناك أفراد من البشـر لديهم القدرة على الاتصال بعالم الجن. أفراد من اليهود والمسيحيين والمسـلمين على السـواء ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن:٦] ويخبرنا القرآن أن النبى سليمان عليه السلام كانت لديه القدرة على تسـخير الجـن فـى المجتمع الذى كان ملـكا عليه، وإن الجن كائن من طبيعـة خاصة نارية أى طاقية تختلـف عن الطبيعة الإنسـانية الطينية أى الماديـة ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر:٢٧].

وللجـن تأثيـر طاقى أو عقلى على المـادة وحركاتها.. هكـذا يخبرنا القرآن وهو بصدد الحديث عن عرش بلقيس ومحاولة نقله من اليمن إلى فلسـطين حيث كان ملك سليمان النبى عليه السلام ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ

أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل:٣٩]. والجن عالم أو مجتمع له خصائصه وله سلوكياته ومعتقداته التى تعرف الخير والشر والإسلام وعدم الإسلام والإيمان والكفر والتوحيد والشرك والاستقامة والانحراف، ويتفاوت الجن فى درجات المعرفة العلمية والفطنة والذكاء؛ وهم لا يعلمون الغيب، كما قد يظن البعض، فحين مات سليمان وهو مستند على عصاه ـ لم يعرفوا ذلك إلا عندما خر على الأرض وسقط ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[سبأ:١٤]. وربما كان التزامهم بطاعة أوامر سليمان هو نتيجة خوف من قدراته التى جعلت علمهم بموته متأخرا نتيجة الهيبة والخوف منه. وتسخير الجن لسليمان يعنى بتعبير آخر الاستخدام من جانب سليمان لقدراتهم وطاقتهم ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل:١٧] ﴿ ... وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ... ﴿١٣﴾ ﴾[سبأ:١٢، ١٣]. واستعانة بعض الناس من البشر برجال من الجن فيه خطورة كبيرة على الإنسان، لأن الجن له القدرة على أن يصيب عقل الإنسان ومخه بالخلل والتخبط، ويؤثر على الجهاز العصبى كله للإنسان وهو ما يعرف بظاهرة المس ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾[البقرة:٢٧٥]. ولكن من بنى الإنسان من يملك القدرة والمعرفة على استخدام الجن لأغراضه وهو عندئذ يكون مستخدما لطاقات معينة تخضع لها الجن ذى الطاقات القوية.... هكذا كان سليمان مثلا.... وكانت عفاريت الجن تخشاه لأنه يملك القدرة والطاقة والمعرفة التى تمكنه من استخدام طاقات الجن لخدمة أغراضه. قلنا إن الجن منهم المسلمون ومنهم غير المسلمين ومنهم المستقيمون ومنهم المنحرفون، هكذا يخبرنا القرآن فى سورة الجن ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾[الجن:١١] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾[الجن:١٤]. وهناك أبعاد غير الأبعاد الأربعة التى يعرفها الإنسان فى الكون الطبيعى، أبعاد خاصة بهذا العالم الطاقى المستتر عنا وهو الجن، ولهذه الكائنات محاولات لاختراق الفضاء المحيط بالأرض بالضبط كمحاولات الإنسان ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ [الجـن: ٨] ولكن ربما اختلفت الوسـيلة فى اختـلاف التركيب التكوينى الهيكلى لكل من الإنس والجن، كما أن للجن معارف وعلومًا متقدمة لا نعرف مقدارها الحضـارى ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجـن:٩] كما يخبرنا القرآن فى سـورة الرحمـن ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾[الرحمـن:٣٣- ٣٥]. والواحد من الجـن هـو العفريـت ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ...﴿٣٩﴾ ﴾[النمل:٣٩] أما الشـيطان فهو رمز لحقيقة الشـر وممثله الأكبر فى الأرض، ولذلك فهناك شياطين الإنس وشياطين الجن كلاهما يقوم بدور الشـر فـى الأرض ﴿ ...شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ...﴿١١٢﴾ ﴾[الأنعام:١١٢].

فى سورة الجن أوحى الله إلى رسوله بهذه المعارف والمعلومات عن الجن ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾[الجن:١- ٥].

ولكـن فى تقرير قرآنـى آخر نعلم أن الجن حضروا مجلس الرسـول واسـتطاع بخبراتـه الروحيـة العالية أن يراهـم وأن يوجه إليهم آيات من القـرآن، حيث كان ﷺ مكلفـا بتبليـغ الدعوة القرآنية إليهم أيضـا وهم من (العالمين) الذيـن يتضمنهم إطار الدعـوة المحمديـة ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأحقاف:٢٩].

ففى هذا النص من الدلالات على قوة الطاقة الروحية المحمدية التى جعلته رسولا إلى الجن كما هو رسـول للإنس، وأن بيانه للقراءة كان يصل إلى هذه الكائنات باللغة العربية، وأن الرسـول كان يراهـم ويعلم بوجودهم، ويقرأ عليهـم القرآن داعيا إياهم

إلى الله تبارك وتعالى، وأن منهم من آمن بالرسول وبالقرآن واهتدى إلى الحق تبارك وتعالى وعبد الله كما ينبغى أن يعبد من الإنس ومن الجن ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦]. ومنهم المسلمون ومنهم من لم يسلم، ومنهم المؤمنون ومنهم من لم يؤمن، كانوا طرائق قددا ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٤، ١٥]. ومن الواضح من تقرير سورة الجن أنهم كانوا معاصرين للأنبياء الأوائل منذ موسى عليه السلام وحضارة مصر القديمة، بل إن القرآن يقرر أن المدنية والعمران للجن سابقان على مثيلهما لدى الإنسان الذى يمثل آدم بدايته حيث إن الجان خلق من قبل آدم من نار السموم. والجان كانوا يتابعون عقائد البشر وتطوراتها أيام الرسل ومن بعد الرسل وخاصة موسى وعيسى عليهما السلام. والقرآن واضح فى هذه النقطة بالذات فى الآية الثالثة من سورة الجن بالنسبة لتحريف أتباع المسيح لأقواله عليه السلام وخاصة بالنسبة لعقيدة التثليث الخاطئة ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن:٣] وبذلك تكون هناك صلة بين الجن وبين بنى إسرائيل أيام موسى ومن بعد موسى أيام داود وسليمان.



٣٥

في معية الرسول ﷺ

فى

ســـورة المـــزمل



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ
وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا
وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾
رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ
هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١-١٠]

يروى المفسرون فى سبب نزول بدايات هذه السورة -وبدايات السورة التى تليها، سورة المدثر- روايتين:

الأولى: أنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبى ﷺ واجتماعهم فى دار الندوة يدبرون الكيد للرسول ودعوته، الأمر الذى أقلق النبى فالتف فى ثيابه وتزمل ونام مهموما....

الثانية: أنها أول ما نزل من القرآن بعد سورة العلق حين جاء جبريل بأول آيات التنزيل القرآنى والرسول فى غار حراء ثم فتر عنه الوحى مدة حتى كان بالجبل الذى فيه الغار مرة أخرى فنظر فإذا جبريل فى السماء فأدركت الرسول منه رجفة وهوى إلى الأرض ورجع إلى أهله يرتجف ويقول: «زملونى.. دثرونى..» ففعلوا.. وظل يرتجف مما به من رهبة المشهد وروعته فإذا جبريل يناديه (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ) و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ [المدثر:١].

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى التى يتمشى ما روى عن سبب نزولها، مع طبيعة السير التاريخى للأحداث ومعانيها. فقيام الرسول لنصف الليل، أو ما ينقص أو يزيد، تاليا للقرآن فى صلاته الليلية يقتضى بالبداهة قرآنا يتلى. فإذا أخذنا بما يروى فى السبب الثانى فإنه يعنى أنه لم يكن قد نزل فى ذلك الوقت إلا آيات من سورة

العلق أو آيات قليلة أخرى، وهو الأمر الذى لا يتمشى مع طول القراءة التى كان يرتلها الرسـول فى صلاته الليلية بهذه المقادير الزمنية التى أوضحها القرآن من قيام الليل. فالتفسير الأول يتمشى مع طبيعة الأمور والأحداث آنذاك. ذلك أن نداء القرآن للرسول بالمزمل والمدثر لم يكن يعنى -فى فهمنا والله أعلم- أن الرسول لم يكن يعلم تبعات الوحى الذى كان سينزل عليه، وأن القرآن لذلك وجهه ليترك حياة الدعة والراحة والنوم إلى حياة الجد والجهاد نتيجة تزمله وتدثره بالثياب بعد نزول الوحى أول مرة ورؤيته ﷺ لجبريـل فى السـماء... نعم إن فى القرآن توجيها بهذا المعنى للرسـول ولكن من منطلق آخر غير منطلق هذا السـبب الذى يروى أن آيات المزمل والمدثر نزلت بسـببها (الروايـة الثانيـة). فنحن نعرف أن الرسـول ﷺ كان قد اعتاد حياة السـهر والعبادة والتحنـث والتفكر والجد والنظر الفكرى، وما يتصل بذلك من إرهاق جسـمانى، أثناء فترة خلوته متحنثا فى غار حراء قبل الدعوة... وأنه غالبا ما كان يقضى شهرا -يوافق شـهر رمضان- مـن كل عام فى هذه الخلـوة الفكرية والتأمليـة، والرياضة الروحية، يعمـل فكره فى التأمل والسـياحة الروحيـة حتى صفا له وقته وفكـره وقلبه متصلا بالكون وأسـراره، والوجود وروحه، والكائنات وإعجازهـا، وحياة الناس التافهة فى اهتماماتها وتعلقاتها، وهو ينظر ﷺ فى خلوته، من منطلق شيء أسمى وأعلى وأعظم وأنفس وأهم وأخطر من المسـائل التى كانت تشـغل بال الناس، وينشـغل الناس بها انشـغالا يضلهم عن سـر القوة العظمـى الكامنة وراء هذا الوجـود العظيم. لقد تعود الرسـول حياة السـهر والاجتهاد الفكرى وتربية النفس ومشقة الجسـد قبل الدعوة، ولذلـك فالأرجح عندنا أنـه لما عرف بالتدبيـرات الكيدية العدائية للدعوة ولشـخصه ولأوائل المؤمنين ـ والتى كانت تدبر فى دار الندوة والنتائج الخطيرة التى كان يمكن أن تترتب عليها ـ وتزمل بثيابه أو تدثر ونام مهموما، نزل القرآن ليقرر بشأن رياضته الروحية أمرا فيه وصل حياة الرسول بما اعتاد عليه فعلا فى الطريق المحدد المرسوم للديـن الجديد الـذى بدأ الجهر به فى مكة وما يقتضيه من اسـتعداد روحى ونفسـى وبدنى كبير. أمر الله الرسـول من خلال عملية الإعداد والاسـتعداد الروحى والنفسى والفكرى والبدنى، أن يتدبر آيات القرآن ويتلوها فى صلاته فى أجزاء طويلة من الليل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا

(٤)...) حتى يستطيع أن يتحمل عبء القول الثقيل فى معناه وفى تبعاته ومسئولياته، وفــى تطبيقاته الفردية والاجتماعية على الســواء. (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا) أى أن ســاعات الليــل وأوقاته التى فيها التفــرغ والصفاء والخلوة مــع كلام الله هى أكثر ثقــلا فى الميزان الروحى والصلة باللــه تبارك وتعالى، وأكثر إنتاجا للأثر المرجو من صــلاة الليــل، وهى لذلك أيضا (وَأَقۡوَمُ قِيلًا) أى يرتقى خلالهــا الفكر ويتركز فيها الذهن على تدبر معانى الآيات المتلوة فى هذا الوقت من صفاء الليل حيث تســكن النفس إلى بارئها، وتسكن بكلام بارئها إلى استحضار القرب من مقام الله من حيث تلاوة كلامه الذى يكون تأثيره التأملى أكبر على العقل الحاضر المتدبر لمعانى هذا الكلام القرآنى المتلو فى الصلاة.

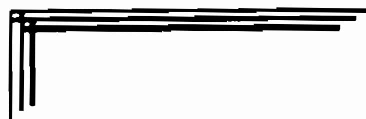
لقــد انبلــج النور بنزول آيات القــرآن، وبها ظهر الحق، وتحــدد الطريق، وبرزت الغاية، وعمر البيت بذكر الله، ورفع السقف الحاجب عن الاتصال بالله، وكشف الغطاء الحاجــب عن رؤية قيومية الله، واتصلت روح الرســول بروح القرآن المبلغ بواســطة الروح الأمين، وجاء البيان يوضح للرسول انه اختير لأداء أخطر رسالة عرفها الإنسان فــى حياته وحتى تقوم ســاعة حســاب الناس. اختير الرســول ﷺ لتلقــى كلام الحق روحــا من أمر الله، قرآنا عظيمــا فى بيان الحق والحقيقة، هــو الكلمة الإلهية الأخيرة يحملهــا آخر مصطفى قبل اليوم الآخر، المصطفى الذى أعــده ربه إعدادا كاملا لتلقى الوحى وإبلاغه كما نزل وكان قيام الليل عاملا مســاعدا فى هذا الإعداد. أما النهار (إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا) والســبح -فى اللغة- هو الطفو على سطح الماء، والمقصود هو الاتصال بسطح الحياة الدنيا ومشاغلها فى النهار وهو وقت الجد والعمل للدنيا أساسا كقاعــدة عامة. وبذلك لا يتعمق الرســول فى أمور الدنيا ويغطس فى بحرها فتشــغله شــئونها عن شئون ذكر الله وتســبيحه والاتجاه إليه بالكلية، وهو التبتل المطلوب من الرســول لاســتمرار مســتواه الروحى كمصطفى قائم بتلقى وتبليغ كلام الله القرآنى (وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا) لأن الاســم «الله» دال على الربوبية وعلى الألوهية وعلى الذات، والذى ليس كمثله شــيء فى كل شيء. وهو (رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا) هــو رب هــذا الكون وكائناته، إله واحد لا شــريك له، فــلا تخف -يا محمد- من كيــد الكائدين لك أو للدعوة التى تدعو بها فإن وكيلــك ووليك وحافظك وحافظ الذكر

القرآنـى الـذى نزل إليك، هو الله سـبحانه وتعالـى الذى يتصرف فـى أمور الأحداث المتصلة بهذا الدين وبالمؤمنين به. ويمكر الكافرون بك وبالدعوة وبالمؤمنين، ويمكر الله بالكافرين والله خير الماكرين.. أما أنت أيها المزمل فأسـلوبك الحالى فى مواجهة هـؤلاء الذين يكيـدون لك وللدعوة، هو الصبـر الجميل والهجر الجميـل حتى يتم الله أمر هذا الدين (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). وفى نهاية سورة المزمل يقرر القـرآن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠) ﴾ [المزمل:٢٠] إن الله يعلم أن الرسـول ﷺ يقوم مع بعـض أصحابه للتهجد والعبادة أقل من ثلثى الليـل أو نصفه أو ثلثه، والله المتصرف فى شـئون الخلق ليلا ونهارا عنده تقدير الزمـان وتقدير الأفعال فى الزمان من حيث لا تأخـذه سـنة ولا نوم، ومن حيث هـو الأول والآخر، ويعلم أن أصحاب الرسـول لن يطيقـوا قيـام الليل كله أو معظمه، أو ربما يطيقونه هم لكن لا يطيقه الذين من بعدهم لاعتبـارات كثيـرة ضرب القرآن أمثلة لهـا فقط، ولذلك خفف عنهـم لاعتبارات تتصل بالطبيعة البشـرية أحيانا، ولأسـباب تتصـل أحيانا أخرى بطبيعة الحياة ومشـاغلها، وبالدعـوة ومقتضياتها وأعبائهـا وأحداثها المحليـة والعالميـة..... والأمر المهم هو التمسـك بالفرائض التـى لا قوام أو قيام للنفس العالية ذات الهمـة والعزم إلا بأدائها، والتمسك بالتكاليف الأخرى الواجبة، كالزكاة، وغير الواجبة، وإنما تتصل بقوة عقيدة وانتماء الأفراد للدعوة وللمجتمع، كإقراض الله قرضا حسـنا، أى المساهمة المالية فى شـئون التكافـل الاجتماعى. والنتيجة فـى كل ذلك تعود فى حقيقـة الأمر على النفس البشـرية ذاتهـا، لأن الله غنى عن العالميـن، لا تنفعه طاعة ولا تضـره معصية، وإنما العائد هو للإنسان من أجل سعادته فى الحياة الدنيا.



٣٦

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة المــــدثر



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر ١-٧].

سـببان لنزول هـذه الآيات ذكرهما المفسـرون على نحو ما أوضحنا فى سـورة المزمل. كما ذهبنا هناك -فى آيات سـورة المزمل- نقرر هنا ميلنا إلى الأخذ بالسـبب الذى ارتأيناه أنسب وأكثر تمشيا مع طبيعة الأحداث ومنطق الأمور، وهو تدثر الرسول بثيابـه ضيقـا وغمّا وهما مما عـرف من تآمر قريش فى دار الندوة على شـخصه ﷺ وعلـى الدعـوة التى جاء بها. ولا نميـل إلى اعتبار الأمر أمر سـماع صوت جبريل فى السـماء مجلجلا بين السـماء والأرض حيث اعترى النبى من رؤيته من الرعب والفزع فجاء إلى أهله يقول "دثرونى، دثروني" . ثم يتعدى النص أيضا هذا التفسير الظاهر، والذى ملنا إليه، المتسـع ليشمل توجيه النداء إلى الرسـول بأن يزيل دثار ما عراه من صفات الغم والضيق والحزن، لما كانت تدبره قريش ضده والدعوة.

وأن يزيـل دثـار أفعال الناس وقدراتهم، وأن يدثر فقـط بصفات الداعى إلى الله، وصفـات المصطفى مـن الله، تلك التـى تتضمنها مرحلة الدعوة كلهـا منذ نزول هذا التقريـر القرآنـى وحتى اكتمـل الدين وأتم الله نعمته على البشـرية بإكمال الرسـول المصطفـى بلاغه للناس بآخر آيات التنزيل ولعلها ﴿ ...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائـدة:٣] والدِّثار هنا إذن -وإن كان لباسـا فى الأصل- إلا أنه يتسـع كما قلنا ليشـمل الحواجز التى تقوم بين هذا الداعى المصطفى من الله اختيارا كخاتم المرسـلين وبين ربـه، مما يضعه الخلق من عراقيل ومصاعب ومواجهات وتحديات للداعى والدعوة، ولما يضعه الداعى نفسه من تحسبات واهتمامات تنتج لزاما كرد فعل نظرى أو سـلوكى تجـاه ما يضعه الأعداء من عراقيل

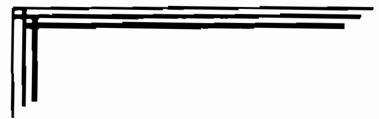
ومصاعب ومواجهات وتحديات... ويوجه القرآن النداء للرسول لهذا المدثر، بكل هذه الأمور، أن يخلع عن نفسه الثوب الذى يغطى علاقته بربه تبارك وتعالى، ويغطى أمام سلوكه وأمام فكره مسالك الطريق المستقيم الذى ينبغى أن يسير فى اتجاهه، وهو طريق التكليف بإبلاغ الدعوة تبشيرا وإنذارا.. ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ وقوِّى صلتك بربك فلا تُدثر بما يحجبك عن شهوده فعَّالا مريدا مؤثرا كبيرا سميعا بصيرا حيا قيوما ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ولباس التقوى ذلك هو الخير كل الخير.. وهى الثياب التى أمر الرسول بتطهيرها[1].. صفات التقوى من الله وحده، والتوكل عليه وحده، واتخاذه وليا وحده، والتجمل بالأخلاق المحمدية الفاضلة التى تستمد من أخلاق القرآن، ليتحصن ﷺ بمجامع مكارم الأخلاق. وتطهير ثيابه الصفاتية من كل خلق لا يتمشى مع قمة مكارم الأخلاق، وهو المعنى الذى يقرر فيه القرآن ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ويكمله بتقريره ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ولا تحرم الناس من سلوكك وتوجيهاتك الأخلاقية السامية التى تستقيم أنت عليها وتظن أن فى هذا العطاء ما يزيد على ما يستحقه الناس... أو انك حين تعطى من توجهاتك الأخلاقية باعتبارك قدوة للناس فلا تستكثر من عطائك هذا، لأنك كلما أعطيت المزيد جاء المزيد من الخير للمؤمنين خاصة وللناس عامة... وربما كان الرسول يفيض على الناس من حوله من كريم وحميد صفاته ما هو كثير فعلا، حتى جاء النص ليوضح أن عطاء الرسول ليس كثيرا؛ لأنه الرحمة المهداة إلى الناس، والنعمة المسداة إليهم، وهو قدوتهم على طريق الخير والإيمان والأخلاق، وهذه أمور العطاء فيها ليس أبدا كثيرا، لأن الناس يحتاجون دائما إلى مثل هذا العطاء، والى من يذكرهم بالخير باستمرار من خلال هذا العطاء... واصبر يا أيها الرسول لربك لأنك إنما تبتغى مرضاة ربك وتأتمر بأمر ربك وتعمل بتكليف من ربك وتحمل أمانة تبليغ قرآن ربك... وتعلم أن العاقبة لربك، إليه يرجع الأمر بالنسبة إليك، واليه يرجع الأمر بالنسبة لكل الناس ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.



(١) قال ابن عباس: كنى بالثياب عن القلب والمعنى وقلبك فطهر من الإثم والمعاصى. يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقى الثياب. يريدون وصفه بالنقاء من المعاصى وذميم الصفات ويقولون مثلا: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفا بالأخلاق الذميمة. وذهب الرازى إلى نفس المعنى.

٣٧

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســــورة عبـــس



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ
يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ
مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾ [عبس: ١-١٦].

هو عتاب فيه تقرير لحقيقة أساسية بالنسبة لدين الله وعلاقته بالإنسان، لكى يعلمها رسول الله ويعيها جيدا. لم يعبس ﷺ عن كره للأعمى. ولم يتولَّ تحقيرا من شأن الأعمى. ولكن المسألة كلها تدور حول تعبير ورد فى هذا التقرير وهو (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) والمراد به أن موضوع الهداية إلى الله بالقرآن موضوع تذكرة فى أساسه، فمن شاء ذكره. وهو كما يقرر القرآن (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)) هذا هو أساس الموضوع. ولا يهم بالنسبة لله تبارك وتعالى أن يؤمن الإنسان أو يكفر فهذا أمر يرجع إلى إرادة الإنسان التى تملك الاتجاه إلى أى من النجدين، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. والله تبارك وتعالى لا ينفعه إيمان مؤمن ولا تنفعه طاعته، ولا يضره كفر كافر، ولا تضره معصية. وإنما الأمر أولا وآخرا يعود على الإنسان نفسه الذى يأتى الله يوم القيامة فردا، يحمل مسئولية نفسه ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾[المدثر:٣٨] ومسئولية الرسول هى مسئولية التذكير ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾[الغاشية:٢١] أما هداية الاتباع فهى شأن إرادة الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...(٥٦) ﴾[القصص:٥٦] وشأن الرسول هو فى هداية الإبلاغ ﴿ ...وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾[الشورى:٥٢] والدين أمره إلى الله يظهره كيف شاء وعلى يد من شاء ويهدى إليه من يشاء. وقد كان الرسول حريصا كل الحرص من منطلق دوافع عدة منها الرحمة والرأفة والرغبة فى تدعيم دين الله بالرجال ذوى النفوذ والتأثير والمكانة، وكان حريصا أن يركز حديثه فى هداية هؤلاء

النفر من كبار قريش الذين كانوا سيكسبون الدين الناشئ قوة مؤيدة ذات تأثير كبير. هذا هو الأمر الذى كان يحسب حسابه الرسول ويضعه فى الاعتبار عندما جاءه الأعمى -وهو عبد الله بن أم مكتوم- ساعيا وقلبه ملئ بخشية الله وتقواه، وقد استجاب للتذكرة القرآنية يريد الاستزادة فى أمر دينه، فمال الرسول عنه باعتباره قد دخل فى الإيمان واستجاب للتذكرة فعلا فأمره هين بسيط. أما أولئك الذين وصفهم الله بتعبير (أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ) فقد كان فى تقدير الرسول أن كسبهم إلى جانب الدين الجديد. واستجابتهم للتذكرة بهذا الدين الذى يمثله القرآن العظيم فى قدره ومكانته وهو (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾) كان يمكن أن يدخل هذه القلوب الناشزة التى لا تعرف الخشية أو التقية، وإنما تعتريها كل ما تشمله أوصاف الاستغناء التى وردت فى النص القرآنى من أمور المال والجاه والسلطان والعزة المتصلة بهم، عن الإيمان بالله والخشية من جنابه، وبالتالى الفوز فى الدنيا والآخرة فوزا شخصيا ينجون به من عذاب يوم أليم. كما كان فيه كما ذكرنا انتصار إلى هذا الدين الناشئ والذى كان- فى ظن الرسول- يقتضى أولوية فى الهداية والتذكير تذهب إلى هؤلاء قبل أن تذهب إلى الأعمى الذى هو فعلا مليء قلبه بالإيمان والخشية من الله تعالى. ولكن الأمور كما قلنا فى ميزان الله تبارك وتعالى لها شأن آخر (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ) إنه لن ينفع إنسان ولن يضر ولن يؤثر فى مجريات الأحداث الحتمية والمتصلة بهذا الدين وإتمام إبلاغه وإظهاره على الدين كله وفق إرادة الله تبارك وتعالى. وقد كان القرآن حريصا فى هذه السورة - سورة عبس- أن يتعمق فى بيان صفات النفس الإنسانية، ففرق بين النفس التى استغنت بمالها وجاهها واستكبارها وتعاليها بالنسبة لهدى الله وكلامه، وبين النفس المؤمنة المتواضعة التى تملؤها الخشية والتقوى. الأولى كان يمثلها أولئك النفر من كبار قريش والثانية يمثلها عبد الله بن أم مكتوم الأعمى. وتعبير الأعمى له دلالة؛ وذلك لأنه بالنسبة لهدى الله وكلامه فإنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى هى فى الصدور. وبهذا المقياس كان عبد الله بن أم مكتوم أعمى البصر حاد البصيرة بينما كان أولئك النفر من قريش كانوا كاملى النظر عميان البصيرة. هذا هو شأن النفس الإنسانية. ولذلك تناولت آيات سورة عبس حقيقة هذه النفس وما فيها من صفات العناد والاستكبار وجحود الحق وجاء السياق على النحو التالى ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾[عبس:١٧] ثم بيان طبيعة تكوينه ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ [عبس:١٨- ٢٠] وبيان أصله الذى

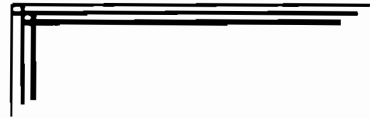
يرجع إليه فى نشـأته وهو فى رعاية الله سبحانه وتعالى ينميه ويطوره خلقا من بعد خلق إلى أن صيره طفلا تدب فيه الحياة من سر النفخة الروحية إلى الصبا إلى الشباب إلى أن يبلغ أشـده إلى طور الرجولة ثم إلى الشـيخوخة ثم الكهولة ومنهم من يرد إلى أرذل العمـر. وفى هذه الحالة تتقهقر قواه العقلية بالصورة الفسـيولوجية المعروفة التى عبر عنها القرآن بتعبيره الدقيق ﴿ ...لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ...﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل: ٧٠] يعـود طفلا كمـا بدأ ثم يموت فيصير إلـى حالته الروحية الصرفـة المجردة فى عالم الروح فى القبر ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾[عبس: ٢١، ٢٢] ليواجه مصيره فى اليوم الآخـر ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[عبـس: ٣٣- ٣٧] ويكون المصير بحسـب العمل والعقيدة فى الدنيا خلال رحلة الحياة الإنسـانية ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾[عبـس: ٣٩- ٤٢] وبهذا التقرير لمصير الإنسان تنتهى سورة عبس التى بدأت بتقرير انفعالات الرسول الناتجة عن تقريراته بشأن واقعة الأعمى.

إنـه وإن كان فيـه عتـاب للنبى ﷺ إلا أنه عتـاب فيه تكريم وتعليـة؛ لأنه بين الله وحبيبه القريب منه المبلغ لوحيه المجاهد فى سـبيل إبلاغه وبيانه ونشره لرفعة شأن هذا الدين.. وإن هذا الوحى تذكرة لمن شاء أن يذكره.. ورُب ضعيف أو عاجز هو أهدى عنـد الله وأقرب ممن طمس الله على قلبه فهو أضل عند الله وأبعد. ووجهة نظر النبى واجتهـاده فى أمر كفـار قريش ودعوتهم من أجل مؤازرة الدعوة ومناصرة الإسـلام والإيمـان بالوحـى هو فـى الحقيقة قليل عند اللـه إذا ما قيس بمن جاءه يسـعى وهو يخشـى لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى وفى الدنيا حين يعاتب إنسـان إنسانا فإن ذلك يكون من باب المحبة والإخاء حفاظا على روابط ووشائج الأخوة وصفاء النفوس والقلوب لتدوم علاقة الصفاء والحب بينهما.



٣٨

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الأعلـــى



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعلى:١- ١٢].

الأمر صادر من الله تبارك وتعالى إلى الرسول ﷺ على وجه تحقق الرسول بشهود وعلم ظاهرة تسبيح اسم الرب الأعلى فى الكون كله، وهو مسرح هذا التجلى التسبيحى الذى يعلمه الرسول بكل دقائقه ويشهده بروحه السامية الطاهرة التى ارتفعت بهذا القرآن وبالعلم به إلى مستوى الذكر الذى لا نسيان معه أبدا. الذكر لحقيقة الألوهية وصلة هذه الحقيقة بالكون وبمراتب المخلوقات فيه، وبالقوانين والنظم التى تحكم مراتب هذه الكائنات كلها وتنظم سيرها الذى هو المحافظة على البقاء والتكاثر بنوعيه الجنسى واللاجنسى. الكون كله إذن مسرح لهذا التسبيح الذى ووجه به الرسول لينطق به بلسان عربى مبين بعد أن استوعبه فكره وأحاطت به روحه على مسرح الكون كله، استيعابًا وإحاطة من يقرأ فلا ينسى، لا فى السر ولا فى العلن وفى الوقت نفسه فى مرتبة المخلوق التى هى دون مرتبة الخالق الذى ينفرد وحده بمقام القيومية الذى لا تأخذه معه سنة ولا نوم، فهو الوحيد الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء والأرض ﴿ ...وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ...﴿٦١﴾ ﴾[يونس:٦١] فهو محيط بالكون الطبيعى وبما وراء الكون الطبيعى من كائنات، لا تحده الأبعاد التى تحد العقل البشرى الذى يمكنه أن ينسى.

سبح أيها الرسول بما علمته وتحققت به، من خلال هذا القرآن الذى جمع وحوى ولم يفرط الله فيه من شيء. هذا القرآن الذى ضرب الله فيه من كل مثل، وفيه كل

شـــيء فصله الله تفصيلا وخاصة فى أمور الخلق فى الكون. الله هو الذى خلق فسوى وهو الذى قدر فهدى وذلك مشهود فى كل الكائنات فى أنحاء الكون الفسيح. والإنسان يكتشــف هذه الحقائق من خلال تعامله مع الكائنات فى الكون وفى الأرض والســماء والبحار والمياه... ليعلم من خلال النظم والقوانين التى تحكم هذه الكائنات معانى سر التسوية للخلق فى طبيعة الكائنات، وليعلم أيضا معانى الهدى بعد التقدير فى اقتران التســوية مع الخلق من خلال طبيعة الكائنات وسلوكها فى التوالد أو التولد أو النشوء أو التكاثــر أو الحفــاظ على البقاء أو الصــراع فيما بين الكائنات فــى عوالم الجمادات والنباتات والأســماك والطيور والحشــرات والحيوانات، ثم عالم الإنســان، ذلك العالم الفريد المعجز... وكيف أن الموت يحكم هذه الكائنات جميعا وهو التقدير الإلهى الذى لا يخــرج مــن قبضته أى مخلوق مهما كان نظامه أو كونه الذى يحدد ســلوكه ويدفعه إلى البقاء والتكاثر... إنه النظر إلى ســر الحياة وسر الموت وتحول الحياة إلى الموت، وتحول الموت إلى حياة، وكلاهما يمثل شكلا من أشكال الطاقة التى تتحول من شكل إلى آخر مع تحول حقيقة الموت المخلوقة إلى حقيقة الحياة المخلوقة والعكس.

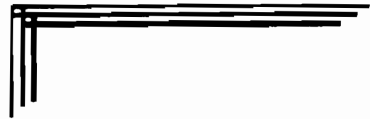
والرســول ﷺ اختاره الله من دون البشر أجمعين ليبلغ القرآن، ولذلك منحه الله الطاقة الروحية اللازمة لتلقى آيات هذا القرآن فيستوعبها فكره وفؤاده، وتلتصق بها روحه فلا ينســى هــذه الآيات القرآنية الموحاة إليه أبدا، لا فــى ألفاظها ولا مدلولاتها، ولكــن ليظل الله تبارك وتعالــى فى مقام تنزيهه الأعلى ســبحانه وتعالى هو المنفرد بعدم النســيان المطلق لأنه العليم الخبير والقيوم الذى لا تأخذه ســنة ولا نوم وســع كل شــيء علما وأحاط بكل شيء خبرا ويظل ســبحانه وتعالى أقرب إلى كل شيء من ســره، وأظهر على كل شــيء من جهره. وليس كذلك الإنســان المخلوق حتى ولو كان أكثر الناس تميزا من هذه الإنسانية على الإطلاق، وهو محمد رسول الله. وقد منح الله الرســول ﷺ ميزة التذكر والتحقق بمضمون الذكر فــى لفظه ومعناه من خلال نعمة الله عليه وإرادة الله له، وتيســير الله له لليســرى، وأمره له أن يذكِّر البشــرية جمعاء التى تتفاوت نفوس أفرادها وتتفاوت عقولهم فى مدى الاســتعداد لقبول الذكر وفهمه وإدراك معانيــه وأبعــاده؛ ولذلك فإن كثيرًا من الناس شــرح الله صدورهم للإســلام، وكثير من الناس لم يشــرح الله صدورهم للإســلام، وإرادة الله شاءت أن يكون فريق

مــن الناس فى الجنة وفريق منهم فى النار، وهو ســبحانه وتعالى لا يُســأل عما يفعل وهم يُسألون. ولكى تنتفى الحجة عن الناس وتقام المحجه على الناس أنزل الله الذكر وحفظه إلى أن تقوم الســاعة وأرسل رسوله بالذكر ليذكر به لكى لا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ ﴾[الأعلى:١٣] الرسول وظيفته التذكير لا السيطرة على عقول الناس، إنه يذكر العقول ولا يسيطر عليها لأنها تملك الحرية فى الاعتقاد والســلوك المنبنى عليه ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾ [الغاشية:٢١- ٢٦) ومن أجل هذا المعنى الشمولى فى حقيقة التقرير القرآنى (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) أمر الرســول أن تكون هذه تسبيحة السجود للمصلين حيث العقل الســاجد لله اختيارا من خلال التســليم بمحدودية قدراته فــى مواجهة عدم محدودية القدرات الإلهية الظاهرة فى خلقه وصنعه وتقديره وتســويته للخلق ولصنعه فى كل شــيء على الإطلاق فى هذا الكون، بالضبط كما أمر الرســول أن تكون ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾[الواقعــة: ٧٤] تســبيحة فى الركوع للمصليــن، وهى تؤدى نفس المعنى فى القرآن المتلو فى السجود. ولعل الذرة والخلية وكذلك الأنظمة المتكاملة فى الجمادات والنباتات والحشــرات والأســماك والطيور والبرمائيات والحيوانات وأخيرا الإنسان، وكيفية سلوكها كوحدات متكاملة البنيان؛ أى مُسَوَّاه بحسب التعبير القرآنى، ودوافع الســلوك الغريزى والفطرى والعقلى حســب مراتبها فــى الترقى الخِلْقِى، كل ذلك يلقى أضواء على تفســير (ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣) بما يتم معه إدراك حقيقة (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى) الذى كان يتحقق به الرسول ﷺ.



٣٩

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الغاشـــية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية ٢١، ٢٢].

بيان لحقيقة المهمة التى جاء هذا الرسول ﷺ يؤديها بتكليف من الله تبارك وتعالى نحو البشر أجمعين. بيان فيه إعلاء شأن الدور الذى كلف أن يقوم به هذا الرسول نحو البشر أجمعين، وبالتالى إعلاء شأن هذا الرسول ذاته فى مستواه الفكرى والأخلاقى، من حيث المعرفة فى إطار صلة هذا الرسول بالقرآن. وبذلك يتصل دور الرسول فى التذكير بهذا الذكر القرآنى الميسر للذكر الإنسانى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر:١٧] دور الرسول ليس فقط دور المبلغ أو الوسيط لما لا يعلم، وإنما هو دور المبلغ والوسيط لما يعلم ويشاهد ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[البقرة:١٥١] والعلم اليقينى المحمدى يقرره القرآن فى ﴿ ... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ... ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣] والمشهد اليقينى المحمدى يقرره القرآن فى ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾[طه:٢٣] إنه دور هداية الفكر الإنسانى نحو النظر فى مخلوقات الله فى الكون، باعتبار هذا النظر هو السبيل المؤدى إلى الإيمان بحقيقة الألوهية. إنه دور توجيه الفكر البشرى نحو حقيقة الألوهية؛ ليستمد هذا الفكر من هذه الحقيقة قواعد نشاطه الأدائى النظرى والسلوكى على السواء. وفى أثناء هذا الدور للرسول. وكفى الرسول قَدْرًا حين يقرر القرآن العظيم أنه مذكر للبشرية يوجه العقول فى نشاطها الفكرى نحو النور فى إطار من الاعتراف بحرية العقل البشرى فى الاتجاه الفكرى والنظرى. وحين يرتقى القرآن هذا الارتقاء المتصل بمهمة الرسول الفكرية تجاه الفكر البشرى فإنه يأخذ فى الاعتبار عظمة شأن المنحة الإلهية للإنسان

والمتمثلة فى العقل والفكر. هذه المنحة العقلية للإنسان هى سر تكريم هذا الإنسان. بها صار حرّا يملك الإرادة المستقلة على إتيان العمل الفكرى الذى يختاره، والنشاط السلوكى الذى يختاره، ولكن العقل يعتبر منحة ربانية هى من أخص خصائص النفخة الربانية الروحية، ومن هنا كان سلوكه الطبيعى أن يتجه نحو هذا المصدر الذى أمده بالقدرة على الحركة، أو بتعبير آخر أمده بالطاقة على الأداء الوظيفى المرتبط بالأجهزة الوسيطة فى الجسد المُسَوَّى.

ولذلك جاءت قبل هذا التقرير تقريرات تحث على النظر العقلى فى الكون والمخلوقات والخصائص المكونة لكل منهما. واختار القرآن أمثلة هى الإبل من عالم الحيوان، والأرض من الكون وإلى السماء من المجرات الهائلة وإلى الجبال فى الأرض من هذا الكوكب الذى يعمره الإنسان ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[الغاشية:١٧- ٢٢].

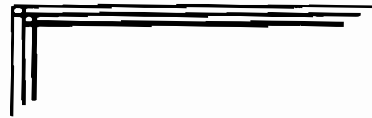
وحساب الناس ليس على عاتق الرسول ﷺ فهذا ليس دور الرسول. دور الرسول هو الهداية والتذكير. أما دور الحساب بالثواب والعقاب فهذا دور الله وحده، الذى لا يشاركه فيه غيره؛ لأن الله وحده مصدر نعمة العقل التى أوتيها الإنسان كخاصية من خصائص النفخة الروحية الربانية التى تلازمها التسوية الإلهية أيضا للجسد الإنسانى. فى هذا التقرير القرآنى موضع حديثنا تكريم للعقل الإنسانى واعتراف بدوره الخلاق والبناء فى الأرض مع استمرار ترقى ونمو حياة الإنسان فيها. هذا التكريم فيه اعتراف -كما قلنا- بحرية العقل فى أداء نشاطه النظرى والدافع إلى السلوك.

ونعمة الحرية الفكرية هى من الله لا يملك أن يتحكم فيها غير الله تبارك وتعالى. ولا حتى الرسول المعلم للإنسانية، والذى جاء بالوحى القرآنى (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) وإنما للرسول دور يبلغ من الرقى والسمو والعظمة إلى الدرجة التى سما بها الإنسان بعقله وصار حرا فريدا قادرا سميعا بصيرا عالما متكلما.... إلى آخر الخصائص النابعة من المخ والأجهزة الأخرى فى الهيكل الإنسانى. فكما سما الإنسان بتميزه العقلى عن سائر المخلوقات فى الكون فكذلك كان من الضرورى أن يسمو الرسول فى مهمته تجاه العقل الإنسانى إلى نفس مستوى هذا التكريم الذى ناله الإنسان بسبب

تميزه العقلى إن لم يفُقْهُ. وهذه بدهية يقررها النص القرآنى فى بيان مهمة الرسول ﷺ ودوره تجاه الفكر الإنسانى (فَذَكِّرْ) ثم يصفه بحدود دوره المراد به (إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ) وهو مع ذلك دور فى غاية الأهمية لأنه يرتبط بمصير الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة على السواء؛ من حيث يعترف الإنسان أو لا يعترف.. من حيث يؤمن أو لا يؤمن. يرتبط هذا الدور بمصير الإنسان من حيث يرتبط بمصير الإنسان بالله تبارك وتعالى. شعر الإنسان بذلك أو لم يشعر. أدرك ذلك أو لم يدرك.. اعترف بذلك أو لم يعترف. آمن بذلك أو لم يؤمن. فسلوك الإنسان ونشاطه الفكرى محسوب عليه يحصيه هو نفسه على نفسه إحصاء أو تسجيلا يراه منشورا يوم القيامة الذى يحاسب فيه الإنسان نفسه بنفسه حسابا ذاتيا من خلال ما يؤديه العقل الواعى الباطن والمخ من وظائف فى اختزان المعلومات والأفكار والتجارب والأعمال.... إلخ. وهو الأمر الذى يدركه الرسول تماما ومن أجل التذكير به والإنذار منه جاء مبلغا البشرية هدى الله الذى باتباعه تكون النجاة يوم القيامة حين تقوم ساعة حساب الناس أجمعين. وهو يوم آت لا ريب فيه وساعة قائمة لا ريب فيها ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾[الغاشية:٢٥، ٢٦]. أهمية دور الرسول تنبع من هذه الحقائق الوثيقة الصلة بوجود الله تبارك وتعالى وخلافة الإنسان فى الأرض وقبوله للتحدى الإبليسى (الشر) وقدرات الإنسان على المواجهة لهذا التحدى بالعقل المسترشد بهدى الله سبحانه وتعالى (الخير) الآتى بواسطة الرسل وخاتمهم محمد رسول الله. ودورهم جميعاً هو تذكير الناس بالحقيقة الإلهية كل على قدره وعلى قدر الهدى الذى جاء به من عند الله. وأعظمهم قدرا هذا الرسول وهذا الهدى القرآنى الذى يخاطب الإنسان فى عقله وفى نفسه وفى قلبه وفى فؤاده وفى فكره وفى روحه وفى بدنه على المستوى الفردى والأسرى والاجتماعى والعالمى بل وعلى المستوى الكونى كله. إن الرسول يذكر البشر بحقيقة الألوهية التى هى القاعدة الأساسية فى هذا الوجود كله بكائناته كلها. ويوجه نظر البشر بعين التقدير والدراسة من خلال مستوياتهم الفكرية المختلفة والدائمة الترقى من خلال العالمَيْنِ الفيزيقى والميتافيزيقى (الطبيعة وما وراء الطبيعة) نحو خالق ومُوجِد هذا الوجود بجوانب كائناته المختلفة بما فيها المرتبة الإنسانية وكلهم مبدؤهم من الله ومنتهاهم إليه سبحانه وتعالى، ويعتبر الدين ـ أيا كانت صورته ـ العامل الأساسى المحرك لنشاط الإنسان الفكرى والسلوكى على السواء على مر العصور، مع امتداد الحياة الإنسانية واستمرارها إلى حين منتهاها.

٤٠

فى معية الرسول ﷺ



فى

ســـــورة البلـــــد



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ ﴾ [البلد: ١، ٢].

فــى تقرير آخر من آيات القرآن الكريم يقســم القرآن بمكــة المكرمة حيث البيت الحــرام أول بيت وضع للعبادة للناس فــى الأرض ليكون مثابة لهم وأمنا، يلتقون فيه على الســلام وعلى المحبة تعظيما لشأن البيت وتعظيما لشأن مكة بهذا البيت ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ ﴾[التيــن: ١: ٣] وفى التقرير –موضع حديثنا هنا- يقسم الله بالبلد الأمين، مكة، ويشرفه تشريفا بسبب آخر غير البيت الذى بناه إبراهيم وإسماعيل، والتشريف هنا بسبب كون الرسول ﷺ مقيما بهذا البلد. ومن هنا وجب أن نتنبه إلى عظمة شــأن رســول الله. فإذا كان القرآن قد شرف مكة بالبيت الذى بناه الخليل فإن القرآن قد شرف مكة أيضا وبيت الخليل كائن فيها، بالبيت الذى بناه الجليل وهو الرسول ﷺ بجسده وروحه باعتباره مختار الله من الإنسانية جميعا، النمــوذج القيــادى لها فى الفكر والســلوك والمقصد الأســمى الذى يســتضيء بنوره المهديون من الله.

والرســول هو دائما مَثَلُ هذه الإنســانية الأعلى فى كل زمان وفى كل مكان. ومن هنا كانت إشارة القرآن إلى الحقيقة الإنسانية وهو يقسم بالبلد الأمين، سواء فى سورة البلد أو فى ســورة التين، لأن الإنســان هو البيــت الذى بناه الجليــل، بينما الكعبة هى البيت الذى بناه الخليل، وفرق فى الدرجة بين بيت بناه الخليل وبيت بناه الجليل. يقرر القرآن فى سورة البلد هذه الحقيقة الإنسانية بعد أن يقرر تشريف مكة بإقامة الرسول فيها فيقول ﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ ﴾[البلــد: ٣- ١٠] وفــى ســورة التين يقرر القرآن، بعد أن يقســم

بهذا البلد الأمين، مكة، مشيرا إلى الحقيقة الإنسانية أيضا ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين: ٤ - ٦] فى سورة البلد يشير القرآن إلى الحقيقة الكبرى التى تتصل بحياة الإنسان وحقيقة خلقه فى كبد؛ أى فى مشقة وجهد وكد وكفاح وكدح ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الغاشية:٦] وعملية خلق الإنسان فيها كبد منذ نشأته الخلوية الأولى، إلى أن يكتمل الجنين فى بطن أمه. ثم ينزل إلى الحياة طفلا لا يعلم شيئا، ثم يبدأ رحلة الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة أو يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا.

وخلال هذه الرحلة يكابد الإنسان ويشق طريقه فى الحياة فى مشقة وجهد وكدح وكفاح بفكره وبجسده، ولكل إنسان غاية يسعى إليها... هذا غايته المال، وهذا غايته الجاه، وهذا غايته إجابة غريزته وشهوته، وهذا غايته الدنيا، وهذا غايته العقيدة التى يؤمن بها، وهذا غايته الآخرة، وهذا غايته الله ورسوله... ولكل إنسان وجهة هو موليها والله هو الذى خلق الإنسان ابتداء ويعرف خصائص تركيبه ويعرف فيه هذه النوازع والغايات التى تختلف من نفس إنسان إلى نفس إنسان آخر. ويدخل ضمن هذا التركيب وضمن تحديد الدوافع بعد ذلك التكوين الجسدى البالغ الدقة والتعقيد وما يتصل به من تكوين عقلى فريد وتكوين روحى نورى. لقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم، فهو مهَّيأ لأن يبلغ من العزة والسمو ما يعلو به على الملائكة المقربين. ولكنه مهيأ أيضا لأن يهوى إلى مهاوى الانحطاط والدرك الأسفل الذى لا يشاركه فيه غيره حيث ينحرف به فكره عن طريق الاستقامة فى أداء الوظيفة الخلافية فى الأرض عن الله تبارك وتعالى. وتبلغ به درجة الانحطاط إلى أن يكفر بربه ويجحده ثم يرتكس مع هواه ويتخذه إلها من دون الله، وهو عندئذ معطل لأهم وظائف خصائصه الإنسانية التى خلقه الله عليها وجمله بها وأهله بواسطتها لأداء دور الخلافة فى الأرض وآتاه هدى السماء من رب الأرض والسماء. بواسطة المرسلين إلى البشر منهم. عندئذ يهبط الإنسان من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، ويحسب أن لن يقدر عليه أحد بينما خلقه يشهد عليه أنه لم يخلق من غير شيء وأنه لم ولن يترك سدى، وأن الذى خلقه وأعطاه وظائف السلوك والفكر والقدرة على الخلق والإبداع، هو ذاته الذى يراقبه طوال فترة

حياته هو فى مشقة وكد مع الحياة وفى أمر الموت والحياة وفى أمر الحساب بالثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة، حتى تستقيم حياته على مناهج الله الآتية عبر هداه بواسطة الأنبياء والمرسلين، وقد جاءت فعلا صورته الخاتمة النهائية الكاملة المكتملة فى القرآن العظيم بواسطة خاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

من كل ذلك كان مقام تشريف البلد والبيت فيه بهذا الرسول الذى هو فى الحقيقة البيت الأعظم للأرواح، بيت الله المعمور بالله، ونور الله الدال على الله.



٤١

في معية الرسول ﷺ

في

ســـــورة الضحـــى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (٥) أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (١٠) وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (١١) ﴾[الضحى: ١-١١].

يستجيب الله سبحانه وتعالى لأدق الإحساسات والمشاعر النفسية والخواطر الفكرية للرسول ﷺ، ويقرر فى الوقت نفسه فى قرآنه حقيقة إشراق النور المحمدى والنور القرآني؛ كلاهما نور متى آن أوان إشراقه وأضاء به الوجود كله فإن كل ظلمة معه تتبدد، وكل ليل معه يشرق بالنور وتتبدد ظلمات الكفر والشرك لتضاء بنور الإيمان والتوحيد. ومتى ظهر النور فإنه لا ينطفئ أبدا، ولذلك يخاطب الله رسوله فيقول (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) أى ما أنهى الله صلته برسوله وما تركه أو هجره أو نسيه منذ اختاره لإبلاغ خاتم الرسالات. وكيف تتأثر هذه الصلة بين الله ورسوله وهى صلة روحية ونورانية فى حقيقتها، وكلاهما -الروح والنور- لا يفنى ولا يزول. فالروح باق والنور باق وهما يسطعان فى الدنيا لتستمد منهما القلوب والعقول والأرواح قبسا من ضياء وهدى من السراج الذى تستنير به هذه القلوب والعقول والأرواح، وتفيض من نورها على الإنسانية فى الأرض؛ الإنسانية التى عاشت فى ظلمات فى عقائدها تجاه الإله، وفى عبادتها لهذا الإله، وفى أخلاقها فيما بينها، وفى معاملاتها فيما بينها، وأصبح مصيرها مهددا يوم يأتى حسابها فى اليوم الآخر ويسأل كل فرد منها عن عقيدته فى الدنيا، وعبادته فى الدنيا، وأخلاقه فى الدنيا وأسلوب تعامله فى الدنيا وما يحكم هذا التعامل من أحكام وشرائع. لقد ضلَّت الإنسانية الطريق فلم تهتدِ إلى نور الحق، وكان هذا الرسول يلمس من خلال تحنثه فى غار حراء ذلك الضلال الذى كانت

تعيشه فى ذلك الحين، تتخبط فى ظلمات الجاهلية، فتركها وانعزل فى تأملاته الفكرية وأنشطته الروحية يتلمس من خلال وحدته التطلع إلى كون الله الفسيح، ويتلمس بفكره وروحه طريقا مستقيما يتصل به بنور الحق، وكان فى تطلعاته العالية السامية هذه يكاد يستند على عقيدة يرتبط بها قلبه بنور الحق، ولكنه لا يكاد يستبين هذا الطريق على يقين، فكان بذلك ضالا بين أوجه الكمال والرفعة فى الفكر الذى نشط من خلال التحنث، يريد بكل طاقته أن يهتدى بنور الحق المستقيم بعد ترك ظلام الجهل والجاهلية وراء ظهره، حتى هداه الله إلى هذا الطريق المستقيم، وإلى نور الحق القويم، حين أتاه الروح الأمين لأول مرة وقد أكمل الله استعداد نبيه وإعداده العقلى والروحى ليتلقى نور القرآن روحا من أمر ربه بواسطة الروح الأمين، يتنزل بآيات الذكر الحكيم على قلبه ليكون من المرسلين؛ فى ذلك الموقع من غار حراء فى علوه المكانى وفى موقع الرسول منه من العلو الفكرى والروحى وكانت هذه بداية الوحى.

ثم انقطع عنه الوحى فترة وبدأ المشركون يتندرون بأن الله تبارك وتعالى قد نسى محمدا وهجره وقلاه وتركه منذ اختاره، وكانوا فى هذا على غير بصر ودون بصيرة من الأمر، وعلى غير نضج فى التفكير وعلى غير علم فى القول، وعلى غير تصديق بخبر السماء، وعلى غير قبول لرسول السماء، وهى العوامل كلها التى ربما أثرت فى نفسية الرسول ﷺ، بالإضافة إلى ما قد يكون قد أثر فى نفسه أيضا ذلك الانقطاع للوحى لفترة. ولكن العالم الحكيم والرءوف الرحيم كان يعلمه حكمته وبرأفته ورحمته يزيد من تأهيل الرسول لتلقى ذلك القول الثقيل حتى لا تؤثر فيه المفاجأة وقد غدا إلى بيته يقول: دثرونى وزملونى. ويروى لورقة بن نوفل ولزوجته خديجة ذلك الذى أتاه فى الغار يقرأ عليه أولى كلمات التنزيل الربانى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[العلق:١- ٥] لقد كانت هذه الآيات الأولى من التنزيل الربانى هى بداية التقرير الصريح للاختيار من الله تبارك وتعالى لهذا الرسول؛ ليكون معلم الإنسانية الأكبر وهادى الإنسانية الأعظم بنور فى ذاته من روحه، وبنور القرآن فى روحه.

ومنذ ذلك التاريخ والأرض قد أشرقت بنور ربها، على يد رسول رب العالمين

إلى الناس أجمعين، وكانت كلمات الشرك التى تشكك فى أمر الرسول الخاتم وأن هذا الرسـول فى صلته بربه وصلة ربـه به كلمات -كما ذكرنا- نابعـة من جهل وجاهلية تتـردد علـى مر العصـور واختلافها من كل جاهـل وجاهلى. فأما النور الذى أشـرق (وَٱلضُّحَىٰ) والظلام الذى أراد الله له أن يتبدد بضوء ذلك النور المشـرق حتى ولو كان أمر هذا الظلام قد امتد فى الزمان طويلا، ما كان النور لينطفئ أبدا لأنه طاقة لا تفنى منذ لحظة انبلاجها (وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ) وما كان لهذا النور أن تغشـاه ظلمة بعد أن جاء من مصدره الربانى، وفى صلة برب العالمين الذى أوحى كلامه إلى رسوله بواسطة الروح الأميـن جبريل ليعم الكون والخلائق فيه؛ كلاً على قدره، قبس من هذا النور المحمدى والنور القرآنى (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) إن اختيار الله لمحمد ﷺ ليكون رسـولا بشـرا إلى البشرية فى الأرض ليس وليد مصادفة وإنما هو اختيار مقصود، واختيار هادف، تقرر منذ الأزل وتحقق بإرادة الله، واسـتمر بمشـيئته كطور من أطوار الحياة الدنيا وكذلك كطور من أطوار الحيـاة الآخرة (وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ) وإنه من خلال هذا الاختيار للمصطفـى ﷺ فإن هذه النفس المحمديـة التى ربما اعتراها بعض من الضيق نتيجة انقطاع الوحى لفترة من الزمان، وما صحب ذلك من تشـكيك المشركين والكفار، هذه النفـس المحمدية التـى أراد الله أن يضفى عليها أعلى مراتـب الطمأنينة، وهذا الفكر المحمدى الذى أراد الله أن يضفى عليه أعلى مراتب الاستقرار، وهذه الروح المحمدية التـى أراد اللـه أن يضفى عليها أعلى مراتب اليقين، أنـزل الله عليها آيات من قرآنه بها كل مـا أضفاه الله على نبيه فى الدنيا والآخرة حتى يرفع الله ذكر رسـوله ويضع عنه وزره الذى أنقض ظهره فخاطب الله رسـوله (وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ) وليس هذا كلام فى فراغ أو كلامًا يأتى من فراغ أو كلامًا يذهب إلى فراغ.

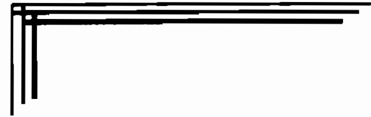
إن شـواهده قد تحققت لهذا الرسـول فى سـيرته فى الأرض قبل أن يختاره الله خاتما للمرسـلين شاهدا على الإنسانية ومبشـرا لها ونذيرا. تحققت فعلا شواهده فى واقع حياة محمد بن عبد الله فى الأرض فى طفولته وصباه، وفى شدته وشبابه، وفى قمة رجولته وأشـدها (أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾) وكان الـدرس مـن خلال هذا الموقع الذى عاشـه محمد فـى أطوار حياته قبل البعثة، فيه توجيه يبلغ فى سـمو الأخلاق أسـمى الدرجات من خلال عمق المعرفة

الإلهية بالنفس الإنســانية وهو خالقها. وكانت ســتمثل هــذه التوجيهات إلى المؤمنين بهــذا الدين الخاتم من خلال أواصر الإخاء والمحبة فيما بينها، ومن خلال تعاملهم مع الناس كافة تعاملا واقعيا يعيشونه فى واقع حياتهم فى الأرض فى صلاتهم الأسرية، وصلاتهم الاجتماعية تظهر بها أســمى قواعد الأخلاق كأســاس للصــلات بين الناس، وفى إطار دراية كاملة بأعماق النفس الإنســانية وإحساســات هذه النفس ومشــاعرها وما تعكســه هذه الآثار على المجتمع الذى أراد الله له أن يبنى على العقيدة والأخلاق. أساسا تستند إليهما العبادة ويقام فى إطارها منهاج المعاملات (﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾) إن الخطــاب للنبــى ﷺ وقد عاش هذه التجارب جميعا والمقصود هم أولئك الذين يؤمنون بالله وبرسول الله وبقرآن الله.



٤٢

في معية الرسول ﷺ



فى

ســـورة الشـــرح



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾ [الشرح: ١ – ٨]

الله تبارك وتعالى يقرر أمرا عظيما، فقد شرح صدر الرسول بقوة الصلة بالله. وقوة الصلة بكلام الله. شرح الله صدر رسوله بأن وضع عنه وزره الذى أنقض ظهره. ومع ذلك كله رفع له ذكره. رفع له ذكره بين الملأ الأعلى من الملائكة.. والروح.. وفى الأرض بين الجنة والناس.. وعند الله رفع له ذكره.. وعند السابقين من الأنبياء رفع له ذكره، وأخذ عليهم الميثاق فى ﴿ ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ... ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران:٨١] وفى المجتمعات التى نزلت إليها الرسالتان قبل الأخيرة –الموسوية والعيسوية- رفع له ذكره.. وفى كل عصر من عصور حياة الناس فى الأرض بعد بعثته رفع له ذكره.. وفى القرآن رفع له ذكره. هذا الذكر لرسول الله ﷺ ذكر دائم مستمر لأنه ذكر يتصل بالذكر المنزل من عند الله قرآنا عربيا، وهو محفوظ إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر:٩] ومادام هناك لسان أو قلب يذكر الله وحده لا شريك له كان هناك أيضا ذكر لمحمد رسول الله من نفس هذا اللسان أو القلب. ومادام هناك فكر يذكر ويتفكر فى الله الذى لا شريك له فهنـاك أيضا فكر يذكر ويتفكر فى محمد رسول الله. وهذا الذكر بهاتين الصورتين هو قوام الشهادة التى يدخل بها البشر فى رحاب الدين الإسلامى الخاتم.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) استفهام تقريرى بمعنى قد شرحنا لك صدرك. وشرح الصدر هو إحساس نفسى أو حالة نفسية يمتزج فيها الاطمئنان مع السكينة والسَّعة ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

﴿... يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ...﴾ [الأنعـام:١٢٥] فالضيـق فى الصدر حالة نفسـية أو عقلية عكسـها تماما حالة شرح أو انشراح الصدر وهو نابع من الهدى بالله إلى الله، وإسلام الإنسان نفسه لله فى دينه وفى قضائه فى تصريف أمور الدنيا. وانشراح الصدر قوامه صلة قلب وعقل وروح بالله تبارك وتعالى شـكرا له على نعمائه وشـهودا له فى آلائه. وقد قيل إن شـرح صدر الرسـول كان فى الإسـراء والمعراج وهو قول جائز. فلم يكن الرسول أقرب منه إلى ربه شكرا له على نعمائه وشهودا له فى آلائه كما كان فى مقامة فى الإسـراء والمعراج. وهى عندئذ درجة من شرح الصدر لم ينلها فى قدرها أحد غير الرسـول ﷺ. ويتضح من هذا الشـرح لصدر محمد عليه الصلاة والسـلام الفرق بينه وبين النبى موسـى عليه السلام. فموسـى قد طلب من الله تبارك وتعالى أن يشرح له صدره (رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى) بينما محمد ﷺ تحقق له الشرح منة ومنحة من الله تبارك وتعالـى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) وفى هذا يقول أسـتاذنا الإمام محمـد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه:

فموسى رُدَّ بعد سؤال ربٍّ ... وأنت رأيته كشفا صريحـا

ألم نشرح ورب اشرح بيان ... لقدرك سيدى أضحى مبيحا

لقد كان عسيرا على رسول الله ﷺ أن يفارق صحابته المهاجرين وأنصاره الذين آووا ونصروا. وكان عسـيرا عليه أن يفارق هذا القرآن الذى نزل به الروح الأمين على قلبه وحيا من عند الله. وكان عسـيرا عليه ﷺ أن يترك المسـلمين من بعده دون هديه وإرشـاده وقيادته الحكيمـة فى ظل الشـرعة والمنهاج الذى كان هو بشـخصه يمثل نموذجه الحى الواقعى فى الفكر العقدى والسلوك الأخلاقى والمنهج التعبدى والتنظيم الاجتماعى فى المعاملات بشـتى فروعها التى كانت تنظم المجتمع المسـلم الوليد فى المدينة المنورة. وكان وزره الذى ينقض ظهره هو خوفه من أن ينحرف المسلمون من بعده عن الشرعة والمنهج القرآنيين فيهلكوا ويضلوا وتتفرق كلمتهم ويتبعوا أهواءهم يبددون هدى الله وتدب بينهم الخلافات وتفرقهم الحياة الدنيا وزينتها وتصرفهم عن الآخرة... وأن يصبح الذكر الحكيم مهجورا من المسـلمين، لا يتدبرونه ولا يتدارسونه ولا يقيمون بنيانهم الفردى على هداه ولا يقضون فى شـئونهم كلها بأحكام وشريعة كتـاب الله بحيث يتحقـق ما يحذرهم منه ربهـم ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

[الأنفال: ٤٦] تدب فيهم عدوى التحلل من دين الله عروة عروة حتى يصبحوا غير قادرين على حمل أنفسهم على أتباعه مظهرا وجوهرا وشكلا وموضوعا. فى إطاره الجامع الذى كان عليه الصحابة الأوائل. وكان وزره الذى ينقض ظهره أن يتحول المسلمون عن كتاب الله فيهملوه ولا يتمسكوا به على النحو الذى أوصى به ﷺ: «وكان من أسباب نهيه ﷺ عن تدوين الحديث الذى يتحدث به خوفه من أن يختلط الحديث بالقرآن أو أن يهتم الناس بالحديث الذى حدث به ويهملوا حديث الله الذى هو أساس هذا الدين، والذى لا يقوم الدين إلا به. ولكن الله تبارك وتعالى أنزل الطمأنينة على رسوله ووضع عنه وزره الذى أنقض ظهره على النحو الذى أوضحناه، وزاده اطمئنانا بحقيقة حفظ الذكر الذى نزله الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩] حفاظا له فى ذاته أى فى نصه الذى نزل به الروح الأمين وحفظا له فى استمرار وجود طائفة من المؤمنين والمسلمين تهتم به وتتدبر آياته، وتفهم مقاصده، وتدرك معانية، وتبين مراميه، وتعمل بأحكامه، وتطبيق شريعته، وتقتدى بجوهره وروحه، هكذا فى كل عصر من العصور المتعاقبة وحتى قيام الساعة. فمع العسر الذى كان عبئا ثقيلا يحمله على عاتقه رسول الله ﷺ من منطلق الحرص على أمته والرأفة والرحمة بهذه الأمة، مع هذا العسر كان اليسر الذى يتمثل فى الرجال -ولو كانوا قلة- الذين يتجدد الفكر الدينى الإسلامى من خلال اجتهادهم ومواكبة فكرهم للعصر الذى يوجدون فيه ويعيشون ويعايشون واقعه بحيث يواكب الفكر الإسلامى ذاته حاجات الأجيال التى تتعاقب على مر العصور، حين تزداد هذه الحاجات وما يتصل بها من مشكلات تزداد اتساعا وتعقدا كلما تقدم الزمان بالإنسان فى الأرض وإلى الدرجة التى يشهدها إنسان عصرنا الحالى الذى يعيش تقدما مدنيا وحضاريا هائلا قائما فى الأساس على العلم التجريبى والنظرى المتخصص الذى أدى إلى نتاج تكنولوجى من تطبيقات هذه العلوم هائل ومخيف وهو لا يزال يتسع ويترقى ويزداد. ويستمر الحال فيظل الذكر محفوظا برجال يقدرون جدية أمر دين الله وأمر المسلمين فى الواقع المعاصر الذى تخلفنا فيه، ويدركون أهمية المساهمة الفكرية الجادة فى بناء إطار فكرى نظرى فى ظل مفهوم عصرى لكتاب الله وما صح من سنة رسول الله يستند إلى جوهر الدين وشكله معا يتجاوز عقبات التخلف من خلال مواكبة الفكر العلمى

فـى الحضارات المعاصرة فـى انفتاح لا يخـاف، وإنما يهدف إلى الانتفـاع بمميزات الفكر المعاصر وتطبيقاته التكنولوجية دون عيوبه وسلبياته من منطلق الثقة بالنفس والثقـة بالله والثقة بشـمولية قرآن الله والثقة فى حكمة رسـول الله المروية عنه فى الأحاديث الصحيحة. وفى الوقت نفسـه يقترن بهذا الفكـر النظرى تطبيق عملى جاد صـادق مخلص بقـدر الطاقة وإمكانات النفس حتى يكـون الإصلاح الدينى من جانب المفكريـن إصـلاح علم وعمل، إصلاح نظريـة وتجربة تطبيقية. إن مجتمعنا المسـلم المعاصـر مجتمع تمتد جذوره إلى أعماق التاريخ الحضارى الإسـلامى. وكل محاولة للإصـلاح ينبغى أن تـدرك جيدا هذه الحقيقة التى لا يمكـن أن يتم إصلاح ناجح باق ممتـد إلا بأخذهـا جديا فى الاعتبار وتخطيط المسـار الإصلاحى الشـامل السياسـى والاقتصادى والاجتماعى والتعليمى والثقافى والأخلاقي... إلخ على أساسها.

بذلـك فقـط يرتبط هذا المجتمـع بمقومات نجـاح منهجـه التخطيطى للإصلاح الشامل..



٤٣

فى معية الرسول ﷺ

فى

ســـورة العلـــق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ – ٥].

هـذه الآيات الكريمة هى آيات الوحـى الأولى؛ أى أول ما نزل من القرآن الكريم... وقد سـبق نزول هذه الآيات الأولى من الذكر الحكيم فترة اسـتعداد كان يؤديها النبى غيـر عالم بـأن نتيجتها هى نزول آيـات الذكر الحكيم على قلبه ليكـون من المنذرين، بلســان عربـى مبين. لقد كانت فتـرة التحنث فى غار حراء التى سـبقت نزول جبريل بالوحى القرآنى فترة مر بها النبى ﷺ فى اسـتعداده العقلى والروحى أدت إلى سـمو فكره وسـمو روحه فى صفاء ليس له نظير كان من نتيجته القدرة على اتصال جبريل به ﷺ، وكان من أسبابه اختياره ﷺ لتحمل عبء تبليغ الرسالة القرآنية التى اصطفاه الله تبارك وتعالى لتبليغها للناس كافة.

وتروى لنا كتب السـيرة أن الرسـول ﷺ كان يقضى أياما وليالى فى غار ثور... كان طعامـه على ما يبدو قليلا... وكان فكرة كثيرا حسـبما يشـير إليه النص القرآني ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحـى: ٧] فليـس المقصـود أن الرسـول كان فى ضلال المعصية أو ضلال الشـرك أو ضلال الفكر... ولكن المقصود أن الرسـول كان ينشد حقيقة الألوهية التى كانت فى طورها الحق غائبه عن أن يدركها. كان ينشد الحق الذى غاب عن واقع تفكير المعاصرين له وسـلوكهم فى الحياة.. كان مترددا فى فكره بيـن مختلف مظاهر الحق التى كانت روحه الشـفافة ونفسـه الذكية وفكره الصافى يتطلع إليها دون أن يهتدى إلى جوهرها الحق.. كان على غير اقتناع بأباطيل معاصريه الفكرية والسـلوكية.. فترك هذا المجتمع الذى تزخر به هذه الأباطيل إلى حيث يختلى بنفسـه.. يتطلع بفكره مـن مكانه العالى فى الغار فينظر من هـذا العلو المكانى.. فى

خلوتــه.. ومن مكان العلو الفكرى والنفســى والروحى إلى الســماء والنجوم فى الليل وإلــى الأرض وزخرفهــا الباطل فى النهار.. ولا نســتطيع أن نقطــع بتفاصيل ما كان يجــول فــى فكر الرســول فى خلوته فــى الغار أكثر من هــذا.. فلا يعلم الســر إلا عالم الأســرار.. ولكن هذا التحنث الأول كان بســبب الاختيار والاصطفاء الإلهى لتحمل ثقل الوحــى القرآنى الذى كان ســيتنزل على قلب الرســول مبتدئا بالتقريــر الخالد الأول(ٱقْرَأْ) (بِٱسْمِ رَبِّكَ) (ٱلَّذِى خَلَقَ).. وهــذا التحنــث الأول كان أيضا من نتيجته أن أتم الرســول فترة الاســتعداد فى الســمو العقلى والروحى والنفســى، ذلك الســمو الذى بلغ مرتبة فريــدة جعلت نزول الوحى القرآنى الأول ممكنة، وبنزول هذه الآيات الأولى من الذكر القرآنــى تمــت الهداية إلى الحق.. وتمت الهداية إلى حقيقــة الألوهية التى كانت غائبة عن هذا الرســول ينشــدها بفكره وروحه العالية فى إيمان كامل بوجودها، وتم اهتداء الرســول إليها حين هداه الله إليها وأعده لتلقى كلام الله، يقرؤه فلا ينسى ويفهمه فلا يضــل بعدها أبــدا.. ويبلغه فيهدى بعد أن اهتدى.. هذه بعض المعانى التى تنشــأ من ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٧] وقد سبقها فى ترتيب نزول الآيات تقرير القرآن ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى: ٦].

لقد جاء الرســول الخاتم -وهو أمــي- بالمعرفة فى صورة مكتملة ﴿ ...مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ... ﴿٣٨﴾ ﴾[الأنعــام:٣٨] ولكنه جاء أيضا ليطلق العنان للعقل الإنســانى ليســير فى طريق الإبداع والابتكار وليســتغل طاقاته الربانية المصدر -بسر النفخة- فى التعامل مع عوالم الكوكب الذى قدر له أن يعيش فيه.. فى أرضه ومياهه وســمائه وتوابعه.. إذ يمكن أن تقول أن العلم كله فى الكتاب كله.. ولكن تأويله وكشف معانيه.. متروك للعقل البشــرى الذى يتعامل مع الكون الفيزيقى (physical) والكون الروحى (spirtual)- والذى يمكن تسميته أيضا بما وراء الطبيعة (metaphysical).

ويكتشــف فيــه كل يوم الجديد من الحقائق ويســتغل طاقاتــه الكامنة فيه نتيجة تطور وترقى المعرفة العلمية وتطبيقا لها، والذى أصبحنا اليوم نعيش بسببه فى عالم الكمبيوتر وعالم الأقمار الصناعية وعالم اكتشــاف الفضاء المجاور، وكلها تدخل فيما يعرف بالتكنولوجيا العالية (high technology). ولقد كانت الرسالة الأساسية التى

جاء بها هذا الرسول نابعة من عنصرين أساسيين هما:

١- القراءة.

٢- الكتابة.

وهما أدوات المعرفة وترقيها فى تطور. وهى ليست معرفة لمجرد المعرفة ولكنها معرفة الغاية منها إيجاد الترابط اللازم الذى يقرره القرآن فى أول آيات التنزيل، وهو الترابط بين الخلق والخالق بإبراز القاعدة الأصيلة، قاعدة الألوهية التى يرتكز عليها نداء هذا الرسول المتمثل فى دعوته ومنهاجه القرآنى الذى نزل به الروح الأمين من عند الله تبارك وتعالى، ليقرأه الرسول للناس كافة باسم المرسل منه وهو الله (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ) هذا الإله هو الخالق لكل الكون بمن فيه وبما فيه (ٱلَّذِى) والرسول إنسان بشر ورسالته أساس للإنسانية والبشرية، والمكلفون بها هم الناس والبشر (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ) ذلك المخلوق المعجز الذى يتمتع بطاقات النفخة الروحية الربانية التى تؤهله لتلقى المعرفة والاستزادة منها فى دوام وتطور، بواسطة القدرة على القراءة والكتابة واستعمال اللغة ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق: ١ – ٥] وهى معارف تأتى فى تزايد مستمر من خلال التعامل مع الكون المسخر لهذا الإنسان يستغله فى الخير الذى يرضى ربه الأكرم تبارك وتعالى، هذا التزايد فى المعرفة وفى استمرار ترقيتها وتطورها إلى الصور المتعددة الرقيقة التى ندركها فى عصرنا فى هذا القرن من الزمان، والتى يمكن أن تزداد ترقيا وتطورا ـ تقرر ختام ما نزل من الوحى الربانى الأول فى عزلة غار ثور الأولى (عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ).

لقد جاء هذا الرسول يدعو إلى الله الخالق الأول وأحسن الخالقين، مقررا بذلك -كما قلنا- حقيقة الألوهية التى يرتكز عليها البناء الكونى كله، والتى يرتكز عليها -فى تناسق مع الكون- البنيان العقلى والنفسى الإنسانى الذى يعكس السلوك الإنسانى فى المستقر الأرضى المؤقت. قاعدة الألوهية وفرق المخلوق عن الخالق، وما يرتبط بهذه القاعدة من ركيزة متصلة بها بغير انفصال وهى ركيزة التوحيد فيما قرره هذا الرسول النبى الأمى من أن لا إله إلا الله. الله إذن هو الخالق الأول أحسن الخالقين وهو أحد لا شريك له.. بذلك أمر هذا الرسول وهو أول المسلمين. ومن هذا المنطلق يجب أن يدرك أتباع هذا الرسول قيمة القراءة الكتابة.. وفداحة التخلف الناجم عن عدم القدرة

على المعرفة بالقراءة والكتابة.. أى الأمية.. وهذه بداية الطريق إلى تحصيل العلوم وازدياد المعرفة واستغلال نتاجهما فى التطبيقات العملية لصالح المجتمع الإسلامى فيما نعرفه جميعا اليوم من اصطلاح تكنولوجيا (technology).

إن الشرق والغرب على السواء قد سبقانا فيما كان واجبا علينا أن يكون السبق فيه لنا؛ لأنه منذ حوالى ألف وأربعمائة عام كان التكليف الإلهى القرآنى للمؤمنين بالله ورسوله أن يبدءوا رحلة تحصيل العلوم والمعارف فى كل المجالات وضرب لهم القرآن فى التاريخ أروع الأمثلة فى الاستفادة بالخبرات الإنسانية ومناحى القصور والكمال فيها. إن هذا الرسول جاء بالقرآن، والقرآن أرسى قواعد وأسس البنيان المدنى والحضارى للمؤمنين به -وللإنسانية فى اقتداء به- على أساس من الإيمان والعلم والعمل نحو فهم قيمه ومثله الإنسانية التى أرست قواعد الأخوة والمحبة والحرية والكرامة والمساواة فى ظل قاعدة توحيد الله سبحانه وتعالى باعتباره الملجأ الحتمى الذى يرجع إليه أمر كل فرد من أفراد الإنسان خلق ووجد فى هذه الأرض أو توابعها ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] إن قاعدة الألوهية والتوحيد هى بهدف إنقاذ الإنسان فى المستقبل حين يواجه حتما يوم القيامة وسلسلة الحساب على كل صغيرة وكبيرة سجلها المخ الإنسانى فى الفكر الباطن والقول الظاهر والسلوك الخفى والمعلن، ففى تلك الساعة يقرأ الإنسان كتابه من خلال ما سجله هو على نفسه، وبذلك يكون كل فرد أدرى بنفسه وبحسابه من غيره ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾[الإسراء:١٤] إن هذا الرسول الخاتم جاء لذلك رحمة للعالمين لأنه جاء بالمحجة البيضاء التى ليلها كنهارها. وبلغ الرسالة لكى لا يكون للناس حجة من بعده، وهو وإن كان رحمة فى هذه الدنيا، فهو رحمة فى الآخرة أيضا، حيث يبعثه ربه سبحانه وتعالى فى المقام المحمود الذى يحمد الله عليه، وهو رغم أن كل إنسان يحاسب وفق عمله فى الأساس ـ فإن شفاعة هذا الرسول الخاتم لترتجى فى ذلك اليوم العصيب.

أما اليوم نفسه فقد اقترب. والناس عنه غافلون. والكرة الأرضية تطفح بالخصومات والصدامات وتعارض المصالح... وفى هذا الجو ينتظر أن تقوم الساعة وليس فى جو الوفاق والسلام.. ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يس:٤٩].

٤٤

في معية الرسول ﷺ

فى

ســـــورة الكـــوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر:١-٣].

لقد أعطى الرسول خيرا كثيرا (ٱلۡكَوۡثَرَ) من ربه... فى القرآن، وفى أخلاقه القرآنية، وفى اختياره خاتما للمرسلين، ومنقذا أو شفيعا يوم الدين. وقد قيل فى الكوثر أنه فيوضات الأسماء الحسنى أعطى سر معناها وتصريفها له ﷺ، وهو المعنى الذى يقول فيه أستاذنا الإمام محمد ماضى أبو العزائم: «اللهم صل وسلم على كوثر الفيوضات الأسمائية» والحق أن الرسول قد أوتى الخير كله فى القرآن وبالقرآن، فقد يكون المقصود من الكوثر، هذا القرآن الذى عم به الخير الكثير لكل المخلوقات على اختلاف مراتبها فى الوجود.

كما أن الرسول قد أوتى الخير كل الخير فى إسرائه ومعراجه؛ حيث رأى كبرى آيات ربه، وكاد يتحد بالطاقة النورانية الروحية الجبريلية -فى تفسير- أو كان من ربه فوق سدرة المنتهى التى وقف عندها جبريل بطاقته النورانية فى مقام دنا فيه الرسول فتدلى، فكان معه قاب قوسين أو أدنى من رب العزة الذى أوحى إليه ما أوحى، مما هو سر مغلق بين الله ورسوله ويكون الخير الكثير هو كوثر الرؤيا أو كوثر الاقتراب،أو كوثر الإيحاء أى ما أوحاه الله إلى عبده فى هذا المقام من القرب بين الله وعبده.... وكلها معانٍ يمكن أن يفهم بها سر الخير الكثير الذى أعطاه الله لرسوله الخاتم.

وبعد هذا الخير كله فى معناه القرآنى، أو فى معنى الرؤيا والاقتراب، أو فى معنى سر الوحى فى قاب قوسين أو أدنى، بعد هذا الخير كله كان أمر الله لرسوله بالصلاة والاتجاه فيها وبها إلى ربه سبحانه وتعالى، أو هى قمة مراتب الشهود اليقينية التوحيدية حيث العبادة والذكر والتوجه الكلى النفسى والعلنى لله رب

العالمين الذى من أجله تذبح النفوس -مجازا- وتباع الأرواح والأنفس والأموال. وهو مقام المجاهدين فى سبيل الله والشهداء الأحياء عند ربهم فى ساحات القتال من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، حتى تستقيم النفس بالكلية على اتباع كتاب الله والاتجاه بالعبادة والصلاة والذكر إلى الله وحده. ويكون فى ذلك الاتجاه بالكلية هو فى الحقيقة بيع النفس لله أو ذبح النفس لله أو قتل النفس الأمارة تقربا وإرضاء لله بكبح جماحها والسيطرة عليها، وهى مرتبة فيها الخير الكثير أى الكوثر. والنحر هنا يمكن أن يُفهم على أنه نحر الضحية فى عيد الأضحى بعد الصلاة، وهو المعنى الظاهر لأول وهلة، وهو رمز لقتل النفس الأمارة وذبحها أو نحرها. أو بيع النفس لله تبارك وتعالى بصورة معنوية صفاتية يموت فيها العبد عن نفسه بنفسه، ليحيا مع ربه بربه فيكون عبدا ربانيا فنى عن نفسه وأبقاها لله بالله. بحيث تكون صلاته ويكون نسكه وتكون حياته ويكون مماته لله رب العالمين، وهو مقام الرسول ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٣].

وقتل النفس أو النحر عند الرسول قد تحقق بجهادها حتى أسلم له قرينها أو شيطانها أى استقامت نوازعها على الخير فقط. فصارت حية بذلك الخير الكثير أو الكوثر، وماتت فيها نوازع الشر والإضرار، فهى ليست عندئذ بالسوء أمارة، ولكن بالخير الكثير مطمئنة. والجزء الأخير من السورة التى نزلت فى الرسول مباشرة بين أن الأسس فى نيل الخير الكثير فى كل شيء هى فى الاتصال بالله تعالى. وفى حب هذا الرسول حبا عميقا قويا. وعلى العكس فإن أساس كل شر فى الحياة الدنيا والآخرة هو فى الانفصال عن الله تعالى وبغض أو كره هذا الرسول بُغضا أو كرها يجعل صاحبه مقطوعا عنه الخير فى الحياة الدنيا والآخرة (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ) . ولذلك ورد فى السنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه". وكان كل الصحابة الأولين يقولون بأبى أنت وأمى يا رسول الله، وكان حبهم لشخصه قد بلغ حد الدفاع عنه بالنفس والتضحية بها فى سبيل حياته، كما فعل على بن أبى طالب يوم اجتمعت كلمة الكفر على قتل الرسول. وكما فعل أبو دجانة حين ترس بجسده أمام الرسول فى غزوة أحد... وكما فعل الصديق أبو بكر فى الغار حين لدغته الحية وأفاق الرسول على دمع الصديق ينزل عليه وقد امتنع عن الحركة حتى لا يضايق الرسول وهو نائم... وغير ذلك كثير.

خاتمة

وفى الختام، وبعد أن عشنا مع هذا الكتاب فى معية الرسول ﷺ فى القرآن الكريم. تتضح الحقيقة الخالدة المتمثلة فى أن محمدا رسول الله هو أحد المحاور الثلاثة التى يدور حولها الدين الإسلامى وهى الله والرسول والقرآن. وإذا كان المحور الثلاثى يتكون من الله ورسوله والقرآن فإن الطاعة لله سبحانه وتعالى تقترن دائما بالطاعة لرسوله ﷺ كما تقترن الطاعة لرسول الله ﷺ بالطاعة للقرآن ونصوص القرآن الذى هو كلام الله الموحى به إلى رسوله باللفظ والمعنى يوضح هذه العلاقة فى كثير من آياته التى نورد منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات التالية:

١- ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٢- ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

٣- ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠].

٤- ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المائدة: ٩٢].

٥- ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤].

٦- ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد: ٣٣].

٧- ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء: ١٣]

٨- ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤].

٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾]النساء: ١٣٦].

١٠-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠]

١١- ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ ﴾ [الأنفال: ٤٦]

١٢- ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧١]

وشأن الرسول فى هذا هو شأن السابقين عليه من الأنبياء والرسل إذ يوضح لنا القرآن أن الله أرسل رسله إلى البشر ليوجهوهم نحو عبادة الله وحده، والإيمان به وباليوم الآخر وأوجب الله لذلك على البشر طاعة الأنبياء والرسل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٦٤] ولما كان محمد ﷺ هو الرسول الخاتم وكان القرآن هو كتاب الله الخاتم، ولما كان محمد ﷺ مرسلًا إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا فإنه يكون من الواجب على كل فرد من أفراد الإنسانية أن يؤمن برسالته وبالكتاب الذى نزل عليه فى إطار الطاعة لشخصه وللمنهج الذى جاء به هذا الكتاب خاصة وأن الكتابين اللذين سبقا القرآن، وهما التوراة والإنجيل، قد بشّرا بنصوص واضحة لا تحتمل التأويل بهذا الرسول الخاتم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... ﴾ الأعراف: ١٥٧ وخاصة أيضا وأن الله سبحانه وتعالى قد أخذ على الرسل والأنبياء السابقين جميعهم الميثاق، بأن يؤمنوا بمحمد وينصروه إذا أدركوه؛ أى أدركوا زمان رسالته وهو ما يوضحه القرآن فى تقريره التالي ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١].

ومن ناحية أخرى فإنه يكون من الواجب على المؤمنين بالله ورسوله والقرآن

أن يؤمنوا بكافة الأنبياء والرسل السابقين، والكتب التى نزلت عليهم وهو الأمر الذى يقرر القرآن فى شأنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وسبيل الرسول هو سبيل المؤمنين به وبالإله الذى أرسله، وبالكتاب الذى أنزله الله على قلبه.

وفى إطار طاعة الرسول يمكننا أن نفهم عاقبة عدم الطاعة. ويمكننا أن نفهم عاقبة من يشاقق الرسول، وهى عاقبة وضحها لنا القرآن فى سورة النساء ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]، والعاقبة المؤلمة هنا خاصة بالذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، فأولئك صنف من الإنس عرفوا الحق فى قلوبهم واستيقنته نفوسهم، وقبلته عقولهم، لكنهم لأسباب كثيرة جحدوا هذا الحق الذى عرفوه واتضح لهم جليا ولم يكونوا سلبيين تجاه الرسول ورسالته، وإنما اختاروا سبيلا مضادا لهذا الرسول ولدعوته، فعادوه معاداة إيجابية عديدة المسالك والمظاهر.. ولمنهاجه.. هؤلاء يتركهم الله تبارك وتعالى يستمرون فى سبيلهم الذى اختاروه فى الحياة الدنيا.. وهم لن يضروا الله ورسوله شيئا.. ولكن يضرون أنفسهم.. لأن مصيرهم فى الحياة الآخرة هو العذاب الأليم فى جهنم... وهو مصير سيئ للغاية نوله ما تولى ونصله جهنم ﴿ ...نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥] فهؤلاء صنف من الناس تؤثر على أفكارهم وتؤثر على سلوكهم مصالحهم الشخصية البحتة، ويندفعون فى الحياة من وحى المركز والمصلحة والأنانية والكبر والحقد والتعالى.. يعادون الحق وقد عرفوه فى نفوسهم.. يريدون أن يكونوا جبارين فى الأرض طغاة.. يكشف القرآن مؤامرتهم وباطن نواياهم حين يقرر لنا فى شأنهم ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤] ولذلك فجهنم مصيرهم العادل.

وعندما يقرر القرآن فى شأن الرسول ﴿ ...وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢] ثم يقرر فى شأنه أيضا ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:٥٦]. فإنه يقرر أمرين مختلفين فى شأن الهداية. الأولى

هداية البيان والإبلاغ بالحق. والثانية هداية الاتباع. فالرسول يهدى الناس جميعا إلى الحق القرآنى ببيانه كما أوحى إليه وبإبلاغه للناس كافة. وهو دوره الذى أدّاه ﷺ تماما، وقال فى شأنه فى حجة الوداع «اللهم هل بلغت اللهم فاشهد». أما الهداية التى تتصل بالسلوك والاقتداء وهى هداية الاتباع، فهذه أمرها إلى الله تبارك وتعالى، هو الذى يملكها وحده بمشيئته التى لا تدخُّل فيها من جانب أى مخلوق. فإرادة الله سابقة على إرادة الإنسان والله محيط بالمستويات المختلفة فى عمق الوعى الإنسانى الظاهر والباطن فى مستويات البعد النفسى التى لا يعرفها الإنسان ذاته. وليس يعنى ذلك أن الإنسان مسيَّر فى إرادته التى لا يملكها فى الحقيقة... فالإنسان له إرادة حُرَّة تعمل فى استقلال ذاتي؛ أى فى استقلال فى إطار الذات الإنسانية الحرة الواحدة، والتى تختار وتفعل ما تشاء. ولكن الإنسان لا يدرك الكيفية التى تتصل بها إرادته الحرة بإرادة الله تبارك وتعالى، لسبب بسيط وهو أن الإنسان لا يدرك ذات الله تبارك وتعالى، ومن ذلك لا يدرك الكيفية التى تسبق بها إرادة الله إرادته هو، ومن عدم الإدراك هذا ينبع الشعور والإحساس بالحرية والاستقلالية فى إرادة الإنسان. أى أنه هو مستقل فى إطار الأبعاد التى يعيش فيها ويأتى فيها نشاطه الفكرى والجسمانى. وحركته الفكرية والجسمانية نابعة من مصادر دافعة عديدة تتصل بتركيبه الفسيولوجى ذاته وصلته بالبيئة التى يتصل بها. فأفكاره ومعتقداته وسلوكياته نابعة من مصدر داخلى يتصل بالحقائق الخارجية، يكونان معا السلوك الفردى الذى يبدو مستقلا ويبدو معه الإنسان حرًا ذا إرادة فعالة وإيجابية فى الحياة. وفى هذا التركيب الفسيولوجى الإنسانى يعتبر المخ هو المحرك الأساسى، وهو يكتسب خصائصه من الوعى العقلى والروحى، ومن خلال طاقات عديدة موجودة فى الكون. هذه الطاقات تعتبر عنصرا خارجيا مستقلا عن الإنسان، ومن ثم فإن إرادة الإنسان الحرة ترتبط فى حركتها بمصادر من الطاقة لا دخل لإرادة الإنسان فيها. أو بمعنى آخر إرادة الإنسان لم توجد هذه الطاقات ولم تتدخل لتقييم الصلة بين هذه الطاقات والحركة الإنسانية الفكرية والسلوكية، كما تنبع من نشاط المخ والجهاز العصبى بصفة عامة. وهذه الطاقات بدورها لم توجد مستقلة فى الكون وإنما لها بداية وجودية فى الزمان. هذه البداية الوجودية متصلة بالموجود الأول الواجب الوجود لذاته، والذى يعتبر مصدر الإرادة الإنسانية الحرة

المســتقلة والســبب فى وجود هذه الإرادة فى هذه الحالة من الحرية والاستقلال، هذه الطاقــات المختلفة نشــأت ووجدت من مصدر يتصف بالقــوة المطلقة والإرادة الحرة المطلقة والاســتقلال المطلق والوحدانية المطلقة... والقوة صفة للقوى. والقوى اسم من أسماء الله. والله رمز على الذات. والذات هو الوجود الحق الذى ينتفى معه أى وكل وجود مغاير بما نفهم من قول أستاذنا أبو العزائم «ليس فى الذات إلا الذات وليس فى الخلق إلا الخلق». ونفس الشــيء بالنســبة للإرادة التى هى صفة للمريد. والمريد اسم من أسماء الله. وكذلك الاستقلال حيث إن الله لا يتخذ عضدا فهو واحد كما أنه لم يُشهد أحدا خلق الكون. وكذلك الأمر بالنســبة للوحدانية التى هى صفة للواحد الذى ليس له شريك، فهو أحد لا يقاس إليه العدد. ومن هنا السبق فى الوجود أولا ثم من هذا الإيجاد الخلقى من لا شيء ثانيا، ثم من تقدير كل موجود فى وجوده الذى يتكون فيه وينشط من خلاله، ثم فى اتصال الموجودات بالكائن الإنســانى بالذات تنبع الإرادة الإنســانية. فهــى حرة فى هذا الإطار. ومســتقلة فى هذا الإطار. ومختارة فــى هذا الإطار. والذى أعطى كل شــيء خلقه ثم هدى يمكنه أن يسـلب خصائص الحركة والنشــاط والتأثير والفاعليــة الذين هــم قوام أداء كل مخلوق لدوره المحدود، بما فى ذلك الإنســان ذاته. ومن هنا فإن القدرة التى تبدو ومستقلة فى نشاطها إنما أوتيت خصائصها من القدرة الاســتقلالية من قدرة الله الأولى.. فكانت بدايتها فى الحركة والنشــاط والســلوك فى الزمــان وفق التركيب البيولوجــى الذى تحكمه عوامل عديدة، أقــول كانت بدايتها فى الحركة والنشاط والسلوك من المبدئ الذى لا يحده البعد الزمانى ومن ثم كان أولًا بلا ابتداء. وهى حقيقة يعجز العقل عن تصورها أو إخضاعها للتجريب، وإنما يمكنه –أى العقــل– أن يتعامل معها نظريا بالرياضيات ليدرك مع ذلك نظريا فقط بعض معانيها دون أن يــدرك حقيقــة ذاتها أو ذاتها الحقيقية؛ لأنه لا يراها ولا يشــهدها بحواســه أو بشــكل ما وصفه من وســائل الرؤيا المختلفة فى موجات الطــول المختلفة الضوئية. فالإنســان إذن حُر الإرادة. ولكن إرادته مرتبطة بنشاط وفعل طاقات معينة ليست من خلقــه هو. وقد أُعِدَّ الإنســان ذاتــه بكيفية خلقية يمكنها أن تتجــاوب مع هذه الطاقات يمارس نشــاطه فى حرية واســتقلال. وهذه الطاقات فى تفاعلها مع الكيان الإنسانى تــؤدى دورا وظيفيا محددا بالنســبة لعلاقتها بهذا الكيان. ومصــدر هذه الطاقات هو

الاسم الدال على الذات كما قلنا والمعبر عنه باللغة العربية بلفظ الجلالة «الله» الذى هو اسم علم على الذات، تماما كما يرمز إلى الذات بأسماء أخرى باللغات الأخرى وإن اختلف أحيانا المضمون الذى يفهمه كل إنسان بلغته عن الذات تبارك وتعالى. ومن هنا فإن الإنسان حين يريد فإنه تسبقه إرادة الله سبحانه وتعالى. وحين يختار يسبقه اختيار الله تعالى وحين يشاء فإنه تسبقه مشيئة الله تبارك وتعالى. ذلك كله يلقى ضوءا على ما يقرره القرآن فى نصوصه مثل:

١- ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ...(٣٠) ﴾[الإنسان:٣٠] هكذا مطلق المشيئة والإرادة.

٢- ﴿ ...وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ...(٢٥٥) ﴾[البقرة:٢٥٥] هكذا فى العلوم.

٣- ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ ...(١٢٥) ﴾[الأنعام: ١٢٥] هكذا فى الهداية إلى الدين الحق.

٤- ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟يْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) ﴾ [الكهف:٢٣] هكذا فى السلوك فى المستقبل.

٥- ﴿ ...ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ ...(١١٨) ﴾ [التوبة:١١٨] وهو عامل نفسى أو سيكولوجى يستمد من الحقيقة الموجودة فعلا، وليس مجرد إسقاط أو إيعاز وإنما يتفاعل أو يشترك معا العاملان، الداخلى والخارجى أى المؤثرات الخارجية الموجودة حتما؛ لأن التواب هو الظاهر وهو الباطن ويتحد فى أحديته الاسمان معا، الأمر الذى يعنى أن العاملين يتفاعلان أو يشتركان فى الكيان الإنسانى معا، كما يلقى ضوءا على الآية موضع هذا الحديث والخاصة بالرسول ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [القصص: ٥٦] فليس فى الآية أى إنقاص لقدر الرسول أو من قدره، بل على العكس فيها بيان لمراعاة الرسول لعدم التدخل من جانبه فى تقدير الله الأولى، وفيها بيان إدراك الرسول ﷺ لحقيقة الهيمنة الإلهية الذاتية على الخلق كله. وفيها بيان لإدراك الرسول

لمفهوم الإرادة والمشيئة الإلهية الذاتية التى تقيد مصدر كل إرادة ومشيئة للغير من الكائنات التى تتمتع بالوعى أو الذكاء بما فيها الإنسان.

ولما كانت هذه الطاقات لا وعى لها سواء بعقل أو روح، ومع ذلك فإن لها أنشطة معينة محسوبة ومقدرة، فإن المصدر الذى يهديها إلى سلوكها هو الله سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠] والذى يملك العطاء يملك السلب، ومن ثم فإن هذه الطاقات تحتاج دائما إلى التأثير الأساسى الإلهى حتى تظل تؤدى وظائفها فى الكون... وهى تستمد قوتها الطاقية من اسم من الأسماء هو القوى.. كما تستمد فى خصائصها ووظائفها من الاسم الإلهى المقابل ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى ذو تأثير إيجابى مستمر فى الكون كله وهو يعلم لذلك كل صغيرة وكبيرة مما يظهر ومما يبطن فى هذا الكون ﴿ ...وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١]. ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان:١٦] وإدراك هذه الحقيقة أمره بسيط إذ إن خالق الشىء أو صانع الشىء يعلم دقائقه الداخلية والخارجية علما شاملا محيطا.. وهكذا الله الخالق مع خلقه وهى الحقيقة التى يقول فيها القرآن ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤] هكذا بالنسبة للكون وهكذا بالنسبة لكل الكائنات فى الكون بما فيها الإنسان.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطاهرين المطهرين وسلم تسليما.



نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السـيد / محمد ....

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : ....

.... تأليف : ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة



تحريرا فى ٢٤ / ١٠ / ١٤١٨ هـ
الموافق ٢١ / ٢ / ١٩٩٨ م